المنهاج الأسنى

في

شرح أسماء الله الحسنى

١

الحقوق جميعها محفوظة للمؤلف - الطبعة العاشرة ١٤٢٢هـ

الصف والإخراج بقسم الصف بدار بلنسية



دار بلنسية للنشر والتوزيع- المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٥٧٢٤٢ - الرمز البريدي ١١٥٧٤- هاتف وفاكس: ٤٥٤٧٥٤٩(٠١)

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الإله الحق

٢ ٣

الموضوع	الصفحة

الواحد الأحد الوتر

٤ ٥ ٦

الموضوع	الصفحة

الحي القيوم

٧ ٨

الموضــــــــوع	الصفحـــة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

السيد الصمد

١٣ ١٤

العظيم

١٥

الموضوع	الصفحة

الجميل

١٦

الموضوع	الصفحة

الغني الواسع المجيد

١٧ ١٨ ١٩

الموضوع	الصفحة

العلي الأعلى المتعالي

٢٠ ٢١ ٢٢

الموضوع	الصفحة

الكبير المتكبر

٢٣ ٢٤

العزيز

٢٥

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الملك المليك

٣١ ٣٢

الجبار القاهر القهار

٣٣ ٣٤ ٣٥

الموضوع	الصفحة

القادر القدير المقتدر القوي المتين

٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠

الموضوع	الصفحة

المقدم المؤخر

٤١ ٤٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الوهاب المنان الرزاق الرازق المقيت

٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤

الموضــــــــــوع	الصفحــة

الفهـــرس

الموضـــــــوع	الصفحـــة

الكريم الأكرم الجواد المحسن البرّ

٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩

الموضوع	الصفحة

القابض الباسط

٦٠ ٦١

الحكيم

٦٢

الموضوع	الصفحة

السميع البصير

٦٣ ٦٤

الموضوع	الصفحة

المـــوضــــــــوع الصفحـــة

الرقيب الشهيد الحافظ الحفيظ

٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الرحمن الرحيم الرءوف

٧٧ ٧٨ ٧٩

المـــوضـــــــــوع الصفحـــة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحـــة

الحميد الشاكر الشكور الودود

٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨

الموضـــــــــوع	الصفحـــة
* الفرق بين الحمد والشكر .	٦٤٣
* الحمد في السراء والضراء .	٦٤٥
* التسبيح والحمد أحب الكلام إلى الله (عز وجل) .	٦٤٥
* شكر الناس من شكر الله (عز وجل) .	٦٤٦
* محبه الرب لعبده والعبد لربه .	٦٤٧
* علامات هذه المحبه .	٦٤٧
* الأسباب الجالبة لمحبة الله (عز وجل) لعبده .	٦٤٨
* دعاء .	٦٤٩

الولي المولى النصير القريب المجيب

٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الهادي المبين

٩٧ ٩٨

الموضـــــــوع	الصفحـــة

المؤمـــن

٩٩

الموضوع | الصفحة

الغفار الغفور العفو التواب

١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣

الموضـــــــوع	الصفحـــة



تأليف

د. زين محمد شحاتة

أستاذ مشارك بكلية التربية
جامعة الملك سعود

تقديم

الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود

أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الجزء الأول

مكتبة العواصم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] .

قال رسول الله ﷺ :

«إن لله تسعة وتسعين اسمًا ، من أحصاها دخل الجنة»[2] .

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الأستاذ الدكتور
عبدالرحمن المحمود

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وبعد:

فإن من أهم ما يحتاج إليه المسلم في كل زمان - وخاصة في هذا الزمان - تعلم العقيدة الصحيحة على منهاج السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - خاصة مع انتشار البدع القولية والعملية وكثرة الدعاة إليها - لأكثّرهم الله.

ومن نعم الله علينا ما نشاهده في هذه الأيام من حرص على نشر كل ما يتعلق بعقيدة السلف الصالح والرد على المخالفين لها، وقد شمل هذا تحقيق كتب أئمة أهل السنة والجماعة المتقدمين، وردودهم على أهل البدع، سواء كانت كتبًا كبيرة تبلغ مجلدات، أم رسائل صغيرة ذات موضوعات عامة أو خاصة، كما شملت هذه الجهود المباركة تلك الدراسات المتنوعة حول قضايا العقيدة والرد على المخالفين لها التي يقوم بها عدد من الباحثين - ضمن الدراسات الجامعية أو خارجها.

وهذه الجهود المتنوعة إن شاء الله تعالى ينبغي أن تسندها دعوة قوية إلى العقيدة على منهاج السلف الصالح ونشرها في كل مكان، وبشتى الوسائل، وهذه أمانة في أعناق العلماء وطلاب العلم والدعاة إلى الله تعالى، أن ينوعوا وسائل نشر هذه العقيدة: بالتأليف وشرح العقيدة، وبالرد على المناوئين لها من الملاحدة والزنادقة واليهود والنصارى، وأهل البدع، وبالشرح لها عن طريق الدروس العلمية والمحاضرات ووسائل الإعلام، وبنشر الدعاة إلى هذه العقيدة في كل مكان، وبغير ذلك من الوسائل المشروعة.

وعقيدة السلف الصالح - من أعظم ميزاتها - والحمد لله - أنها عقيدة سهلة، مقبولة، مدللة بأدلة الكتاب والسنة، يتبلها جميع الناس على مختلف مستوياتهم، فهي للعلماء وللعامة، وللرجال والنساء، وللكبار والصغار، لأنها بعيده عن كل تكلف أو مناهج وطرائق فلسفية أو كلامية، وهي تقوم على ربط المؤمن بالأدلة الواضحة من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح رحمهم الله جميعًا.

والعقيدة عندما تكون صحيحة وسليمة يك ون لها الأثر العظيم على حياة المؤمن في الدنيا وفي الآخرة، في الدنيا: في حياة صالحة طيبة عمادها توحيد الله الخالص والبراءة من الشر ك وأهله، وما يتبع ذلك من العمل الصالح والبعد عما حرم الله، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، وما ينتج عن ذلك من طمأنينة قلبية وسعادة لا يعرفها إلا أهل الإيمان والاعتقاد الصحيح، ويمتد هذا الأثر الفردي إلى الأسرة والمجتمع الإسلامي كله، فيتحول إلى مجتمع إيماني عابد لله تعالى مطبق لأحكامه، تسوده الأخوة والأمن والإيمان. وفي الآخرة.

- وهو الأهم والأعلى والأغلى - الفوز برضوان الله وجنته والنجاة من أليم عقابه، في يوم هائل عظيم تتقطع فيه الأنساب والأسباب إلا سبب واحد عماده توحيد الله وحده لا شريك له وطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء، آية: ٨٨، ٨٩].

ومسائل العقيدة والإيمان كلها لها الأثر العظيم في حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، بدءاً بأركان الإيمان: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره - إلى آخر مسائل العقيدة وفروعها وتفاصيلها.

ولعل من أهم مسائل الإيمان وأعمقها أثراً ما يتعلق بأسماء الله وصفاته، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وكذا نقول بالنسبة لأثر الإيمان، فكلما شرف العلم كان أثره أكبر وأعظم.

والدراسات المتعلقة بأسماء الله وصفاته على قسمين:

الأول: ما يتعلق بالإيمان بها وإثباتها، وقواعد أئمة السلف في ذلك، والرد على المخالفين من أهل التأويل والتحريف والتعطيل، والتشبيه والتكييف والتفويض.

وهذه - والحمد لله - قد كثرت فيها المؤلفات قديمًا وحديثًا وتنوعت فيها الدراسات المطولة والمختصرة، وكثير منها منشور ومطبوع - ونسأل الله تعالى أن يثبت كل من كان له جهد في ذلك علمي أو عملي أو مادي في نشرها في كل مكان.

الثاني: ما يتعلق بأثر الإيمان بأسماء الله وصفاته على منهاج السلف الصالح في حياة المؤمن خاصة وأمة الإسلام عامة. وهذا أمر مهم جداً له أثره العميق في حياة المؤمن إذ هو الثمرة الحقيقية للإيمان بأسماء الله وصفاته ومعرفتها وتدبر معانيها.

وكثيراً ما كنت أسأل عن هذا الموضوع، وعن كيفية تأثر المؤمن بالإيمان بها، وأهم المراجع المفيدة في ذلك.

وأحب أن أنبه إلى أن الكتب والمؤلفات في هذا الموضوع المتعلق بمعاني أسماء الله وصفاته وشرحها وأثرها تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: ما نهج فيها أصحاب منهج السلف الصالح، فجاء كلامهم بعيداً عن التأويل والتعطيل، والتشبيه ونحو ذلك من مناهج أهل الباطل.

ومن أبرز من كتب في ذلك - وهو ما من باب المثال لا الحصر:

١ ـ ابن القيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتبه وبخاصة نونيته (الكافية الشافية) ومدارج السالكين، ومفتاح دار السعادة. ولابن القيم أسلوبه الخاص في عرض هذه المسائل المتعلقة بأسماء الله وصفاته والإيمان بها وأثرها. فهو متميز في الأمرين السابقين ـ اللذين أشرت إليهما ـ وهما ما يتعلق بإثبات الصفات علىٰ منهاج السلف، وما يتعلق بأثر الإيمان بهذه الأسماء في حياة المؤمن.

٢ ـ الشيخ عبدالرحمن السعدي: في كتبه وخاصة: كتابه [التوضيح والبيان لشجرة الإيمان] وكتابه [الحق الواضح المبين] وفي تفسيره لفئات متنوعة ومفيدة في هذا الباب.

٣ ـ الشيخ محمد بن حمد الحمود في كتابه (النهج الأسمىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ).

وقد تكون هناك رسائل صغيرة، أو مسائل متفرقة في الكتب، لمجموعة من العلماء وطلاب العلم. لم أذكرها لأن غرضي الإشارة إلىٰ أهم ما كتب في الموضوع حسب علمي.

والثاني: ما اختلط فيها الحق بالباطل، ومال فيها أصحابها إلىٰ أنواع من التأويل الباطل الذي أذهب ما قد يكون فيها من حق ـ قد لا يستفيد منه إلا أهل العلم العارفون بمداخل أهل البدع وتأويلاتهم ومن هذه الكتب ـ التي تحوي الغث والسمين: شرح أسماء الله لكل من القشيري، والغزالي والفخر الرازي، وغيرهم.

وقد أطلعني الأخ الدكتور: زين محمد شحاته علىٰ بحث له في هذا الموضوع سماه.

[أسماء الله الحسنى: من القرآن الكريم والحديث الصحيح [معانيها، قبس من آثارها ـ الدعاء بها](١).

---

(١) عندما قُدم هذا العمل لسعادة الأستاذ الدكتور/ عبدالرحمن المحمود لم يكن قد استقر علىٰ تسميته: المنهاج الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ.

حيث وضع مقدمة حول الإيمان بأسماء الله وصفاته أتى بها على طريقة السؤال والجواب، ثم أتبع ذلك بالكلام على أسماء الله الحسنى، وأدلتها، ومعانيها وأثارها.

وقد قرأت مقدمة الكتاب كلها، ونماذج كثيرة من كلامه على أسماء الله الحسنى ومعانيها فألفيته كتابًا مفيدًا جدًا، ويظهر ذلك من خلال أمور عدة:

١ ـ مقدمته الجامعة المفيدة، التي بين فيها بعض قواعد وأصول منهج السلف الصالح في هذا الباب، وقد حوت مسائل نافعة سار فيها الباحث على منهاج السلف الصالح.

٢ ـ اجتهد في جمع الأسماء المتقاربة، سواء في كثرة ورودها واقترانها في الكتاب والسنة أم في تقاربها في المعنى، وكان لذلك أثره الجيد في عدم التكرار.

٣ ـ اعتمد في شرح أسماء الله الحسنى أول ما اعتمد على الكتب الموثقة، وبالأخص ما كتبه ابن القيم، وعبدالرحمن بن السعدي وغيرهما رحمهم الله تعالى.

٤ ـ أضاف إلى الشرح كثيرًا من الآيات والأحاديث والآثار وما جرى للسلف الصالح من قصص مما يتعلق بالمعاني المناسبة لكل اسم من أسماء الله الحسنى.

٥ ـ الاستشهاد فيما يتعلق بعظمة قدرة الله وخلقه وحكمته ورحمته ونحو ذلك مما أورده الباحثون مما يتعلق بعظمة خلق الله تعالى في الكون والأفلاك وفي الأرض وما فيها من مخلوقات، وفي حياة الإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك مما فيه عبرة للمعتبرين، ودليل على عظم الخالق وجليل أسمائه وصفاته وآثارها، واستحقاقه تعالى لأن يعبد وحده لا شريك له.

٦ ـ تركيزه على المعاني الإيمانية لهذه الأسماء وأثرها في حياة المسلم .

وقد بذل الباحث ـ جزاه الله خيراً وأجزل له المثوبة ـ جهداً كبيراً في بحثه وكان حريصًا على تنقيته من كل ما يشوبه من كلام أهل البدع وغيرهم ، وقد وفق في ذلك إلى حد كبير ، وأرجو من كل قارئ لهذا البحث أن ينصح لأخيه فيما قد يجده قد ند من كلمة أو عبارة غير مناسبة ، فالذي أعرفه من الباحث تواضعه ، وحبه لأن يبقى كتابه سليمًا . من الملحوظات : والكمال لله وحده ، وهذه النصيحة لا تختص بهذا الكتاب بل تقال في جميع الكتب التي يؤلفها أصحابها .

وختامًا أقول: إنَّ هذا البحث متميز في موضوعه ولعله يسد فراغًا كثيراً ما كان يطالب بسده طلبةف العلمِ والحريصون على أن يظهر للعلم أثره في حياة الناس ، وأعظم العلم هو العلم بالله وأسمائه وصفاته .

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه ، ورزقنا جميعًا الإخلاص في الأقوال والأعمال .

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

دكتور

عبدالرحمن الصالح المحمود

الجمعة ١٤١٨/١/٢٤هـ

* * *

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أما بعد:

نبتت فكرة هذه الدراسة منذ سبع سنوات. فبدأت بالاطلاع والجمع والتحصيل، واستوت على سوقها منذ عامين فبدأت في كتابة المتن

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: [٧٠-٧١]. (هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه أن يفتتحوا بها أكثر أمورهم، وقد أخرج الحديث النسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد والحاكم وقد توسع الألباني في تخريج الحديث في رسالته خطبة الحاجة).

والحاشية. ثم جاءت الخاتمة في شهر رمضان من هذا العام، وما بين المقدمة والخاتمة عاش المؤلف لحظات إيمانية يعجز عن وصفها اللسان ويقصر عن شرحها البيان، وكيف لا تكون هكذا وهي في رحاب أسماء الله الحسنى: إحصاء، ومعنى، وآثارًا، ودعاءً.

وترجع أهمية الكتابة عن أسماء الله الحسنى إلى أمور كثيرة لعل من أبرزها:

١ ـ إن العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا أشرف العلوم وأجلّها على الإطلاق لأن شرف العلم بشرف المعلوم، والمعلوم في هذا العلم هو الله (سبحانه وتعالى) بأسمائه وصفاته: فالاشتغال بهذا العلم اشتغال بأعلى المطالب وأجلها، وأشرف العلوم وأفضلها.

٢ ـ إنَّ معرفة الله (عز وجل) بأسمائه وصفاته أصل الإيمان وبها يزيد. قال الشيخ عبدالرحمن السعدي (رحمه الله): «إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي رَوح الإيمان وروحه، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه»(١).

٣ ـ إن العلم بأسماء الله الحسنى أصل للعلم بكل معلوم، كما يقول ابن القيم يرحمه الله: «إن العلم بأسماء الله الحسنى أصل للعلم بكل معلوم؛ فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا؛ إما علم بما كونّه، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه وإحصاء الأسماء الحسنى، أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها»(٢).

---

(١) عبدالرحمن السعدي، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان/ ٤١.

(٢) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج١، ص١٦٣.

٤ ـ إن كثيراً من الكتابات التي شرحت أسماء الله الحسنى فيها الكثير من المخالفة[١] لمذهب أهل السنة والجماعة سواء في إحصاء الأسماء أم في شرحها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والكلام في تفسير أسماء الله وصفاته، وكلامه فيه من الغث والسمين ما لا يحصيه إلا رب العالمين»[٢].

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة عن الأسماء الحسنى على منهج أهل السنة والجماعة. مستفيدة من جهود السابقين في هذا الموضوع كابن تيمية وابن القيم وعبدالرحمن السعدي (رحمه الله)، فبدأت بإحصاء الأسماء من خلال القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح في ضوء ضوابط محددة[٣] ثم شرحت هذه الأسماء بأسلوب سهل واضح تيسيراً على القارئ، وأعقبت ذلك سرد بعض آثار هذه الأسماء في الكون والحياة، ثم جاء مسك الختام فذكرت كيفية الدعاء بهذه الأسماء: دعاء تعبد وثناء، ودعاء طلب ومسألة[٤]. وقد حرص المؤلف أن يكون الدعاء مما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لأن أفضل الدعاء ما ورد فيهما.

وقد رتبت الأسماء في هذا الكتاب بصورة عامة[٥] فجعلت الأسماء التي تبرز فيها الإشارة إلى «ذات» الله (عزّ وجلّ) أولاً مثل: الله، الإله،

---

(١) لمعرفة كثير من هذه المخالفات انظر: عبدالله الغصن، في بحثه القيم عن أسماء الله الحسنى، حيث قوم ما كتبه (الزجاج، والخطابي، والبيهقي، والقشيري، والغزالي، والرازي، والشرباصي) عن أسماء الله الحسنى في ضوء منهج أهل السنة والجماعة.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٦، ص٣٨٨.

(٣) مكذوره بعد هذه المقدمة في القواعد المثلى لمعرفة أسماء الله الحسنى.

(٤) على حد علم المؤلف لا توجد دراسة سابقة عنيت باستخراج أسماء الله الحسنى من القرآن والحديث النبوي الصحيح ثم شرحها بمثل هذا الشمول.

(٥) هذا الترتيب اجتهادي. واعتمد على أبرز معاني الاسم.

الحق، الواحد، الأحد الوتر، الحي القيوم. السبوح، القدوس، الطيب، السلام، السيد، الصمد، العظيم الجميل الواسع الغني المجيد، العلي، الأعلىٰ، المتعالىٰ، الكبير، المتكبر، العزيز، الأول ، الآخر، الظاهر، الباطن، الوارث.

ثم الأسماء التي تشير إلىٰ الملك والقدرة: الملك، الملكي، الجبار، القاهر، القهار، القادر، القدير، المقتدر، القوي، المتين، المقدم، المؤخر، الحكم، الفتاح، الديان.

ثم الأسماء التي تشير إلىٰ الإيجاد والإمداد: الخالق، الخلاق، البارئ، المصور، الحكيم، الوهاب، المنان، الرزاق، الرازق، المقيت، الكريم ، الأكرم، الجواد المحسن، البر، القابض، الباسط.

ثم الأسماء التي تشير إلىٰ العلم والإحاطة: السميع، البصير، العالم، العليم، الخبير، الرقيب، الشهيد، الحافظ، الحفيظ، المهيمن، المحيط.

ثم الأسماء التي تشير إلىٰ الرفق والرحمة والهداية والمغفرة: الرب، الرفيق، اللطيف، الرحمن، الرحيم، الرءوف، الشافي، الطبيب، الحليم، الحيِّي، السِّتير، الحميد، الشاكر، الشكور، الودود، الولي، المولىٰ، النصير، القريب، المجيب، الحاسب، الحسيب، الوكيل، الهادي، المبين، المؤمن، الغفار، الغفور، العفو، التواب.

أما في تناول الأسماء فقد جمعت بين الأسماء متصلة المعنىٰ أو التي وردت مقترنة في القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح تيسيراً علىٰ القارئ، ولتسهل المقارنة بين معانيها مثل: (الواحد الأحد الوتر)، (الحي القيوم)، (السبوح القدوس)، (الطيب السلام)، (العلي الأعلىٰ المتعالىٰ)، (الكبير المتكبر)، (الأول الآخر الظاهر الباطن)، (القادر القدير المقتدر القوي المتين)، (السميع البصير) وهكذا. . .

وقد خرجّت الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب، فما رواه البخاري ومسلم ذكرت كتابه وبابه، وربما أشرت إلى جزئه ورقمه (البخاري مع الفتح، مسلم بشرح النووي)، وما رواه غيرهما عينت بإخراجه وبيان تصحيحه مع الإشارة إلى مصدره، وحاولت جهدي أن لا يتضمن الكتاب حديثًا ضعيفًا.

هذا، وإن أول الشكر وآخره لولي الحمد ومستحقه، ذي الفضل العظيم والمنن الوفيرة، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، فله سبحانه وتعالى الحمد كله، وله سبحانه وتعالى الشكر كله لا منتهى لحده، ولا حد لمنتهاه.

وبعد شكر الله عز وجل، أرى لزامًا علي أن أزجي الشكر إلى كل من أعانني على إتمام هذا العمل.

وأخصّ بالشكر والدتي التي يلهج لسانُها دائمًا لي بالدعاء، وزوجتي التي تحملت معي كثيراً من العناء، وأستاذي الدكتور/ محمد الأحمدي أبو النور - وزير الأوقاف السابق - على تشجيعه المستمر لي للانتهاء من هذا العمل، كما أخص بالشكر الأستاذ الدكتور/ عبدالرحمن بن صالح المحمود أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض حيث أعطاني من وقته الكثير في إيضاح كثير من المسائل، وفي تقديمه لهذا العمل فله شكري الجزيل على تعبه ودماثة خلقه، وجزاه الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.

واستغفر الله (عزّ وجلّ) من الزلل والخطأ والتقصير. فلا داعي أني وفيت هذا الموضوع حقه. فهذا أمر لا تستطيعه كل المخلوقات. وقد قال الرسول ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[١] فلا

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٥٢).

يحصي ثناء على الله إلا الله (سبحانه وتعالى).

وحسبي أني قصدت وسعيت، وما كان في هذا العمل من صواب فمن الله وحده، وله الفضل والحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، واستغفر الله منه.

وأعوذ بالله ممن قصر في العلم والدين باعه. وطالت في الجهل وأذى العباد ذراعه. قد جعل الملامة بضاعة والعذل نصيحته، كما أعوذ بالله من عدو في صورة ناصح وولي في مسلاخ بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذراً وإشفاقًا، وتنفيره، وتخذيله إسعافًا وإرفاقًا.

وختامًا ادعو مع العبد الصالح: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم مقربًا لجامعه ومقدمه وقارئه، وناشره من جنات النعيم إنه خير مسؤول وأكرم مأمول.

اللهم لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك، وأنت حسبي ونعم الوكيل.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور/ زين محمد شحاته

الرياض ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

العنوان في مصر

[جمهورية مصر العربية ـ محافظة المنيا ـ كلية التربية]

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٥.



أولاً:

القواعدُ المثلى لمعرفةِ أسماءِ الله الحُسنى

القواعد المثلى لمعرفة أسماء الله الحسنى

هناك قواعد أساسية ينبغي أن تراعى لمعرفة أسماء الله الحسنى وشرحها وهذه القواعد منبثقة من فهم السلف الصالح لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١). وغيرها من الآيات التي تحدثت عن الأسماء والصفات، وقد ربتُ هذه القواعد وعرضتُها في صورة أسئلة وأجوبة تقريباً للمعنى وتيسيراً للقارئ:

س ١: ما المقصود بالحسنى في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾؟

جـ - أسماءُ الله (عزّ وجلّ) حسنى أي بالغة الحسن، لأنها تضمنت صفات الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه لا احتمالاً ولا تقديراً ذلك أنها كلها ثناء ومدح وتمجيد للرب جل وعلا فأسماء الله (عزّ وجل) أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها.

ومن حسنها، ودلالتها على صفات الكمال، أنه ليس فيها اسم من الأسماء يحتوي على الشر.

فليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر، إنما يدخل الشر في مفعولاته. فالشر ليس إليه (سبحانه)، أي لا يضاف إلي فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته وفرق بين الفعل والمفعول. فالشر قائم بمفعوله المباين لا بفعله الذي هو فعله(٢).

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.

(٢) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج١، ص١٦٤.

فله سبحانه وتعالىٰ أحسن الأسماء وأكملها وأتمها معنىٰ وأبعدها وأنزهها عن شائبة عيب أو نقص. فهو (سبحانه) العليم الخبير دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع الباصر الناظر، وهو الرحيم الودود دون الشفوق. وهو الكريم دون السخي. والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل. وكذلك سائر أسمائه تعالىٰ يجرىٰ علىٰ نفسه منها أكملها وأحسنها(١).

ومن حسنها: ما فيها من معنىٰ التعظيم والإجلال والإكبار لله - سبحانه وتعالىٰ - ولما وعد الله سبحانه وتعالىٰ - لمحصيها من الأجر والثواب العظيم وهو دخول الجنة، للحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول ﷺ: « **إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة**»(٢).

ومن تمام كونها حسنىٰ: الدعاء بها، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾(٣) وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعىٰ في كل مطلوب، بما يناسب ذلك المطلوب(٤).

والحسن في أسماء الله يكون باعتبار كل اسم علىٰ انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلىٰ غيره، فيحصل بجمع الاسم إلىٰ الآخر كمال فوق كمال.

مثال ذلك« العزيز الحكيم» فإن الله تعالىٰ يجمع بينهما في القرآن الكريم كثيراً. فيكون كل منهما دالاً علىٰ الكمال الخاص الذي يقتضيه

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، ومسلم ابن عثيمين في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٣) سورة الأعراف آية ١٨٠

(٤) محمد الصالح بن عثيمين، مرجع سابق، ص(٧-٨).

وهو العزة في العزيزوالحكم والحكمه في الحكيم والجمع بينهما دال على كمال آخر وهو أن عزته تعالي مقرونة بالحكمة فعزته لا تقتضى ظلماً وجوراً وسوء فعل كما قد يكون من أعزاء المخلوقين فإنَّ العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسيءُ التصرف . وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعزّ الكامل بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنه يعتريهما الذل(٤) .

س٢ : ما الفرق بين أسماء الله الحسنى، وصفاته؟

جـ ٢ : إن كل اسم من أسمائه الحسنى يتضمن صفة، ولا تتنافى اسميته مع وصفيته، فكل اسم صفة، وليس كل صفة اسم ؛ لأن بعض الصفات لا يشتق منها أسماء : كبعض الصفات الذاتيه ـ مثلاً ـ كاليد، والعين فلا يؤخذ منها أسماء(١) .

قال ابن القيم : « أسماء الله تعالى هى أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافى فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، لا تنافى اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جري تابعاً على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القران غير تابع بل ورد الاسم العلم»(٢) .

وقد سئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء عن الفرق ين الاسم والصفة، فأجابت بما نصه : « الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، وبعد : أسماء الله كل ما دلّ على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به، مثل القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير، فإن هذه الأسماء دلت على ذات الله،

---

(١) عبد الغصن، أسماء الحسنى، ص ١٣٩ .

(٢) ابن القّيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ج١، ص ٢٤، ص ١٦٢ .

وعلي ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر .

أما الصفات ؛ فهي نعوت الكمال القائمة بالذات كالعلم والحكمه والسمع والبصر .

فالاسم دل على أمرين ، والصفة دلت على أمرٍ واحدٍ

ويقال : الاسم متضمن للصفة ، والصفة مستلزمة للاسم . . . إلخ[١] .

س ٣ ما الفرق بين أسماء الله الحسنى والإخبار عن الله (سبحانه وتعالى)؟

ج ٣ إن هناك فروقاً بين الاسم والخبر عن الله (سبحانه وتعالى) أهمها ما يلي :

(أ) إنَّ أسماء الله توقيفيةٌ ، فلا يسمى الله إلا بما سمى به نفسه في كتابه ، أو سماه به رسوله ﷺ أما الخبر فهو أوسع من الاسم ، فلا يلزم أن يكون توقيفياً إذا الله تيج إليه ، مثل أن ينكر أحد أولية الله وأزليته ، فيقول : ليس بقديم ، أو أن ينكر وجود الله ؛ فيقول : ليس بموجود ، أو مثل ذلك ، فإنه يجاب عنه : بأن الله قديمٌ وموجودٌ .

قال ابن القيم (رحمه الله) : « إن ما يطلق عليه - أي على الله - في باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يطلق عليه من الإخبار لا يجب أن يكون توقيفياً ، كالقديم والشيء الموجود والقائم بنفسه »[٢] .

٢- إن أسماء الله حسنى كاملة الحسن ، فهي تحمل الحسن المطلق - أما

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء ، جمع وترتيب أحمد الدويش ٣/ ١١٦ فتوى رقم ٨٩٤٢ ، وانظر ابن تيميه ، مجموع الفتاوى ج٩ ، ص ٣٠١ .

(٢) ابن القيم الجوزيه ، بدائع الفوائد ، ح١ ، ص ١٦٢ .

الخبر عن الله فلا يكون باسم سيئ، ولا يلزم أن يكون كامل الحسن، قال شيخ الإسلام ابن تيميه: «. . وأما الإخبار عنه ـ أي عن الله ـ فلا يكون باسم سيئ، ولكن قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيئ، وإن لم يحكم بحسنه، مثل: شيء، وذات، وموجود. . »[1].

٣ـ إنّ أسماء الله الحسنى يدعى بها، أما الخبر عن الله (عزّ وجلّ) فإنه لا يدعى به، فيقال في الدعاء: يا حي، يا قيوم، لا يقال: يا ذات، يا شيء، لأن هذا لفظ يعم كل موجود[2].

والألفاظ عن الله في هذا الباب أقسام: [3].

(أ) إما أن تكون كمالاً مطلقاً لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ لا الله تمالاً ولا تقديراً، فهو كامل في ذاته، وفي موضوعه ومتعلقه، فهذا يسمى الله به، ويوصف به، مثل السميع، والبصير، ومنهما السمع والبصر.

(ب) وإما أن تدل على كمال في ذات اللفظ، لا في موضوعه ومتعلقه لأنَّ الموضوع والمتعلق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، فيحتمل النقص بالتقدير، فهذا لا يسمى الله به ولا يوصف به، لكن يُخبر به عنه؛ لأن باب الأخبار أوسعُ من باب الأسماء والصفات، مثل: المتكلم، والشائي، والمريد، فالكلام منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم فقد يتكلم المتكلم بما حرّم الله، وقد يريد مالا يريد الله منه شرعاً.

(جـ) وإما أن تكون دالة على الكمال والنقص في ذاتها؛ فهي

---

(١) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ج٦، ص ١٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٢، ص ١٤٣.

(٣) انظر: عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص ١٤٢.

تحتمل الكمال والنقص في معناها نفسه، فهذا لا يطلق على الله، إنما يذكر مقيداً، مثل: المكر، الخداع، الانتقام، الاستهزاء، الكيد.. إلخ.

فلا يقال: الله مستهزئ على سبيل الإطلاق؛ لأن الاستهزاء في ذاته منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، فلا يذكر إلا مقيداً، فيقال: الله يستهزئ بمن يستهزئ به.

قال ابن القيم (رحمه الله): «وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل اسماً وبلغ بأسمائه زيادة على الألف لأن باب الأخبار عنه أوسع من تسميته فإنه يخبر عنه بأنه شيء، وموجود، ومراد ولا يسمى بذلك»(١).

ويقول في موضع آخر: «لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيداً أن يشق له منه اسم مطلق كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من أسمائه المضل الفاتن الماكر تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق على الله منها إلا أفعال مخصوصه معينه فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة»(٢).

س ٤ هل نصوص أسماء الله الحسنى محكمة أم متشابهة؟

جـ٤: المحكم هو البيّنّ الواضح الذي لا يحتاج في معناه إلى غيره، وذلك لوضوحه. أما المتشابه فهو مالا سبيل إلى إدراك حقيقته وكنهه، وهو ما تفرد الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من البشر، كأمر الروح، والساعة، وحقائق وكيفيات صفات الله تعالى، وسائر الأمور

---

(١) ابن قيم الجوزيه، مدارج السالكين، ج٣، ص ٤١٥.
(٢) ابن قيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ج١، ص ١٦٢.

الغيبيه[١].

ونصوص الأسماء الحسنى من النصوص المحكمة أيّما إحكام، بل هي من أحكم المحكمات، فمعانيها واضحة، ومن له علم بالعربيه يستطيع التفريق بين اسم واسم، فنفهم من اسم (الرحمن) غير ما نفهمه من اسم (العزيز) ، ونفهم من اسم (الغفور) غير ما نفهمه من اسم (الجبار). . وهكذا ، وكذلك فإنَّ من إحكام الأسماء الحسنى تضمنها صفات الكمال، وأنها ليست أعلاماً مجردةً، فنعلم أن اسم الله (الحكيم)متضمن للحكمة الكاملة، وأن اسم الله العزيزمتضمن للعزة الكاملة. وبهذا يتبين أن أسماء الله محكمة[٢].

وأما ما تضمنته الأسماء من الصفات ففيه تفصيل:

فإذا أريد معنى الصفة، فإنه ـ أيضاً ـ محكم ـ وليس بمتشابه، لأننا نفهم القدر المشترك بين الصفتين(أي صفة الخالق وصفة المخلوق) من حيث اللفظ، والحرف، والرسم، والمعنى العام الذي يجعلنا نفهم معنى الخطاب.

وأما إذا أريد حقائق الصفات وكيفياتها، فهذا من المتشابه الحقيقي الذي لا يعلم معناه إلا الله عزّ وجلّ، فلا يعلمه من البشر أحدٌ[٣].

س٥ هل أسماءُ الله الحسنى محصورة بعدد معين؟

أسماء الله الحسنى غير محصورة بعدد معين، ولم يرد في النصوص الصحيحة ما يدل على حصرها بعدد معين.

---

(١) عبدا الغصن، مرجع سابق، ص ٧٥، ص ٨٦.
(٢) انظر: النهج الأسمى في شرح الله الحسنى للحمود(١/ ٤٣) وانظر: عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص ٧٨.
(٣) انظر: ابن تيميه، الإكليل في المتشابه والتأويل، ص ٣٢.

وأما حديث : «**إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**»(١) .

فليس فيه ما يدل على حصر الأسماء بالعدد المذكور، قال الإمام النووي (رحمه الله) : « اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى، فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء»(٢) .

فجملة « من أحصاها» مكملة للجملة الأولى، وليست استثنائية منفصلة، ونظير هذا قول العرب : إن لزيد ألف درهم أعدّها للصدقة، وهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من ألف درهم، وإنما دلالته أن الذي أعده زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم(٣) .

والذي يدل على صحة هذا، الحديثُ الذي رواه عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال : « **ما أصاب أحداً قط همٌ ولا حزن، فقال : اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني ، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدل مكانه فرحاً**»(٤) .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات، ومسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء.

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، (١٧/ ٥).

(٣) الخطابي، شأن الدعاء، ص ٢٤ .

(٤) أخرجه أحمد والحاكم، وابن حبان في صحيحه، وانظر سلسله الأحاديث الصحيحه، حديث رقم (١٩٩).

فالذي استأثر به في علم الغيب عنده لا نعلم ما هو، ولا كم هو، ففيه دلالة على أن أسماء الله الحسنى غير محصورة.

س٦ هل ورد حديث صحيح في تعيين التسعة والتسعين اسماً؟

لم يثبت حديثٌ صحيح في تعين التسعة والتسعين اسماً، وأصح رواية سردت الأسماء هي رواية الوليد بن مسلم التي رواها الترمذي وغيره، وسرد الأسماء فيها ضعيف، وفي الكتاب والسنة أسماء لله لم ترد في هذه الرواية، مثل اسم(الرب)، (المنان)، (الوتر)، (السبوح)، (الشافي)، (الجميل)، (القريب)، (المبين)، (الأحد)، (المليك)، (الجواد)، (الخلّاق)، (الدّيان)، (الرّازق)، (الرفيق)، (السيد)، (القاهر)، (الشاكر)، (الأعلى)، (القدير)، (المحيط)، (الأكرم)، (الإله)، (النصير)، (المولى)، (الحييّ)، (المحسن).

كما أن في هذه الرواية أسماء لم ترد بصيغة الاسم في القرآن والسنة مثال:

(الخافض)، (الرافع)، (المعز)، (المذل)، (العدل)، (الجليل)، (الباعث)، (المحصي)، (المبدئ)، (المعيد)، (المميت)، (الوالي)، (المقسط)، (المغني)، (المانع)، (الضار)، (النافع)، (الرشيد)، (الصبور).

فلم يرد حديث صحيح في تعين الأسماء التسعة والتسعين، وغاية ما هنالك من سرد الأسماء، إنما هو اجتهادات بعض العلماء، التي يندرج فيها الصواب والخطأ، وفي عدم تعيينها حكمة بالغة، وهي أن يتطلبها الناس ويتحرونها في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، حتى

يحرص العباد ويجتهدوا في عبادة الله بجميع ما يعرفون من الأسماء الحسنى[١].

فرواية الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبى حمزه في سرد الأسماء رواية ضعيفة، كما علّق الألبانى على كلام الترمذى: هذا حديث غريب[٢]. فعلّق عليه الألبانى، وقال أى ضعيف[٣].

والحديث من جهة متنه فيه أمور قادحة - غير ما في السند من تفرد الوليد بن مسلم - بينها ابن حجر العسقلانى في الفتح، فقال راداً على الحاكم، في تعليل عدم إخراج البخارى ومسلم لرواية سرد الأسماء بأنه لتفرد الوليد بن مسلم فقط، فقال: «وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه، والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج»[٤].

فالعلة ليست في السند فقط، بتفرد الوليد أو تدليسه، بل هناك علل أخرى في المتن أيضاً، من الاختلاف، والاضطراب، واحتمال الإدراج وغيرها.

[١] أما الاختلاف بين الروايات والاضطراب بينها، فهذا حاصل بين الطرق الثلاثة التى ورد فيها سرد الأسماء، فلم تتفق روايتان على سرد موحد للأسماء لا اختلاف بينها[٥].

---

(١) انظر: المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن العثيمين(٢/ ٦٩).

(٢) جامع الترمذي (٥/ ١٩٣).

(٣) انظر مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، بتحقيق الألباني (١/ ٧٠٢).

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ح١١، ص٢١٥.

(٢) الروايات الثلاث التي سردت الأسماء هي: رواية الوليد بن مسلم، ورواية عبد العزيز بن الحصين، ورواية عبد الملك الصنعاني.

وكذلك فإن الروايات عن الوليد بن مسلم - أيضاً - بينها اختلاف واضطراب - فالرواية المشهورة عن الوليد بن مسلم، والتي عولّ عليها غالب من شرح الأسماء الحسنى، وهى التى أخرجها الترمذى في جامعه، قد خالفتها رواية أخري أخرجها الطبراني عن أبي زرعة الدمشقى عن صفوان بن صالح عن الوليد ابن مسلم نفسه.

ففي رواية الطبراني مخالفة لعدة أسماء منها: (القائم، الدائم) بدل (القابض، الباسط)، و(الشديد) بدل (الرشيد) و (الأعلى، المحيط، مالك يوم الدين) بدل (الودود الحكيم المجيد).

وكذلك وقع عند ابن حبان عن الحسن بن سفيان عن صفوان بن صالح عن الوليد: (الرافع) بدل (المانع).

ووقع في صحيح ابن خزيمة في رواية صفوان أيضاً مخالفة في بعض الأسماء قال: (الحاكم) بدل (الحكيم)، و(القريب) بدل(الرقيب)، و(المولى) بدل (الوالى)، و(الأحد) بدل (المغنى).

ووقع في رواية البيهقى وابن منده من طريق موسى بن أيوب النصيبى عن الوليد(المغيث) بدل(المقيت).

وأما رواية الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد التميمى، فقد وقَع فيها مخالفة في ثلاثة وعشرين اسماً[1].

فيتضح من الروايات التي وردت عن الوليد بن مسلم في سرد

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢١٦)، والمقصد الأسنى في بيان ضعف سرد الأسماء الحسنى لمحمد اللحيدان، وعبد الله الغصن، مرجع سابق، ص(١٦٥-١٦٩).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٢٦٩.

الأسماء وجود الاضطراب والاختلاف بينها. وهذا مما يبين أن سرد الأسماء ليس من كلام النبي ﷺ ويعضدّ هذا، وورود الحديث: «**لله تسعة وتسعين اسماً**».. عن الوليد بن مسلم ولكن بدون سرد الأسماء، وكذلك ورود الحديث بدون سرد الأسماء عن غيره، وبالطريق الذي روى به الوليد بن مسلم وقد روى عن بعض السلف أنهم حاولوا استخراج الأسماء الحسنى من القرآن الكريم مثل جعفر بن محمدوسفيان بن عيينه وأبو زيد اللغوي(١).

فلو ثبت أن الرسول ﷺ هو الذي سرد الأسماء الحسنى، لما اجتهد بعض السلف في إخراجها من النصوص وهم يعلمون أن الرسول ﷺ، قد عدها في الحديث.

وقد كثرت أقوال العلماء التى تبين أن سرد الأسماء ليس من كلام النبي ﷺ ومن هذه الأقوال:

١ - قال الداودي - رحمه الله -: «لم يثبت أن النبي ﷺ عيّن الأسماء»(٢).

٢ - قال البيهقي - رحمه الله - في حديثه عن رواية عبد العزيز بن الحصين يحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة، وكذلك في حديث الوليد بن مسلم (٣).

٣- قال شيخ الإسلام بن تيمية - رحمه الله -: «والحديث الذي في عدّ الأسماء الحسنى.. ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام

---

(٢)ابن حجر، فتح الباري، ج١، ص ٢١٧.
(٣) البيهقي، الأسماء والصفات، ج١، ص٣٢.
(١) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ج٨، ص ٩٦.

النبي ﷺ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز، أو عن بعض شيوخه»(١).

وقال أيضاً في موضع آخر: «إن التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي ﷺ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن شعيب عن أبي حمزة، وحفاظ أهل الحديث، يقولون هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث . . . وفيها حديث ثان أضعف من هذا، رواه ابن ماجه»(٢).

٤ـ قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث (أي حديث الوليد بن مسلم) مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي أنهم جمعوها من القرآن. . »(٣).

٥ـ وأثبت ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ أن سرد الأسماء مدرج، واستدل على ذلك باختلاف الروايات، وقال أيضاً ـ والتحقيق أن سردها إدراج من الرواة، وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ(٤).

٦ـ ويرى ابن الوزير ـ رحمه الله ـ عدم صحة جميع الروايات التي سردت الأسماء الحسنى، بما فيها رواية الوليد بن مسلم، وأن من

---

(٢) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ج٢٢، ص ٤٨٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٦٩.

(٤) انظر: ابن حجر، بلوغ المرام، ص ٣٤٦، حديث ١٣٩٦، وفتح الباري، ج١١، ص ٢١٧.

(١) ابن الوزير، العواصم من القواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ج٧، ص ٢٠١،

صحح هذه الروايات، أو بعضها، فهو متساهل في التصحيح[1].

٧- وعلّق الصنعاني - رحمه الله - على كلام ابن حجر قائلاً: «اتفق الحفاظ من أئمة الحديث أن سردها إدراج من بعض الرواة»[2].

٨- وقال الشيخ محمد بن الصالح بن عثيمين - حفظه الله -: «ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء. والحديث المروي عنه في تعيينها ضعيف»[3].

٩- وضعف الشيخ محمد ناصر الألباني - حفظه الله - حديث الوليد بن مسلم الذي هو أقرب الطرق إلى الصحة[4].

١٠- ويعضد ما سبق ورود أسماء شاذة في روايات سرد الأسماء، لا يصح أن تكون من أسماء الله الحسنى، إما لأنها ليست كاملة الحسن، وإما لعدم ورودها بصيغة الاسم وقد نقل ابن حجر عن ابن عطيه - رحمه الله - قوله -: «حديث الترمذي ليس بالمتواتر، وفي بعض الأسماء التي فيه شذوذ»[5].

ومثال ذلك اسم المنتقم فقد ورد في رواية سرد الأسماء وهو لا يحمل معنى الكمال المطلق، وقد ورد في القرآن الكريم مقيداً قال تعالى: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[6].

وما ورد مقيداً من الأسماء في القرآن الكريم أو السنة، لا يكون

ص٢٠٧.

(٢) الصنعاني، سبل السلام، ح٤، ص ١٠٨.

(٣) محمد صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص١٤.

(٤) ضعيف الجامع للألباني، (٢/ ١٧٨)، حديث ١٩٤٣.

(٥) ابن حجر، التلخيص الحبير، ح٤، ص ١٩٠.

(٦) سورة السجدة آية ٢٢.

(١) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ح٨، ص ٩٦.

اسماً بهذا الورود.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه : « اسم (المنتقم) ليس من أسماء الله الحسنى الثابته عن النبي ﷺ »[١].

وكذلك أسماء الرشيد، الصبور، المحصى، المعيد، المعز، المذل، كلها لم ترد بصيغه الاسم.

يتضح مما سبق أنه لم يرد عن النبي ﷺ حديث صحيح يحتج به في سرد الأسماء، وكل الطرق والروايات التى رويت في هذا فهي ضعيفة؛ إما من جهة السند؛ أو من جهة المتن أو من كليهما[٢].

ولمعرفة أسماء الله الحسنى يُرجع إلى القرآن الكرم والسنة النبوية الشريفه الصحيحه، وتستخرج هذه الأسماء في ضوء ضوابطٍ محددةٍ[٣].

س٧ هل تتفاضل الأسماء الحسنى؟

يرى أهل السنة والجماعة أن الأسماء الحسنى تتفاضل[٤]، ومسألة تفاضل الأسماء مبنية على مسألة أخرى، وهى مسألة تفاضل كلام الله بعضه على بعض. وقد اختلف الناس في هذا على قولين[٥].

القول الأول: إن بعض القرآن أفضل من بعض، وبعض الأسماء أفضل من بعض، وهذا قول الصحابه، والتابعين، وأهل الحديث،

---

(٢) للاستزاده انظر: عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص ١٤٩، ص١٧٣.

(٣) انظر القاعده الأخيرة من هذه القواعد.

(٤) القول بأن من أسماء الله ما هو فاضل، لا يعنى أن غيرها مفضول، بل يعنى بأن كل اسماء الله فاضله ولكن بعضها يفضل بعضاً.

(٥) انظر، عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص٨٥.

(١) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ح١٧، ص ٥٠، ص ٥٧.

وبعض اتباع الأئمة من المالكية والشافعية والحنابلة لأنه مقتضى ما جاءت به النصوص والآثار .

قال شيخ الإسلام ابن تيميه : « وقد دلت الأخبار على شرف بعضه على بعض فقال : « فاتحة الكتاب أفضل سورة القرآن» وقال : «آية الكرسي سيدة أي القرآن»وقال : « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن» والنصوص الواردة في فضائل قوارع القرآن ، وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل . وكثرة الثواب في تلاوتها لا تحصى .

وفي الجملة : فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة »(١) .

والقول الثاني : إن القرآن لا يفضل بعضه بعضاً ، وكذلك الأسماء الحسنى . وهو قول الأشاعرة ومن تبعهم ، وهو قول أكثر الأصوليين من المتكلمين ، وقول بعض الفقهاء والمفسرين ، وهؤلاء ظنوا أن القول بتفاضل كلام الله بعضه على بعض ، إنما يكون على قول المعتزله ؛ لأن القول بالتفاضل عندهم ـ مستلزم لكون القرآن مخلوقاً .

والقول الأول هو ما عليه سائر السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم ـ وهو القول بتفاضل كلام الله الذي منه الأسماء الحسنى ـ وهو القول الصحيح .

فالايات التي تشمل على تعديد أسماء الله الحسنى ، وبيان صفاته ، والدلاله على عظمته وقدسيته ، أفضل من غيرها ، بمعنى أن مخبراتها أسنى وأجل قدراً . . وكذلك النصوص التي تدل على أنّ بعض أسماء

---

(١) ابن القيم الجوزيه ، بدائع الفوائد ، ج١ ، ص ١٦٨ .

الله أفضل من بعض ومن ذلك النصوص التي وردت فيها الأسماء بصيغة التفضيل « الأعلى»«الأكرم» وصيغة المبالغة «القهار» «الغفار» «الغفور» «الحسيب» «الحفيظ» «العليم» فهذه الأسماء أفضل من الأسماء التي وردت بصيغة اسم الفاعل مثل: القاهر، الحاسب، الحافظ، العالم. لأنها أبلغ في الثناء على الرب.

وهناك بعض الأسماء تدل على جملة من الأوصاف لا تختص بصفة معينة مثل: اسم الله (المجيد)و (العظيم)و (الصمد) وغيرها؛ فإن معانيها: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال[1]، فهذه الأسماء أفضل من الأسماء التي لا تحمل إلا صفة واحدة ومعنى واحداً؛ لأنها أبلغ في الثناء على الله عز وجل.

ومن أسماء الله الفاضلة لفظ الجلاله(الله) ؛ فإنه دال على جميع الأسماء الحسنى، مستلزم لجميع معانيها، فالأسماء الحسنى تفصيل وتبيين للصفات الإلهية، التي يشير إليها اسم(الله)

ومن أسماء الله الفاضله اسما (الحي القيوم) فإنهما يجمعان أصل معاني الأسماء والصفات[2].

وإذا ثبت تفاضل الأسماء الحسنى فما الاسم الأعظم؟

س٨: مالاسم الأعظم؟

وردت أربعة أحاديث صحيحة تبين وتثبت الاسم الأعظم لله (عز وجل) الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب. وهذه الأحاديث هي:

---

(٢) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، ح٤، ص ٢٠٤.

(١) إسناده صحيح، أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب (٦٥) حديث

١ـ حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : «**اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال : « لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب» وفي روايه فقال: «والذى نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى**»(١) .

٢ـ حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت جالساً مع النبيي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ : «**دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى**»(٢) .

٣ـ حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « **اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: في البقرة، وآ ل عمران، وطه**»(٣) .

(٣٥٤٢) كما أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء (١/ ٥٠٤)، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرط مسلم، وقال الحافظ بن حجر عن هذا الحديث: هو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك (فتح الباري/ ج١١ ، ص٢٢٥).

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب السهو، باب: (الدعاء بعد الذكر(٣/ ٥٢)، كما أخرجه أبو داود في سننه وأحمد في مسنده وذكر اسم (الحنان)، وابن حبان، والحاكم في مستدركه(١/ ٥٠٣)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، حديث (٣٨٥٦) والحاكم في مستدركه كتاب (الدعاء ١/ ٥٠٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٦٣) وصححه الألباني، في السلسله الصحيحة حديث رقم ٧٤٦.

(١) أخرج الحديث أصحاب السنن إلا النسائي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم

٤ـ حديث أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : « **اسم الله العظيم في هاتين الآيتين. والهكم إلهٌ واحـدٌ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**» وفـاتحـة آل عـمـران : آلـم . الله لا إله إلا هـو الحى القيوم[1] .

ويلاحظ أن الاسم الذي تكرر في الأحاديث السابقة هو (الله) فقد ورد في الحديث الأول والرابع ، وورد في الحديث الثانى بصيغة «اللهم» والأصل (يالله) فلما حذفوا الياء زادوا الميم في آخره .

وفى الحديث الثالث تكرر لفظ الجلالة (الله) في هذه السور الثلاثه كثيراً . وفيها كلها« الله لا إله إلا هو» ففي سورة البقرة : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾[2] . وفي سورة آل عمران : ﴿ **الٓمٓ ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾[3] . وفى سورة طه : ﴿ **وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾[4] .

ولا يعارض ذلك ما ورد عن راوى حديث أبى أمامه السابق قوله فالتمستها فوجدت أنها (الحى القيوم) . لأن استخراج اسمى (الحى القيوم) ليس من قول النبي ﷺ بل من استخراجه هو ، وقد بين الإمام الطحاوي خطأ استخراج الراوي لاسمي (الحي القيوم) ، فقد رجع الرواي في سورة طه إلى قوله تعالى« **وعنت الوجوه للحي القيوم**» وقال الطحاوي : « قد يحتمل أن يكون هو ما في (طه) سوى ذلك ، وهو

.(١٣٢٧)

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

(٣) سورة آل عمران آية (١ـ ٢) .

(٤) سورة طه آية (٧ـ ٨) .

(١) انظر : تحفة الأحوذى (٩/ ٤٤٦) .

قول الله تعالىٰ فيها: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فيرجع ما في (طه) إلىٰ مثل ما رجع إليه في سورة البقرة وسورة آل عمران أنه الله تعالىٰ «أي أنها كلها فيها الله لا إله إلا هو».

فالرأي الراجح أن اسم الله الأعظم هو لفظ الجلاله(الله) للأدلة التالية:

١ـ إن الحي القيوم اسمان وليسا اسماً واحداً.

٢ـ ثبوت اسمه تعالىٰ (الله) في الأحاديث الصحيحة السابقة. وعدم ثبوت اسمىٰ (الحي القيوم) في كل الأحاديث الصحيحة قال المباركفورىٰ: إن لفظ (الله) مذكور في كل الأحاديث، فيستدل بذلك علىٰ أنه الاسم الأعظم»[1].

٣ـ إن اسم «الله» دال علىٰ جميع الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا، وهو مستلزم لجميع معانىٰ الأسماء الحسنىٰ، دال عليها بالإجماع، والأسماء الحسنىٰ تفصيل وتبينٰ للصفات الإلهية، ويشير إليها اسم (الله)[2].

٤ـ إن هذا الاسم هو الأصل في أسماء الله تعالىٰ وسائر الأسماء مضافه إليه. قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[3]. فأضاف سائر الأسماء إليه. فيقال: الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها من أسماء الله تعالىٰ. ولا يقال: الله اسم الرحمن الرحيم فدل هذا علىٰ أنْ هذا الاسم (الله) هو الأصل. ولذلك جعل الاسم الأول عند الأمر

---

(٢) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين ح١، ص٣٠.
(٣) سورة الأعراف آية ١٨٠.
(١) سورة الإسراء آية ١١٠.

بالدعاء قال تعالى﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾(١) .

٥ـ إن هذا الاسم خاص با (عزّ وجلّ)، ولا يجوز إطلاقه على غيره سبحانه وتعالى، ولذلك قالوا: إن هذا الاسم للتعلق لا للتخلق. فهذا الاسم لم يطلق على غير اللهقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾(١) معناه هل تعلم من اسمه الله سوى الله. ولما كان هذا الاسم له هذا الاختصاص رجح أن يكون هو الاسم الأعظم.

٦ ـ إن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) والتي بسببها ينتقل الكافر من الكفر إلى الإسلام لا تحصل إلا بهذا الاسم، فلو قال الكافر: أشهد أن لا إله إلا الملك أو إلا الحليم أو إلا الخالق لم يخرج من الكفر. أما إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فإنه يخرج من الكفر ويدخل في الإسلام.

٧ ـ وقد رجح كثير من العلماء أن اسم (الله) هو الاسم الأعظم منهم: الطحاوي وابن المبارك وابن العربي والطرطوشي وقال: « وبهذا المذهب قال معظم العلماء» وكذلك الدارمي وروى بسنده عن جابر بن زيد قال: « اسم اللهالأعظم هو الله الم تروا أنه يبدأ به قبل الأسماء كلها» والمباركفوري وغيرهم من العلماء كثير»(٢).

ويجب التنبيه على أمرين:

١ ـ إنّ ورود بعض الآثار عن أفضلية أدعية معينة متضمنة لبعض

---

(١) سورة الإسراء آية ١١٠.
(٢) سورة مريم آية ٦٥.
(٣) انظر: عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص(٩٦ ـ ٩٧).

الأسماء مثل قوله (ﷺ) : « **ألظّوا بياذا الجلال والإكرام**»(١) لا يمنع أن يكون الاسم الأعظم هو «الله» عزّوجلّ . لأن الأدعية بالأسماء الأخرىٰ تستجاب أيضاً إذا توافرت الشروط وانتفت الموانع .

٢ ـ إنه لا يلزم أن تجاب كل دعوة دعا بها أحد بالاسم الأعظم ؛ لأن لإجابة الدعاء شروطاً يجب أن تتوافر، من أهمها : الإخلاص، وأكل الحلال، والمتابعة، والثقة با تعالىٰ واليقين بالإجابة، وحضور القلب والتضرع . كما أن هناك موانعً لابد أن تزول كأكل الحرام، والاستعجال وترك الواجبات وارتكاب المحرمات (٢) فمن توافرت فيه الشروط وانتفت عنه الموانع، فهو مما يرجا قبول دعائه(٣) .

س٩ ما معنى إحصائها في قول الرسول (ﷺ) : من أحصاها دخل الجنة؟

اختلف عبارات العلماء في معنىٰ الإحصاء فمنهم من قصر الإحصاء علىٰ العدو الحفظ . ومنهم من أضاف إلىٰ ذلك الدعاء . ومنهم من فسّر الإحصاء بالعد والحفظ وفهم المعانىٰ والمدلول والدعاء بها، والتعبد بمقتضاها . وأشهر ما ورد في ذلك ما أورده الخطابىٰ في شأن الدعاء وما ذكره ابن القيم في بدائع القوائد . وما حكاه ابن حجر العسقلانىٰ عن ابن بطال في فتح البارىٰ .

قال الخطابىٰ (رحمه الله) : (٤)

---

(١) أخرجه الترمذي فىٰ سننه، أبواب الدعوات حديث (٣٥٩٣) كما أخرجه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٥٣٦).

(٢) لمعرفة هذه الشروط والموانع تفصيلاً انظر شرح أسماء الله (الولي المولىٰ النصير القريب المجيب).

(٣) عبد ا الغصن، مرجع سابق، ص٩٨ .

(٤) الخطابي، شأن الدعاء ، ص ٢٦ : ص٣٠ .

١ ـ المراد بالإحصاء: العد حتى تستوفي حفظاً، ثم يدعى بها. واستدل القائلون بهذا القول بالرواية الثانية للحديث، وهي قوله: « **من حفظها دخل الجنة**» قالوا: وهذا نص في الخبر بمعنى الإحصاء أنه الحفظ ومال إلى هذا القول: الإمام الخطابى، والإمام النووى وقال: قال البخارى وغيره من المحققين: معناه حفظها، وهذا هو الأظهر لثبوته نصاً في الخبر. واختار هذا القول أيضاً ابن الجوزي.

ورد هذا القول الحافظ بن حجر فقال: وفيه نظر، لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ «حفظها» تعيين السرد عن ظهر قلب بل يحتمل الحفظ المعنوى. وقال الأصيلى: ليس المراد بالإحصاء عدّها فقط لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العلم بها. وكذا قال أبو نعيم الأصبهانى وابن عطيه[١].

٢ ـ المراد بالإحصاء الإطاقة؛ كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[٢] لن تطيقوه، ولقول الرسول (ﷺ) « **استقيموا ولن تحصوا**»[٣].

أي لن تطيقوه وتبلغوا كل الاستقامة، والمعنى أن يطيق العبد الأسماء الحسنى ويحسن المراعاة لها، وأن يعمل بمقتضاها. فإذا قال(السميع البصير) علم أن الله يسمعه ويراه، وأنه لا تخفى عليه خافية، فيخافه في سره وعلنه ويراقبه في كافة أحواله.

٣ ـ المراد بالإحصاء: العقل والمعرفة، تقول العرب: فلان ذو حصاة، أي ذو عقل ومعرفة بالأمور. فيكون معناه، أن من عرفها،

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١١، ص٢٢٦.
(٢) سورة المزمل آية ٢٠.
(٣) أخرجه ابن ماجه فى سنته، فى كتاب الطهارة باب المحافظة على الوضوء حديث (٢٧٧) وقال عبد القادر الأرناؤوط في تحقيقه جامع الأصول (٩/ ٣٩٥): حديث صحيح لطرقه.

وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة.

٤ ـ المراد بالإحصاء: قراءة القرآن كاملاً، فيكون القارئ قد استوفى الأسماء كلها في أضعاف القراءه.

لكن يفوته بعض الأسماء الواردة في الأحاديث النبوية الصحيحة الزائدة عما في القرآن الكريم مثل أسماء السُّبوح، الطيّب، الشافي، الطبيب، السيد، الجميل، الجواد القابض، الباسط، المقدم المؤخر.

وقد جمع كل ما سبق ابن القيم في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة وهي:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها. كما قال تعالى: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» وهو مرتبتان. أحدهما دعاء ثناء وعبادة والثانى دعاء طلب ومسألة فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكذلك لا يسئل إلا بها فلا يقال: يا موجود ياذات يا شئ اغفر لى وارحمنى بل يسئل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم [١]. فيقول: يا غفار اغفر لي فإنك أنت الغفور الرحيم، يا رزاق ارزقني إنك أنت الرزاق الكريم وهكذا.

ثم يقول ابن القيم: ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله وهذه ليست بعبارة سديدة وهى منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة، وأحسن منها عبارة أبى الحكم

---

(١) ابن القيم الجوزيه، بدائع القوائد، ح١، ص ١٦٤.

بن برهان وهي التعبد، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال. فمراتبها أربعة أشدها نكارة عبارة الفلاسفة وهي التشبه، وأحسن منها عبارة من قال التخلق، وأحسن منها عبارة من قال التعبد، وأحسن من الجميع الدعاء وهي لفظ القرآن(١).

وقال ابن بطال ـ رحمه الله ـ : « الإحصاء يقع بالقول، ويقع بالعمل، فالإحصاء القولي يحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها، ولو شارك المؤمن غيره في العد والحفظ، فإن المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها. والإحصاء بالعمل أن لله أسماء يختص بها كالأحد والقدير، فيجب الإقرار بها والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها، كالكريم والعفو، فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها فبهذا يحصل الإحصاء العملي(٢).

وللإحصاء معانٍ أخرى، منها الإحصاء الفقهي، وهو العلم بمعانيها من اللغة وتنزيهها على الوجوه التي تحملها الشريعة، ومنها الإحصاء النظري وهو أن يعلم معنى كل اسم بالنظر في الصيغة، ويستدل عليه بأثره الساري في الوجود فلا تمر على موجود إلا ويظهر لك فيه معنى من معاني الأسماء، وتعرف خواص بعضها وموقع القيد ومقتضى كل اسم، وهذا أرفع مراتب الإحصاء، وتمام ذلك أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن بما يقتضيه كل اسم من الأسماء فيعبد الله بما يستحق من الصفات المقدسة التي وجبت لذاته (٣).

مما سبق يتبن أن إحصاء أسماء الله الحسنى يتضمن :

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٤ .
(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٣، ص ٣٩٠ .
(٣) ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ج١١، ص٢٢٧ .

١ ـ عدّها وحفظها .

٢ ـ معرفتها وفهم معانيها ومدلولاتها .

٣ ـ معرفة آثارها في الكون والحياة (قدر الطاقة لأن هذا ميدان لاتستطيعه كل الخلائق) .

٤ ـ الدعاء بها ويتضمن :

(أ) دعاء ثناء وعبادة ويتضمن تنزيهها ومراعاتها .

(ب) دعاء طلب ومسألة . فيسأل في كل مطلوب بالاسم المقتضي لذلك المطلوب مثل يا رحيم ارحمني ، يا رزاق ارزقني وهكذا .

وهذا ما أنتهجته الدراسه الحالية ، فبدأت باستخراج الأسماء من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ثم معرفة معنىٰ كل اسم ومدلوله ثم معرفة قبس من آثار كل اسم في الكون والحياه ، ثم الدعاء بالإسم : (دعاء ثناء وعباده ودعاء مسأله ، ببيان ما يجب علىٰ العبد تجاه كل اسم . ثم سؤال الله عزوجل بكل اسم من هذه الأسماء بما يقتضيه ويتبين ذلك من الإجابة عن السؤال التالىٰ :

س ١٠ ما أركان الإيمان بأسماء الله الحسنى؟

لا يتم الإيمان بالاسم عند أهل السنة والجماعة إلا بثلاثة أركان :

الإيمان بالاسم ، وبما دل عليه من معنىٰ ، وبما تعلق به من أثر [1] . ونضيف إليها ركناً رابعاً وهو : الدعاء بالاسم : ثناءً وتعبداً ، وطلباً ومسألةً .

---

(١) انظر القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي ، ص ١١٠ ، وانظر : عبد الله الغصن ، مرجع سابق ، ص٤٩ : ص٥٦ .

أولاً - فالركن الأول، وهو الايمان بالاسم يتضمن:

[أ] إثبات الاسم حقيقة لله، قال شيخ الإسلام ابن تيميه (رحمه الله) وقد اتفق جميع أهل الإثبات على أن الله حي حقيقة، عليم حقيقة، قدير حقيقة، سميع حقيقة، بصير حقيقة»(١).

[ب] ومن الإيمان بالاسم: الإيمان بأن الله (سبحانه وتعالى) منزه عن مماثلة المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢).

والمخلوقات تتفق في الأسماء وتختلف وتتباين في الحقيقة والكيفية وللإنسان يد وللفيل يد، وللإنسان قوة وللجمل قوة، ولكن ليست يد الإنسان كيد الفيل ولا قوته كقوة الجمل. وما بين الخالق والمخلوق من تباين واختلاف أوضح وأبين، فالأسماء تتفق وتتماثل، ولا يعنى تماثلها تماثل المسميات - بل تختلف باختلاف الإضافة والتخصيص، فما أضيف لله فلا يدخل في معناه (المخلوق، بل هو خاص به سبحانه، وما أضيف إلى المخلوق فلا يدخل في معناه الخالق، بل هو خاص بالمخلوق، وإنما تتماثل الأسماء عند الإطلاق فقط.

فالاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثل المسميات والموصوفات، كما دلّ على ذلك السمع والعقل، والحس.

أما السمع: فقد قال الله عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(٣) وقال عن الإنسان ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

---

(١) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ج٥، ص١٩٦.
(٢) سورة الشورى آية ١١.
(٣) سورة النساء آية٥٨.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(١) . ونفى أن يكون السميع كالسميع والبصير كالبصير فقال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢) . وأثبت لنفسه علماً وللإنسان علماً فقال عن نفسه : ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ (٣) وقال عن الإنسان : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (٤) و ليس علم الإنسان كعلم الله تعالى فقد قال الله عن علمه : ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٥) وقال عن علم الإنسان ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦) .

وأما العقل : فمن المعلوم بالعقل أن المعاني والأوصاف تتقيد وتتميز بحسب ما تضاف إليه . . فنصف الإنسان باللين ، والحديد المنصهر باللين ، ونعلم أن اللين متفاوت المعنى بحسب ما أضيف إليه .

وأما الحس : فإننا نشاهد للفيل جسماً وقدماً وقوة ، وللبعوضة جسماً وقدماً وقوة ونعلم الفرق بين جسميهما ، وقدميهما ، وقوتيهما . فإذا علم أن الاشتراك في الاسم والصفة في المخلوقات لا يستلزم التماثل في الحقيقة مع كون كل منها مخلوقاً ممكنا ، فانتفاء التلازم في ذلك بين الخالق والمخلوق أولى وأجلى ، بل التماثل ممتنع غاية الامتناع(٧) .

[جـ] ومن تمام الإيمان بالاسم : الإيمان بأن أسماء الله حسنى أي بالغة في الحسن كماله وغايته ـ قال تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ ، ذلك لأنها متضمنه ـ كما سبق ـ صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، لا احتمالاً ولا تقديراً .

---

(١) سورة الإنسان آية ٢ .
(٢) سورة الشورى آية ١١ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٣٥ .
(٤) سورة الممتحنة آية ١٠ .
(٥) سورة طه آية ٩٨ .
(٦) سورة الإسراء آية ٨٥.
(٧) محمد بن صالح بن عثيمين ، تقريب التدمريه ، ص٢٠ ، ص٢١ .

والحسن في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال (١).

ثانياً: أما الركن الثاني من أركان الإيمان بالاسم، فهو: الإيمان بما دل عليه الاسم من معنى، ويتضمن:

[أ] الإيمان بأن للأسماء معاني معلومة واضحة، وأن لكل اسم معنى يخصه غير الاسم الآخر، وليس معنى الاسم هو الذات فقط، فأسماء الله أعلام وأوصاف، فهي أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وهي أوصاف باعتبار مادلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد وهو الله (عزوجل)، وبالاعتبار الثاني متباينة لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص؛ «الحي العليم القدير السميع البصير الرحمن الرحيم العزيز الحكيم» كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله (سبحانه وتعالى) لكن معنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير وهكذا.

فكل اسم من أسماء الحسنى له معنى يخصه غير الاسم الآخر، وإحصاء أسماء الله الحسنى يقتضي فهم معنى كل اسم فهو سبحانه وتعالى العليم فيثبت المحصي لأسماء الله الحسنى هذا الاسم، ويفهم معناه وهو: الذي أحاط علمه بكل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الواجبات والممتنعات والجائزات، وما في أقطار العالم العلوي والسفلي، قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي

---

(١) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص٦، ص٧.

(٢) محمد بن صالح بن عثيمين، المرجع السابق، ص٨.

كتاب مُّبِينٍ﴾(١).

ويثبت المحصى لأسماء الله الحسنى اسم السميع، ويفهم معناه وهو الذي يسمع السر والنجوى، سواء عنده الجهر والخفوت، والنطق والسكوت، فهو الذي يسمع دعوات عباده وتضرعهم إليه، لا يشغله نداء عن نداء، ولا يمنعه إجابة دعاء عن إجابه دعاء فسمعه نوعان: أحدهما سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة والخفية والجليه، وإحاطته التامة بها.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم، ويثبتهم، ومنه قوله تعالى: «**إن ربى لسميع الدعاء**» وقول المصلى: «سمع الله لمن حمده» أي استجاب (٢).

ويثبت المحصى لله عزوجل اسم البصير، ويفهم معناه: وهو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسموات، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصّماء في الليله الظّلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة، وسريان القوت في أعضائها الدقيقة ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النبات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك (٣).

فمعرفة معانى أسماء الله الحسنى ضرورية، وركن من أركان الإيمان بها. وبين سلطان العلماء العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ أهمية فهم ومعرفة معانى أسماء الله الحسنى فيقول: «فهم معانى أسماء الله تعالى

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٩.
(٢) عبد الرحمن السعدي، الحق الواضح المبين، ص٣٥.
(٣) المرجع السابق، ص٣٦.

وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء، والمهابة، والمحبة، والتوكل . . . . [١].

[ب] وفهم معاني أسماء الله الحسنى والتفكر في هذه المعاني لا يعني ـ على أية حال ـ التفكر في ذات الله ـ عزوجل ـ لأن هذا أمر منهي عنه . أما فهم معاني أسماء الله والتفكر فيها فهو داخل في معاني ما أخبر به عن نفسه ـ جل وعلا ـ في كتابه الكريم، وأخبر به رسول (ﷺ) [٢].

فمعانى أسماء الله عزوجل واضحة جلية، وتؤخذ من ظاهر النص أى أن المعنى هو المتبادر إلى الذهن من ظاهر النص مما يليق بجلال الله وعظمته .

أما حقيقة هذه الأسماء وكيفيتها فغير معلومة، فالمعاني واضحة جلية، والكيفيه والحقيقه غير معلومه ونتوقف عندها لعدم إدراكنا لها .

ثالثا: أما الركن الثالث من أركان الإيمان فهو الإيمان بما يتعلق بالاسم من آثار، وهذا الركن فرع على الركن السابق، فالإيمان بآثار الأسماء الحسنى يدخل ضمن فهم معانى هذه الأسماء .

فأسماء الله (عزّوجلّ) لها آثار في الخلق والأمر . قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ « من كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى، واستقرأ آثارها في الخلق والأمر، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل نظام، ورأى سريان آثارها فيهما »[٣] .

وهذه الآثار ليست عامة في جميع الأسماء، فإن الاسم إذا دل على

---

(١) العز بن عبد السلام، شجرة المعارف والأحوال، ص٧٧ .

(٢) عبد ا الغصن، مرجع سابق، ص١٢٠ .

(٣) ابن القَيم الجوزيه، طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص١٣٠ .

وصف متعد، فإنه يثبت الاسم وما دل عليه من معنىً، وبما دل عليه من آثار، مثل اسم اللهالرحمن، واسم اللهالرحيم فهما متضمنان لصفة الرحمة، وتتعلق بهما الآثار.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فانظر إلى ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة والعامه، فبرحمته أرسل إلينا رسوله(ﷺ)، وأنزل علينا كتابه، وعلمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبضرنا من العمى، وأرشدنا من الغي، وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لصالح ديننا ودنيانا، وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار...[١].

وإن دل الاسم على وصف لازم، غير متعد، فإن هذه الاسم يتضمن أمرين فقط، وهما: ثبوت ذلك الاسم لله (عزوجل) وثبوت الصفة التي تضمنها الاسم لله (عزوجل) وليس لها أثر وحكم، لأنه وصف لازم لا يتعدى إلى الغير مثل اسم (الحي)، فهو اسم لله عز وجل ومتضمن لصفة (الحياة) لله عزوجل[٢].

ومعرفة بعض آثار الأسماء الحسنى في الخلق والأمر، والإيمان بها إجمالاً أمر لازم للإيمان بالأسماء الحسنى، أما معرفة هذه الآثار على التفصيل فلا تجب على كل مسلم، بل كل بحسبه، فيجب على العالم ما لا يجب على غيره، ويجب على من انبرى لإحصاء الأسماء ما لا يجب على غيره، ولا يعني هذا أن تعرف كل آثار الأسماء في الخلق

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مختصر الصواعق المرسلة، ج٢، ص٣١٧.

(٢) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص١١.

والأمر؛ لأن هذا يستحيل على البشر معرفته، وهو غير مقدور لهم؛ لأنه لا يستطيع الإحاطة با ـ سبحانه وتعالى ـ وعلمه وأعماله إلا هو، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (١) فلا يستطيع أحد من البشر إحصاء آثار أسماء الله الحسنى في الخلق والأمر.

رابعاً: الركن الرابع ولا يتم إيمان المؤمن بأسماء الله الحسنى إلا بالدعاء بهذه الأسماء.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة وثناء، ودعاء مسألة وطلب.

أما دعاء العبادة فيقتضي أن يتعبد العبد لله سبحانه وتعالى بمقتضى الأسماء. فتؤثر معرفة هذه الأسماء في عبوديته الظاهرة والباطنة. فإذا علم العبد بسمع الله وعلمه وبصره، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوراحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله(٢).

وهناك أسماء لله عزوجل يحب من عباده أن يتصفوا بموجب هذه الأسماء فهو سبحانه وتعالى عفو يحب العفو وأهله، جواد يحب الجود، جميل يحب الجمال، رحيم يحب من عباده الرحماء، وتر يحب الوتر، رفيق يحب الرفق.

وأما دعاء المسألة فهو سؤال الله(عزوجل) في كل مطلوب بما يناسب هذا المطلوب من أسمائه (سبحانه وتعالى). فيقول الداعي اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم تب عليّ يا تواب، اللهم

---

(١) سورة طه آية ١١٠، وانظر: عبدا الغصن، مرجع سابق، ص١٢٣.
(٢) ابن القيم الجوزيه، مفتاح دار السعاده، ج٢، ص٩٠.

ارزقني يا رزاق. اللهم احفظني يا حفيظ، اللهم اشفني وأنت الشافي، اللهم انصرني يا نصير. اللهم اعف عني يا عفو . . . وهكذا.

وقد وردت النصوص من القرآن والسنه تعلمنا ذلك. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾(٢). وفي الحديث أن رسول الله (ﷺ) أمر عائشة أن تدعو ربها تحرياً لليلة القدر، وتقول: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا» (٣).

وقد سارت الدراسة الحالية على هذا النهج من إثبات الأسماء لله (عزوجل)، وبيان معانيها، وإيراد بعض آثارها، ثم الدعاء بها: ثناءً وتعبداً، وطلباً ومسألةً.

س١١: ما دلالات أسماء الله الحسنى؟

كل اسم من أسماء اللهالحسنى له ثلاث دلالات: مطابقة وتضمن والتزام:

١ ـ دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، لأن اللفظ إذا أعطى جميع ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة، لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص. وإذا أعطى بعض المعنى يسمى دلالة تضمن. لأن المعنى المذكور بعض اللفظ وداخل في ضمنه.

مثال ذلك: (الرحمن) يدل على الذات وحدها وعلى الرحمة

---

(١) سورة البقرة آية (١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) سورة آل عمران آية ٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ٨٩، برقم (٣٥٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحح سنده الألباني في تخريج أحاديث مشكاة المصابيح (١/٦٤٨) برقم (٢٠٩١).

وحدها دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة مطابقة ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام، لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصله لرحمته للمرحوم، وعلمه به وبحاجته[(١)].

قال ابن القيم في نونيته المشهورة:

ودلالة الأسماء أنواع ثلاث ... كلها معلومة ببيان
دلت مطابقة كذاك تضمناً ... وكذا التزاماً واضح البرهان
أما مطابقة الدلالة فهى أن ... الاسم يفهم منه مفهومان
ذات الإله وذلك الوصف الذى ... يشتق منه الاسم بالميزان
لكن دلالته علي إحداهما ... بتضمن فافهمه فهم بيان
وكذا دلالته على الصفة التى ... ما اشتق منها فالتزام دان

س١٢ : ما حقيقة الإلحاد في أسماء الله الحسنى؟

الإلحاد لغة من اللحَّد ـ بفتح اللام وضمها ـ وهو الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت ومن معانيه في اللغة: الميل، والجور، والظلم[(٢)].

واصطلاحاً هو العدول بأسماء الله الحسنى وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها[(٣)].

والإلحاد في أسماء الله عز وجل أنواع:

---

(١) عبد الرحمن السعدى، الحق الواضح المبين، ص١٠٦، ص١٠٧.
(٢) لسان العرب مادة لحد.
(٣) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد (١/ ١٦٩).

١ ـ أن تسمى الأصنام بهذه الأسماء كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً من أعظم الإلحاد فالإلحاد هنا عدول بأسماء الله عزوجل إلى أوثانهم وأصنامهم وتسميتها بهذه الأسماء.

ومن كلمات الإلحاد التي سمعت من أطلق على طبيب أطفال أنه «إله الأطفال» وهذا كفر وإلحاد في أسماء الله(عزوجل).

فالأسماء الحسنى مختصة با (عزوجل) فلا يجوز أن تنقل المعاني الدالة عليها هذه الأسماء إلى أحد من المخلوقين. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (١).

فكما اختص سبحانه وتعالى بالعبادة وبالألوهية الحقه، فهو مختص بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله عزوجل ميل بها عما يجب فيها. كما لا يجوز أن يوصف أحد من الخلق بصفة فيها نوع مشاركة لله تعالى في أسمائه وصفاته، كملك الملوك، وقاضي القضاة، وحاكم الحكام وأبى الحكم وأبى الأعلى حفظاً للتوحيد وسداً للذريعه حتى لا يظن مشاركة أحد لله تعالى في شيء من خصائصه. قال رسول الله (ﷺ): « **أخنع الأسماء عند الله يوم القيامة رجل تسمي ملك الأملاك، لا مالك إلا الله**» (٢).

قال ابن حجر: « واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمى بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد ويلتحق به ما في معناه مثل خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء(٣).

---

(١) سورة الأعراف آيه ١٨٠.

(٢) رواه البخارى (١٠/ ٤٨٦)، ومسلم (٢١٤٣).

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٠، ص٥٩٠.

٢ ـ ومن الإلحاد في أسمائه تسميته سبحانه وتعالى بما لم يسم به نفسه، ووجه كون ذلك إلحاداً؛ لأن أسماء الله توقيفية، فلا يحل لأحد أن يسمى الله تعالى بما لم يسم به نفسه، لأن هذا من العدوان في حق الله(عزّ وجلّ)، ومن القول على الله بغير علم، وقد نهى الله عزوجل عن ذلك فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

ومثال هذا النوع من الإلحاد: تسمية الفلاسفة عزوجل بأنه العلة الفاعله. وتسمية النصارى له سبحانه وتعالى باسم (الأب). ومنه تسمية الماسونيين لله عزوجل بأنه المهندس الأعظم. وقول العامه (يا صباح) أو (الله الفنان) كل هذا تسمية لله عزوجل بما لم يسم به نفسه (٢).

ومن هذا النوع أيضاً تسميته سبحانه وتعالى بما لا يليق به كتسميته بالمضل والفاتن والماكر والمستهزئ والكايد وغير ذلك مما لا يليق به سبحانه ولا يدخل تحت أسمائه الحسنى.

٣ ـ ومن الإلحاد وصفه (سبحانه وتعالى) بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته ويتقدس عنه الحق سبحانه وتعالى.

٤ ـ ومن الإلحاد في أسمائه (سبحانه وتعالى)، إنكار شئ من

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٣.

(٢) انظر: ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد ج١، ص١٦٩، وصالح الغصن، مرجع سابق، ص١٠٨.

الأسماء، أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام. ووجه كونه إلحاداً: هو أن الإيمان بالأسماء وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة به أمر واجب، فإنكار شئ من ذلك ميل بالأسماء عما يجب فيها (١).

ومثال ذلك من ينكر الأسماء مطلقاً، كما فعل أهل الجاهلية في إنكارهم اسم (الرحمن)، أو من يثبت الأسماء، ولكن ينكر ما تضمنته من الصفات كما يقول بعض المبتدعه، إن الله رحيم بلا رحمه، سميع بلا سمع... تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. فتعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها من أعظم الإلحاد شرعاً وعقلاً ولغة وفطرة وهو يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه (٢).

٥- ومن الإلحاد في أسمائه تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً. وهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطله فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه، فتشبيه الله بخلقه كفر لكونه تكذيباً لقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١).

قال نعيم بن حماد الخزاعي: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه» (٢).

---

(١) عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص١٠٩.

(٢) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ج١. ص١٦٩.

(٣) سورة الشورى آية ١١.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٦١٠.

والإلحاد بجميع أنواعه محرم لأن الله(عزّوجلّ) توعد الملحدين في أسمائه فقال (سبحانه) : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١) .

ومنه ما يكون شركاً أو كفراً حسبما تقتضيه الأدله الشرعية (٢) .

وقد بين ابن القيم (رحمه الله) في نونيته المشهوره أنواع الإلحاد وجزاء الملحدين في أسمائه (سبحانه وتعالى) فقال :

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقه قد حملت لمعان
إياك والإلحاد فيها إنه ... كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإ ... شراك والتعطيل والنكران
فالملحدون إذاً ثلاث طوائف ... فعليهم غضب من الرحمن
المشركون لأنهم سموا بها ... أوثانهم قالوا إله ثان
هم شبهوا المخلوق بالخلاق عكـ ... س شبه الخلاق بالإنسان
وكذاك أهل الاتحاد فإنهم ... إخوانهم من أقرب الإخوان
والملحد الثانى فذو التعطيل إذ ... ينفى حقائقها بلا برهان
هذا وثالثهم فنافيها ونا ... فى ما تدل عليه بالبهتان
ذا جاحد الرحمن رأساً لم يقـ ... ر بخالق أبداً ولا رحمن
هذا هو الإلحاد فاحذره لعل اللـ ... ـه أن ينجيك من نيران
وتفوز بالزلفى لديه وجنة المـ ... ـأوى مع الغفران والرضوان

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

(٢) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص١٧ .

فاتباع الرسول (ﷺ) وورثته القائمين بسنته برأهم الله (عزّ وجلّ) من الإلحاد وأنواعه فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنىٰ بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم برياً من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل لا كمن شبه حتىٰ كأنه يعبد صنماً أو عطل حتىٰ كأنه لا يعبد إلا عدماً فهم وسط في النحل كما أن الإسلام وسط في الملل. توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار نور علىٰ نور يهدىٰ الله لنوره من يشاء[1].

س١٣ ما ضوابط عد أسماء الله الحسنى من القرآن الكريم والحديث النبوى الصحيح؟

تتميز أسماء الله الحسنىٰ بأمور من أبرزها:

أولاً: إن أسماء الله الحسنىٰ توقيفية؛ أي أننا لا نثبت لله من الأسماء إلا ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوىٰ الصحيح.

فكل اسم لم يرد به الكتاب أو السنة، فإنه لا يكون من أسماء الله الحسنىٰ، حتىٰ لو صح معناه في اللغة أو العقل أو الشرع فلا يسمىٰ - مثلاً - بـ(ذات) أو (موجود) أو (قديم)؛ لأنه لم ترد تسمية الله تعالىٰ بها في النص. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة يثبتون من الأسماء الحسنىٰ ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسول (ﷺ)، لا يتجاوزون فيها التوقيف، فلا مجال للعقل فيها؛ لأنها من الأمور الغيبية، والأمور الغيبية لا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة؛ فلا يجوز

(١) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ج١، ص (١٦٩ - ١٧٠).

إثبات شيء من الأسماء إلا ما أثبته الشرع، ولا نفي شيء أثبته الشرع[١].

قال الإمام الخطابي (رحمه الله): « ومن علم هذا الباب - أعني الأسماء والصفات - ومما يدخل في أحكامه ويتعلق به من شرائط: أنه لا يتجاوز فيها التوقيف»[٢].

وقال الإمام ابن قدامه المقدسي: « ومذهب السلف - رحمهم الله - الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه في آياته وتنزيله، وعلى لسان رسوله من غير زيادة عليها، ولا نقص منها»[٣].

وقال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين: « أسماء الله توقيفيه لا مجال للعقل فيها، وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة فلا يزاد فيها ولا ينقص لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحق من الأسماء، فوجب الوقوف في ذلك على النص لقوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[٤] وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[٥] ولأن تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه أو إنكار ما سمى به. نفسه جناية في حقه تعالى فوجب سلوك الأدب في ذلك والاقتصار على ما جاء به النص[٦].

---

(١) عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص٤٧.
(٢) الخطابي شأن الدعاء ص١١١.
(٣) ابن قدامة المقدسي، ذم التأويل، ص ١٤.
(٤) سورة الإسراء آية ٣٦.
(٥) سورة الأعراف آية ٣٢.
(٦) محمد الصالح بن عثيمين، مرجع سابق، ص١٣.

والأصل في أمور العقائد كلها ومنها الأسماء الحسنى الوقوف عند النصوص (القرآن الكريم والسنة النبوية). فالعقل لا مجال له في باب الأسماء إلا التصديق، والوقوف عند النصوص. فلا يجوز أن يسمى الله عزّوجلّ إلا بما سمى به نفسه أو أثبته له رسول (ﷺ).

ثانياً - إن أسماء الله الحسنى هى كل ما دل على ذات الله، مع تضمنها لصفات الحسن والكمال المطلق. والضابط في ذلك كما يقول الشيخ عبد الرحمن السعدى (رحمه الله): «وضابطه (أى الاسم) أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة»[١].

فيتميز الاسم بأنه كامل الحسن يدل على صفة عظيمة، فليس في أسماء الله عزّوجلّ اسم يتضمن الشر. فليس من أسمائه تعالى: المستهزىء ولا المضل ولا الماكر لأن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينه فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة، فلا يقال: الله مستهزىء على سبيل الإطلاق؛ لأن الاستهزاء في ذاته منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، فلا يذكر إلا مقيداً، فيقال: الله يستهزىء بمن يستهزىء به»[٢].

ولا يسمى الله بما ينقسم في جنسه إلى محمود ومذموم - كما سلف في القاعدة الثالثة - فلا يسمى بالمتكلم أو المريد لأن أسماءه كاملة الحسن - (سبحانه وتعالى).

وليس من أسمائه (سبحانه وتعالى) أعلام جامدة، ولا تتضمن معنى يلحقها بالأسماء الحسنى، ولذلك أجاب الشيخ محمد بن عثيمين

---

(١) عبد الرحمن السعدى، تفسير كلام المنان، ج٣، ص١٢٠.

(٢) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ج١، ص١٦٢، وعبد الله الغصن، مرجع سابق، ص١٤٢.

ـ حفظه الله ـ حينما سئل عن (الدهر) هل الدهر من أسماء الله الحسنىٰ؟ فقال: « إن أسماء الله سبحانه وتعالىٰ حسنىٰ، بالغة في الحسن أكمله، فلابد أن تشتمل علىٰ وصف ومعنىٰ هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعانىٰ، في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله معانىٰ اسماً، جامداً، و(الدهر) اسم جامد لا يحمل معنىٰ إلا أنه اسم للأوقات [١].

وأما ما ورد عن رسول الله (ﷺ): «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر..**». وفىٰ رواية أخرىٰ: « **يقول الله: يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر، أقلب الليل والنهار**» وفىٰ لفظ « **لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر، يقلب الليل والنهار**» وفىٰ لفظ: « **يقول ابن آدم الدهر وأنا الدهر**» فقوله في الحديث « **بيدى الأمر أقلب الليل والنهار**» يبين أنه ليس المراد أنه الزمان، فإنه قد أخبر أنه يقلب الليل والنهار، والزمان هو الليل والنهار، فدل الحديث علىٰ أنه سبحانه هو يقلب الليل والنهار، ولا يتوهم عاقل أن الله هو الزمان فإن الزمان مقدار الحركه، والحركه مقدارها من باب الأعراض والصفات القائمة بغيرها، والله عزّ وجلّ مستغن بنفسه، يحتاج إليه سواه. والحديث رد علىٰ ما يقوله أهل الجاهلية، ومن أشبههم، فإنهم إذا أصابتهم مصيبة أو منعوا أغراضهم أخذوا يسبون الدهر والزمان، يقول أحدهم: قبح الله الدهر.. ولعن الله الزمان.. وهم يقصدون سب من فعل تلك الأمور، ويضيفونها إلىٰ الدهر فيقع السب علىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه هو الذي فعل تلك الأمور وأحدثها، والدهر مخلوق له، هو الذي يقلبه ويصرفه. والتقدير: أن

---

(١) انظر: المجموع الثمين من فتاوىٰ فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢/ ٧٢).
(١) ابن تيميه، مجموع الفتاوىٰ، ح٢، ص(٣٩١ـ٣٩٣).

ابن آدم يسب من فعل هذه الأمور وأنا فعلتها، فإذا سب الدهرَ فمقصوده سب الفاعل وإن أضاف الفعل إلى الدهر، فالدهر لا فعل له؛ وإنما الفاعل هو الله وحده [1].

ثالثاً: ما ثبت الدعاء به فهو اسم من أسماء الله الحسنى. لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا .. ﴾ [2]، فما ورد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الصحيحه. ودعى به فهو اسم من أسماء الله (عزّوجلّ).

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: « ومن أسمائه التى ليست في التسعة والتسعين اسمه السبوح... وكذلك أسماؤه المضافه مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وأحسن الخالقين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومقلب القلوب، وغير ذلك مما ثبت في الكتاب والسنه، وثبت الدعاء بها بإجماع المسلمين»[3].

رابعاً: ما ورد مقيداً من الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، فلا يكون اسماً بهذا الورود؛ مثل اسم (المنتقم)، فلم يرد إلا مقيداً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [4] وفى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [5].

وكذلك إذا ورد في الكتاب والسنة اسم فاعل يدل على نوع من الأفعال ليس بعام شامل، فلا يعد من الأسماء الحسنى؛ مثل الزراع،

---

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٣) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ج٢، ص(٤٩١ - ٤٩٣)

(٤) سورة السجدة آية: ٤٤.

(٥) سورة إبراهيم آية ٤٧.

(١) عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص.

الذارئ، المسعَّر(١).

خامساً: الأسماء المتضمنة صفة واحدة، لا تعد اسماً واحداً، بل كل صيغة من صيغ الاسم يعد اسماً مستقلاً، مثال ذلك (القادر) (القدير) (المقتدر) متضمنة لصفة القدره، وتعد ثلاثة أسماء. وأسماء مثل (العلي)، (الأعلى)، (المتعالي)، تعد ثلاثة أسماء مع تضمنها لصفة واحده هي صفه العلو.

فالقادر اسم، والقدير اسم، والمقتدر اسم، مع أنها كلها متضمنة صفة واحدة، لأن بعضها يزيد بخصوصية عن الآخر، وقد وقع الاتفاق على أن اسمي (الرحمن)، (الرحيم) اسمان، مع كونهما متضمنين صفة واحدة، فتغير مباني وألفاظ الأسماء يغير المعنى، وإذا تغير المعنى صار اسماً مستقلاً بذاته (٢).

سادساً: الأسماء المقترنة؛ التي لا يصح فيها إطلاق اسم منها دون الآخر، مثل اسمي (القابض، الباسط)، واسمي (المقدم، المؤخر)، فهذه الأسماء تعد اسمين؛ لأن كل اسم منها يحمل معنى غير الآخر، لكنها تكون كالاسم الواحد في المعنى فلا يصح إفراد اسم عن الآخر في الذكر؛ لأن الاسمين إذا ذكرا معاً دل ذلك على عموم قدرته وتدبيره، وأنه لا رب غيره. وإذا ذكر أحدهما لم يكن فيه هذا المدح، والله له الأسماء الحسنى، ليس له اسم السوء قط فلا يجوز أن يفرد اسم عن مقابله لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، فلو قلت: يا قابض يا مؤخر لم تكن مثنياً عليه ولا حامداً له حتى تذكر مقابلها(٣).

---

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ح١١، ص٢١٩.

(٣) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ح١، ص١٦٧.

وفي ضوء القواعد السابقة تم استخراج الأسماء التالية من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة :

« الله - الإله - الحق - الواحد - الأحد - الوتر - الحي - القيوم - السبوح - القدوس - الطيب - السلام - السيد - الصمد - العظيم - الجميل - الواسع - الغني - المجيد - الكبير - المتكبر - العلي - الأعلى - المتعالي - العزيز - الأول - الآخر - الظاهر - الباطن - الوارث .

الملك - المليك - الجبار - القاهر - القهار - القادر - المقتدر - القدير - القوي - المتين - المقدم - المؤخر - الحكم - الفتاح - الديان .

الخالق - الخلاق - البارئ - المصور - الحكيم الوهاب - المنان - الرازق - الرزاق - المقيت - الكريم - الأكرم - الجواد - المحسن - البر - القابض - الباسط .

السميع - البصير - العالم - العليم - الخبير - الرقيب - الشهيد - الحافظ - الحفيظ - المهيمن - المحيط .

الرب - الرفيق - اللطيف - الرحمن - الرحيم - الرءوف - الشافي - الطبيب - الحليم - الحييّ - السِّتير - الحميد - الشاكر - الشكور - الودود - الولي - المولى - النصير - القريب - المجيب - الحاسب - الحسيب - الوكيل - الهادي - المبين - المؤمن - الغفار - الغفور - العفو - التواب .

ومجموع الأسماء السابقة مائة اسم وثلاثة أسماء ، وهناك أسماء أخرى مضافه أي جاءت بصيغة الإضافة مثل : مالك الملك ، ذي الجلال والإكرام ، علام الغيوب ، بديع السموات والأرض ، محيي الموتي ، جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، نور السموات والأرض مقلب القلوب .

وتعد هذه من الأسماء الحسنى لورودها في القرآن الكريم والسنة

النبوية الصحيحة ولثبوت الدعاء ببعضها، ولكمال حسنها ودلالتها على صفات عظيمة: عن أنس (رضي الله عنه) قال: كنت جالساً مع النبي (ﷺ) في المسجد ورجل يصلي فقال: « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي (ﷺ): « **دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى**» (١).

وعن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: « كان أكثر دعاء النبي (ﷺ): « **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» (٢).

وقد عد الأسماء المضافة من الأسماء الحسنى شيخ الإسلام ابن تيميه (رحمه الله)، فقال: «ومن أسمائه التي ليست في التسعة والتسعين اسمه السبوح... وكذلك أسماؤه المضافة مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وأحسن الخالقين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومقلب القلوب، وغير ذلك مما ثبت في الكتابة والسنة، وثبت الدعاء بها بإجماع المسلمين» (٣).

وقد عد الأسماء المضافة ضمن أسماء الله الحسنى فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، فقال بعد أن سرد تسعة وتسعين اسماً من القرآن والسنة... ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافاً مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام(٤).

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب السهو، باب: الدعاء بعد الذكر، وأبو داود في سننه في كتاب باب الصلاة، باب: الدعاء وأحمد في مسنده وذكر اسم الحنان، والحاكم في المستدرك في كتاب الدعاء (١/ ٥٠٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي وأحمد وصححه ووافقه الذهبي، وانظر صحيح الجامع ٦/ ٣٠٩) وصحيح الترمذي ٣/ ١٧١.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ح٢٢، ص٤٨٥.

(٤) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص١٦.

وقد شرحت في هذا الكتاب الأسماء المفرده، أما الأسماء المضافة[١] فقد أشرت لبعضها في أثناء شرح الأسماء المفرده، فاسم مالك الملك ورد في شرح اسمى الملك والمليك، واسم ذى الجلال والأكرم ورد في شرح اسمى الكريم والأكرام، واسم علام الغيوب ورد في شرح اسمى العالم والعليم، واسم بديع السموات والأرض ورد مع شرح أسماء الخلاق والخالق البارئ والمصور، واسم محيى الموتى ورد مع شرح الحى القيوم، واسم جامع الناس ورد في شرح أسماء القادر المقتدر القدير، واسم نور السموات والأرض ورد في شرح اسم الجميل والله تعالى أجلّ وأعلم.

* * *

(١) أسأل الله عز وجل أن يوفقنى إلى شرحها فى مؤلف آخر يلى هذا الكتاب (إن شاء الله تعالى).



ثانياً

في رحاب أسماء الله الحسنى

الله (جلّ جلاله)

(١)

الله هو الإسم العلم الذي اختص به الحق - سبحانه وتعالى - فهو علم على الذات الإلهية المقدسة التى نؤمن بها، ونعمل ابتغاء مرضاتها، ونعرف أن منها حياتنا وإليها مصيرنا.

والله علم على ذات الحق الجامع لكل صفات الكمال والجلال والجمال وهو أشهر الأسماء الحسنى، وأعلاها محلاً في الذكر والدعاء، ولذلك جعل إمام سائر الأسماء.

وقد تفرد الحق - سبحانه وتعالى - بهذا الاسم وخص به نفسه، وجعله أول أسمائه، وأضافها كلها إليه، ولم يضفه إلى اسم منها، فكل ما يرد بعده يكون نعتا وصفة له.

وأصل كلمة «الله» في اللغة» الإله» ثم حذفت الهمزة تخفيفاً فاجتمعت لامان، فأدغمت الأولى في الثانية فقيل الله [١].

والإله في لغة العرب أطلق لمعان أربعة هى: المعبود، والملتجأ، والمفزوع إليه، والمحبوب حباً عظيماً، والذى تحتار العقول فيه، أي في إدراك عظمته، ومعرفة قدرته [٢].

وكل هذه المعانى ثابتة في حق الله (سبحانه وتعالى) فهو سبحانه المعبود بحق، وهو الذي يلجأ إليه في النوائب والشدائد، وليس لنا عند

---

(١) أبو القاسم الزجاجى، اشتقاق أسماء الله، ص٢٤.

(٢) عبد الرحمن عبد الخالق، منهج جديد لدراسة التوحيد، ص١٥.

الكروب سواه، وهو المحبوب المعظم (سبحانه)، والعقول تتحير في حكمته، وبديع صنعه، ومعنى الحيرة هنا التعظيم وعدم إدراك الكنه، فهو سبحانه أعظم من أن تدركه العقول، وتحيط به الفهوم ولا يحيطون به علماً.

وقد اختص هذا الاسم بخصائص منها: [(١)].

(١) إنه لا يسمى به أحد غير الله، ولذلك لا يجوز إطلاقه علي غيره، ـ سبحانه ـ ولذلك قالوا: إن هذا الاسم للتعلُّق لا للتخلُّق، وما سواه يجوز وصف الإنسان به على سبيل التوسع والتجوز ويكون للاسم أو الوصف دلالة نسبية تتلاءم والإنسان وتختلف مع ما تشير إليه أو تقتضيه عند إطلاقها علي الذات الإلهية.

(٢) وقد اختص هذا الاسم أيضاً بخاصية شرعية أخرى وهى أن كلمة الشهادة (لا إله إلا الله) التي بسببها ينتقل الكافر من الكفر إلي الإسلام لا تحصل إلا به، فلو قال الكافر: أشهد أن لا إله إلا الرحمن أو الملك أو الحليم لم يخرج من الكفر، ولم يدخل في الإسلام، أما إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله. فإنه يخرج من الكفر ويدخل في الإسلام.

(٣) وهناك خاصية أخرى أيضاً لهذا الاسم، وهى أن سائر الأسماء إذا دخل عليها النداء أسقطت عنها الألف واللام، ولهذا لا يجوز أن يقال: يا لرحمن، يا لعليم بل يقال: يا رحمن، ياعليم. أما هذا الإسم فإنه يحتمل ذلك فيصح أن يقال: يا لله، وذلك لأن الألف واللام في هذا الإسم صارا كالجزء الذاتي فلا يسقطان حال النداء، وفيه

(١) إسماعيل بن كثيرا تفسير القرآن العظيم، جـ١، ص١٩، ص٢٠ (بتصرف).

إشارة لطيفة وذلك لأن الألف واللام للتعريف فعدم سقوطهما عن هذا الاسم يدل علي أن هذه المعرفة لا تزول عنه ألبته .

(٤) كما أن هذا الاسم هو الأصل في أسماء الله الحسنى، وسائر الأسماء تضاف إليه، قال تعالى : **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** .

فأضاف سائر الأسماء إليه، والموصوف قبل الصفة، ونقول : الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها من أسماء الله تعالى، ولا نقول الله اسم الرحمن الرحيم الملك القدوس، وهذا يدل على أن هذا الاسم هو الأصل .

وقد قال تعالى : **﴿قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن﴾** فخص هذين الاسمين بالذكر مما يدل على تقدمها على غيرهما، ثم إن اسم الله مقدم في الذكر علي الرحمن، مما يدل على أنه أصل لسائر الأسماء .

وقد رجح كثير من العلماء أن يكون اسم «الله» هو الاسم الأعظم للخصائص السابقة التى اختص بها .

والآن : هل وجود الله (عزّ وجلّ) يحتاج إلى برهان؟

وجود الله عز وجل من البداهات التي يدركها الإنسان ويهتدئ إليها بفطرته، فهو ليس من مسائل العلوم المعقدة . ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) .

والله (عز وجل) لا يعرف بالمخلوقات، بل يعرف الله بالله سبحانه وتعالى، قال عبد الله بن رواحة :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

---

(١) سورة ابراهيم آية : ١٠ .

فالله (عزّ وجلّ) يعرف با، والأشياء كلها تعرف بالله، وتزيد معرفته سبحانه وتعالى بالنظر في مخلوقاته. فالمسلم إذا نظر في مخلوقات الله تعالى، وما خلق من عجائب، مثل دوران الليل والنهار والشمس والقمر وتفكر في نفسه، وفي مبدئه ومنتهاه زادت معرفته بربه. قال تعالى: ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ (١).

والقرآن الكريم لفت نظر الإنسان إلى خالقه من عدة طرق منها: الفطرة، والعقل، والعلم.

فالتدين فطرة فطر الإنسان عليها. قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ (٢). فالإنسان لديه استعداد فطري ثابت للتدين والاعتراف بالحق. قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴾ (٣).

ثم يصور لنا القرآن الحالة النفسية للبشر عندما تشتد بها الكربات فيعودون إلى فطرتهم الأولى: ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ** ﴾ (٤).

﴿ **وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ** ﴾ (٥).

فالإيمان بالله (عز وجل) فطرة فطر الناس عليها من البداية وحتي نهاية هذا العالم. ويبقى الإنسان مفطوراً عليها ما دام مستقيماً في

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢١.
(٢) سورة الروم آية ٣٠.
(٣) سورة الزخرف آية ٩.
(٤) سورة فصلت آية ٥١.
(٥) سورة لقمان آية ٣٢.

تفكيره متحرراً من سلطان الوهم والخرافة والهوىٰ.

وايقاظ العقل لينظر في الكون المحيط إحدىٰ وسائل القرآن في الدلالة علىٰ الله ليتعرف علىٰ مخلوقات الله، وما تدل عليه من صفات كماله ونعوت جلاله ومظاهر عظمته، ونفوذ قدرته، وتفرده بالخلق والإبداع.

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١).

والذىٰ ينظر في الكون المحيط يجد كل شيء فيه محكماً متقناً مرتباً، السموات والأرض، والجبال والبحار، والإنسان وسائر المخلوقات كل هذه المخلوقات محكمة متقنة منظمة. فمن الذي أحكمها وأتقنها ونظمها، وهيمن عليها؟ ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢).

---

(١) سورة النمل آية (٥٩ ـ ٦٤).

(٢) سورة النمل آية ٨٨.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢) .

والإنسان عندما ينظر إلى نفسه يجد أنه لم يكن فكان فمن الذي كونه؟ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .

رُوي أن أبا حنيفة (رحمه الله) خاصم جماعة من الدهرية فقال لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملؤة من الأثقال قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: لا . هذا شيء لا يقبله العقل !! فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله ! إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ!! فبكوا جميعا، وقالوا؟ صدقت، وأغمدوا سيوفهم وتابوا .

وسألوا الشافعي (رحمه الله)، ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: « ورقة الفرصاد (التوت الأحمر) طعمها ولونها وريحها وطبعها

---

(١) سورة الفرقان آية (٦١ـ٦٢).
(٢) سورة فاطر آية ٤١ .
(٣) سورة الطور (٣٥ـ٣٦).

واحد عندكم؟ قالوا: نعم، قال: فتأكلها دودة القز، فيخرج منها الإبرسيم، والنحل، فيخرج منها العسل، والشاة، فيخرج منها البعر، ويأكلها الظباء فيعقد في نوافحها المسك!! فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك، مع أن الطبع واحد؟ فاستحسنوا منه ذلك، وأسلموا علي يديه، وهم سبعة عشر.

وتمسك أحمد بن حنبل (رحمه الله) بالدلالة على وجود الله تعالى - بقلعة ملساء لا فرجة فيها، ظاهرها كالفضة المذابة، وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير!! فلابد من الفاعل. عنى بالقلعة: البيض. وبالحيوان: الفرخ.

وسأل هارون الرشيد الإمام مالكاً عن ذلك، فاستدل باختلاف الأصوات، وتردد النغمات، وتفاوت اللغات.

أما دليل العلم فانظر في قوله تعالى: ﴿ **سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أن الحق أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد** ﴾ (١).

ففى كل يوم يكتشف العلماءُ أسراراً جديدة تبرهن على وجود الخالق الحكيم والذى خلق كل شىء وقدّره تقديراً فجميع ما في الكون يشهد علي وجود الله (سبحانه) ويدل على قدرته وعظمته، وما يقوم به العلماء من تحليل لظواهر الكون ودراستها فإنهم لايفعلون أكثر من ملاحظة عظمة الله في خلقة، وهم يقرون بأن العلوم ما هى إلا دراسة مخلوقات الله وآثار قدرته. وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد يقيناً بوجود الخالق البارىء (سبحانه وتعالى)، ففى هذا العصر الذي بلغ فيه العلم مبلغاً كبيراً خاصة في الجانب المادى نجد كثيراً من العلماء يزدادون إيماناً

---

(١) فصلت/ ٥٣.

بالله (عز وجل). وقد حلل دينريت Denret الآراء الفلسفية لأكابر العلماء بقصد أن يعرف عقائدهم، فتبين له من دراسة ٢٩٠ عالما أنهم بالنسبة للعقيدة الدينية كما يلي:

٢٤٢ منهم أعلنوا إيمانهم الكامل بالله.

٢٨ لم يصلوا إلى عقيدة.

٢٠ لم يهتموا بالتفكير الديني.

وهكذا نجد أغلبية ساحقة تزيد عن ٩٠٪ يعلنون إيمانهم بالله عن طريق أبحاثهم العلمية، ونجد من سواهم لا يزالون في تردد، أو لم يهتموا بالعقيدة الدينية في أبحاثهم، وأغلب الظن أن المترددين سيصلون يوماً، وأن الآخرين الذين لم يهدهم العلم لساحة الله يعانون نقصاً، لو تخلصوا منه لو صلوا [١].

ويقول الدكتور وتز الكيماوي الفرنسي إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي با قد تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها [٢].

فالفطرة البشرية والكون كله من حولنا شاهدان على وجود الله عز وجل: قال الشاعر:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيونٌ من لُجينٍ شاخصات ... وازهارٌ كما الذهب السبيك
على قضبِ الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

---

(١) انظر السيد سابق، العقائد الإسلامية، ص٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص٥٠.

وقال آخر:

قل للطبيب تخطفتة يد الردى يا شافى الأمراض من أرداكا؟
قل للمريض نجا وعوفى بعد ما عجزت فنون الطب من عافاكا؟
قل للصحيح يموت لا من علة مَنْ بالمنايا يا صحيح دهاكا؟!
قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى بها من ذا الذي أهواكا؟!
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام بلا اصطدام من يقود خطاكا؟!
قل للجنين يعيش معزولاً بلا راع ومرعى من الذي يرعاكا؟!
قل للوليد بكى واجهش بالبكا عند الولادة ما الذى أبكاكا؟!
وإذا تري الثعبان ينفث سمه فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟!
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا؟!
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهداً وقل للشهد من حلاكا؟!
بل سائل اللبن المصفى كان بين دم وفرث ما الذى صفاكا؟!

إن الدلالة على وجود الله (سبحانه) لا تحصى لكثرتها، فجميع ما في العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهده على وجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها.

وقد سئل أعرابى عن الدليل على وجود الله تعالى، فقال: البقرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع العليم القدير؟!

فالإلحاد اعوجاج في الفطرة، وتسفية للعقول، وتعال على الحق، ومن طرائف أجوبة الفطرة ما ذكر من أن معلماً. وقف يقول لطلابه في الصف السادس الإبتدائى:

أترونى؟

قالوا: نعم.

قال: إذاً أنا موجود.

ثم قال أترون اللوح؟

قالوا: نعم.

قال: فاللوح إذاً موجود.

ثم قال: أترون الطاولة؟

قالوا: نعم.

قال: فالطاولة إذاً موجودة.

ثم قال: أترون الله؟

قالوا: لا.

قال: فالله غير موجود.

فوقف أحد الطلاب الأذكياء، وقال: أترون عقل الأستاذ؟

قالوا: لا.

قال: فعقل الأستاذ إذاً غير موجود!

قال الشاعر:

فوا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاهد

ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وللإنسان أن يبحر بعقله في محيطات المعرفة المختلفة، وأن يفكر في الكون من حوله، وأن يتأمل مخلوقات الله (عز وجل) ويفكر في كيفية إبداعها. ولكن هناك منطقة محرمة لا ينبغي التفكير فيها، فما هي؟ ولماذا؟

هذه المنطقة هي ذات الله (عز وجل)، وسبب ذلك واضح وهو أن ذات الله (سبحانه) تتجاوز طاقة العقل البشري.

والبشرية - الآن - تنعم بخير مئات العناصر دون أن تعرف ذواتها أو حقائقها، فهي تنعم بخير الكهرباء، وغيرها، دون أن تعرف كنه أو ذات هذه الأشياء، فهناك أشياء مادية كثيرة في الوجود لا يعرف العلم حتى الآن كنهها أو حقيقتها، فهل يستطيع معرفة كنه الذات الإلهية؟!

هل يعقل أن تكون ذات الله (عز وجل) أبسط من شيء مادي كالكهرباء مثلاً؟!

إن في ذات الإنسان المادية وهو المخلوق الضعيف مناطق مجهولة لا يعرف عنها شيء حتى الآن، حتى إن أحد الباحثين ألف كتابا يتحدث فيه عن الإنسان ذلك المجهول. فهل يستطيع الإنسان الذي لم يعرف كنه نفسه أن يعرف كنه ربه؟!

قال الشاعر:

كيفية المرء ليس المرؤ يدركها ... فكيف بكيفية الجبار ذى القدم؟!
هو الذى أنشأ الأشياء مُبتدِعاً ... فكيف يدركه مُستحدَث النَّسم؟!

فذات الله عز وجل أكبر من أن تدركها العقول، أو تحيط بها الأفكار، وقصور العقل وعجزه عن إدراك حقيقة الأشياء لا ينفي

وجودها، فعجزه عن إدراك حقيقة الكهرباء لا ينفي وجودها، وعجزه عن إدراك حقيقة الضوء لا ينفي وجوده، وعجزه عن إدراك كنه الذرة لا ينفي وجودها، وعجزه عن إدراك حقيقة نفسه لا ينفي وجودها، وهكذا سائر الأشياء التي يقصر العقل عن إدراك حقيقتها ويعجز عن معرفة كنهها.

ومثل ذلك الذات الإلهية إذا عجز الإنسان عن إدراك حقيقتها فليس معنى ذلك أنها غير موجوده، بل هي موجوده كأقوى ما يكون الوجود. وليس للإنسان أن يفكر فيها لأنها أكبر من تفكيره وأعلى من إدراكه.

فالخوض في ذات الله (سبحانه) هلاكٌ وضياعٌ، والعقل البشرى مخلوق لا يبحث إلا في مخلوق مثله. فسبحانه الذى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١).

وإذا عرف المؤمن هذا الاسم العظيم، فماذا يجب عليه؟

علي المؤمن أن يعتز بالله، ولا يعتز بسواه، فكل ما حوله مخلوقات مثله، وخالقها ورازقها ومدبرها الله، فالأمر كله لله فلماذا يعتز المؤمن بسواه؟!

وكم من بشر اعتزوا بأموالهم فما لبثت أن ضاعت تلك الأموال، وكم من بشر اعتزوا بسلطانهم فجاءت النهاية.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾(٢).

---

(١) سورة الشورى آية ١١.

(٢) سورة الحاقة آية ٢٩.

فالمؤمن لا يحتمي ولا يعتز إلا بالله، ولا يتوكل إلا عليه (سبحانه) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ (١).

ومن دعاء النبي (ﷺ): «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والأنس والجن يموتون**» (٢).

والمؤمن مع هذه العزة لا يكون جباراً، ولا متكبراً ولا مغروراً، وذلك لأنه يعلم أن ما عنده من متاع إنما هو ابتلاء وامتحان، ولذلك فهو دائم الخوف من غضب ربه، هين لين مع إخوانه، شعاره:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (٣) فالمؤمن لا يحب ولا يعظم إلا الله (سبحانه) وإذا أحب غيره محبة تكون لله وفي الله (عزّ وجلّ).

فمحبة الأنبياء والصالحين ما هي إلا أثر من آثار حب الله (عزّ وجلّ) لأن محبوب المحبوب محبوب.

فالمحبوب الحقيقي المستحق للحب هو الله (عز وجل)، فهو الذي خلقنا ورزقنا وأفاض علينا من كل النعم. فوجودنا، ودوام هذا الوجود وكماله من الله (عز وجل).

فلا يتصور أن يحب العبد نفسه، ولا يحب ربه الذي به قِوام هذه النفس؟

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٨.

(٢) رواه البخاري ٧/ ١٦٧.

(٣) سورة الفرقان آية ٦٣.

وقد جُبل الإنسان علي حب من يحسن إليه، ونعم الله (عز وجل) لا تنقطع عن الإنسان أبداً: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

وفي عرف البشر الإنسان حتى وإن لم يصله إحسان المحسن، فهو مجبول على حب المحسن لذاته، فما بالك إذا كانت نعم الله (سبحانه) لا تنقطع عن الإنسان ليل نهار؟!

وعلى المؤمن أن يخلص العبادة لله وحده، فهو المستحق وحده لئن يعبد، ولا يستحق ذلك في الوجود غيره لأن ما سواه مخلوق، والمخلوق مساوٍ له أو أقل منه. فكيف يعبد الإنسان مساويه ومن دونه؟!

والذين عبدوا الأشجار ضلوا؛ لأنها نبات، والنبات مسخر للإنسان.

والذين عبدوا الأصنام ضلوا، لأنها مصنوعة من جماد والجماد أدنى من الإنسان، بل مسخر للإنسان!

والذين عبدوا الحيوانات (كالهندوس) ضلوا، لأن هذه الحيونات مسخرة للإنسان!

والذين عبدوا البشر (كالنصارى ودعاة الموتى) ضلوا لأن هؤلاء بشر مثلنا، وصاروا بعد موتهم ينتفعون بالأحياء ولا ينفعون الأحياء. قال رسول الله (ﷺ): «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له**» (٢).

---

(١) سورة النحل آية ١٨.

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٢٥٤) في الوصية.

والذين عبدوا الجن والملائكة ضلوا؛ لأنهم مخلوقات مثلنا وقد كرم الله (عز وجل) بني آدم وفضّلهم على الجن، وأمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم عندما خلقه.

فينبغي ألا نعبد إلا الله مخلصين له الدين ولو كره المشركون ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ (١).

ولا ينسى المؤمن بعدما عرف هذا الاسم أن يعطيه حقه من الذكر، فقد أمر الله عباده المؤمنين أن يكثروا من ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) **«لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»** (٣).

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علي من ظلمنا، وانصرنا علي من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا (٤).

اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد (ﷺ) وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله (٥).

---

(١) سورة الزمر آية ١١.
(٢) سورة الأحزاب آية (٤١ ـ ٤٢).
(٣) رواه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٧٢، كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح.
(٤) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وانظر صحيح الجامع ١/ ٤٠٠.
(٥) رواه الترمذي ٥/ ٥٣٧، وابن ماجه ٢/ ١٢٦٤ بمعناه.

الإلهُ الحقُ

٢ ٣

إله (فعال) بمعنى (مفعول) أي مألوه، ومعنى مألوه: معبود مستحق للعبادة يعبده الخلق ويؤلهونه [١].

ويبين شيخ الإسلام ابن تيميه ـ رحمه الله ـ معنى اسم الإله أحسن بيان فيقول: و«الإله» هو المألوه أي المستحق لأنه يؤله أي يعبد. ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده. وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل، وفعال بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والحمال؛ بمعني المركوب والمحمول... فهو الإله الحق لا إله غيره، فإذا عبده الإنسان فقد وحّده ولم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره: ﴿**فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين**﴾[٢]، وقال تعالى ﴿**لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً**﴾[٣] وقال ابراهيم لأبيه آزر: ﴿**أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾[٤] فالمخلوق ليس بإله في نفسه، لكن عابده اتخذه إلهاً وجعله إلهاً وسماه إلهاً، وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره.. فغير الله لا يصلح أن يتخذ إلهاً يعبد ويدعي، فإنه لا يخلق ولا يرزق، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد... فغير الله لا مالك لشيء، ولا شريك في شيء، ولا معاون للرب في شيء؛ بل قد يكون له شفاعة إن كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ولكن لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، فلابد أن يأذن للشافع أن يشفع، وأن يأذن

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق ص٢٤.
(٢) الشعراء، آية: [١٢٣].
(٣) الإسراء، آية: [٢٢].
(٤) الأنعام، آية: [٧٤].

للمشفوع له أن يشفع له، ومن دونه لا يملكون الشفاعة ألبتة، فلا يصلح من سواه لأن يكون إلهاً معبوداً كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً، لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (١).

وقد ورد هذا الاسم كثيراً في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢).

﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٣).

﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (٤).

والحق اسم من أسماء الله (عزّ وجلّ) الحسنى، فالله عز وجل هو الحق وكل معبود دونه باطل، والحق نقيض الباطل، ويقال: حقّ الشيء يحق حقاً: تأويله يجب وجوباً، فالله (عز وجل) حقّ وكل شيء من عنده، وكل ما عاد إليه حق، وكل ما أمر به ونهى عنه حق على العباد امتثاله أي واجب ذلك عليهم. فالله الحق أي هو الحق وما عبد من دونه باطل. والله عز وجل الحق أي ذو الحق في أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وجميع ما أنزله على لسان رسله وأنبيائه (٥).

فالله (عز وجل) هو الحق في ذاته وصفاته. فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته. ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل، ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً. ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً. فقوله حق، وفعله

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى، م١٣، ص٢٠٢، ص٢٠٥.
(٢) سورة البقرة آية ١٦٣.
(٣) سورة الأنعام آية ١٩.
(٤) سورة الحج آية ٣٤.
(٥) الزجاجي، مرجع سابق، ص١٧٨.

حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه حق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق وكل شيء ينسب إليه فهو حق [١].

فالله عز وجل هو الموجود الحق، الإله الحق، المعبود الحق، الذي يحق الحق بكلماته. ويحكم بين خلقه بالحق، ويوجد الأشياء بالحق بحسب مقتضى الحكمة. فاسم الحق يقع على ذات الله تعالى وعلى صفاته وأفعاله.

قال الراغب الأصفهاني. أصل الحق المطابقة والموافقة ويقال على أوجه: الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾[٢].

الثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة ولهذا يقال: فعل الله تعالى كله حق.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾[٣] إلى قوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾[٤].

الثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق.

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب. كقولنا فعلك حق، وقولك حق، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[٥]و﴿ **حق القول منى لأملأن جهنم**حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[٦]. وقوله (عز وجل): ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾[٧] يصح أن يكون المراد به الله تعالى، ويصح أن يراد به الحكم الذي هو بحسب مقتضى الحكمة. ويقال: أحققت كذا أي أثبته حقاً أو

---

(١) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٦٣١/ ٦٣٢.
(٢) سورة الأنعام، آية ٦٢
(٣) سورة يونس، آية ٣٣
(٤) سورة يونس، آية: ٥
(٥) سورة يونس، آية: ١٣
(٦) سورة السجدة، آية: ١٣
(٧) سورة المؤمنن، آية: ٧١

حكمت بكونه حقاً، وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾[١] فإحقاقه الحق على ضربين: أحدهما بإظهار الأدلة والآيات، والثاني: بإكمال الشريعة وبثها في الكافة كقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [٢].

وقد ورد اسم (الحق) في القرآن الكريم كثيراً، قال تعالى:

﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [٣].

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [٤].

﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾[٥].

والإله هو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى[٦].

وإذا كان وحده (سبحانه وتعالى) هو ربنا وملكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ولا معبود لنا غيره فلا ينبغي أن يُدعى ولا يُخاف ولا يُرجى ولا يُحب سواه ولا يُذل لغيره ولا يُخضع إلا له ولا يتوكل إلا عليه... فهو معبودنا وإلهنا الذي لا نستغني عنه طرفة عين بل حاجتنا إليه أعظم من حاجتنا إلى حياتنا وروحنا. فهو كافينا وحسبنا وناصرنا ومتولي أمورنا.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٨

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٢٥.

(٢) سورة يونس آية ٥.

(٣) سورة المؤمنون آية ١١٦.

(٤) سورة النور آية٥.

(٥) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج٢، ص٢٤٩.

فالإنسان بل وجميع المخلوقات عباد لله تعالى فقراء إليه مماليك له، وهو ربهم ومليكهم وإلههم، لا إله إلا هو فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلاً: بل نفسه وصفاته وأفعاله وما ينتفع به أو يستحقه وغير ذلك إنما هو من خلق الله. والله (عزّ وجلّ) رب ذلك كله ومليكه، وبارئه، وخالقه، ومصوره... فكل مخلوق فقير محتاج إلى الله عز وجل وليس فقيراً إلى سواه، فإن ذلك الغير فقير أيضاً محتاج إلى الله واستغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة العدم بالعدم؛ فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوةً وحولاً وإلا فليس له من نفسه شيء. قال سبحانه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٣) وأيضاً. فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال وتعظيم، فهو غاية مطلوبه، ومراده، ومنتهى همته، ولا صلاح له إلا بهذا.

وأصل الحركات الحب والذى يستحق المحبة لذاته هو الله، فكل من أحب مع الله شيئاً فهو مشرك، وحبه فساد، وإنما الحب الصالح النافع حب الله والحب لله (٤).

فالعبيد لا يستغنون عن الله (عز وجل) أبداً، وفي كل حال ومن كل وجه.

فالله (عزّ وجلّ) هو الغني وكل ما سواه إليه فقير، كما قال ابن تيمه (رحمه الله).

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

---

(١) ابن تيمية، مرجع سابق، مجلد ١٤، ص١٥، ص٣١.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٥
(٣) سورة الأنبياء، آية: ٢٨ (٤) سورة البقرة، آية: ١٠٢

وكلما صح الافتقار إلى الله (عزّ وجلّ) صح الاستغناء به عن كل ما سواه. لأن كل ما سواه فقير، وهو الغنى الحميد (سبحانه وتعالى).

قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾(١).

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾ (٢).

فالكرب إذا اشتد ويأس العبد من المخلوقين وتعلق قلبه بالله (عز وجل) وحده وصح افتقاره إليه كفاه الله (عز وجل) وكشف كربه وأنجاه.

يذكر الحازمى في كتاب الفرج بعد الشدة: أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومُنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركباً إلى إفريقيا يأتونى بأخبارها، فعمد القائد إلى مُقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذ بالمركب في موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم وأنفذت المركب فرجع بعد ساعة، وسيجيئك مقدم المركب. فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب، فبينما أنا في جوف الليل، والرجال يجدفون إذا بصوت يقول يا الله، يا غياث المستغيثين يكررها مراراً، فلما استقر صوته في أسماعنا ناديناه مراراً. لبيك لبيك وهو ينادى يا الله يا غياث المستغيثين، فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقّينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب فسألناه عن حاله، فقال: كنا مقلعين من أفريقيا فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت علي الموت، وما زلت أصيح حتى أتانى الغوث من ناحيتكم، فسبحان من أسهر سلطاناً، وأرقه في قصره

(١) سورة الفرقان آية٥٨.

(٢) سورة الطلاق آية ٣.

لغريق في البحر حتىٰ استخرجه من ظلمات ثلاث: ظلمه الليل، وظلمة البحر، وظلمة الوحده. فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه(١).

فالله عز وجل هو الإله الحق، وكل ما يدعىٰ من دونه باطل، قال تعالىٰ: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ (٢). ودينه هو الدين الحق: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِ ﴾ (٣).

وكتابه حق: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِ ﴾ (٤)، ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾(٥)، يهدىٰ إلىٰ الحق، ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ (٦)، ولقاؤه حق: ﴿ **وردوا إلي الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ ووعده حق ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (٧)، وحكمه حق: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨)، وخلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ﴿ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾(٩)، والموت حق: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١٠).

والبعث حق: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ (١١)، والجنة حق والنار حق: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾(١٢).

---

(١) إبراهيم الحازمي، الفرج بعد الشدة والضيقة، ج٤، ص٧٦.
(٢) سورة لقمان آية ٣٠.
(٣) سورة التوبة آية ٣٣.
(٤) سورة البقرة آية ١٧٦.
(٥) سورة الإسراء آية ١٠٥.
(٦) سورة الأحقاف آية ٣٠.
(٧) سورة الكهف آية ٢١.
(٨) سورة سبأ آية ٢٦.
(٩) سورة الروم آية ٨.
(١٠) سورة ق آية ١٩.
(١١) سورة ق آية ٤٢.
(١٢) سورة الأنعام آية ٣٠.

ومن دعاء النبي (ﷺ) إذا انتبه بالليل: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت»(١).

وإذا كان الله عز وجل هو الإله الحق فينبغي أن تكون أعمال العباد كلها خالصة له، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم. بل قد عدو الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً. فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجاؤهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم ألبته، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه»(٢).

ومن عرف أن الله (عزّ وجلّ) هو الإله الحق أمره حق، ودينه حق، وشرعه حق. كانت أعماله كلها وعبادته موافقه لأمر الحق (سبحانه).

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات وفي التهجد وفي التوحيد ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩) وغيرهما.

(٢) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، ج١، ص٨٣.

ولما يحبه ويرضاه. فينبغي أن يخلص العبد لله (عزّ وجلّ) وأن يقتدي بالرسول (ﷺ) فالعمل الصالح المقبول عند الله عز وجل هو العمل الخالص الصواب: أي الخالص لله (عزّ وجلّ) من الشرك والرياء والسمعة. والصواب ما كان على السنة أي المتابعة لرسول الله (ﷺ)، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[1].

والله (عزّ وجلّ) خلق العباد لعبادته الجامعه لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره. فهو سبحانه وتعالى الإله الحق، وكل إله سواه باطل، بل أبطل الباطل، وحقيقة الألوهية لا تنبغي إلا لله، والعبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود[2].

فأصل عبادة الله محبته، بل إفراده بالمحبة، ولا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبة هؤلاء من تمام محبة الله (عزّ وجلّ)، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه.

وتتحقق المحبة بأتباع أمره واجتناب نهيه ولذلك جعل الحق سبحانه وتعالى اتباع رسوله علماً على محبته. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[3]، فبدون متابعة الرسول لا تثبت لهم محبة الله (عز وجل)، ولا يحبهم الله.

---

(١) سورة الكهف آية: ١١٠.
(٢) ابن قيم الجوزيه، المرجع السابق، ص٩٧.
(٣) سورة آل عمران آية: ٣١.

ولابد أن يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما حتى تستقيم عبوديته لله عز وجل، يقول ابن القيم: «فلا يكون عنده شيء أحبَّ إليه من الله ورسوله، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفر الله لصاحبه ألبته، ولا يهديه الله. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1]. فكل من قدّم طاعة أحدٍ من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة ا: فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وإن قال بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه. وكذلك من قدّم حكم أحدٍ على حكم الله ورسوله. فذلك المقدم عنده أحب إليه من الله ورسوله[2].

والله عز وجل هو الإله الحق ومن ثمَّ ينبغي ألا يتخذ غيره معبوداً فهو الإله الواحد الحق، وأصح القلوب وأسلمها من اتخذه وحده إلهاً معبوداً فيكون أحب إليه من كل ما سواه وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى عنده من كل ما سواه فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء.

---

(١) سورة التوبة آية: ٢٤.

(٢) ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص١٠٠.

قال ابن القيم (رحمه الله):

والشرك فاحذره، فشرك ظاهرٌ ذا القسم ليس يقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه، ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان

فاتخاذ العبد لله نداً يحبه كمحبة الله، أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله، مناقض للتوحيد وهو شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام لا يقبل الغفران. فالعبودية لله وحده ولا حق لأحدٍ فيها سواه، سواء أكان ملكاً أم نبياً أو ولياً أم شجراً أم حجراً، فكل هذه مخلوقات مفتقرة غاية الافتقار إلى من خلقها وبرأها.

والتوحيد الحق أن يعلم العبدُ ويعترفَ على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده، المعبود على الحقيقة، وأن صفات الإلهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله تعالى. فإذا عرف ذلك واعترف به حقاً أفرده بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة..
وكمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء:

أولها: توحيد الإخلاص لله وحده فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده.

وثانيها: توحيد الصدق وهو توحد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربه وكمال عبوديته.

وثالثها: توحيد الطريق وهو المتابعة.

فمتى اجتمعت هذه الثلاثة نال العبد كل كمال وسعادة وفلاح[(١)].

---

(١) عبد الرحمن السعدي، الحق الواضح المبين، ص ١١٣.

قال ابن القيم (رحمه الله):

إن كان ربك واحداً سبحانه	فاخصصه بالتوحيد مع إحسان
أو كان ربك واحداً أنشاك لم	يشركه إذ أنشاك رب ثان
فكذاك أيضاً وحده فاعبده لا	تعبد سواه يا أخا العرفان
والصدق توحيد الإرادة وهو بذ	ل الجهد لا كسلاً ولا متوان
والسنة المثلى لسالكها فتو	حيد الطريق الأعظم السلطاني
فلو احد كن واحداً في واحد	أعني سبيل الحق والإيمان
هذي ثلاث مسعدات للذي	قد نالها والفضل للمنان
فإذا هي اجتمعت لنفس حرة	بلغت من العلياء كل مكان

«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأن كله لا إله إلا أنت»(١).

«اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ولقاؤك حق؛ والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت»(٢).

---

(١) رواه البخاري ومسلم ٤/ ٢٠٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات وفي التوحيد وفي التهجد ومسلم في صلاة المسافرون (٧٦٩) وغيرهما.

الواحد الأحد الوتر
٤ ٥ ٦

الواحد: الفرد الأول الذي لا نظير له ولا مثل كقولهم فلان واحد قومه في الشرف أو الكرم أو الشجاعة وما أشبه ذلك. أي لا نظير له في ذلك ولا مساجل[١].

فالواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر، وهو الفرد المتفرد في ذاته وصفاته وأفعاله وألوهيته، فهو واحد في ذاته لا يتجزأ أو لا يتفرق، أحدُ صمدُ لم يلِدْ ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. وهو واحد في صفاته لا شبيه له على الوجه اللائق به من غير أن يماثله أحد فيما يختص به وهو واحد في أفعاله لا شريك له. واحد في ألوهيته لا معبود حق إلا هو[٢] وقد ورد اسم الله «الواحد» في القرآن الكريم في أكثر من عشرين موضعاً، اقترن في ستة منها بالقهار.

قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٣].

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[٤].

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[٥].

﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[٦].

والأحد هو الذي تفرد بكل كمال ومجد وجلال وجمال وحمد

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص٩٠.

(٢) محمد بن صالح العثيمين، تقريب التدمرية، ص ١٣٨.

(٣) سورة الرعد آية: ١٦.

(٤) سورة غافر آية: ١٦.

(٥) سورة البقرة آية ١٦٣.

(٦) سورة الأنعام آية ١٩.

وحكمة ورحمة وغيرها من صفات الكمال، فليس له فيها مثيل ولا نظير ولا مناسب بوجه من الوجوه، فهو الأحد في حياته وقيوميته، وعلمه وقدرته، وعظمته وجلاله، وجماله وحمده، وحكمته ورحمته، وغيرها[١]، من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايته، من كل صفة من هذه الصفات.

وقد ورد اسم الأحد مرة واحدة في القرآن الكريم: في سورة الإخلاص ﴿قل هو الله أحد﴾ ويفرق العلماء بين الواحد والأحد من وجوه:

الأول: أن الواحد اسم لمفتتح العدد، فيقال: واحد واثنان وثلاثة. أما أحد فينقطع معه العدد فلا يقال: أحد اثنان ثلاثة.

الثاني: أن أحداً في النفي أعم من الواحد. يقال: ما في الدار واحد، ويجوز أن يكون هناك اثنان أو ثلاثة أو أكثر. أما لو قال: ما في الدار أحد فهو نفي وجود الجنس بالمره، فليس فيها أحد ولا اثنان ولا ثلاثة ولا أكثر ولا أقل.

الثالث: لفظ الواحد يمكن جعله وصفاً لأي شيء أريد، فيصح القول: رجل واحد، وثوب واحد، ولا يصح وصف شيء في جانب الإثبات بأحد إلا الله الأحد: «قل هو الله أحد» فلا يقال: رجل أحد ولا ثوب أحد فكأن الله عز وجل استأثر بهذا النعت.

فالله سبحانه وتعالى واحد أحد تناهى في سؤدده لا شريك له، ولا عديد، ولا شبيه له، ولا نظير[٢].

---

(١) انظر: سعيد القحطاني، شرح أسماء الله الحسنى، ص١٦٧.

(٢) انظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٥٧٠.

والوتر: خلاف الشفع، والشفع يشمل جميع المخلوقات من حيث أنها مركبات، كما قال تعالى: ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين** ﴾ والوتر هو الله عز وجل من حيث أن له الوحدة من كل وجه(١).

فالوتر من أسماء الله الحسنى أي الواحد الفذ الفرد جلّ جلاله.

وقد جاء في الحديث النبوى الشريف « **لله تسعةُ وتسعون اسماً مائة إلا واحداً لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر** »(٢).

وقد سلك القرآن الكريم عدة مسالك لإثبات التوحيد، منها:

أولاً: إقامة الحجة بالإقرار وقد كان المشركون يقرون بتوحيد الربوبية، فهم يقرون بأن ربهم هو الخالق الرازق مدبر الأمور ومصرفها، يعطى ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل، ويحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾(٣)، ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴾(٤).

ولكنهم لم يستفيدوا من هذا الإقرار في توحيد الله بالعباده، وإخلاصها له (سبحانه وتعالى) بل اتخذوا معه وسائط؛ وزعموا أنها شفعاء وأنها تقربهم إلى الله زلفى. فتوحيد الربوبيه الذي أقرّبه المشركون حجة عليهم في إنكارهم توحيد الله بالعباده لأنه يستلزمه،

---

(١) الراغب الأصفهانى، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم إلا واحدة، ومسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فى أسماء الله الحسنى وفضل من أحصاها.

(٣) سورة الزخرف آية ٨٧.

(٤) سورة يونس آية: ٣١.

ويدل عليه ويوجبه فلهذا أقام الله الحجة عليهم بهذا الإقرار فقال: ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ وفي آيات أخرى ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ فمن تدبر هذا الأمر الذي أقروا به، استفاد لو عقل أن هذا المتصف بهذه الصفات هو المستحق لأن يُعبد، ما دام هو الخلاق، وهو الرزاق، وهو المحيي، وهو المميت وهو المعطي، وهو المانع، وهو المدبر للأمور، وهو العالم بكل شيء، والقادر على كل شيء، فكيف تصرف العباده لغيره؟!! بل كيف يرجى غيره، ويخاف غيره لو عقل أولئك الكافرون؟!![1].

ثانياً: الاستدلال العقلي: ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2].

وهذا شيء معلوم معروف بأدنى تفكير فوجود ملكين في مدينة واحدة ـ مثلاً ـ يفسدها فكيف بالألوهية. فوجود أكثر من إله يستحيل عقلاً فإما أن يعملوا ويخلقوا معاً وهذا مستحيل، وإما أن يعمل بعضهم ويتعطل البعض وهذا أيضاً مستحيل، لأن المتعطل لا يستحق الألوهية. فعدم فساد العالمَ دليل على أنه ليس هناك إلا إله واحد لا شريك له.

وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3].

قال ابن كثير (رحمه الله). ينزه الله تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة. فلو قدر تعدد الآلهية لا نفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود، والمشاهدُ أن الوجود منتظم منسق كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض في غاية

---

(١) عبد العزيز بن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعه، ج١، ص٣٦.
(٢) سورة الأنبياء اية ٢٣.
(٣) سورة المؤمنون آية ٩١.

الكمال ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض(١).

ولذلك تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بدليل على التعدد قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٢).

فلا يوجد دليل عقلي واحد يبرهن على قضية التعدد.

فالله عز وجل واحد لا شريك له، وهذا شيء جلي واضح ساطع البرهان، وتوحيده (سبحانه وتعالى) نعمة كبرى يحمد عليها سبحانه.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

فأيهما أفضل المملوك الذي اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، يتجاذبونه في خدمتهم، وهو مشتت حائر بينهم، كلما أرضى أحدهم أغضب الآخرين، وإذا أحتاج إليهم لا ينفعونه وإنما يكله كل منهم إلى الآخر، فهو في تعب دائم وعذاب مقيم ـ أم الرجل الذي له مخدوم واحد وسيد واحد على سبيل الإخلاص، وذلك المخدوم يعينه على مهماته ولذلك فهو في راحة وسعادة. فالحمد لله إنه إله واحد، ليس معه شريك.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾(٤).

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٤.
(٢) سورة الأنبياء آية: ٢٤. (٣) سورة الزمر آية: ٢٩.
(٤) سورة الإسراء آية: ١١١.

فهو الله الواحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لا يحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئتة وحده لا شريك له، لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد فوجب إجلاله وتعظيمه.

يقول حسن هويدي: «والتوحيد معروف بالبداهة وإذا أردنا أن نبرهنه، نقول يمكننا أن نختصر القول بالتعدد إلى التثنية فإذا صحت التثنية صح التعدد من غير حصر، وإن بطلت بطل التعدد ولزم التوحيد، ففي وجود اثنين يترتب على أحدهما أن يحيط بالثاني قدرة وعلما. فإن عجز عن ذلك فهو ليس بإله فيبقى واحداً، وإن قدر على ذلك سقطت ألوهية الثاني وبقي واحداً[(١)].

ثالثاً: أما المسلك الثالث فهو النظر والتفكر في مخلوقات الله وآثار قدرته في الكون. قال تعالى: **﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[(٢)].

والكون كله من حولنا دليل ساطع على وحدانية الله تعالى[(٣)].

---

(١) حسن هويدي، الوجود الحق، ص٧٠.

(٢) سورة النمل آية (٥٩ ـ ٦٤).

(٣) استعين في كتابة بعض فقرات هذا الجزء بما كتبه جمال الدين عطيه في كتابه «وحدانيه الله دلائلها من العلم الحديث» مع اختصار وتصرف.

(١) فالكون كله من حيث الشكل وحدة واحده، فالشمس والكواكب التي تدور حولها تؤلف وحدة واحدة تحيط بها هاله من المذنبات وهذه الوحدة الشمسية عضو في سحابة من النجوم، وهذه السحابة النجومية عضو في مجموعة من السحب النجومية تسمى المجرة، وتحيط بها هالة من التجمعات الكروية المتألقة كما يحيط الإطار بالصوره فتجعلها وحدة واحدة، وهذه المجره عضو في مجموعة من المجرات تؤلف ما يعرف بـ «فوق المجرة» وهكذا ينتظم الكون كله في وحدة واحدة تجمع أطرافه، وهذه الوحدة الشكلية للكون توحي ـ بدورها ـ بأن مالك الكون وخالقه إنما هو إله واحد، لأنه لو كان في الكون آلهه إلا الله لذهب كل إله بما خلق، ولانفصلت مخلوقات كل إله على حده.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(١).

(٢) الأجرام السماوية المرئية كلها تتصف بصفة مشتركة لا يحيد عنها كويكب صغير ولا نجم عملاق، ألا وهي صفة الحركة.

* فالقمر يدور حول الأرض وكذلك سائر الأقمار، كل يدور حول كوكبه.

* والكواكب السيارة والمذنبات تدور في أفلاكها ـ وهو وما يتبعها من أقمار ـ حول الشمس.

* والشمس وسائر النجوم في مجرتنا تدور حول مركز المجره، هي وما يتبعها من كواكب وأقمار.

---

(١) سورة المؤمنون آية ٩١.

* وكل جرم يدور حول نفسه بالإضافة إلىٰ حركته حول الجرم الذي يتبعه أو حول مركز المجرة.

* ثم إن حركة الأجرام السماوية جميعاً تكون دائماً من الغرب إلىٰ الشرق أي في اتجاه مضاد لحركة عقارب الساعة.

* والعجيب أن صفة الحركة المزدوجة هذه نجدها في أصغر الأشياء - وهىٰ الإلكترونيات - كما نجدها في أكبر الأشياء - وهىٰ الأجرام السماوية، فالإلكترونيات تدور حول نفسها بالإضافة إلىٰ حركتها حول نواة الذرة.

* فالحركة المزدوجة في الجميع، ثم الاتجاه الواحد من الغرب إلىٰ الشرق من دلائل وحدانية الخالق؛ لأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لكان للآلهة الأخرىٰ أسلوب مختلف في الخلق. فالأسلوب الواحد في الخلق دليل علىٰ الإله الواحد الحق.

ولو تعددت الآلهة لتعددت أنظمة الحركة ولاصطدمت بعضها ببعض في أثناء حركاتها المتعددة.

قال تعالىٰ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(١).

(٣) تتحد الكائنات الحية والجمادات في الوحدة البنائية الأولىٰ لكل منهم. فالأساس التركيبى للكائنات الحية والجمادات هو الذرة.

فكلُّ شيء علىٰ الأرض يمكن أن يُحلّل إلىٰ ذرات، فالإنسان - وهو أرقىٰ هذه المخلوقات - يتكون جسمه من ذرات.

فالخلية وهىٰ اللبنة الأولىٰ في جسمه تتكون من ذرات.. وكذلك

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٢٢.

الجمادات كالصخور والماء و الهواء يمكن تحليلها إلى ذرات .

والتركيب الداخلى للذرات في هذه الكائنات متشابه ، فذرات العناصر جميعاً يتوسطها نواة صغيرة فى الحجم بالنسبة لحجم الذرة ، ولكنها كبيرة جداً في الوزن ، يحيط بها فراغ كبير ، تدور فيه جسيمات ذات شحنات سالبة تسمى الإلكترونيات ، وعددها مساو للشحنات الموجبة أو للبروتونات التى تحتويها الذرة بحيث تتعادل النواة كهربياً . كما أنها تدور بسرعة عظيمة موزعة على طبقات . أو مستويات بعضها فوق بعض كأنما الذرة بصلة قشورها من فراغ . فوحده التكوين في الكائنات الحية والجمادات واحدة وهى الذرة .

ونلاحظ وحدة التصميم والتكوين أيضاً في اشتمال الخلايا والذرات على نوى ، فللخلية نواة يحيط بها البروتوبلازم ، وللذرة نواة تدور حولها إلكترونيات .

* وإذا نظرنا إلى الخلية كوحدة بناء لكل كائن حى وجدنا التقارب الكبير في خواص الأجزاء الرئيسية للخلايا ، فهناك فرق ضئيل جداً من ناحية خواص الأقسام الرئيسية بين خلية عشب وخلية حشرة بين خلية جناح فراشة وبين خلية دماغ حيوان ، وبعد اكتشاف جزئيات D. N. A ، وإجراء التجارب العديدة والدقيقة عليها ، تبين لنا أن جميع الخلايا تستند على هذه الجزئيات المدهشة التى نطلق عليها اسم D. N. A . ففى نظم هذه الجزئيات وفى شفراتها الوراثيه وخواصها الحيوية لا نجد فرقا يذكر من حيث وحدات البناء بين أبسط خليه في عشب وبين ما يطلقون عليه اسم الخلية المعقدة والفرق بين هذه الخلايا هو الفرق فى البرمجة الرياضية الموجودة فيها . وما عدا ذلك فالخلايا مخلوقة بنفس الدقة وبنفس الروعة ، فالوحدات البنائية الأساسية واحدة فى كل الخلايا[١] .

---

(١) خلوفى نورباقى ، الإنسان ومعجزة الحياة ، ص٢٦ .

فنحن إذن أمام أسلوب واحد لخالق واحد انفرد بخلق الكائنات جميعاً، ولو تعددت الآلهة لتعددت أساليب الخلق. ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾(١).

(٤) الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان تقوم حياتها على أسس أربعة لا يشذ عنها الصغير أو الكبير أو البسيط أو المعقد، فهي أسس واحده نوجزها فيما يلي:

* حصول الكائن الحي على ما يلزمه من غذاء، وتحويله إلى صورة صالحة للانتفاع به.

* توليد الطاقة الحرارية اللازمة لقيام خلايا الجسم وأجهزته وأعضائه المختلفة بوظائفها الحيوية، ولتثبت درجة حرارة الجسم والتعويض عما يفقده من حرارة، وهذا التوليد هو المسمى بالتنفس، وهو عملية هدم أو تحلل للمواد الغذائية تكسر الروابط الكيماوية الموجودة بين وحداتها، فبسببه تنطلق الطاقة.

* بناء الجسم بتكوين الخلايا والأنسجة الجديده التي يستخدمها الكائن الحي في النمو، أو يستعيض بها عن الأنسجة التالفة، وهذه العملية البنائية تتم باستخدام المواد الغذائية والطاقة الحرارية المتولدة من هدم الغذاء.

* التخلص من الفضلات الضارة، أو غير الضرورية بإخراجها من الجسم، فهذا أساس رابع للحياة؛ لتخليص الجسم مما يضره، ولكي لا تختل نسب المواد الموجودة في الجسم وتتغير حالة اتزانه بسبب تراكم المواد غير العضوية.

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٣.

وهذه الأسس الواحدة تدل على أن الخالق واحد، ولو تعددت الآلهة لتعددت الأسس وصار لكل إله أسس لمخلوقاته يختلف بها عن غيره.

فليس هناك إلا إله واحد له طريقته الواحدة، ونظامه الواحد. فسبحان الواحد الأحد الذي لا شريك له!

(٥) إذا تأملنا في الكون المحيط بنا، ونظرنا إليه نظرة شاملة وجدنا أنه قد خلق بإرادة واحدة لا بإرادتين، وربطت أجزاءه حكمة خالق واحد، ففتحه البواب في المعدة مرتبطة بالمعدة، والمعدة مرتبطة بالجهاز الهضمي، والجهاز الهضمي مرتبط بالجهاز الدموي (الدوري) والجهاز الدوري مرتبط بالجهاز التنفسي، والجهاز التنفسي مرتبط بالجهاز العضلي، والعضلات مرتبطة بالعظام، والعظام مرتبطه بالجسم بأكمله، وهكذا لا قيمة لأي جزء في الإنسان إلا بإرتباطه بباقي الأجزاء.. والإنسان مرتبط بالأرض وما فيها من تراب ونبات وأمطار تمده وزرعه وأنعامه بالماء اللازم للحياة، ورياح تحرك وتسوق السحب، وشمس تعمل على تكوين الطعام وإنضاج الثمر، وتيسير كثير من شؤون الإنسان، وجاذبية أرضية تمسكه من أن يلقى به في الفضاء وهكذا.

والأرض وما فيها مرتبط بالشمس وسائر أفراد المجموعة الشمسية. والشمس وتوابعها مرتبطة بالمجرة، والمجرة بغيرها من المجرات في نظام كوني بديع فهذا الترابط بين الموجودات ابتداء من فتحه البواب في المعدة وحتى المجرات يدل دلاله واضحه ساطعة على أن الخالق واحد.

(٦) إن موجودات الكون بأنواعها المختلفة، تتعاون فيما بينهما تعاوناً وثيقاً، ويسعى كل جزء منها لتكملة مهمة الآخر وكأنها تمثل

بمجموعها وأجزائها تروس معمل بديع ودواليبه، وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة في إسعاف كل منها لطلب الآخر، وإمداد كل جزء للجزء الآخر، بل هذا التعاون بين الأجزاء والاندماج يجعل من أجزاء الكون كله وحدة متحدة تتعصى على الانقسام والانفكاك، يشبه في هذا وحدة أجزاء جسم الإنسان الذي لا يمكن فك بعضها عن البعض الآخر، لشدة ما بينها من الترابط والاندماج، فمظاهر التعاون والتساند والتجاوب والتعانق الواضحة على وجه الكون، إنما هى آيات كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.

(٧) وكما أن تشابه أعضاء وجوه البشر مثلاً من عيون وأنوف وشفاه ـ دليل قاطع على وحدانية الخالق، فكذلك العلامات الفارقة الموضوعة فى كل وجه والتى تميزه عن غيره من الوجوه دليل ساطع على وحدانية الخالق. فحتى توضع هذه العلامات الفارقة فى كل وجه لابد أن يكون هناك اطلاع على جميع الوجوه السابقة واللاحقه منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، ولابد لواضع هذه العلامات من أن يكون أفراد البشر كافة تحت نظره وشهوده، وضمن دائرة علمه حتى يضع ذلك الختم المميز لكل وجه، وهذه آية بديعة جلية على وحدانية الخالق. فخالق البشر كلهم إله واحد من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. ومن ثمَّ فهو يضع هذه العلامات المميزة الفارقة لكل إنسان(١).

وتوحيد الله عزّ وجلّ هو أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق إلى الله (عزّ وجلّ)، فهو مفتاح دعوة كل رسول.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾(٢).

---

(١) سعيد النورسى، الاسم الأعظم، ص٥٧. (٢) سورة الأعراف آية ٥٩.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(١) .

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٢) .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٣) .

والتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي (ﷺ)، «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله : دخل الجنة»(٤) .

فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد: أول الأمر وآخره.

والتوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب نوعان:

(أ) توحيد في المعرفة والإثبات.

(ب) توحيد في المطلب والقصد.

والنوع الأول هو توحيد الربوبية. ويتضمن الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق البارئ المصور المالك المحيي.

والقرآن الكريم مليء بالأدلة على هذا النوع من التوحيد، فهناك العديد من الآيات التي تتحدث عن خلق الله وبديع صنعه وتصريفه لأمور الكون وتدبيره لشئونه كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا .وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾(٥) .

---

(١) سورة الأعراف آية ٦٥ .

(٢) سورة الأعراف آية ٧٣ .

(٣) سورة الأعراف آية ٨٥ .

(٤) رواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٥) سورة نوح آية (١٥ ـ ٢٠).

وهذا النوع من التوحيد أقرَّبه الجاهليون، وبينّ القرآن الكريم أنهم لم يستطيعوا أن ينكروا الدلائل الواضحة على ربوبيته. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(١).

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ. قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾(٢).

أما النوع الثانى فيراد به توحيد الألوهية أو العبودية، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه هو الإله الحق، ولا إله غيره وإفراده سبحانه وتعالى بالعباده بأن لا يعبد أحد سواه، وأن يكون له الانقياد والخضوع والطاعة المطلقة. وهذا التوحيد قائم على إخلاص العبادة لله وحده ظاهراً وباطناً، بحيث لا يكون شئ منها لغيره (سبحانه) فيخلص لله المحبة والخوف والرجاء والدعاء والتوكل والطاعة والتذلل والخضوع وجميع أنواع العباده وأشكالها.

يقول ابن تيمية: «إن هذا التوحيد (أى توحيد الألوهيه، هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب فى الأولى والآخرة، فمن لم يأت به كان من المشركين»(٣).

ويستلزم هذا النوع من التوحيد عدة أمور من أهمها:

١ ـ إخلاص العباده كلها من تعظيم ومحبة وتوكل وخوف ورجاء

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦١.

(٢) سورة المؤمنون آية (٨٤ ـ ٨٩).

(٣) ابن تيمية، الحسنه والسيئة، ص١٢٨.

وتحاكم لله تعالى، فلا يعظم غير الله (عزّ وجلّ) ولا يحب غيره فمن أحب أحداً مثل حبه لله أو قدمه في المحبة على محبة الله تعالى فهو من المشركين قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقاً على هذه الآية: ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله. فدلّ على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام فكيف بمن أحب الند أكثر من حبه الله؟ وكيف بمن أحب الند وحده، ولم يحب الله؟(٢).

ويقتضى هذا التوحيد أيضًا ألا يتوكل العبد إلا على الله ولا يرجو غيره ولا يدعو سواه. قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣)(٤).

أورد السيوطى في تاريخ الخلفاء: أنه لما فتحت مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص - رضى الله عنه - حين دخل يوم من أشهر العجم، فقالوا: يا أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها.

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى ج١، ص٩٢. (٣) سورة المائدة آية ٢٣.

(٤) والتوكل على غير الله تعالى أقسام: أحدهما: التوكل فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله، كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت فى تحقيق المطالب من النصر والحفظ والرزق أو الشفاعة، وهذا شرك أكبر. والقسم الثانى: التوكل فى الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على سلطان أو أمير أو أى شخص حى قادر فيما أقدره الله من عطاء أو دفع أذى ونحو ذلك، فهذا شرك أصغر، لأنه اعتماد على الشخص، والقسم الثالث هو إنابة الإنسان من يقوم بعمله عنه مما يقدر عليه كبيع وشراء فهذا جائز، ولكن ليس له أن يعتمد عليه فى حصول ما وكل فيه بل يتوكل على الله فى تيسير أموره التى يطلبها بنفسه أو نائبه؛ لأن توكيل الشخص فى تحصيل الأمور الجائزة من جملة الأسباب والأسباب لا يعتمد عليها وإنما يعتمد على الله سبحانه الذى هو مسبب الأسباب وموجد السبب والمسبب.

قال: وماذاك؟

قالوا: إذا كانت إحدى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الثياب والحلى أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل.

فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون أبداً فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله.

فأقاموا والنيل لا يجرى قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو؛ كتب إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بذلك، فكتب له، أن قد أصبت بالذى قلت، وإن الاسلام يهدم ما كان قبله. وبعث بطاقة فى داخل كتابه، وكتب إلى عمرو:

إنى قد بعثت إليك ببطاقة فى داخل كتابى، فألقها في النيل.

فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص، أخذ البطاقة، ففتحها، فإذا فيها: من عبد الله بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر.

أما بعد: فإن كنت تجرى من قبلك؛ فلا تجر، وإن كان الله يجريك؛ فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

فالقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم فأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة، فقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم.

فمن مقتضيات هذا التوحيد أن يعتقد المرء أن الضر والنفع من الله فلا يخاف إلا منه ولا يرغب إلا إليه، فمن اعتقد أن شيئاً غير الله يمكن أن يضره بمشيئتة وقدرته فخاف منه فقد أشرك بالله، قال تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(١)، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا

(١) سورة النحل آية ٥١.

رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

٢ ـ ويستلزم هذا التوحيد أيضًا ألا يتخذ العبد غير الله حكماً يطيعه كما يطيع الله (عزّ وجلّ) قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾(٢) فالحكم في شئون الحياة جميعها إنما هو لله وحده، ومن ثم ينبغي أن يكون التشريع له وحده. قال تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

وقد اعتبر القرآن التحاكم إلى غير الله ورسوله خروجاً عن حقيقة الإيمان ودخولاً في طاعة الشيطان: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾(٤).

٣ ـ وينبغي أن يصاحب إخلاص العبودية لله، الكفر بالطواغيت والبراءة من كل من عبدها أو والاها من دون الله، والطاغوت كما يقول ابن القيم ـ كل ما تجاوز به العبد حَدّه من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما يعلمون أنه طاعة لله (٥).

وقد اهتم القرآن بقضية الكفر بالطاغوت وقدمه أحياناً على الإيمان

---

(١) سورة يونس آية ١٠٧.
(٢) سورة الأنعام آية ١١٤.
(٣) سورة يوسف آية ٤٠.
(٤) سورة النساء آية (٦٠ ـ ٦١).
(٥) عن سليمان بن عبد الرحمن آل شيخ، تيسير العزيز الحميد، ص٥٠.

بالله تعالىٰ كما ورد فىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١) .

٤ ـ ويستلزم التوحيد أيضاً اتقاء الشرك والحذر منه ، فبالإضافة إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ وعبادته والكفر بالطاغوت لابد لتحقيق التوحيد من التحرر من كل شائبة للشرك صغيرة كانت أم كبيرة جلية أم خفية .

وينقسم الشرك إلىٰ نوعين : أكبر وأصغر .

أولاً: الشركُ الأكبر : وهو أن يتخذ العبد نداً من دون الله ، يحبه كما يحب الله ، وهو الشرك الذي يضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين . ولهذا قـ(٣) رواه مسلم في كتـ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) . فمع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء ، وربه ومليكة وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ، ولا تحيىٰ ولا تميت ، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركىٰ العالم ، بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله . وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله(٣) . ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده . ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم ـ من المشايخ ـ أعظم مما يغضبون

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٢) سورة الشعراء آية (٩٧ ـ ٩٨) .

(٣) المحبة قسمان : محبة مختصة ، وهىٰ محبة العبودية التىٰ تستلزم كمال الذل والطاعة للمحبوب وهذه خاصة بالله تعالىٰ ، ومحبة مشتركة وهىٰ ثلاثه أنواع : محبة طبيعية كمحبة الجائع للطعام ، ومحبة إشفاق كمحبة الوالد لولده ، ومحبة أنس وإلف كمحبة الشريك لشريكه والصديق لصديقه ، وهذه المحبة بأنواعها الثلاثة لا تستلزم التعظيم والذل ولا يؤاخذ أحد بها ولا تزاحم المحبة المختصة فلا يكون وجودها شركاً . لكن لابد أن تكون المحبة المختصة التىٰ لله عز وجل مقدمه عليها .

إذا انتقص أحد رب العالمين، وهؤلاء وعباد الأصنام في طريق واحد والفارق بينهما أن عباد الأصنام آلهتهم من حجر وهؤلاء آلهتهم من بشر.. والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله. وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه. ورضى قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء.. فالشفاعة التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده، والتى نفاها هي الشفاعة الشركيه، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء. فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم. ويفوز بها الموحدون.. وتأمل قول النبي (ﷺ) لأبى هريرة ـ وقد سألة «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: أسعد الناس بشفاعتى: من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه» كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم وموالتهم من دون الله. فقلب النبي (ﷺ)، ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع[١].

وهذا النوع من الشرك مناقض للتوحيد، ومخرج من دائرة الإسلام، ولا يقبل الغفران، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٢].

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، ج١، ص٣٣٩ـ٣٤١.
(٢) سورة النساء آية ٤٨.

وقال عنه ابن القيم رحمه الله :

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس يقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيا ... كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الديان

ويدخل في هذا النوع السجود أو الركوع لغير الله (عزّ وجلّ)، والخوف من غير الله[1]، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابه والخضوع والذل لغير الله. وابتغاء الرزق من عند غير الله، وحمد غيره على ما أعطى. . والذّم والسخط على ما لم يقسمه، ولم يجربه القدر واعتقاد أن يكون في الكون مالا يشاؤه.

ومن أنواع هذا الشرك ـ أيضاً ـ طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم لأن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده . . والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي (ﷺ) إذا زرنا قبور المسلمين «أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة «فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العباده، واستقضاء الحوائج، والاستغاثة بهم وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد،

---

(١) لا يدخل في هذا الخوف الفطرى الطبيعي مثل الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك فليس ذلك بمذموم كما قال تعالى في قصه موسى عليه السلام (فخرج منها خائفاً يترقب) لأن العلماء قسموا الخوف إلى ثلاثة أقسام: خوف السر وهو شرك أكبر وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب من جن وأنس أن يصيبه بمكروه كما يخاف عباد القبور من الموتى بل ويخوفون غيرهم. والنوع الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس فهذا محرم وهو شرك أصغر. والنوع الثالث: هو الخوف الطبيعي الفطرى كما سبق.

وسموا قصدها حجاً. . . فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات. وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك. وأولياءه - الموحدين له الذين لم يشركوا به شيئا - بذمهم وعيبهم ومعاداتهم وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص. إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم يوالونهم عليه. وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان(١).

والنجاة من هذا الشرك تكون بتجريد التوحيد لله عزّ وجلّ، ومعاداة المشركين، والتقرب إلى الله بمقتهم، واتخاذ الله عزّ وجلّ وحده ولياً وإلهاً معبوداً. فلا يحب العبد إلا الله، ولا يخاف إلا منه ولا يرجو غيره، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يستعين إلا به ولا يلتجيء إلا إليه، ولا يتبع إلا أمره، ولا يطلب إلا مرضاته. فإذا سأل سأل الله وإذا استعان استعان بالله. ، وإذا عمل عمل لله، وبالله، ومع الله.

ثانياً: الشرك الأصغر: وهذا النوع من الشرك يشمل يسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله. كما ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قال «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» (٢).

وقول الرجل للرجل «ما شاء الله وشئت» و«وهذا من الله ومنك» و«أنا بالله وبك» و«مالي إلا الله وأنت» و«أنا متوكل على الله وعليك» و«لولا أنت لم يكن كذا أو كذا». وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده، وصح عن النبي (ﷺ) أنه قال لرجل قال له« ما شاء الله وشئت»: أجعلتني لله نداً؟

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ح٢، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٢) رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم.

قل: ما شاء الله وحده. فالواجب حتى يبتعد عن الشرك أن يعطف «بـ» ثم» فيقال: « ما شاء الله ثم شئت «أو ثم شاء فلان» «ولولا الله ثم أنت» أو «ثم فلان» أو « مالي إلا الله ثم أنت» لأن العطف بثمّ يقتضي الترتيب والتراخي وأن مشيئة العبد تأتي بعد مشيئة الله تعالى لا مساوية لها. كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾(١) فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى.

ويدخل في هذا النوع من الشرك بعض التعاويذ المنافية للتوحيد كلبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو توقيه وتعليق التمائم لدفع الضر، والرقى والسحر والتوله والكهانة والعرافة والطيره التي كان يمارسها أهل الجاهلية قبل الإسلام، وهذه الأمور قد تكون شركاً أكبر إن اعتقد أن لها تأثيراً في الحوادث. ولا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأ من الشرك كلّه: جليه وخفيه ظاهره وباطنه، الأقوال منه والأفعال وتكون أعماله كلها خالصة لله متبعاً فيها سنة رسول الله (ﷺ).

وهناك أمور أخرى غير ما ذكر تقدح في التوحيد وتنافيه بل تقتضي الرده عن دين الإسلام منها:

١- سوء الظن بالله، وهو أمرٌ خطيرٌ لأن حسنَ الظنِ بالله من مقتضيات التوحيد، وسوء الظن ينافي التوحيد، وقد وصف الله تعالى المنافقين بأنهم يظنون به غير الحق، فقال تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾(٢).

وأخبر عنهم في آية أخرى أنهم يظنون به ظن السوء،

(١) سورة الإنسان، آية: ٣٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٤.

فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (١).

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده، فمن قنط من رحمته وآيس من روحه فقد ظن به ظن السوء، فمن جوز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوىٰ بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء.. الخ فليتب العبدُ إلىٰ الله عز وجل وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء.

٢ ـ الاستهزاء بشيء فيه ذكر لله: يجب علىٰ المسلم احترام كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين، فمن استهزأ بذكر الله أو القرآن أو الرسول أو بشيء من السنة فقد كفر بالله عز وجل لاستخفافه بالربوبية والرساله، وذلك مناف للتوحيد وكفر بإجماع أهل العلم، قال الله تعالىٰ: ﴿ولَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (٢).

ومثل هذا ـ أيضاً ـ الاستهزاء بالسنة الثابتة عن رسول الله (ﷺ) كالذىٰ يستهزىٰء بإعفاء اللحىٰ وقص الشوارب وبالسواك وكالاستهزاء بالأمر بالمعروف والنهىٰ عن المنكر. ويدخل في هذا أيضاً من ينتقصون الشريعة الاسلامية ويصفونها بأنها لا تصلح للوقت الحاضر، وأن

(١) سورة الفتح آية ٦.
(٢) سورة التوبة، آية ٦٥، ٦٦.

الحدود الشرعية فيها قسوة ووحشية وأن الإسلام ظلم المرأة. . إلىٰ غير ذلك من مقالات الكفر والإلحاد[١].

٣ـ نسبة النعم إلىٰ غير الله، فالاعتراف بفضل الله وإنعامه والقيام بشكره من صميم العقيدة؛ لأن من نسب النعمة إلىٰ غير موليها ـ وهو الله سبحانه ـ فقد كفرها وأشرك بالله بنسبتها إلي غيره. قال الله تعالي: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٢].

قال بعض المفسرين: يعرفون أن النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوها عن آبائهم، وبعضهم يقول: لولا فلان لم يكن كذا وكذا، وبعضهم يقول: هذا بشفاعة فلان وفلان، ومثله اليوم ما يجرىٰ علىٰ ألسنة الكثير من نسبة حصول النعم واندفاع النقم إلىٰ مجهود الحكومات أو الأفراد أو التقدم العلمىٰ، فيقولون: تقدم الطب تغلب علىٰ الأمراض وقضىٰ عليها.

والمجهودات الفلانية تقضىٰ علىٰ الفقر والجهل. . وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يجب علي المسلم أن يبتعد عنها ويتحفظ منها غاية التحفظ وأن ينسب النعم إلىٰ الله وحده ويشكره عليها، وما يجرىٰ علىٰ يد المخلوقين من أفراد أو جماعات من المجهودات إنما هي أسباب قد تثمر وقد لا تثمر، وهم يشكرون علىٰ قدر ما بذلوه، ولكن لا يجوز نسبة حصول النتائج إلا لله (سبحانه).

وقد حكىٰ الله (عزّ وجلّ) هذا عن قارون الذي آتاه الله الكنوز العظيمة فبغىٰ علىٰ قومه، وقد وعظه الناصحون وأمروه بالاعتراف

---

(١) صالح الفوزان، الارشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد، ص٨٢.

(٢) سورة النحل آية ٨٣.

بنعمة الله والقيام بشكرها فكابر وقال لله إنما أوتيته علي علم عندي» أي حصلت علي هذه الكنوز بسبب حذقي ومعرفتي بوجوه المكاسب لا أنها تفضّل من الله تعالي فكانت عاقبته من أسوأ العواقب حيث خسف الله به وبداره الأرض»[١].

اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد[٢]. أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم»

﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٣].

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [٤].

* * *

---

(١) صالح الفوزان، المرجع السابق، ص(٩٥-٩٦).

(٢) رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٣/ ١٦٣.

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧. (٤) سورة التوبة آية ١٢٩.

الحى القيوم

٧ ٨

الحي اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: دائم الحياة، له البقاء المطلق، لم يسبق وجوده عدم، ولم يلحق بقاءه فناء. له وحده البقاء والدوام، فهو الباقي من أزل الأزل [١] إلى أبد الأبد [٢].

فالله عزّ وجلّ حى أى متصف بالحياة الأبدية، التي لا بداية لها ولا نهاية لايموت ولا يجوز عليه الموت، وكل حى سواه ليس حياً بذاته إنما هو بمدد منه (سبحانه).

فا (سبحانه وتعالى) حى لم يزل موجوداً، وبالحياة موصوفاً، لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتريه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعترهم الموت أو العدم في أحد طرفى الحياة أو فيهما معاً. قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٤].

ويبين الراغب الأصفهانى (رحمه الله) أنواع الحياة فيقول: الحياة تستعمل على أوجه:

الأولى: للقوة النامية الموجودة في النبات والحيوان، ومنه قيل نبات حى قال الله عزّ وجلّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [٥]، وقال

---

(١) الأزل هو دوام الوجود في الماضى.

(٢) الأبد: هو دوام الوجود في المستقبل.

(٣) سورة القصص آية ٨٨.

(٤) سورة البقرة آية ٢٨.

(٥) سورة الحديد، آية: ١٧

(عزّ وجلّ) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمُوتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) فقوله إن الذي أحياها إشارة إلىٰ القوة النامية، وقوله لمحيى الموتىٰ إشارة إلىٰ القوة الحساسه.

الثانية: للقوة العاملة العاقلة كقوله تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(٣)، وقول الشاعر:

وقد ناديت لو أسمعت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى

الثالثة: عبارة عن ارتفاع الغم وبهذا النظر، قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحــــياء

وعلىٰ هذا قوله عز وجل: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(٤) أىٰ هم متلذذون.

الرابعة: الحياة الآخروية الأبدية: قال تعالىٰ: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(٥) يعنى الحياة الآخروية الدائمة.

الخامسة: الحياة التي يوصف بها البارئ فإنه قيل فيه تعالىٰ: «هو حىٰ» فمعناه لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عزّ وجلّ»(٦).

وهناك حياة أخرىٰ، وهى حياة الجماد، ففى الجماد أيضاً حياة، يقول ابن القيم ـ رحمه ـ الله ـ «وقد جعل الله في الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصىٰ والمياه والنبات، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٧) وقال الألوسىٰ: « إن لكل

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٢.
(٢) سورة فصلت، آية: ٣٩.
(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.
(٥) سورة الفجر، آية: ٢٤.
(٦) الراغب الأصفهانىٰ، مرجع سابق، ١٣٨، ١٣٩.
(٧) سورة الإسراء آية ٤٤ (ابن القيم، الروح، ص١٠٦.

شيء حياة وعلماً لائقين به».

فالله عزّ وجلّ هو الحي قبل كل حي، وهو الحي بعد كل حي، وهو (سبحانه) الحي الذي لا يشاركه حي، وهو الحي الذي لا يحتاج إلى حي، وهو الحي الذي لا يشابهه حي، وهو الحي الذي يرزق كل حي، وهو الحي الذي يهب الحياة لكل حي.

وقد ورد اسم الحي خمس مرات في القرآن الكريم، وقرن بينه وبين اسم الله القيوم في ثلاث منها، وجمع هذين الاسم في غاية المناسبة؛ وذلك لأنهما محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم، والعزة، والقدرة والإرادة، والعظمه، والكبرياء، وغيرها من صفات الذات المقدسة.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ (١).

﴿الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢).

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (٣).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ (٤).

﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٥).

والقيوم له معنيان:

١ـ هو الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٢) سورة آل عمران آية ٢.

(٣) سورة طه آية ١١١.

(٤) سورة الفرقان ٥٨.

(٥) سورة غافر آية ٦٥.

٢ ـ قامت به الأرض والسموات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدّها وأعدّها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها. فهو الغني عنها من كل وجه، وهى التي افتقرت إليه من كل وجه [١].

قال ابن القيم:

هذا ومن أوصافه القيوم	والقيوم فى أوصافه أمران
إحداهما القيوم قام بنفسه	والكون قام به هما الأمران
فالأول استغناؤه عن غيره	والفقر من كل إليه الثانى
والوصف بالقيوم ذو شأن كذا	موصوفه أيضاً عظيم الشأن
والحى يتلوه فأوصاف الكمال	هما لأفق سمائها قطبان
فالحى والقيوم لن تتخلف	الأوصاف أصلاً عنهما ببيان

وقد ورد اسم القيوم في القرآن ثلاث مرة.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [٢].

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [٣].

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [٤].

وكل حى نراه علي وجه الأرض إنما هو من إحياء الحى القيوم (سبحانه وتعالى)، فالأرض وما عليها من نبات وحيوان وإنسان تحى بإحياء الله عزّ وجلّ لها.

(١) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص٨٨.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٣) سورة آل عمران، آية ٢.

(٤) سورة طه آية ١١١.

قال تعالى: ﴿ وآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

وقال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤).

وقد قام العلماء بتحليل الخلية الحية وفصل مكوناتها عن بعضها فانعدمت الحياة فيها، وقد أمكن تجميع هذه المكونات وتكوينها معملياً ولكنها لم تنتج خلية واحده.

فاستنتجوا من ذلك أنه لا قيام للحياة في الخلية إلا بوجود هذه المواد ووجود محيى لها.

فالحياة لا تقوم إلا من محيي. وظهور الحياة في المادة الصماء كان من صنع خالق محيي، وكل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بالفشل الذريع، لأن الحياة ليست مجرد منظومة جامدة مثل البيت أو المصنع وإنما هي منظومة حية فيها قدرة على تكرار نفسها، وفيها فطرة إرشادية تقودها من الداخل، وهى فطرة

(١) سورة يس آية ٣٣.
(٢) سورة الأنعام آية ٩٥.
(٣) سورة الوم آية ٥٠.
(٤) سورة فصلت آية ٣٩.

مبثوثة في نسيجها تجدد ما يتلف منها وتستحدث ما يضيع، فاللغز المطلوب حلّه كامن في هذه البصيره المبثوثة في تضاعيف المادة، وليس في تركيب المادة نفسها.

وقد تحدىٰ الخالق المحييٰ (سبحانه وتعالىٰ) البشر في أن يخلقوا ذبابه، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

وتتجلىٰ آثار الحي المحيي سبحانه وتعالىٰ في إحياء الموتىٰ، يوم البعث. وقد ساق القرآن الكريم أدلة كثيرة علىٰ إحياء الموتىٰ يوم القيامه. من أبرزها:

١ - إن إعادة الشيء الذي كان موجوداً ثم فنىٰ أسهل من إيجاده ابتداء، فالله عزّ وجلّ هو الذي أوجد الأشياء من العدم وأبرزها إلىٰ الوجود بعد أن لم تكن شيئاً، فلا يستحيل عليه أن يعيدها مرة ومرة بعد فنائها.

ويلا حظ أن الذي يبنىٰ بناءً ثم يهدمه لا يستحيل عليه إعادة بنائه كما كان أو أفضل مما كان، والذىٰ يخترع اختراعاً معينا أو يركب جهازاً ما لا يصعب عليه أن يعيده مرة أخرىٰ إذا ما فرق أجزاءه أو كسره باختياره وإرادته.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذا الدليل في قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ

---

(١) سورة الحج آية ٧٣/ ٧٤.

مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(١).

فاحتج القرآن - كما قال ابن القيم - بالإبداء على الإعاده، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية عجز عن الأولى بل كان أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله: ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ فهو عليم بالخلق الأول تفاصيله ومداه وصورته، وكذلك عليم بالخلق الثاني، فإذا كان تام العلم كامل القدره، فكيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟ (٢).

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣).

٢ - إن الله (عزّ وجلّ) قادر لا يعجزه شيء، فهو الذي أبدع السموات والأرض.

ولا خلاف في أن خلق الإنسان أقل شأناً من خلق السموات والأرض. ومن ثمّ فإن الله القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه الإنسان الذي هو جزء من هذا الكون - وإعادته. قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤).

---

(١) سورة يس آية (٧٨-٧٩).
(٢) ابن القيم مختصر الصواعق المرسلة، ص١٠١.
(٣) سورة الروم آية ٢٧.
(٤) سورة يس آية (٨١-٨٣).

وقال تعالى ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١) .

وقال تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) .

٣ ـ وتتجلى قدرة المحيى سبحانه وتعالى عندما يخرج الأشياء من أضدادها ، فإذا كانت الحياة ضد الموت والبعث ضد الفناء ، فإن الله يخرج الضد من ضده : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾(٣) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (٤) .

أى أن الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر لا يمتنع عليه فعل ما أراد ولا يعجزه إحياء العظام الباليه وإعادتها خلقاً جديداً . وقد أخبر (سبحانه) كما يقول ابن القيم بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية اليبوسة والحرارة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبروده ، فالذى يخرج الشىء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم» (٥) .

٤ ـ وقد أشار القرآن الكريم إلى دليل آخر من أدلة البعث في الإنسان نفسه ، وهو مراحل خلقه وتكونه وانتقاله من مرحلة التراب إلى أن يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصبح طفلاً وكهلاً ثم يتوفى . فهذه المراحل يلاحظها الإنسان ويشاهدها . . . وما البعث إلا حلقة ومرحلة مثل هذه المراحل ، فكيف ينكره الإنسان .

---

(١) سورة غافر آية ٥٧ . (٢) سورة الأحقاف آية ٣٣ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٣١ . (٤) سورة يس ، آية : ٨٠ ,
(٥) ابن القيم ، مختصر الصواعق المرسلة ، ص١٠١ .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾(١).

ويعلق ابن القيم على هذه الآية بقوله: «يقول سبحانه إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلي حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى لاترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها»؟!!(٢).

ويعلق على ذلك سيد قطب قائلاً «فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجه، فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعاده، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة» (٣).

٥ ـ وهناك ظاهرة أخرى في الإنسان اعتبرها القرآن الكريم دليلاً متكرراً للموت والحياة، ألا وهي ظاهرة النوم واليقظة، فالنوم أخو الموت إذ أن كلاً منهما عبارة عن انسحاب من الحياة أو توقف الأعضاء

---

(١) سورة الحج آية (٥ ـ ٧).
(٢) ابن القيم، أعلام الموقعين، ج١ ص١٤٠.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٤١١.

عن أداء وظائفها على درجات متفاوته بينهما، واليقظة شبيهة بالبعث إذ أن كلاً منهما يعني عودة الأعضاء إلى أداء وظائفها مع اختلافٍ في الدرجة، فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان وعملية الاستيقاظ لهما، تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١).

وفي آية أخرى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

٦ ـ وساق القرآن الكريم دليلاً آخر على البعث وإحياء الموتى في الكون المحيط بالإنسان، وهو ظاهرة الإحياء المتكررة للأرض الموات والتي يراها الإنسان ويشاهدها حوله في الآفاق. فالإنسان يرى أرضا قفرة مجدبة لا حياة فيها ثم ينزل عليها الغيث أو تسقى بالماء، فتدب فيها الحياة وتنبت فيها الزروع، وأشكال النبات المختلفة، وليس البعث إلا شبيهاً بهذه العملية المتكررة والتي يشاهدها الإنسان دوماً.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

---

(١) سورة الأنعام آية ٦٠.
(٢) سورة الزمر آية ٤٣.
(٣) سورة فصلت آية ٣٩.

(٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [١] .

فإحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الموتى، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور.

٧ـ بالإضافة إلى الأدلة السابقة قدم القرآن الكريم نماذج تم فيها إحياء بعض الموتى من الإنسان أو الحيوان ـ وهذه طريقة أعظم لمن يؤمن بالقرآن من الأدلة السالفة ـ ، لأنه لا شيء أدل على إمكانية الشيء من وجوده وتحققه.

فقد أشار القرآن الكريم إلى بني إسرائيل الذين سألوا الله (عز وجل) الرؤية وجعلوها شرطاً لإيمانهم فأهلكهم الله بالصاعقة ثم بعثهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٢] .

كما أشار إلى قصة القوم الذين فروا من الطاعون ونزلوا وادياً حماية لأنفسهم من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم، وكان في إحيائهم دليل قاطع على المعاد الجسماني يوم القيامة. قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [٣] .

وأورد القرآن الكريم أيضاً قصة قتيل بني إسرائيل الذي تخاصم فيه

---

(١) سورة الحج(٥ ـ ٧).
(٢) سورة البقرة آية (٥٥ ـ ٥٦).
(٣) سورة البقرة آية ٢٤٣.

قومه فأمرهم أن يضربوه ببعض أجزاء البقرة التي ذبحوها وبين لهم كيف يحيي الموتى. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١).

كما أورد القرآن أيضاً قصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، فاستبعد عودة أهلها إلى الحياة مرة أخرى، فأراه الله عجيب قدرته في الإعادة والإحياء، فأماته مائة عام ثم بعثه، وأراه كيف أن طعامه وشرابه لم يفسد، بينما صار حماره عظاماً نخرةً، وأوقفه على كيفية دبيب الحياة في العظام البالية وعودة الحياة إلى الحمار مرة ثانية.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

ويورد القرآن أيضاً عقب هذه القصة مباشرة قصة إبراهيم (عليه السلام) عندما طلب رؤية كيفية إحياء الموتى، فأمره الله (عزّ وجلّ) أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن ويفرق أجزاءهن، ويجعل على كل

---

(١) سورة البقرة آية ٧٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٩.

جبل منهن جزءاً ثم يدعهن إليه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

فهذه النماذج وغيرها تدل دلالة واضحة على البعث وإحياء الموتى. ولا يماري في ذلك إلا معاند متكبر كفور فسبحان الحي القيوم المحيي مَنْ بيده ملكوت كل شيء، وعنده مفاتيح كل شيء، وتخضع له الكائنات والموجودات، فيسخرهم بأمر «كن فيكون» «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب».

يقول سعيد النورسي: إن ما ورد في القرآن الكريم مراراً عن الحشر كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾(٢) ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾(٣) يبين لنا أن الحشر الأعظم سيظهر فجأة إلى الوجود، في آن واحد بلا زمان. ولكنَّ العقول الضيقة تطلب أمثلة واقعية مشهودة كي تقبل وتذعن لهذا الحدث الخارق. وفي الحشر ثلاث مسائل هي: عودة الأرواح إلى الأجساد، وإحياء الأجساد، وإنشاء الأجساد وبناؤها:

والمسألة الأولى: وهي مجيء الأرواح وعودتها إلى أجسادها ومثاله: اجتماع الجنود المنتشرين في فترة الاستراحة والمتفرقين في شتى الجهات على الصوت المدوي للبوق العسكري، فالأرواح في نظامها وفي طاعتها تفوق أضعاف أضعاف ما عند أفراد الجيش المنظم. ومن ثمّ

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠.

(٢) سورة يس، آية: ٢٩.

(٣) سورة النحل، آية: ٧٧.

فهي تلبي النداء عندما ينفخ إسرافيل في الصور.

والمسألة الثانية: وهي إحياء الأجساد، ومثاله مثلما يمكن إنارة مئات الآلاف من المصابيح الكهربائية في مدينة عظيمة من مركز واحد في لحظة واحدة، كأنها بلا زمان. وما دامت الكهرباء وهي مخلوقة من مخلوقات الله عزّ وجلّ لها هذه الخصائص وتلك القدرة. فكذلك يمكن إحياء مئات الملايين بل ألوف الملايين من البشر وبعثهم على سطح الأرض من مركز واحد وفي لحظة واحدة كلمح البصر أو أقرب (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب).

والمسألة الثالثة: وهي إنشاء الأجساد فوراً فمثالها كمثال إنشاء جميع الأشجار والأوراق التي يزيد عددها ألف مره علي مجموع البشرية ـ دفعة واحدة في غضون بضعة أيام في الربيع، وبشكل كامل، وبالهيئة نفسها التي كانت عليها في الربيع السابق.. وكذلك إيجاد جميع الأزهار والثمار والأوراق للأشجار كافة ـ بسرعة كالبرق ـ كما كانت في الربيع الماضي.. [1].

وآثار القيوم سبحانه وتعالى في الكون لا تعد ولا تحصى، فجميع الأشياء والموجودات قائمة به، تدوم به، وتبقى في الوجود به، فلو انقطع هذا الانتساب إلى الحي القيوم طرفة عين لا نمحى الوجود كله، فهو سبحانه الذي يهيمن على الكون كله، ويدير جميع شئونه وأحواله وكيفياته بكمال الانتظام، ومنتهى التدبير، وغاية الرعاية، وكل ذلك في سهولة ويسر، فالكون كله بذراته ومجراته كجيش مهيب منظم بحول الله وقوته وأمره، فقيام الأجرام السماوية في هذا الكون ودوامها وبقاؤها إنما هو أثر واضح جلي من آثار اسم الله عز وجل القيوم،

---

(١) سعيد النورسي، رسالة الحشر، ترجمة إحسان الصالحي، ص١٢٦ ـ ١٢٨.

ومثلها في الكون كطائرات ضخمة تسير بانتظام وفي أفلاك مقدره محسوبه. فهي تجري في منتهى الانقياد والتقدير دون عمد أو سند إلا الحي القيوم (سبحانه) (١).

والمتأمل في ذرات أي جسم أو كائن يجدها قد جمعت على هيئة معينة وركبت تركيباً معينا واتخذت شكلاً معيناً يناسب وظيفتها، وهي في تركيبها وشكلها واستمرارها دون أن تتشتت أو تتلاشى إنما هي أثر بيّن جلي من آثار القيوم سبحانه وتعالى. وإن شئت أيها القارئ فانظر إلى أي عضو من أعضائك.. فدقائق الصنع وبدائع الخلق في كل موجود ـ ولاسيما الأحياء ـ إنما هو شاهد أكبر، وأثر من آثار القيوم (سبحانه).

فسبحانه الحي القيوم الذي أخرج الموجودات من ظلمات العدم ووهب لها الوجود، ومنحها القيام والبقاء في هذا الفضاء الواسع، وبوأها موقعاً لائقا بها.

وحينما ينظر الإنسان، ويتأمل المخلوقات من حوله يراها تتعاقب قافلة إثر قافلة في سيل الزمان: فقسم منها لا يلبث ثانية ثم يغيب، وطائفة منها تأتي لدقيقة واحدة ثم تمضي إلى شأنها، ونوع منها يمر إلى عالم الشهادة مر الكرام ثم يلج في عالم الغيب بعد ساعة. وقسم منها يحط رحلة في يوم ثم يغادر، وقسم منها يمكث سنة، ثم يمضي، وقسم يمضي عصراً ثم يرحل، وآخر يقضي عصوراً ثم يترك هذا العالم، وهكذا فكلٌ يأتي ثم يغادر بعد أداء مهمته..

فهذه السياحة المذهلة للعقول، وذلك السيل الجاري للموجودات والسفر الدائب للمخلوقات، إنما يتم بنظام متفق وميزان دقيق وحكمة

---

(١) سعيد النورسي، المرجع السابق، ص١١٩ ـ ١٢٠.

تامة تشهد وتنطق بالحي القيوم سبحانه[١] .

والمؤمن عندما يرى هذه الآيات يلهج لسانه وقلبه بالحمد والشكر، ويرفع أكف الثناء والرضا والتضرع مع سائر المخلوقات للحي القيوم سبحانه . الذي يحمله وغيره في هذه السفينة ـ الأرض ـ والتي تمخر عباب الكون مع غيرها من السفن ، وعليها نعم ظاهرة وباطنة لا تعد ولا تحصى . فضلاً عن الجنان التي أعدها للمتقين في دار الخلود التي هي دار ضيافة مستتره . معدة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . فحمداً لله (عزّ وجلّ) على آلائه العميمة ونعمه الجسيمة . حمداً لله (سبحانه وتعالى) لجعله الإنسان مركزاً للكون ومحوراً له ، فسخر هذا الكون وجعل جميع أنواع النعم المبثوثة فيه للإنسان فربطها بأواصر المنافع التي تخصه ، فكل النعم لصالحه . فحق على الإنسان أن يقدر بدائع صنع خالقه ويقدم الشكر والثناء والحمد لمن بسط أمامه كل هذه النعم .

يقول ابن القيم ـ رحمه ـ : « يشعر المؤمن بمشهد القيومية فيرى سائر التقلبات الكونية ، وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده ، فيشهد مالك الضر والنفع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماته ، فيتخذه وحده وكيلا ، ويرضى به رباً ومدبراً وكافياً ، وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دلّه على خالقه وبارئه ، وصفات كماله ونعوت جلاله ، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه . بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله : اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه . وأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء[٢] .

ويقول في موضع آخر : ثم تأمل الممسك للسموات والأرض

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ح٣ ، ص٣٨٠ .
(٢) ابن قيم الجوزية ، مفتاح دار السعاده ، ص٢٦ .

الحافظ لهما أن تزولا أو يتعطل بعض فيهما، أفترىٰ من الممسك لذلك ومن المقيم له؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه؟ وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان؟ فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض والشمس فجعل عليهم الليل سرمداً من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار؟ ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها فمن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم بالليل؟ ولو أن السموات والأرض زالتا فمن ذا الذي كان يمسكها من بعده؟ .

فملايين النجوم والكواكب ومنها ما هو أكبر من الأرض بألوف المرات تجرىٰ بغير عمد وتسبح في فضاء كونىٰ واسع وتسخر لأجل القيام بمهام عظيمة في حركاتها وفىٰ ثباتها الظاهر . . . فمن الذي رفعها وأجراها للقيام بمهامها؟

وأصغر الأشياء من خلايا وذرات أجسامنا تأخذ أوضاعاً منتظمة كالنجوم، وتتحرك وفق نظام معين وتناسق مخصوص لإنجاز المهام المكلفة بها، وإن شئت فانظر إلىٰ الكريات الحمر والبيض تراهما تتحركان حركات خاصة لإنجاز مهمات جسيمة في الجسم وهما تجريان في السيل الدافق للدم . . فمن الذي يسير هذه الذرات، ويرقب هذه الخلايا؟ إنه الحىٰ القيوم سبحانه وتعالىٰ .

فالله عزّ وجلّ هو الحىٰ أزلاً وأبداً لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو القيوم الذي قام بنفسه وعظمت صفاته واستغنىٰ عن جميع مخلوقاته وبه قامت هذه المخلوقات فهو الغنىٰ عنها من كل وجه، وهىٰ التي افتقرت إليه من كل وجه . فلا معبود سواه، ولا سؤال إلا له، ولا توكل إلا عليه .

قال تعالىٰ : ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ (١) .

فهو وحده سبحانه الحئ. الحئ حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقه، وغير مبتدئه ولا منتهية، وغير حائله ولا زائله، وغير متقلبة ولا متغيره، وما من شئ له هذه الصفة من الحياة، سبحانه هو المتفرد بالحياة، فهو الحئ الواحد لا إله إلا هو ومن ثمّ. . فادعوه مخلصين له الدين، واحمدوه في الدعاء: «الحمد لله رب العالمين». . والإخلاص هو إفراد الحئ القيوم بالقصد في الطاعة، ويستوجب هذا تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين حيث لا رياء ولا إعجاب.

وقد قيل: الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب. أئ لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس كطلب التزيين في قلوب الخلق، أو طلب مدحهم، أو الهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضاء حوائجهم، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي يجمعها: إرادة ما سوئ الله بعمله، كائناً ما كان (٢).

فسائر الأعمال وصلاحها وفسادها بحسب الإخلاص للحئ القيوم (سبحانه). وقد سئل النبئ (ﷺ) عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وما يقصد به من الرياء، وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك: أئ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله العليا، فهو في سبيل الله . فخرج بهذا كل ما كان لغير وجه الله.

عن أبئ موسئ الأشعرئ أن أعرابياً أتئ النبئ (ﷺ) فقال: يا رسول الله: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرئ

---

(١) سورة غافر آية ٦٥ .

(٢) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، ج٢، ص٩٢ .

مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله (ﷺ) من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل ا، وفي رواية لمسلم: سئل رسول الله (ﷺ) عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، فأي ذلك في سبيل الله؟ وفي رواية له أيضاً: الرجل يقاتل غضباً، ويقاتل حميه (١).

وجاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله (ﷺ): «لا شيء له» ثم قال رسول الله (ﷺ): «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتغي به وجهه»(٢).

وفي الآخرة تصفية للحساب، ولايدخل الجنة إلا المخلصون الذين يبتغون بأعمالهم وجه الله.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: «إن أول الناس يقضي عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال:

فما عملت فيها: قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت، ولكنك قاتلت، لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علي وجهه، حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن؛ فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم، ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب علي وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسّع الله عليه،

---

(١) رواه البخاري (١٢٣) و(٢٨١٠) و(٣١٢٦) و(٧٤٥٨) ومسلم (١٩٠٤) وغيرهما.

(٢) رواه النسائي ٦/ ٢٥، والطبراني (٧٦٢٨) وحسنه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال كذبت، ولكنك فعلت، ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى ألقى في النار».

وفي الحديث: أن معاوية لما بلغه هذا الحديث، بكى حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله قال الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ (١).

فالتوكل لا يكون إلا على الحي الذي لا يموت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (٢) وكل ما عدا الله فهو ميت لأنه سائر إلى موت، والتوكل على ميت تفارقه الحياة يوماً عاجلاً أم آجلاً، هو ارتكان إلى عدم، وإلى ظل يزول، وركن ينهار. فالتوكل لا يصح ولا يكون إلا على الحي القيوم الذي لا يموت. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٣).

وحقيقة التوكل على الحي الذي لا يموت هو صدق اعتماد القلب على الله (عزّ وجلّ) في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع ولا حول ولا قوة إلا به.

والمتوكل على الحي القيوم قوي، والمتوكل علي غيره ضعيف لأنه ضعيف توكل على ضعيف.

---

(١) سورة هود آية ١٥ ـ ١٦، الحديث رواه مسلم (١٩٠٥) ورواه أيضاً أحمد والنسائي والترمذي وحسنه، وصححه ابن حبان (٤٠٨).

(٢) سورة الفرقان آية ٥٨.   (٣) سورة الطلاق آية ٣.

روى أن عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية كان خلاً لعبد الملك بن مروان، فلما مات عبد الملك وتصدع الناس عن قبره وقف عليه وقال: أنت عبد الملك الذي كنت تعدنى فأرجوك، وتتوعدنى فأخافك، أصبحت وليس معك من ملكك غير ثوبيك وليس منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين. فكل حى يموت ولا يبقى إلا الحى القيوم الذي لا يموت.

والتوكل على الله (عزّ وجلّ) لا ينافى السعى والأخذ بالأسباب التي قدر الله (سبحانه) المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطى الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعى فى الأسباب من عمل الجوارح وهو طاعة لله (عزّ وجلّ)، والتوكل يكون بالقلب وهو إيمان بالله (عزّ وجلّ). ولذلك قيل الجوارح تعمل والقلب يتوكل، والآيات القرآنية التي تحض على الأخذ بالأسباب كثيرة: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾(١). وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾(٢). وقال ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾(٣).

والدعاء بالحى القيوم له أثر عظيم فى كشف الكروب ودفع المكاره، قال ابن القيم (رحمه الله): وفى تأثير قوله «يا حى يا قيوم، برحمتك استغيث» فى دفع الكرب والضيق مناسبة بديعة، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال. مستلزمة لها، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به

(١) سورة النساء آية ٧١.
(٢) سورة الأنفال آية ٦٠.
(٣) سورة الجمعة آية ١٠.

أجاب وإذا سئل به أعطى: هو اسم الحي القيوم[١].

والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام. ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات.. فالحي المطلق الحياة لا تفوته صفة الكمال ألبته، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن ألبته، فالتوسل بصفه الحياة والقيومية له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال والمقصود أن لاسمى الحي القيوم تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات وكشف الكربات، وفى السنة «وصحيح أبى حاتم» مرفوعاً اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[١] وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ . اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٣].

وفى السنن «وصحيح ابن حبان» أيضاً من حديث أنس أن رجلاً دعا، فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد. لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم، فقال النبى (ﷺ) لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعى به أجاب، وإذا سُئل به أعطى[٤].

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن. أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك خاصمت،

(١) سبق مبحث مستقل عن اسم الله الأعظم. (٢) سورة البقرة آية ١٦٣.

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات وقال حديث صحيح. وفيه شهر بن حوشب وقد تكلم فيه غير واحد، لكن له شاهد يتقوى به.

(٤) أخرجه أبو داود في الدعاء (١٤٩٥) والنسائى وابن ماجه، وإسناده صحيح وصححه ابن حبان (٢٣٧٨٢) والحاكم ووافقه الذهبى (زاد المعاد/ ج٤، ص٢٠٤، ص٢٠٥).

وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وأعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت[١].

«اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنى أنت الحي الذى لا يموت والجن والإنس يموتون»[٢].

«يا حى يا قيوم برحمتك استغيث أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسي طرفة عين لا إله إلا أنت»[٣].

---

(١) رواه البخارى في التهجد، ومسلم في صلاة المسافرين عن ابن عباس برقم (٧٦٩).
(٢) رواه البخارى ومسلم ٤/ ٢٠٨٦.
(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى، وانظر: الترغيب والترهيب ١/ ٢٧٣.

السبوح القدوس
٩ ١٠

السبوح: السبح في اللغة المر السريع في الماء وفي الهواء، والتسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى[(١)]. فالتسبيح: التنزيه والتقديس والتبرئه من النقائض، وسبحان الله: تنزيه الله. وقيل لصلاة النافلة: سبحة[(٢)] والمراد بالسبوح القدوس المسبح المقدس.

والله عزّ وجلّ سبوح: أي منزه عن كل سوء ونقص، مبرأ من النقائص والشركاء وكل ما لا يليق بالألوهية.

وقد ورد هذا الاسم في الحديث الصحيح عن مطرف بن عبد الله الشخير أن عائشة (رضي الله عنها) أنبأته أن رسول الله (ﷺ) كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس، رب الملائكة والروح»[(٣)].

والقدوس - بالضم والتشديد - اسم مشتق من القدس أي الطهارة[(٤)].

والقدوس هو الطاهر من العيوب والنقائص، وهو المنزه عن كل ما تحيط به العقول أو يصوره الخيال أو تحوم حوله الأفكار.

فهو المنزه (سبحانه) عن كل وصف يدركه حس، أو يسبق إليه وهم أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير، قال ابن القيم:

---

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٢٢١.

(٢) صلاح الدين حنفي، مختصر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ص٦٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، كما أخرجه النسائي وأبو داود.

(٤) الزجاجي، مرجع سابق، ص٢١٤.

هذا ومن أوصافه القدوس ذو التنزيه بالتعظيم للرحمن

فالقدوس (سبحانه) منزه عن كل صفة تنطبق على الخلق . . وأعظم أوصافه الكمال الإنساني تعتبر في حق الله تبارك وتعالى إساءة أدب؛ لأنه أعظم منها بغير حدود.

وقد ذُكر هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين في سورتي الحشر والجمعة، قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾(١)، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾(٢).

فهو سبحانه السبوح القدوس: أي المنزه عن النقائص والآفات، المستحق لنعوت الجلال والجمال والكمال.

فذات الله (عزّ وجلّ) وصفاته منزهةٌ عن كل نقص، موصوفةٌ بكل كمال وليس التنزيه تعطيل صفات الله، ونفي معاني أسمائه الحسنى كما ظنته الجهمية والمعتزله، وإنما هو تنزيهه عن مشابهة الخلق قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٣).

فتنزيه أهل السنة ليس فيه تعطيل، وإثباتهم ليس فيه تشبيه.

وكما هو منزه (سبحانه) عن النقائص في صفاته وأسمائه الحسنى، فهو - أيضاً - منزه عن النقص في أقواله وأفعاله، وصنعته.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾(٤).

﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾(٥).

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٦).

---

(١) سورة الحشر آية ٢٣ . (٢) سورة الجمعة آية ١ .
(٣) سورة الشورى آية ١١ . (٤) سورة النساء آية ٨٧ .
(٥) سورة النساء آية ١٢٢ . (٦) سورة الأنعام آية ١١٥ .

والذى ينظر فى صنع الله (عزّ وجلّ) في الكون المحيط بنا يرى دقة الصنع واتقانه، فليس في هذا الكون عبث أو نقص أو قصور، وإنما كل شىء صنع بدقه وإحكام.

فإذا ما رفع الإنسان رأسه إلى أعلى رأى كرة متأججة وهى الشمس، وهى أكبر من أمنا الأرض التي نعيش عليها أكثر من مليون مرة، وتبعد عنا بنحو ٩٣ مليون ميل. فهل خلقت هذه الشمس عبثاً؟!

إنها مصدر نورنا ونارنا وهى محور نظامنا السيارى، ومصدر الحياة لكل الكائنات على وجه الأرض، فهى التي تبخر مياة البحر، وترفعها غيوماً في الجو، وتنزلها أمطاراً على الأرض، حيث تجرى جداول وأنهاراً تروى زروعنا وتنمى غرسنا، وتثير الرياح، وتهيج الأنواء، فتطهر الهواء وتنقيه، وتزجى السفن والمراكب في عباب المحيط، وهى التي تجر المركبات، وتدير الألات البخاريه، وما الفحم الحجرى إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الزمان لينتفع بها بنو العصور المتأخرة... فلا حياة على وجه الأرض بدون هذه الشمس المسخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

ودورة الأوكسجين والكربون بين المخلوقات والنباتات معجزة من صنع الخالق (سبحانه وتعالى)، فنسبة كل منهما لا تتغير أبداً، لأن الله عزّ وجلّ قد جعل غذاء النباتات من حمض الكربون، فهى تمتصه من الهواء، أو من المطر، أو من التربة بأوراقها وجذورها لتكوّن منه

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٤.

خلاياها وأنسجتها ثم تنفثه كالزفير وقد أحالته بقدرة الله العظيمة إلى أوكسجين جديد الصنع ليستنشقه الحيوان والإنسان بالتنفس ثم يحيلانه بقدرة الله العظيمة إلى حمض (كربون) جديد الصنع بالزفير ثم ينتشر في الهواء، فتمتصه أيضاً النباتات منه، وتنفثه أوكسجينا فيستنشقه الحيوان والإنسان، وهكذا الأمر دواليك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

يقول (اسحق إزيموف) في كتابه (الحياة والطاقه ص٤٣٩) وقد أوضحت تجارب برستلي أنه زرع نباتاً تحت غطاء زجاجي فلم ينمُ، لكن عندما وضع الفأر والنبات معا تحت الغطاء الزجاجي عاشا معاً لمدة أطول مما يعيشه أحدهما بمفرده فسبحان الذي أتقن كل شيء، وتنزهت أفعاله عن النقص والقصور.

وعندما ينظر الإنسان فى فيه يجد ثلاثة أنواع من الأسنان:

القواطع، والأنياب، والأضراس، والأخيره على نوعين: أضراس أماميه وأخرى خلفيه. ولكل قاطع وناب جذر واحد، أما الضرس الأمامى فله جذران، وللضرس الخلفى ثلاثة جذور وتنتهى القواطع بحد شبيه بحد السكين، أما الأنياب فتنتهى على شكل إزميل، أما الأضراس فتنتهى بسطوح ذات نتواءات فلماذا أبدعها الخالق هكذا؟

إنَّ القواطع تنتهى بحد شبيه بحد السكين لأن عملها يقتضى ذلك وهو تقطيع الأغذية كالخبز والخضروات.

أما الأنياب فتنتهى على شكل إزميل؛ لأن عملها يقتضى ذلك وهو تمزيق اللحوم.

أما الأضراس فتنتهى بسطوح ذات نتواءات لأن وظيفتها طحن الطعام، كما أن تعدد جذور الأضراس يعطيها ثباتاً في تأدية وظيفتها.

فسبحان القدوس الذي تنزه في صناعته عن النقص والقصور.
يقول الدكتور «إكرس» وهو خبير فنى في جامعة رايس، وقد تعاون مع جراحين آخرين فى صنع قلب صناعى، يقول: إنَّ جسمنا هو الكمال ذاته وهو غاية ما تصل إليه التقنية، ومهما يكن نوع الآله التي يمكن أن تصنع، ومهما بلغت من التعقيد والكمال، فإننا نجد في تركيب جسمنا ما هو أفضل منها ونظرة واحدة نلقيها على تكوين الطفل في رحم أمه تقنعنا بأعجوبة المراحل التي يمر بها كما تقنعنا بأنه لابد لهذه الصنعة المركبة العجيبة من صانع ماهر، وكلما تعمق الإنسان في تشريح الجسم وأدرك دقائقه يزداد إيماناً بوجود الخالق، إنَّ عملية الأكل والبلع والهضم، وتحويل الطعام إلى دمٍ وسكر وأحماض، والاحتفاظ بالنافع منه، وطرح الفضلات.. كل أولئك مما يدعو بلسان الواقع إلى الإقرار بوجود الخالق(١).

يقول «فلتن أ. ليفن»: العالم الذي نعيش فيه مليء بآلات كثيرة عجيبة معقدة اخترعها أهل الأزمنة الحديثة، ولم يكن أجدادنا يعرفون عنها شيئاً.

فعندنا طائرات بلغت من دقة الصنع مبلغاً باهراً بحيث يستطيع قائدها في طرفة عين أن يعرف في أى مستوى هو وبأية سرعة ينطلق، وأن يتبين في أى اتجاه يسير، ومصيب أو مخطيء، ذلك إلى مخترعات أخرى كالراديو والتلفزيون والآلات الحاسبة التي تقوم بعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة فى لمحة دون أن تخطيء أو تنسى، وإذا دققت النظر في الآلات جميعها لم تجد آلة أعجب ولا أدق صنعاً من جسم الإنسان، فليس في الآلات التي ابتدعها العقل آلة تستطيع أن

(١) جماعة من العلماء، خلق لا تطور، تعريب إحسان حقى، ص١٣٧.

ترى وتسمع، وتحس، وتتذوق، ولا آلة تبكي وتضحك أو ترضى وتغضب . . [١].

فتقديس الله (عزّ وجلّ) وتنزيهه عن كل نقص ركن من أركان عقيدة المسلم ويقتضى هذا التقديس :

(أ) وصف الله عز وجل بكل كمال مع الإجلال والتعظيم، فهو سبحانه وتعالى عظيم، فليس له مثيل أو شبيه أو كفؤ أو سمي، أو ند، أو مضاد، وله من الصفات أعظمها وأوسعها .

ومن تمام تنزيهه سبحانه وتعالى إثبات صفات الكبرياء والعظمة له، فإن التنزيه مراد لغيره، ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة . كظن الجاهلين الذين يظنون به ظن السوء . وهو ظن لا يليق بجلاله سبحانه .

(ب) وحتى يتحقق هذا التنزيه فلابد للعبد أن يطهر قلبه من أدران الشرك، ويطهر ماله من الشبهات .

فالشرك والتنزيه لا يجتمعان في قلب عبد أبداً؛ لأن التنزيه لبُّ التوحيد وماء حياته، والشرك عدو التنزيه المبين .

والمؤمن ينزه الله (عزّ وجلّ) بالبعد عن كل مظاهر الشرك، كالذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستغاثة والاستعاذة بغيره (سبحانه) وتنزيه الله (عزّ وجلّ) وتوحيده هما طريق الجنة، عن عباده ابن الصامت قال : قال رسول الله (ﷺ) : «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما

---

(١) ابن خليفة عليوى، سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهيه، ص٣٧٢ .

كان من العمل»(١).

والمؤمن يبتعد عن ظن السوء بربه (سبحانه وتعالى) لأن ظن السوء لا يليق بالله (سبحانه وتعالى) فهو سبحانه منزه عن ذلك. وقد فضح الله عزّ وجلّ أقواماً ساورهم هذا الظن. فقال تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾(٢).

وقد فسر سوء الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل، وأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته فهو ظن سوء لأنه ينكر حكمة الله عزّ وجلّ وينكر قدره، وينكر أن يتم أمر رسوله وأن يظهر دينه على الدين كله.

فهو ظن سوء لأنه لا يليق به (سبحانه) ولا يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

وكثير من الناس يظنون بالله ظن السوء خاصة فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده(٣).

وقد تحدث للمؤمن أحداث على غير ما يحب ويتمنى، بيد أنه عندما يسمع التوجيه الإلهي:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٤).

فإنه يستكين ويسلم لله عزّ وجلّ فيما أراد، ويمتلئ بذلك تحملاً

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ٤٧٤ كتاب أحاديث الأنبياء باب / ٤٧، ومسلم في صحيحه ١/ ٥٧ كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٤.

(٣) محمد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد، ص٢١٧.

(٤) سورة التوبة آية ٥١.

وجلاده. ولا يلجأ أبداً إلى سوء الظن؛ لأنه يعلم يقينا أن ما أصابه هو خير له، وإن خفي عليه كنهه.

والمؤمن يكثر من ذكر هذين الاسمين في ركوعه وسجوده، لما أُثر عن رسول الله (ﷺ) من أنه كان يقول في ركوعه وسجوده: ﴿سبوح قدوس ربُّ الملائكة والروح﴾(١).

وكان الرسول (ﷺ) يسبح الله باسمه القدوس بعد فراغه من الوتر كما جاء في حديث أبي بن كعب قال: كان رسول الله (ﷺ) يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، فإذا سلّم قال: سبحان الملك القدوس ثلاث مرات، ويمد بالثالثة صوته(٢).

«اللهم طهرني من الذنوب والخطايا، اللهم نقني منها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد»(٣).

«رب تقبل مني توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وأسلل سخيمة قلبي»(٤).

«اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، والقسوة والغفلة، والعيلة، والذلة، والمسكنة، والرياء، وأعوذ بك من الصم والبكم، والجنون، والجذام، والبرص، وسيء الأسقام»(٥).

---

(١) رواه مسلم وغيره (سبق تخريجه).

(٢) رواه أحمد ٥/ ١٢٣ بإسناده صحيح، وأبو داود (١٤٣٠) في الوتر، والنسائي ٣/ ٢٣٥ في قيام الليل.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/ ٥٢٣ وحسنه.

(٤) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ١/ ٥١٩ وانظر صحيح الترمذي ٣/ ١٧٨.

(٥) رواه الحاكم والبيهقي، وانظر صحيح الجامع ١/ ٤٠٦ وإرواء الغليل برقم ٨٥٢.

السلام الطيب
١١ ١٢

السلام اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، ومعناه: ذو السلامة مما يلحق المخلوقين من الفناء والنقص والعيب(١).

فالسلام في صفة الله (سبحانه)، هو الذي سَلِم من كل عيب، وبرئ من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين. فهو سبحانه المنزه ذو السلامة من جميع العيوب والنقائض لكماله في ذاته، وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم:

وهو السلام على الحقيقة سالم ... من كل تمثيل ومن نقصان

فهو الذي سلمت ذاته عن العيب، وسلمت صفاته عن النقص، وسلمت أفعاله عن الشر، فكل سلامة معزوة إليه صادرة أصلاً منه.

وهو سبحانه السلام ناشر السلام بين الأنام، ومانح السلامة في الدنيا والآخرة.

وقد ورد هذا الاسم في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ**﴾(٢).

ويتحدث الإمام ابن القيم في كتابه «بدائع الفوائد» عن هذا الاسم فيقرر أن إطلاق اسم السلام على الله تبارك وتعالى أولى من كل إطلاق آخر، وهو سبحانه أحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢) سورة الحشر آية ٢٣.

من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو السلام الحق بكل اعتبار.

ويعدد أمثلة كثيرة لأحقية الله تعالىٰ باسم السلام فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم، وفعل واقع علىٰ غير حكمه بل هو السلام الحق من كل وجه، فعلم أن استحقاقه تعالىٰ لهذا الاسم أكمل من استحقاق من كل ما يطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذئ نزه الله به نفسه، ونزهه به رسوله (ﷺ) فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والمماثل، والسلام من الشريك.

وإذا نظرت إلىٰ إفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كماله فحياته سلام من الموت والنوم. وكذلك قيوميته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سبحانه سلام من عزوب شيء عنه، أو عروض نسيان أو حاجة إلىٰ تذكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه سلام من الحاجه إلىٰ غيره بوجه، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غنىٰ عن كل ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك وألوهيته سلام من مشارك له فيها، وحلمه وصفحه ومغفرته سلام من أن يكون عن حاجة منه أو مصانعة، بل هو محض جوده وإحسانه، وكذلك عذابه أو عقابه سلام من أن يكون ظلماً أو غلظة بل هو محض حكمته وعدله، وقضاؤه وقدره سلام من العتب والجور، وشرعه ودينه سلام من التناقص والاضطراب بل شرعه حكمة ورحمة. وكذلك عطاؤه سلام من كونه معارضة أو لحاجة إلىٰ المعطىٰ، ومنعه سلام من البخل والخوف والإملاق بل عطاؤه إحسان محض لا معاوضه ولا حاجة، ومنعه عدل محض، وحكمه لا يشوبه بخل ولا

عجز، واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوى عليه بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغنى عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرض ولا غيره. . . ونزوله كل ليله إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يضاد كماله. وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل، وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالى المخلوق المخلوق بل هى موالاة رحمة وخير وإحسان وبر كما قال: «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولى من الذل» فلم ينفِ أن يكون له ولى مطلقا بل نفى أن يكون له ولى من الذل، وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق ومن كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه وسلام مما يقوله المعطلون فيها، وكل ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تبارك وتعالى(١).

ومن اسمه (السلام) سبحانه اشتقت السلامة والأمن من كل خوف؛ ولذلك كان من كلام الرسل يوم القيامة «اللهم سلم سلم» ومن اسمه السلام، سبحانه، اشتق الإسلام، وهو دين الله الحق. قال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾.

وجعل سبحانه السلام تحية من عنده لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا**﴾(٢)، ﴿**سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾(٣).

---

(١) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ج٢، ص١٣٥، ص١٣٧.
(٢) سورة الأحزاب آية ٤٤. (٣) سورة يس آية ٥٨.

وجعل سبحانه «السلام» أيضاً تحية ملائكته الكرام لعباده المؤمنين عند دخولهم الجنة، قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾(١).

كما جعل سبحانه السلام تحية المسلمين في عبادتهم: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباده الله الصالحين»، ومن هذا الاسم سمى الله عزّ وجلّ الجنة دار السلام، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢).

فاللهم أنت السلام ومنك السلام: تباركت ياذا الجلال والإكرام.

قال الشاعر:

لكلِّ شيء أنت السلامُ ولا سلامَ إلا رضاك رباه

وكل أمر قضيتة باطنـه خير وإن لم نكن عرفناه

والسلام سبحانه وتعالى يُسلِّم المؤمنين وينقذهم من الشدائد. فعندما ألقى الكافرون إبراهيم (عليه السلام) في النار، وهم يرددون: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾(٣).

جاءت السلامة والإنقاذ من النار من الله السلام: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾(٤).

وكانت النهاية:

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾(٥).

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾(٦).

(١) سورة الزمر آية ٧٣. (٢) سورة يونس آية ٢٥.
(٣) سورة الأنبياء آية ٦٨. (٤) سورة الأنبياء آية ٦٩.
(٥) سورة الصافات آية ٩٨. (٦) سورة الأنبياء آية ٧٠.

وعندما هدد فرعون بقتل موسىٰ (عليه السلام): ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾(١).

استعاذ موسىٰ عليه السلام بربه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾(٢).

فقيض الله له مدافعاً عنه هو مؤمن آل فرعون: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾(٣).

ولم يجد هذا الحوار الهادئ مع آل فرعون، فجاءت القاصمة: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾(٤).

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾(٥).

ونجىٰ الله موسىٰ ومن معه وسلّمهم من بطش فرعون وجبروته: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾(٦).

والأرض التي نعيش عليها شبه كرة معلقة في الفضاء، وهي تتبع أمها الشمس فتدور حولها، مع أخواتها من الكواكب الأخرىٰ،

---

(١) سورة غافر آية ٢٦.
(٢) سورة غافر آية ٢٧.
(٣) سورة غافر آية ٢٨.
(٤) سورة الأعراف آية ١٣٦.
(٥) سورة غافر آية ٤٦.
(٦) سورة الأعراف آية ١٣٧.

والشمس نجم متواضع في مجموعة تتألف من ملايين النجوم تعرف بالمجرة. والمجرة التي تتبعها الشمس أو المجموعة الشمسية تعرف باسم «درب التبانه» وهي عبارة عن حشد من النجوم يزيد عددها عن مائه ألف مليون نجم تتحرك كمجموعة متماسكة في فلك محدود في الفضاء الكوني. وهذه المجرة جزء من المجرة العظمى أو المجموعة المجرية، وتقع مجرتنا بالقرب من طرف هذه المجرة العظمى التي تضم عشرات الآلاف من المجرات.

وهذه المجرة العظمى ليست كل الكون فهناك مجرات عظمى غيرها في مجموعات مجرية أكبر! ويكفي أن نعرف أن بالسماء من أمثال مجرتنا (درب التبانه) ألف مليون مجره!

فالكون حافل بالمجرات، والمجرات تتكون من حشود من النجوم من أمثال شمسنا. . . والكل يسبح في الكون ولم يحدث أن اصطدمت مجرة بأختها، ولا نجم بنجم، ولا كوكب بآخر، فمن الذي يهيمن على هذا النظام، ويجعله يسبح في سلام؟. أنه السلام سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾(١).

وهناك تعاضد وتعاون بين أجهزة الجسم المختلفة، فكل جهاز يتعاون مع غيره لخدمة الإنسان. فالإنسان يتناول طعامه الذي يحتوي على أنواع عديدة من الأغذية، بعضها بسيط كالسكر والملح والماء، وبعضها الآخر تركيبه معقد كاللحوم والخضروات.

فماذا تصنع أجهزة الجسم المختلفة حتى يستفيد الإنسان من طعامه؟

---

(١) سورة فاطرة آية ٤١.

يقوم الجهاز الهضمى بتحويل الأغذية المعقدة إلى مواد ذائبه بسيطة التركيب، تصل إلى الأمعاء ويقوم الدم بامتصاصها وتوزيعها على خلايا الجسم. ولكن هذا الغذا يحتاج إلى أكسده أى احتراق بطىء لإطلاق الطاقة المخزونة فيه فكيف يتم ذلك؟

يقوم الجهاز التنفسى بإمتصاص الأكسجين من الهواء، ليقوم الأكسجين بهذه الأكسده، فيتفاعل مع الغذاء في خلايا الجسم لإطلاق ما به من طاقه. ثم يطلق هذا الجهاز أيضاً ثانى أكسيد الكربون الناتج عن هذه العملية.

ولكن كيف يصل الغذاء من الجهاز الهضمى، والأكسجين من الجهاز التنفسى إلى خلايا الجسم؟.

يقوم الجهاز الدورى الدموى بهذه العملية فينقل الغذاء والأكسجين إلى خلايا الجسم.

وهكذا نرى هذه الأجهزة تعمل فى انسجام ووئام وسلام ولم يحدث مرة أن تعارضت وظيفة جهاز من هذه الأجهزه مع غيره أو رَفَضَ أن يقوم بعمله المنوط منه وما ذاك إلا أثر من آثار اسمه السلام (سبحانه).

أما اسم «الطيب» فقد ورد في الحديث الصحيح عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون ٥١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعس أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنىَّ

يستجاب لذلك؟»[١].

ومعنى الطيب في اللغة: الطاهر والنظيف، والحسن والعفيف، والسهل واللين، وذو الأمه والخير الكثير والذى لا خبث فيه ولا غدر[٢] والطيب من الإنسان من تعرى من الجهل والفسق وقبائح الأعمال وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[٣] [٤].

ومعنى الطيب في حق الله عزّ وجلّ: المنزه عن النقائص والعيوب، وهذا كما في قوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾[٥] والمراد: المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها[٦].

فالله عزّ وجلّ طيبٌ لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيباً ولا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها كالرياء والعجب، ولا من الأموال إلا ما كان حلالاً طيباً فإن الطيب توصف به الأعمال والاعتقادات، فكل هذه تنقسم إلى طيب وخبيث.

والمؤمن كله طيب قلبه ولسانه وجسده بما سكن فى قلبه من الإيمان، وظهر على لسانه من الذكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي هى ثمرة الإيمان، وداخلة في اسمه، فهذه الطيبات كلها يقبلها الله (عزّ وجلّ) ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه،

---

(١) رواه مسلم برقم (١٠١٥) ورواه الترمذى وأحمد والدارمى.
(٢) انظر: لسان العرب مادة (طيب) ١/ ٥٦٣.
(٣) سورة النحل آية ٣٢.
(٤) الراغب الاصفهانى، مرجع سابق، ص٣٠٦.
(٥) سورة النور آية ٢٦.
(٦) زين الدين ابن رجب الحنبلى جامع العلوم والحكم، ج١، ص٢٥٨، ص٢٥٩.

وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله، وفي الحديث السابق إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله[1].

وتنزيه السلام الطيب سبحانه وتعالى من أركان توحيده، ولذلك فعلى العبد المؤمن أن ينزه ربه عن كل نقص وآفة وعيب. ويقتضي هذا تأدباً مع الله (عزّ وجلّ) فلا يُنسب إليه شيء من القصور أو الجور ويتأدب المؤمن أيضاً مع أنبياء الله (عزّ وجلّ) لأنه سبحانه سلم عليهم ليقتدي بذلك البشر فلا يذكرونهم بسوء فهم أفضل خلق الله عزّ وجلّ، وقد تحملوا في سبيل الله الشدائد والمحن، فخصّهم ربهم بالسلام:

﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[2].

﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[3].

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾[4].

﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[5].

ويعمل المؤمن على تربية قلبه على التقوى والورع ومجانبة الشبهات والبعد عن الشهوات. حتى يلقى ربه بقلب سليم خال من الغل والغش والحسد والحقد. فقلب المؤمن ينبغي أن يكون سليماً فياضاً بالحب على إخوانه، رحيماً بمن حوله فيتألم لآلامهم، ويفرح لفرحهم، ينفّس عن مكروبهم، ويستر عيوبهم. مصداقاً لحديث رسول الله (ﷺ): «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»[6].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٦٠.
(٢) سورة الصافات آية ٧٩.
(٣) سورة الصافات آية ١٠٩.
(٤) سورة الصافات آية ١٢٠.
(٥) سورة الصافات آية ١٨١.
(٦) رواه البخاري ومسلم (٢٥٨٦).

ويعمل المؤمن على إفشاء السلام لأنه دعامة من دعائم الحب، وشعيرة من شعائر الإسلام.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾(١).

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم»(٢).

وعن عبد الله بن سلام (رضي الله عنه) قال: أول ما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»(٣).

ويستحب أن يقول المبتدئ بالسلام: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فيأتي بضمير الجمع وإن كان المسلم عليه واحداً».

ويقول المجيب: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيأتي بواو العطف في قوله» وعليكم.

عن عمران بن الحصين (رضي الله عنه) قال جاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال: السلام عليكم فرد عليه ثم جلس، فقال النبي (ﷺ)، عشر. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس فقال: «عشرون». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمه الله

---

(١) سورة النور آية ٢٧.
(٢) رواه مسلم (٥٤).
(٣) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح وصححه الحاكم (٣/ ١٣) ووافقه الذهبي.

وبركاته، فرد عليه فجلس فقال: ثلاثون»(١).

وإذا كان الله عزّ وجلّ طيباً ولا يقبل إلا طيباً والطيب من كل شيء هو مختاره تعالى: فلابد للمؤمن أن يكون طيباً، ويشرح ذلك ابن القيم فيقول(٢): فللمؤمن الكلم الطيب الذي لا يصعد إلى الله إلا هو، فينفر من الفحش في المقال والتفحش في اللسان والنداء، والكذب، والنميمة، والبهت، وقول الزور وكل كلام خبيث.. وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ): «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء»(٣).

وكذلك لا يألف المؤمن من الأعمال إلا أطيبها، وهي الأعمال التي اجتمعت على حسنها الفطرة السليمة مع الشرائع النبوية، وزكتها العقول الصحيحة، فاتفق على حسنها الشرع والعقل والفطرة، مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ويؤثر مرضاته على هواه، ويتحبب إليه جهده وطاقته ويحسن إلى خلقه ما استطاع، فيفعل بهم ما يحب أن يفعلوه به، ويعاملوا به، ويدعهم مما يجب أن يدعوه منه، وينصحهم بما ينصح به نفسه ويحكم لهم بما يحب أن يحكم له به، ويحمل أذاهم ولا يحملهم أذاه، ويكف عن أعراضهم ولا يقابلهم بما نالوا من عرضه.

وللمؤمن - أيضاً - من الأخلاق أطيبها وأزكاها، كالحلم، والوقار، والسكينة، والرحمة، والصبر، والوفاء، وسهولة الجانب؛ ولين العريكه، والصدق؛ وسلامة الصدر، والتواضع وخفض الجناح لأهل

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، وإسناده قوي كما قال الحافظ في الفتح (١١/ ٥) وأفضل صيغ رد السلام: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وأقل الرد عليكم السلام لا مجرد قوله عليكم من غير ذكر السلام.

(٢) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، ج١، ص٦٥، ص٦٦.

(٣) رواه الترمذي وحسنه، ورواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان والحاكم.

الإيمان والعزه، والغلظه على أعداء الله، والعفه والشجاعه والسخاء والمروءة وكل خلق اتفقت على حسنه الشرائع والفطر والعقول.

وكذلك لا يختار من المناكح إلا أطيبها وأزكاها، ومن الرائحة إلا أطيبها وأزكاها ومن الأصحاب والعشراء إلا الطيبين منهم. فروحه طيب، وبدنه طيب، وخلقه طيب، وعمله طيب، وكلامه طيب، ومطعمه طيب، ومشربه طيب، وملبسه طيب، ومنكحه طيب، ومدخله طيب، ومخرجه طيب، ومنقلبه طيب، ومثواه كله طيب، فهذا مما قال الله تعالى فيه: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١).

اللهم أنت السلام ومنك السلام، حينا ربنا بالسلام(٢).

اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار»(٣).

* * *

---

(١) سورة النحل آية ٣٢.

(٢) أخرجه البيهقي ٥/ ٧٣ بلفظ: سمعت عمر يقول إذا رأى البيت: اللهم أنت السلام... وسنده حسن.

(٣) رواه الحاكم ١/ ٥٢٥ وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه عبد القادر الأرنؤوط في الأذكار للنووي ص ٣٤٠.

السيد الصمد
١٣ ١٤

السيد: يطلق على الرب، والمالك، والشريف، والفاضل، والكريم، والحليم، والرئيس، والزوج، ومتحمل أذى قومه. وقد ورد هذا الاسم في الحديث الصحيح: «قال رسول الله (ﷺ) السيد الله تبارك وتعالى»[1] فالله عزّ وجلّ هو السيد الذي يملك نواصي الخلق ويتولاهم، فالسؤدد كله حقيقته لله عزّ وجلّ. وهذا لا ينافي السيادة الإضافية المخصوصة بالبشر فسيادة الخالق ليست كسيادة المخلوق[2].

والصمد: السيد الذي انتهى سؤدده، فالناس يصمدونه في حوائجهم: أي يقصدونه ويعتمدونه[3].

وقال الراغب: الصمد السيد الذي يصمد إليه في الأمر، وصمد صمده قصده معتمداً عليه قصداً، وقيل الصمد الذي ليس بأجوف[4].

وفي تفسير بن كثير: عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: الصمد يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وهو السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه، والعليم الذي كمل في علمه، والحكيم الذي كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في كل

---

(١) رواه أبو داود ٤/ ٢٥٤، وأحمد، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم ٤٠٢١.

(٢) ابن كثير، النهاية في غريب الحديث، ج٢، ص٤١٨.

(٣) الزجاجي، مرجع سابق، ص٢٥٢.

(٤) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ٢٨٦.

أنواع الشرف والسؤود.

وقال الحسن: الصمد: الحى القيوم الذي لا زوال له. وقال عكرمه الصمد الذي لم يخرج منه شىء ولا يطعم، وقال الربيع بن أنس الصمد هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له. وقال ابن عباس وسعيد ومجاهد وعكرمه وعطاء بن أبى رباح: الصمد: الذي لا جوف له. وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى في كتاب السنة بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة وهى صفات ربنا (عزّ وجلّ) هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي انتهى سؤوده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب وهو الباقى بعد خلقه[1].

وقال ابن الأنبارى: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم، واشتقاقه يدل على هذا فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة كما قال:

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد ... بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمى أشرافها بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه واجتماع صفات السيادة فيه[2].

قال ابن القيم:

وهو الإله السيد الصمد الـذي ... صمدت إليه الخلق بالإذعان

الكامل الأوصاف من كل الوجو ... ه كماله ما فيه من نقصان

(١) إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٥٧٠.

(٢) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ج١، ص١٦٠.

فالله (عزّ وجلّ) هو الصمد الذي تصمد إليه أي تقصده جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويفزع إليه العالم بأسره وهو الذي قد كمل علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعظمته ورحمته وسائر أوصافه، فالصمد هو كامل الصفات، وهو الذي تقصده المخلوقات في كل الحاجات[١].

وقد ورد اسم الصمد مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[٢].

فالله عزّ وجلّ هو السيد الصمد كامل الصفات، وهو الذي تقصده جميع المخلوقات في كل الأمور والحاجات.

وقد علم رسول الله (ﷺ) أصحابه ألا يقصدوا إلا الله (عزّ وجل) ولا يستعينوا بسواه.

عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، قال: كنت خلف النبي (ﷺ)، يوماً فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسئل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم: أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك و إن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام، وجفت الصحف**»[٣].

فالله (عزّ وجلّ) هو السيد الصمد المقصود من جميع خلقه لا يخيب رجاء من ارتجاه، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ)، أنه قال: **قال الله (عزّ وجل) أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى**

---

(١) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص٧٥.

(٢) سورة الإخلاص آية (١ ـ ٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

ـ ولله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ـ ومن تقرّب إليّ شبراً، تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإذا أقبل إليّ يمشي، أقبلت إليه أهرول»(١).

فهو سبحانه وتعالىٰ خير مقصود وخير مأمول بابه مفتوح إلىٰ يوم القيامة أمرنا بالدعاء وضمن أن يستجيب لنا.

قال تعالىٰ: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾(٢).

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾(٣).

عن ابن جريج قال: قال لى عطاء: قال لى طاوس: يا عطاء لا تنزلن حاجتك بمن أغلق دونك أبوابه وجعل عليها حجابه، ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح لك إلىٰ يوم القيامة أمرك أن تدعوه وضمن أن يستجيب لك»(٤).

فليس هناك من يُدعىٰ ويُرجىٰ غير الصمد سبحانه وتعالىٰ، وعن أنس (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: قال الله تعالىٰ: «**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك. يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة»**(٥).

---

(١) متفق عليه، رواه البخارىٰ فىٰ باب الرجاء، ومسلم فىٰ باب التوبة.

(٢) سورة غافر آية ٦٠.　　(٣) سورة البقرة آية ١٨٦.

(٤) ابن الجوزىٰ، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨٨.

(٥) رواه الترمذىٰ وقال حديث حسن (كتاب الدعوات) باب فضل التوبة والاستغفار، وزاد بعد قوله حسن: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وله شاهد من حديث =

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

فهو سبحانه وتعالى السيد الصمد المقصود في أمور الدنيا والآخرة .

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: لما كنّا بغزوة تبوك، أصاب الناس مجاعةٌ، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وأدهنا: فقال: رسول الله (ﷺ): «افعلوا» فجاء عمر (رضي الله عنه)، فقال: يا رسول الله إن فعلت، قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة فقال رسول الله (ﷺ): «نعم» فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله (ﷺ) بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا وفضل فضلة، فقال رسول الله (ﷺ)، أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة(٢) .

وعن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله (ﷺ) فبينما رسول الله (ﷺ)، يخطب على المنبر يوم الجمعه إذ قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فأدع الله لنا أن يسقينا فرفع رسول الله (ﷺ) يديه وما في السماء قزعة فثار سحاب

= أبي ذر عند الإمام أحمد وآخر من حديث ابن عباس عند الطبراني. فالحديث حسن كما قال الترمذي.

(١) سورة آل عمران آية ١٣٥ .

(٢) رواه مسلم .

أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأينا المطر يتحادر عن لحيته. قال: فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، ومن بعد الغد، والذي يليه إلى الجمعه الأخرى، فقام ذلك الأعرابي أو رجل غيره فقال: يا رسول تهدّم البناء وغرق المال، ادع الله لنا. فرفع رسول الله (ﷺ) يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا قال: فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا أفرجت حتى صارت المدينة مثل الجوبة[١]، حتى سال الوادي وادي قناة شهراً فلم يجيء أحد من ناحية إلا حدّث بالجود»[٢].

فهو سبحانه وتعالى السيد الصمد الذي يقصده الخلق في حوائجهم ويفزعون إليه عند شدائدهم فهو يحقق رجاءهم ويكشف شدائدهم ويقبل شفاعتهم.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما: أن النبي (ﷺ)، تلا قول الله (عزّ وجل) في إبراهيم (ﷺ): ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[٣] وقول عيسى (ﷺ): ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى؟ فقال الله (عزّ وجلّ): «يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم، فسله ما يبكيه؟ «فأتاه جبريل، فأخبره رسول الله (ﷺ) بما قال: وهو أعلم، فقال الله تعالى: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»[٥].

وعن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله (ﷺ)

---

(١) الجوبه: الحفرة المستديره الواسعه
(٢) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما في كتاب الاستسقاء.
(٣) سورة إبراهيم آية ٣٦.
(٤) سورة المائدة آية ١١٨.
(٥) رواه مسلم.

يقول: ما من رجلٍ مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعّهم الله فيه»(١).

فهؤلاء قَبِلَ الله شفاعتهم ولم يخيبّ رجاءهم لتوحيدهم الخالص.

وحسن الظن بالله (عزّ وجلّ) هو الذى يحدو القلوب لتتضرع للواحد الصمد. فالله عزّ وجلّ عند ظن عبده به.

ففى الحديث عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) قال: قال الله (عزّ وجلّ): أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حيث يذكرنى(٢).

وعن الأعمش عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) قال: «والذى لا إله غيره لا يحسن عبد بالله الظن إلا أعطاه ظنه وذلك بأن الخير بيده»(٣).

وكان الصالحون يستحيون أن يسألوا غير الله (عزّ وجلّ). عن سفيان بن عيينه قال: دخل هشام ابن عبد الملك الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله فقال له: يا سالم سلنى حاجة، فقال له: إنى لأستحى من الله أن أسال فى بيت الله غير الله. فلما خرج خرج في أثره فقال له: الآن قد خرجت فسلنى حاجة.

فقال له سالم من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: بل من حوائج الدنيا فقال له سالم: ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟(٤).

---

(١) رواه مسلم فى باب الجنائز.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد، ومسلم فى كتاب التوبه باب فى الحض على التوبه والفرح بها.

(٣) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٤٨: رواه الطبرانى موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح إلا أن الأعمش لم يدرك ابن مسعود.

(٤) ابن الجوزى، مرجع سابق، ج٢، ص٩١.

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير، والرب تعالى كلما سألته كرمت عليه، ورضى عنك، وأحبك، والمخلوق كلما سألته هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك، كما قيل:

الله يغضب إن تركت سؤاله　　　وبنى آدم حين يسأل يغضب

قال ابن القيم:

فالطلب من الخلق في الأصل محظور، ولا يباح إلا للضرورة كإباحة الميتة للمضطر، ونص أحمدُ على أنه لا يجب، وكذلك كان شيخنا[١] يشير إلى أنه لا يجب الطلب والسؤال. وسمعته يقول في السؤال: هو ظلم في حق الربوبية وظلم في حق الخلق وفي حق النفس أما في حق الربوبيه: فلما فيه من الذل لغير الله، واراقة ماء الوجه لغير خالقه، والتعوض عن سؤاله بسؤال المخلوقين، والتعرض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه. وأما في حق الناس: فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه منهم. وأبغض ما إليهم: من يسألهم ما في أيديهم، وأحب ما إليهم: من لا يسألهم. فإن أموالهم محبوباتهم، ومن سألك محبوبك فقد تعرض لمقتك وبغضك.

وأما ظلم السائل نفسه: فحيث امتهنها، وأقامها في مقام ذل السؤال، ورضى لها بذل الطلب ممن هو مثله، أو لعل السائل خير منه وأعلى قدراً، وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل، وأهانها بذلك، ورضي أن يكون شحاذاً من شحاذ مثله. والله وحده الغنى الحميد[٢].

---

(١) يقصد شيخ الإسلام ابن تيميه.

(٢) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، ح٢، ص١٣١.

عن عوف بن مالك الأشجعي (رضي الله عنه) قال: كنا عند رسول الله (ﷺ) تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله (ﷺ) وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول ا» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس وتطيعوا الله وأسر كلمة خفية» ولا تسألوا الناس شيئا» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله أياه[١].

واليد العليا خير من اليد السفلى، عن ابن عمر (رضي الله عنه) قال أن النبي (ﷺ) قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة: «اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هي المنفقه، والسفلى هي السائله[٢].

وكثرة سؤال الخلق وبالٌ على صاحبه يوم القيامة، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي (ﷺ) قال: **«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى ا< تعالى وليس في وجهه مُزْعة لحم»**[٣].

وقد تكفل رسول الله (ﷺ) بالجنة لمن ترك السؤال، عن ثوبان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً، وأتكفل له بالجنة؟ فقلت: أنا فكان لا يسأل أحداً شيئاً[٤].

والمسألة لا تحل إلا لمن تحمل حمالة أو نزلت به جائحة، أو فقر شديد.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة.
(٢) رواه البخاري ومسلم في الزكاة، وغيرهما.
(٣) متفق عليه انظر صحيح مسلم (١٠٤٠).
(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

عن أبي بشر قبيصة بن المخارق (رضي الله عنه) قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله (ﷺ) أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها «ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجلٌ تحمل حمالة، فحلّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجلٌ أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش، ورجلٌ أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال: سداداً من عيش. فما سواهن من المسأله يا قبيصة سُحْتٌ، يأكل صاحبها سُحْتاً[(١)].

فالعبد لا يسأل غير ربه فهو السيد الصمد، وهو الذي يسد الفاقة، ويرزق في العاجلّ والآجلّ. عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله، فيوشك الله برزق عاجلّ أو آجلّ**[(٢)].

وما أجمل قول القائل:

أمام بابك كل الخلق قد وقفوا ... وهم ينادون: يافتاح يا صمد
فأنت وحدك تعطى السائلين، ولا ... ترد عن بابك المقصود من قصدوا
والخير عندك مبذول لطالبه ... حتى لمن كفروا، حتى لمن جحدوا
إن أنت يارب لم ترحم ضراعتهم ... فليس يرحمهم من بينهم أحد

«اللهم إني أسألك يا الله بأنك الواحد الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أن تغفر لى ذنوبى إنك أنت الغفور

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي في الزكاة.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن، ورواه أحمد والحاكم في مستدركه.

الرحيم»(١).

«اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد(٢) **أسألك خيرَ المسألة، وخيرَ الدعاء، وخيرَ النجاح، وخيرَ العمل، وخيرَ الثواب، وخيرَ الحياة، وخيرَ الممات، وثبتني وثقل موازيني، وحقق إيماني، وارفع درجتي، وتقبل صلاتي، واغفر خطيئتي، وأسألك الدرجات العلى من الجنة».**
آمين(٣).

* * *

(١) رواه النسائي وأحمد وانظر صحيح النسائي، ١/ ٢٩٧.
(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد، وانظر صحيح سنن الترمذي، ٣/ ١٦٣.
(٣) أخرجه الحاكم عن أم سلمه مرفوعاً، وصححه ووافقه الذهبي ١/ ٥٢٠.

العظيم

١٥

العظيم: ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه (عزّ وجلّ) كذلك تعرفه العرب في خطبها ومحاوراتها. يقول قائلهم: من عظيم بنى فلان اليوم؟ أى من له العظمة والرئاسة منهم فيقال: «فلان عظيمهم» ويقولون: «هؤلاء عظماء القوم» أى رؤساؤهم وذو الجلالة والرئاسة منهم (١).

والعظيم هو الذي جاوز القدر وجلّ عن لله دود العقل، لله تى لا يتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته (٢).

فالله (عز وجل) عظيم ليس لعظمته بداية، ولا لجلاله نهاية، له العز والعظمة والمجد والكبرياء. فهو سبحانه وتعالى أعظم من كل عظيم في وجوده لأن وجوده واجب أبداً وأزلاً، وأعظم من كل عظيم في علمه وقدرته وقهره وسلطانه ونفاذ لله كمه.

قال ابن القيم:

وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ ـعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يثنى عليه كما ينبغى له ولا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه عباده.

---

(١) الزجاجى، مرجع سابق، ص١١١

(٢) صلاح الدين حفنى، مختصر النهاية فى غريب الحديث والأثر، ص١٠٤.

ومعاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

أحدهما، أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط والقدرة النافذه والكبرياء والعظمة، ومن عظمته أن السموات والأرض في كفه أصغر من الخردلة كما قال ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه** ﴾ [١].

وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِه** ﴾ [٢] وفى الحديث الصحيح عنه (ﷺ) « **إن الله يقول الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما عذبته** » [٣] فلله تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما.

والنوع الثانى من معانى العظمة أنه لا يستحق أحدٌ من الخلق أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق جلّ جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والانكسار له، والخضوع لكبريائه والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته، ومن تعظيمه أن يتقى الله حق تقاته، فيطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ومن تعظيمه تعظيم ما حرمه الله وشرعه من زمان ومكان وأعمال لله «ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب[٤]» «ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » [٥] ومن تعظيمه ألا يعترض على شئ مما خلقه أو شرعه [٦].

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧ . (٢) سورة فاطر آية ٤١ .
(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٢٣) وغيره . (٤) سورة الحج آية ٣٢
(٥) سورة الحج آية ٣٠.
(٦) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين ، ص٢٧، ص٢٨.

قال الشاعر :

عظيم لا تحيط به الظنون	بقبضته التحرك والسكون
تعالى خالق كل شئ	مقدره إلى وقت يكون
إذا فزت منه بالرعاية	فكل شدائد الدنيا تهون

وقد ورد اسم العظيم في أكثر من موضع في القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (١) .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٣) .

وعظمة الله (عزّ وجلّ) ليس لها لله دود، فالبناء الكوني الذي نعيش فيه مهول الكبر عظيم الجرم إلى لله د يصعب تصوره، وتبدو كرتنا الأرضية التي نعيش عليها إلى جانبه ذرة هباء متطايرة في فضائه . . . فهذا الكون واسع الأمداء والمسافات إلى درجة لا يمكن تخيلها مجرد تخيل . . إلا أنه - مع ذلك كله - مشدود الصلب، متين البيان، متماسك الأجزاء، متوحد الأطراف كأي جسم آخر ضيئل في جمه صغير في جرمه .

فمن الذي يشد صلبه، ويعطيه هذا المقدار العظيم من التماسك ويمنع أجزاء جسمه الكبير والواسع الامتداد من الانفلات والضياع في دروب الفضاء، إنه قانون إلهي يطلق عليه علماء الفلك اسم « الجاذبية» المهيمنة على الكون بقوانينها ودساتيرها ولكن ما هي هذه الجاذبية وما

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥ .
(٢) سورة الشورى آية ٤ .
(٣) سورة الواقعة آية ٩٥ .

كنهها وما سرها؟ وكيف تعمل؟ ولماذا؟ ومن الذي أوجدها ومنحها هذه القدرة العجيبة العظيمة على لله فظ الموازنة بين أجرام الكون كما تتوازى كفتا ميزان في منتهى الدقة والحساسية؟ . فكل ما في الكون يجرى بنظام دقيق دون خطأ ـ ولو بمقدار ثانية واحدة ـ وينقاد انقياداً تاماً، وبطاعة مطلقة إلى هذا القانون كانقياد المصلين إلى إمامهم . . وهذا دليل وأى دليل ـ بأوسع مقياس وأعظمه ـ على عظمة القدرة الربانية .

فما أعظم هذه القدره التى تجعل تلك الأجرام الجامدة، والكتل الهائلة وهى بلا شعور تجرى في منتهى النظام وكمال الميزان، وفى غاية الحكمة، وعلى صور متباينة، وضمن مسافات مختلفة، وبحركات متنوعة ولو حدث خطأ أو خلل ضئيل في هذه الأمور لحدثت انفلاتات كونيه، واصطدامات هائلة، تدمر الكون وتجعله هباءً منثوراً(١) .

فسبحان العظيم الذي ليس لعظمته حد .

والتفكر فى هذه الأمور يبرز عظمة العظيم سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ (٢) .

قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٣) .

---

(١) سعيد النورسى، النوافذ، ص١٠٦ .
(٢) آل عمران ١٩٠, ١٩١
(٣) سورة الغاشية آية (١٧ ـ ٢١)

وتعظيم الخالق سبحانه وتعالىٰ حق علىٰ عبيده، ولا حق لأحد عليه (سبحانه). إلا ما أحق سبحانه وتعالىٰ علىٰ نفسه، بحكم وعده وإحسانه. فالحق في الحقيقة لله علىٰ عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره، وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه (١).

ومن تعظيم الله (عز وجل) تعظيم حرماته، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ (٢).

قال جماعة من المفسرين: «حرمات الله» ههنا مغاضبه، وما نهىٰ عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها. قال الليث: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم الحج زماناً ومكاناً. والصواب: أن «الحرمات» نعم هذا كله وهي جمع حرمه» وهي ما يجب احترامه، وحفظه: من الحقوق والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة (٣).

ومن هذا التعظيم تعظيم أسماء الله عزوجل وصفاته فثبت له ما وصف به نفسه كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية دون تحريف لألفاظها، ولا تعطيل لمعانيها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين. وأن تعتمد في إثباتها علىٰ القرآن الكريم والسنة النبوية فقط لا تتجاوز القرآن والحديث لأنها توقيفية.

ومن تعظيم الله (عزّ وجلّ) تعظيم أسمائه، ومعرفتها من القرآن الكريم والسنة النبوية صريحة دون اللجوء إلىٰ اشتقاقها؛ لأن مسألة

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، ج٢، ص٥٠١
(٢) سورة الحج آية ٣٠.
(٣) ابن القيم الجوزيه: المرجع السابق، ص٧٤.

اشتقاقها في غاية الخطورة، فقد يشتق شئ يخبر به عن الله (عزّ وجلّ) ويكون اشتقاقاً غير جائز في لله ق الله تعالى كما لو اشتق أحدهم من قوله «وأكيد كيداً» «الكياد» ومن مكروا مكراً» «الماكر» لذا ينبغى الاقتصار على الأسماء التى وردت صراحة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والتى تليق بجلال الله (عزّ وجلّ).

ومن تعظيم الله(عزّ وجلّ) عدم الإقسام على الله تعالى؛ لأنه من سوء الأدب، كأن يقال: والله لا يغفر لفلانه، أو لا يدخل فلان الجنة.

ومن تعظيم الله (عز وجل) عدم ذكره في موضع قضاء الحاجة ولا في موضع مهين.

ومما يتنافى مع تعظيم الله (عز وجل) الاستشفاع بالله تعالى على خلقه كأن يقال لإنسان: نستشفع بالله عليك، أو بالله عليك، أوأسألك بالله، أو اكراماً لله فالله (عزّ وجلّ) أعظم شأناً من أن يتوسل به إلى خلقه؛ لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب مع الله تعالى. لأن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه فكيف يجعل هو الشافع [(١)]. وهو العظيم الذي ذلت له المخلوقات جميعها، ولذا لا يجوز للمخلوق أن يسأل مخلوقاً آخر شيئا بالله تعالى أو بواحد من أسمائه وصفاته.

قال رسول الله (ﷺ): **«ملعونٌ من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجراً»** [(٢)].

ومن تعظيم الله عزّ وجلّ ألا يحلف بغيره، لحديث رسول الله

---

(١) عبد الرحمن آل سعدى، القول السيد فى مقاصد التوحيد، ص٨٤، ص٨٥.

(٢) طرف من حديث رواه أبو موسى الأشعرى (رضى الله عنه) وذكر الحافظ العراقى فى شرح العمدة أن إسناده حسن. وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير.

(ﷺ) : « من حلف بغير الله فقد أشرك » (١) .

ومما يقتضيه تعظيم الله (عزّ وجلّ) احترام القرآن الكريم وتعظيمه لأنه كلامه (سبحانه وتعالى)، وصفة من صفاته ويقتضي ذلك :

١ ـ أن لا يقول المسلم إذا نسي شيئاً من القرآن الكريم نسيت آية كذا وكذا وإنما يقول : نُسّيت آية كذا أو كذا ، لأن النسيان يشير إلى عدم الاهتمام ، وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ) : « بئسما لأحدكم أن يقل نَسي آية كيت وكيت ، بل هو نُسّي » (٢) .

٢ ـ ألا يُقرأ القرآن الكريم على الموتى ، وفي الأمكنة التي يجتمع فيها الناس للعزاء ، وأما قراءة القرآن على الميت وهو مازال حياً يحتضر فلا بأس به ، لأنه من قبيل التلقين الذي ينتفع به ، ويكفي قراءة القرآن على الميت شراً ، أن كثيراً من الناس يربط بينها وبين الموت فإذا ما سمع قرآناً يقرأ في مكان ما ظن أن هناك ميتا ، والقرآن لم ينزل للقراءة في العزاء على الموتى بل نزل لهداية الأحياء قال تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

٣ ـ ألا يفرض لله فظ القرآن الكريم أو نسخة عقاباً على التلاميذ المهملين في واجباتهم ، فبئس المعلم الذي يجعل القرآن الكريم عقوبة .

٤ ـ وجوب الإنصات عند سماع القرآن الكريم قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤) وكما يجب على المستمع الإنصات يجب على القارئ أن لا يقرأ القرآن حيث لا ينصت إليه .

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وابن حبان والحاكم . . . وصححه الألباني .

(٢)رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .

(٣) سورة يس آية ٧٠ .

(٤) سورة الأعراف آية ٢٠٤ .

ومن تعظيم الله (عز وجل) ترك التسمى بأسماء فيها مشاركة لله تعالى، وقد ورد النهى عنها كملك الملوك، وقاضى القضاة وحاكم الحكام، وأبى الحكم وأبى الأعلى حفظاً للتوحيد وسداً للذريعه، ففى الحديث قال رسول (ﷺ): أخنع الأسماء عند الله يوم القيامة رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله[(١)].

وقال ابن حجر: « واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمى بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد ويلحق به ما في معناه مثل خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء »[(٢)].

ومن تعظيم الله (عزّ وجلّ) ـ إجلاله وتعظيمه في القلب، وعلى قدر معرفة العبد بربه وتوحيده يكون تعظيم الرب تعالى في القلب وأعرف الناس به (سبحانه) أشدهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذمّ الله تعالى من لم يعظمه لله ق عظمته، ولا عرفه لله ق معرفته، ولا وصفه حق صفته. قال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[(٣)] قال ابن عباس ومجاهد لا ترجون لله عظمة، وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟ وقال الكلبى: لا تخافون لله عظمة. قال البغوى « الرجاء» بمعنى الخوف، و« الوقار» العظمة اسم من التوقير. وهو التعظيم. . وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب العظيم، فذلك لله قيقة الحمد[(٤)].

« لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا

---

(١) رواه البخارى (١٠/ ٤٨٦) ومسلم (٢١٤٣) عن أبى هريرة

(٢) ابن حجر العسقلانى، فتح البارى، جـ ١٠، ص٥٩٠.

(٣) سورة نوح/ ١٣.

(٤) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، جـ٢، ص٤٩٥.

إله إلا الله رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم »[١].

« سبحان الله العظيم وبحمده »[٢].

« سبحان الله ذي الجبروت، والملكوت والكبرياء والعظمه»[٣].

« استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه»[٤].

« سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[٥].

* * *

---

(١) رواه البخاري ٧/ ١٥٤، ومسلم ٤م٢٠٩٢. (دعاء الكرب).

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وانظر صحيح الترمذي ٣/ ١٦٠، ونص الحديث: من قال سبحان الله العظيم والحاكم وبحمده غرست له نخلة في الجنة».

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وإسناده حسن.

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر صحيح الترمذي ٣/ ١٨٢.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٢ وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (إذا قال المؤمن ذلك قال الله: أسلم عبدي واستسلم».

الجميــل

١٦

الجمال: الحسن الكثير وذلك ضربان أحدهما جمال يختص الإنسان به في نفسه أو بدنه أو فعله؛ والثانى ما يُوصَل منه إلى غيره» (١).

والله عزّ وجلّ جميل ذاتاً وأسماءً وصفاتاً وأفعالاً ففى الحديث الصحيح قال رسول الله (ﷺ) « **إن الله جميلٌ يحبُ الجمالَ**» (٢).

قال ابن القيم

وهو الجميلُ على الحقيقةِ كيف لا وجمالُ سائرِ هذه الأكوان

من بعض آثار الجميل فربها أولي وأجدر عند ذى العرفان

فجماله بالذات والأوصاف والأفعا ل والأسماء بالبرهان

لاشئ يُشْبِه ذاته وصفاته سبحانه عن إفكِ ذى بهتان

فالله هو الجميل بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يمكن لمخلوق أن يعبر عن بعض جمال ذاته حتى أهل الجنه مع ما هم فيه من النعيم المقيم، واللذات والسرور، والأفراح التى لا يقدر قدرها، إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجمال نسوا ما هم فيه من النعيم أو تلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودوا لو تدوم هذه الحال واكتسبوا من جماله ونوره جمالاً إلى جمالهم، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربهم،

---

(١) الراغب الأصفهانى، مرجع سابق، ص٩٧.

(٢) رواه مسلم ١/ ٩٣.

ويفرحون يوم المزيد فرحا تكاد تطير له القلوب وكذلك هو الجميل في أسمائه فإنها كلها لله سنى بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (١) فكلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال فلا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره. وكذلك هو الجميل في أوصافه فان أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناء وحمد فهي أوسع الصفات، وأعمها وأكثرها تعلقاً خصوصاً أوصاف الرحمة البر والكرم والجود.

وكذلك أفعاله كلها جميلة فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها، ويثنى عليه بها ويشكر، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها للحكمه والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا سدى ولا ظلم كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢) فلكماله الذي لا يحصي أحد عليه به ثناءٌ كملت أفعاله كلها فصارت أحكامه من أحسن الأحكام، وصنعته وخلقه أحسن خلق وصنع : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٣) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (٤) ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٥) .

ثم استدل المصنف بدليل عقلي على جمال الباري وأن الأكوان محتوية على أصناف الجمال وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال وأعطاها الحسن فهو أولى منها؛ لأن معطي الجمال أحق بالجمال فكل جمال في الدنيا باطني وظاهري خصوصاً ما يعطيه المولى لأهل الجنة من الجمال المفرط لرجالهم ونسائهم فلو بدا كف واحدة من الحور العين إلى الدنيا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

(٢) سورة هود آية ٥٦ . (٣) سورة النمل آية ٨٨ .

(٤) سورة السجدة آية ٧ . (٥)سورة المائدة آية ٥٠ .

أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنَّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحق منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء؟ [١]؟. وقد جاء في القرآن الكريم أن الله نور السموات والأرض قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [٢]. وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ): «**اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن**». الحديث[٣].

وقال(ﷺ): «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» [٤].

فمن أوصافه سبحانه وتعالى النور الذي هو وصفه العظيم، فإنه ذو الجلال والإكرام وذو البهاء والسبحات الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو الذي استنارت به العوالم كلها فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان... وهناك فرق بين نور الذات والصفات وبين النور المخلوق الحسي منه والمعنوي فنور الذات ملازم لذاته سبحانه وتعالى لا يفارقها ولا يحل بمخلوق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها، والمؤمن إذا كُمل إيمانه

---

(١) عبد الرحمن الواضح المبين، ص٢٩ : ص٣٢.
(٢) سورة النور آية ٣٥. (٣) رواه البخاري ومسلم ١/ ٥٣٢.
(٤) رواه مسلم ١/ ١٦١.

أنار الله قلبه فانكشفت له حقائق الأشياء وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور مادة لله ياته وقوته على الخير علماً وعملاً وكان قلبه نوراً وكلامه نوراً وعمله نوراً والنور محيط به من جهاته والكافر أو المنافق أو الغافل يتخبطون في الظلمات (١).

ومن آثار الجميل سبحانه وتعالى ما نراه في الكون من لله ولنا من جمال وتنظيم وإبداع والذى يتأمل هذا الكون يراه رائعاً عجيباً جميلاً لا تشبع العين من تملى جماله وروعته، ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته، يقول سيد قطب: والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال بل أنهما اعتباران لحقيقة واحدة، فالكمال يبلغ درجة الجمال ومن ثمّ يوجه القرآن النظر إلى جمال السموات بعد أن وجه النظر إلى كمالها لله ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح» . . . فمشهد النجوم في السماء جميل جمالاً يأخذ بالقلوب. وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته؛ ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمراء إلى الليله الظلماء. ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . . . بل إنه ليختلف من ساعة لساعة ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية . . . وكله جمال وكله يأخذ بالألباب . . . هذه النجمة الفريدة التى توصوص هناك، وكأنها عين جميلة، تلتمع بالمحبة والنداء! وهاتان النجمتان المنفردتان هناك، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان، وهذه المجموعات المتضامنة المتناصره هنا وهناك وكأنها في لله لقة سمر في مهرجان السماء. وهى تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان ! وهذا القمر الحالم الساهى ليلة، والزاهى المزهو ليلة، والمنكسر الخفيق ليلة، والوليد المتفتح ليلة. والفانى الذي يدلف

---

(١) عبد الرحمن السعدى، المرجع السابق، ص٩٣ : ص ٩٥.

للفناء ليلة! وهذا الفضاء الواسع الذي لا يمل البصر امتداده، ولا يبلغ آماده. إنه الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه. ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات (١).

ففي الكون من لله ولنا جمال حقيقي مقصود؛ وهو تنظيم كل مظاهر الكون، وينشأ من دقة وتناسق هذه المظاهر.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٢).

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٣).

والذي يتأمل الأشياء من حوله يجدها تشي بهذا الجمال وتعلنه فالينابيع والجداول والأنهار وهي تنفجر من الأرض أو الجبال تأخذ بالألباب وتبهر الأبصار بجمالها وبديع منظرها.. والأحجار والصخور في أنواعها وتشكيلاتها وتنظيمها تعلن عن هذا الجمال.. والأزهار والثمار لها جمال أخاذ في نقوشها البديعة وشذى عطرها الطيب وحلاوة مطعوماتها. والسحب الثقال وهي تجري كالجبال في فضاء واسع، ثم تنزل منها الأمطار التي ترضع الأحياء وتغيث الملهوفين لها جمال وأي جمال! فكل الكائنات من حولنا لها جمال زاهر، وحسن باهر يتلألأ على وجوهها، ويتجدد بتجددها ويستمر باستمرار تعاقبها. وكل ذلك من آثار الجميل (سبحانه وتعالى).

وفي النبات من حولنا جمال يخلب اللب، ويثير الوجدان. وقد أبرز القرآن الكريم ذلك في مواضع عدّة؛ لتوجيه القلب والعقل إلى

---

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٣٤.
(٢) سورة الحجر آية ١٦. (٣) سورة ق آية (٦-٧).

الاستمتاع بهذا الجمال.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ففي الآيات السابقة ظلال وارفة من الجمال يستمتع بها الإنسان عندما يتملاها وينظر إليها ببصره وبصيرته، فالحدائق بهيجة ناضرة حيه ممتعه.

والألوان المتناسقة في الزهور والثمار فيها إبداع وجمال، فتنسيق الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة يبدو معجزة باهرة تتقاصر دونها العبقريات الفنية. وتلوين الثمار وتغير ألوانها من وقت لآخر واختلاف هذه الألوان من ثمرة إلى أخرى متعة وجمال للناظرين.

فالبرتقالة تبدأ باللون الأخضر فإذا نضجت تحولت إلى اللون الأصفر. والتمرة كذلك تتحول من اللون الأخضر إلى اللون الأصفر أو الأحمر وهكذا.. وهذا التغير والتلون إشارة ونداء إلى الإنسان لقد نضجتُ وصرتُ طعاماً طيباً.

ومن أروع ما في الكون من جمال اللون الأخضر وهو الغالب على كل ألوان النبات. وقد ثبت أن هذا اللون يجلب السرور إلى داخل النفس، ويثير في الإنسان البهجة وحب الحياة.

وهذا اللون هو اللون الغالب في الجنان، فالجنان وارفة الظلال كثيرة الأشجار، وأهلها يتكئون على فرش خضراء قال تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ (١).

---

(١) الرحمن آية ٧٦.

ولباس أهل الجنة ثياب خضر :

قال تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ (١) .

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ (٢) .

وجمال النبات لا يقتصر على لونه ، بل هناك أيضاً جمال في شكله ، وفى لله ركته وتموجه .

فتوزيع الأوراق وتنوعها ، وما فيها من خطوط منتظمة ، وتموجات ، وتوزيع أوراق الزهرة المتفتحة يوحى بالمتعة والبهجة والجمال .

يقول ابن القيم (رحمه الله) : « ثم تأمل الحكمه في خلق الورق ، فإنك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر . فمنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض . ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجباً ، لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل . ولا احتاجوا فيها إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدراتهم على تحصيله ، فبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك ما يملأ الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة . إنما هى الأرادة النافذة في كل شيء وقدرته التى لا يمتنع منها شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٣) . فتأمل الحكمة من تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها ، وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها لله ياتها و نضارتها بمنزلة العروق المبثوثة في الأبدان التى توصل الغذاء إلى كل جزء منه ، وتأمل ما في الأوراق الغلاظ من إمساكها الورقه بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل ، فهى بمثابة

(١) سورة الكهف آية ٣١ .

(٢) سورة الإنسان آية ٢١ .

(٣) سورة يس ، آية : ٨٢ .

الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق . . وقد جعلت هذه الأوراق زينة للشجرة وستراً ولباساً للثمرة ووقاية لها ، فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج ورقة إلا بإذنه ، ولا تسقط إلا بعلمه ، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهى تسبحّ بحمد ربّها مع الثمار والأفنان والأشجار ، لشاهدوا من جمالها أمراً آخراً ولرأوا خلقتها بعين أخرى ، ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى [١] .

وفى الأنعام أيضاً جمال وأى جمال . قال تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [٢] .

ففى الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار ، ومنافع في هذه وفى غيرها ، ومنها نأكل لحماً ولبناً وسمناً ، وتحمل الأثقال إلى البلاد البعيدة ، وفيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح . جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة ، وفى الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة في الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال في الزينة « **لتركبوها وزينة** » .

وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة . فالجمال عنصر أصيل في هذه النظره وليست النعمة هى مجرد تلبية

---

(١) ابن القيم الجوزيه ، مفتاح دار السعادة ، ص٢٨٢ ، ص٢٨٣ .
(٢) سورة النحل آية (٥ ـ ٨) .
(٣) سيد قطب/ مرجع سابق ، ص٢١٦١ .

الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات. تلبية لله اسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنسانى المرتفع عن ميل الحيوان وحاجة الحيوان [١].

وفى خلق الإنسان وتصويره جمال وإبداع من الجميل الخلاق. فقد خلق (سبحانه وتعالى) الإنسان على صورة جميلة سوية معتدلة، كاملة الشكل والوظيفة، والجمال والسواء والاعتدال يبدو في تكوينه الجسدى، وفى تكوينه العقلى الروحى وهى تتناسق في كيانه في جمال واستواء . . . والأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدى: الجهاز العظمى. والجهاز العضلى والجهاز الجلدى. والجهاز الهضمى. والجهاز الدموى والجهاز التنفسى. والجهاز التناسلى والجهاز اللمفاوى. والجهاز العصبى. والجهاز البولى. وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر . . كلٌ منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التى يقف الإنسان مدهوشاً أمامها. وينسى عجائب ذاته وهى أضخم وأعمق وأدق بمالا يقاس [١].

والإنسان عندما يقف أمام نفسه يندهش لروعة خلقه وتكوينه فهناك جمال في تركيب جسمه البالغ الدقة والتعقيد، وجمال في تكوينه العقلى الفريد، وجمال في تكوينه الروحى العجيب.

يقول ابن القيم (رحمه الله): وتأمل لله كمة اللطيف في تركيب البدن، ووضع الأعضاء في مواضعها، واعدادها لما أعدت له: قال تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من: العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨٤٨.

الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة: من البر، والطاعة، والانقياد. فكم بين حاله وهو نطقه في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل في جنات عدن؟ فتبارك الله أحسن الخالقين... ثم تأمل لله كمته في الأعضاء التي خلقت منك آحاداً ومثنى وثلاث ورباع، وما في ذلك من الحكم البالغة، فالرأس، واللسان، والأنف.. خلق كل منها واحد فقط إذ لا حاجة ولا مصلحة ولا جمال في كونه أكثر من ذلك... وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين، والأذنين، والشفتين، واليدين، والرجلين والساقين، والفخذين، والثديين، فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينه، والجمال والزينة عليها باديه، فلو كان الإنسان بعين واحده لكان مشوه الخلقه ناقصها، وكذلك الحاجبان، واليدان والرجلان فتعدد هذه الأعضاء ضروري لمصلحة الإنسان، وجمال هيئته... ألا ترى إلى الشفتين لا تكمل المصلحة إلا بهما، وفيهما ضروب عديده من المنافع ومن الكلام، والذوق، وغطاء الفم، والجمال، والزينة وغير ذلك [(١)].

وأجمل ما خلق الجميل (سبحانه وتعالى) الجنة وما فيها من نعيم، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٢)].

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مفتاح دار السعادة، ص٣٢٨ لإلى ص ٣٣٢ (بتصرف يسير).
(٢) سورة الزخرف آية (٦٨ ـ ٧٣).

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول (ﷺ): قال الله (عزوجل): أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشراً اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١) (٢).

فالجنة جميلة ولا يدخلها إلا كل جميل، عن أبى هريرة (رضى الله عنه): قال: قال رسول الله (ﷺ): «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة، ولا يبلون ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، مجامرهم الألوة (عود الطيب) أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء**» (٣).

وعن أنس بن مالك (رضى الله عنه: أن رسولالله (ﷺ) قال: «**لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده يعنى سوطه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها (خمارها) على رأسها خير من الدنيا وما فيها**» (٤).

ومساكن أهل الجنة طيبة جميلة، عن أبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه): عن النبى (ﷺ) قال: «**إن للمؤمنين فى الجنة لخيمة من لؤلؤة**

---

(١) سورة السجدة آية ١٧.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفه الجنة، ومسلم فى صحيحه كتاب الجنه وصفه نعيمها.

(٣) أخرجه البخارى فى مواضع عديدة، ومسلم فى صحيحه: كتاب الجنة وصفه نعيمها، باب فى صفات الجنة وأهلها.

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب الجهاد، باب العدوة والروحة فى سبيل ا، ومسلم فى صحيحه كتاب الامارة باب فضل الغدوة والروحة فى سبيل ا.

واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » [١].

وأهل الجنة يزدادون على الدوام لله سناً وجمالاً، عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: « **إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوهم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً »** [٢].

ومع هذا النعيم والجمال الذي يعجز عن وصفه اللسان فإن أهل الجنة عندما يتجلى عليهم الجميل (سبحانه) ينسون كل جمال ونعيم، عن صهيب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): « **إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله (عزّ وجلّ): هل تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم** ثم تلا هذه الآية ﴿**للذين أحسنوا وزيادة**﴾ [٣].

والله (عزّ وجلّ) جميل يحب الجمال، ولذا أوصى عباده المؤمنين أن يتجملوا ويتزينوا خاصة عند الصلاة: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة خيام الجنة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢١٧٨، كتاب الجنة وصفه نعيمها، باب في سوق الجنة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة يونس، وأخرجه مسلم في صحيحه ١/ ١٦٣ كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة.

(٤) سورة الأعراف آية ٣١.

وقد كان رسول الله (ﷺ) يلبس أحسن الحلل. ويبدو أجمل الناس: عن البراء بن عازب (رضى الله عنه)، قال: « **كان رسول الله (ﷺ) مربوعاً ولقد رأيته فى حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه**» (١).

وعن أبى رمثه رفاعة التيمي (رضى الله عنه) قال: « رأيت رسول الله (ﷺ) وعليه ثوبان أخضران» (٢).

وقد أوصى رسول الله (ﷺ) بالثياب البيض لطهارتها وطيبها، عن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): « **البسوا البياض فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم**» (٣).

فالإسلام يحض أبناءه دائما على إحسان الشكل، وجمال الهيئة، وسنن الفطرة التى أمر بها الإسلام ما هي إلا تجميل وتحسين للإنسان.

عن أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) قالت: قال رسول الله (ﷺ): « **عشر من الفطرة: قصٌّ الشارب، وإعفاءُ اللحية، والسواكُ، واستنشاقُ الماء، وقصٌّ الأظفار، وغسل البَراجم**(٤)**، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتفاص الماء « قال الراوى: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة**» قال وكيع وهو أحد رواه الحديث: انتفاص الماء، يعني: الاستنجاء (٥).

وقد بين رسول الله (ﷺ) أن من يحرص على نقاوة بدنه ونظافة أعضائه، ووضاءة وجهه يبعث يوم القيامة على حاله تلك وضئ

(١) رواه البخارى فى كتاب اللباس، وفى صفة النبى (ﷺ) ورواه مسلم فى فضائل النبى (ﷺ) وغيرهما.
(٢) رواه أبو داود، والترمذى بإسناد صحيح.
(٣) رواه النسائى والحاكم وقال: حديث صحيح.
(٤) غسل البراجم: غسل عقد الأصابع.
(٥) رواه مسلم فى الطهارة (٢٦١) وأحمد وأصحاب السنن.

الوجه، أغرّ الجبين، نقي الأعضاء.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: « **إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين** [١] **من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته، فليفعل**» [٢].

وعنه قال: سمعت خليلي (ﷺ) يقول: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**» [٣].

فالنظافة والجمال جزء لا يتجزأ من الإسلام فالمسلم نظيف البدن، لله سن الثياب، جميل الهيئة، تجري في عروقه دماء العافية، وهيئة الإنسان الحسنة وصحة بدنه لها أثر كبير لا في سلامة تفكيره فقط بل وفي تفائله وإقباله على الحياة وعمل الصالحات والدعوة إلى الخير.

والجسم المتسخ الهزيل المتزي بالزي المهمل والمرقعات، إنما هو علامة على الجهل الفاضح بالدين، وافتراء على تعاليمه، وقد ظن قوم من الجهال ومحترفي التدين أن القذارة وفوضى الملابس واتساخ البدن ضربٌ من العباده، وهذا يدل على جهلهم الفاضح بتعاليم الاسلام، وسمة المؤمنين. فالله عزّ وجلّ جميل يحب الجمال فكيف يتقرب إليه بما لا يحبه؟!! ولأنه يحب الجمال لله فقد أوجب على عباده الطهارة عند الصلاة، قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا**﴾ [٤].

---

(١) غراً محجلين: أي بيضاً: يعني وجوهم من أثر نور الوضوء يوم القيامة.

(٢) أخرجه البخاري (في الوضوء) ومسلم (في الطهارة) ١/ ٢١٦.

(٣) رواه مسلم في الطهارة ١/ ٢١٩ وابن خزيمة في الوضوء ١/ ٧ وذكر البخاري معناه في آخر كتاب اللباس.

(٤) سورة المائدة آية ٦.

ولم يدع الرسول (ﷺ) أمر الغسل الكامل للظروف التى تفرض فرضاً، فقد يتكاسل بعض الناس عن الاغتسال ما دامت دواعى فرضه لم تقم، لذلك وقتّ للغسل يوماً في كل أسبوع. قال رسول الله (ﷺ): **«غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وسواك ،ويمس من الطيب»** [١].

« اللهم إنى أسألك نعيماً لا ينفذ ، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مضره، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» [٢].

« اللهم إنى أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفذ، ومرافقة محمد (ﷺ) فى أعلى جنة الخلد» [٣].

« اللهم أحسنت خلقى فأحسن خلقى » [٤].

* * *

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه (البخارى ٢/ ٢٩٨) ومسلم برقم (٨٤٦).

(٣) أخرجه ابن حبان برقم ٢٤٣٦ عن ابن مسعود موقوفاً.

(٤) أخرجه أحمد وصححه الألبانى فى إرواء الغليل برقم ٧٤.

الغنى الواسع المجيد

١٧ ١٨ ١٩

الغني هو الذي لا يحتاج إلى شيء، المستغنى عن كل من سواه المفتقر إليه كل ما عداه. والغنى في كلام العرب: الذي ليس بمحتاج إلى غيره. والله عز وجل ليس بمحتاج إلى أحد تعالى عن ذلك علوا كبيراً. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(١).

وكل الخلق إليه محتاج كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٢).

فالله (عزّ وجلّ) ليس بمحتاج إلى أحد فيما خلق وما يخلق، ودبر ويدبر ويعطى ويرزق، ويقضى ويمضى لاراد لأمره وهو على كل شيء قدير(٣) فلا غنى على الحقيقة إلا الله، فكل ما في العالم من مخلوقات يحتاج بعضها إلى بعض وهم قبل ذلك ومن بعده في أمس الحاجة إلى ربهم وخالقهم ورازقهم.

فالله (عز وجل) هو الغنى حقيقة عن العالمين، المتعالى عن جميع الخلق في كل زمن وحين. فهو (سبحانه) الغنى الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه لكماله وكمال صفاته التى لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن إلا أن يكون غنياً فإن غناه من لوازم ذاته والمخلوقات بأسرها لا تستغنى عنه في حال من أحوالها، فهى مفتقرة

---

(١) سورة العنكبوت/٦. (٢) سورة فاطر آية ١٥.

(٣) الزجاجى، مرجع سابق ص١١٧.

إليه في إيجادها، وفي بقائها، وفي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه [١]. قال ابن القيم: فهو الغني بذاته فغناه ذاتي له كالجود والإحسان

قال الراغب الأصفهاني: الغني يقال على ضروب:

أحدهما عدم الحاجات وليس ذلك إلا لله تعالى وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿**إن الله لهو الغني الحميد**﴾، ﴿**أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾.

الثاني: قلة الحاجات وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ وذلك هو المذكور في قوله عليه الصلاة والسلام: «**الغنى غنى النفس**».

الثالث: كثرة القنيات بحسب ضروب الناس، كقوله تعالى: ﴿**ومن كان غنيا فليستعفف**﴾ وقوله تعالى: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء**﴾.

وهذا هو المعنى المقصود من قول الشاعر: قد يكثر المال والإنسان مفتقر [٢].

قال الشاعر:

أنت الغنيُّ الذي مدت خزائنه — لطالبي الرزق لم تنقص ولم تزد
وكلُّ من هو محتاجٍ يمد بمفتاحِ — الدعاءِ لبابِ الواحدِ الصمد
تعطي بغير حسابٍ - كل معترفٍ — بالجود - متكل بالحق - معتمد
وحين - عن غيرك - تغنيه تجعله — لجود ذاتك محتاجاً إلى الأبد

---

(١) آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص٤٧.
(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٣٦٦.

فالله (سبحانه وتعالى) هو الغنى وما سواه فقير، ومن سعة غناه أن خزائن السموات والأرض والرحمة بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأوقات، وأن يده سخاء بالليل والنهار وخيره على الخلق مدرار.

ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بدعائه، ويعدهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم، ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلا منهم ما سأله وما بلغت أمانيه ما نقص ذلك من ملكه مثقال ذرة. ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من النعيم واللذات المتتابعات والخيرات المتواصلات، مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، ولا شريكاً في الملك، ولا ولياً من الذل، فهو الغنى الذي كمل بنعوته وأوصافه، المغنى لجميع مخلوقاته[١].

وغنى الله (عزّ وجلّ) لخلقه لا يقتصر على الغنى العام من إيجاد وإمداد بالحاجات والقنيات، بل يشمل الغنى الخاص وهو ما يفيضه (سبحانه) على قلوب عباده المؤمنين من المعارف الربانية، والحقائق الإيمانية.

وقد ورد اسم الغنى (سبحانه) في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة، اقترن في عشر منها بالحميد، ومرة بالحليم، وأخرى بالكريم، وثالثة، بالرحمة.

---

(١) آل سعدى، المرجع السابق، ص٤٧-٤٨.

قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وربك الغني ذو الرحمة﴾ (٤).

وكثرة اقتران الغنى بالحميد تدل على أن غناه (سبحانه وتعالى) فيه خير وبركة للمخلوقات مما يستوجب حمدهم لأن من غناه يعطيهم ويغنيهم ويفيض عليهم من نعمه وبركاته.

❋ ❋ ❋

الواسع:

الواسع (سبحانه) هو الذي وسع غناه كل فقير، ووسعت رحمته كل شيء، ووسع علمه جميع المخلوقات، ووسعت قدرته جميع المقدورات، ووسع إحسانه وإنعامه كل خلقه فالكلمة مشتقة من السعة، والسعة تضاف إلى العلم إذا اتسع، وإلى الإحسان إذا كثر، وإلى القدرة إذا أحاطت، وإلى النعمة إذا فاضت، وإلى الرحمة إذا شملت.

قال الراغب الأصفهاني: « وسع تقال في الأمكنة وفي الحال وفي

---

(١) سورة لقمان/ ٢٦.
(٢) سورة البقرة/ ٢٦٣.
(٣) سورة النمل/ ٤٠.
(٤)سورة الأنعام/ ٤.

الفعل كالقدرة والجود. ففى المكان: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾(١)، وفى الحال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾(٢) والوسع من القدرة ما يفضل قدر المكلف. ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(٣) وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾(٥).

فعبارة عن سعة قدرته وعلمه ورحمته وإفضاله (٦).

فالله عز وجل واسع الملك، واسع القدرة، واسع العلم، واسع الرحمة، واسع الإحسان والإنعام، واسع المغفرة. فهو سبحانه وتعالى الواسع المطلق في كل شئ فكل شئ في الوجود له نهاية وحد، ولابد أن ينتهى إلى طرف والذى لا يتناهى ولا حد لإحسانه ولا نهاية لسلطانه وإنعامه، ولا ساحل لعلمه، لا يحاط بذاته ولا بأسمائه وصفاته وهو الواسع الحق، هو الله. فسبحان من وسع علمه جميع المعلومات فلا يشغله معلوم عن معلوم، ووسعت قدرته جميع المقدورات فلا يشغله شأن عن شأن، ووسع سمعه جميع المسموعات فلا يشغله دعاء عن دعاء، ووسع إحسانه جميع الخلائق فلا يمنعه إغاثة ملهوف عن إغاثة غيره. ووسعت رحمته كل شئ فهو أرحم الراحمين، ووسعت مغفرته كل ذنب فيغفر الذنوب جميعا. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ (٧).

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٥٦.
(٢) سورة الطلاق، آية: ٧.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.
(٤) سورة طه، آية: ٩٨.
(٥) سورة النساء، آية: ١٣٠.
(٦) الراغب الأصفهانى، مرجع سابق، ص٥٢٣.
(٧) سورة الزمر آية ٥٣، ٥٤.

منها في سورة البقرة تعقيباً على ملكه وجوده ومغفرته .

قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

ويلاحظ اقتران اسم الواسع باسم العليم في سبعة مواضع من المواضع التسعة التي وردت في القرآن الكريم مما يدل على أن فضل الواسع (سبحانه) وإحسانه ونعمه ورحمته وقدرته تعطى بناء على علمه الشامل المحيط بعباده .

فإذا ما أعطى سبحانه وتعالى ملكاً لطالوت وجعله ملكاً لبني إسرائيل فهو عليم سبحانه وتعالى به ، وهو الذي يضع الأمور في مواضعها .

وإذا ما ضاعف الرزق والثواب لمن ينفقون أموالهم في سبيله فهو سبحانه صاحب العطاء الواسع الذي لا ينضب ، وهو العليم الذي يعلم النيات ويثيب عليها ولا تخفى عليه خافية . وإذا خوف الشيطان المؤمنين من الفقر وأثار في نفوسهم الحرص والشح وعدهم الواسع العليم مغفرةً وعطاءً واسعاً جزيلاً .

---

(١) سورة البقرة آية ١١٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٦١ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٦٨ .

المجيد:

المجيد في لغة العرب الكريم، والمجد: الكرم واشتقاقه من قول العرب: أمجدت الدابة علفاً، إذ أكثرته لها «فكان المجيد المبالغ في الكرم، المتناهى فيه[1].

والمجد الشرف الواسع، ورجل ماجد: مفضال كثير الخير شريف، والمجيد فعيل منه للمبالغة [2].

فالله عز وجل مجيد له الشرف التام الكامل والمجد والعلو والعظمة في ذاته وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم:

وهو المجيد صفاته أوصاف   تعظيم فشأن الوصف أعظم شأن

فهو سبحانه المجيد له المجد العظيم، والمجد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه: فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شىء، القدير الذي لا يعجزه شىء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته [3] التى بلغت غاية المجد فليس في شىء منها قصور أو نقصان، فهو سبحانه وتعالى (مجيد) بلغ الغاية في كل شىء فله الشرف الكامل والملك الواسع، والعطاء الجزيل، البر الجميل.

---

(١) الزجاجى، مرجع سابق، ص١٥٢.

(٢) صلاح الدين حفنى، مختصر النهاية فى غريب الحديث والأثر، ص١٤٧.

(٣) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح البين، ص٣٣.

وقد ورد هذا الإسم في القرآن الكريم مرتين :

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (١) .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (٢) .

وقد وصف القرآن الكريم بالمجيد ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ (٣) لكثرة ما تضمنه من العلوم والمكارم والمقاصد العليا والفوائد الدنيوية والأخروية .

وآثار الغنى الواسع المجيد في الكون والحياة لا يحصيها العد ، فالكون وما فيه من عوالم مختلفة وأمم شتى إنما هو أثر من هذه الآثار ، فالمجرات والنجوم في السموات مما لا يحصيه العد أثر من هذه الآثار ، ويكفى أن تنظر إلى الشمس وما أودع فيها الغنى الواسع من منافع ، فبضوئها نبصر ونسير في الأرض ، وبحرارتها وضوئها يتكون في النبات طعامنا بل وطعام كل كائن حى ، ومن أشعتها وحرارتها خزن الوقود للإنسان في الأرض ، ومن هذه الحرارة نلمس الدفء على سطح الأرض والذى لولاه لقضت البرودة على كل كائن حى . . . إلخ فسبحان الغنى الواسع .

والأرض وما عليها من منافع عظيمة وأرزاق شتى . . . بحيث نجدها مائدة عظيمة واسعة عامرة بأنواع الطعام ، يتناول منها كل ذى حياة طعامه الخاص بحياته ويستمد رزقه الذي يناسبه ، فملايين الملايين من الأحياء ابتداء من ذوى الخلية الواحدة في النباتات والحيوانات وانتهاء بالإنسان في برها وبحرها وجوها تأكل كل يوم بل كل ساعة بل

---

(١) سورة هود آية ٧٣ .

(٢) سورة البروج آية ١٥ . (٣) سورة ق آية ١ .

كل دقيقة من على هذه المائدة، ومع ذلك لا ينفذ طعامها ولا ينضب فسبحان الغني الواسع.

والحيوانات التي تملأ البر والبحر والتي تساق إليها أرزاقها بسهولة ويسر أثر من هذه الآثار، والجبال الراسيات وما في أجوافها من معادن مدخرة لمصالح العباد أثر من هذه الآثار.

وإبداع خلق الإنسان وتزويده بالأجهزة المتنوعة وتسليحه بالأسلحة الكثيرة أثر من هذه الآثار. فكلُّ شيء في الوجود من حولنا يشهد بفقره إلى الغني الواسع المجيد (سبحانه). فكل الكائنات، وجميع الموجودات من الذرات حتى المجرات تخشع أمام الغني الواسع، وتهمس في رجاء، وتلهج بالدعاء: فقراء يا ربنا فأغننا... عراة فاكسنا... جوعى فأطعمنا، عطشى فاسقنا.. موتى فأحينا..

حاجاتنا إليك - يا ربنا - لا تنتهي فأعطنا حاجاتنا.. أمن رغباتنا... حقق آمالنا... أعنا - يا خالقنا - لأداء ما لأجله خلقتنا... وحركنا لإنجاز مهامنا التي بها حياتنا... فليس لنا أحد سواك... منك أتينا وإليك - في حاجاتنا - نعود... ومنك حياتنا وإليك - في حفظها - نرجع.. فأجب دعوانا يا مجيب كل داع ويا مغني كل فقير... ويا معطي كل ذي حاجة حاجته [1] والاستغناء بالله عز وجل هو لبّ إيمان الموحدين، فالمؤمن لا يتضرع إلا إليه، ولا يرجو أحداً سواه. فهو الغني وكل من في الوجود إليه فقراء.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [2].

---

(١) سعيد النورسي، النوافذ، ترجمه إحسان الصالحي، ص١١، ١٢.
(٢) سورة فاطر آية ١٥.

وخزائن الغنى الواسع لا تنفذ ولا تنقص، ففى الحديث القدسى الصحيح» . . .

«يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كلَّ إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر....»[1] .

فجميع الخلق مفتقرون إلى الغنى الواسع المجيد في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، والعباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كلّه، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق، فإنه يحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه، أو بقته خطاياه في الآخرة. قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[2] . ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا

---

(١) رواه مسلم برقم/ ٢٥٧٧، ورواه أحمد ٥/ ١٥٤، وابن ماجه والترمذى(٢٤٩٥) بلفظ مغاير.

(٢) سورة الكهف آية ١٧ .

مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [١]. ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [٢].

فالله (عزوجل) هو الغنى وهو الواسع المجيد هو الذي خلق وهو الذي يهدى وهو الذي يطعم، وهو الذي يشفى وهو الذي يحيى ويميت وهو الذي يغفر. قال إبراهيم (عليه السلام) لقومه:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٧ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [٣].

فهو سبحانه الغنى المتفرد بالألوهية والعبادة والسؤال والتضرع إليه والاستكانة له ومن غناه وسعته ومجده يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم، ومن الطعام والشراب والكسوة والهداية وغير ذلك كما ورد في الحديث السابق. وكان بعض السلف يسأل الله (عزّ وجلّ) في صلاته كلَّ شيء حتى ملح عجينه وعلف دابته .

وقد جاء في أثر إسرائيلى أن موسى (عليه السلام) قال: «يارب إنه لتعرض لى الحاجة من الدنيا، فأستحيى أن أسألك، قال: سلنى حتى ملح عجينك وعلف حمارك» فإن كلّ ما يحتاج إليه العبد إذا سأله الله فقد أظهر حاجته فيه، وافتقاره إلى الله، وذلك يحبه الله [٤] فدوام السؤال يعبر عن دوام الافتقار إلى الله (عز وجل).

---

(١) سورة فاطر آية ٢.
(٢) سورة هود ٦.
(٣) سررة الشعراء/ ٧٥ ـ ٨٢.
(٤) ابن رجب الحنبلى، جامع العلوم والحكم، جـ٢، ص٣٩.

ولا تنافي بين الافتقار إلى الله (عز وجل)، وامتلاك المال، فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروة الافتقار إلى الله (عز وجل) مع جدتهم وملكهم، كإبراهيم الخليل (عليه السلام) كان أبا الضيفان. وكان له من الأموال والمواشي. وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام. وكذلك كان نبينا (ﷺ)، كما قال الله (عز وجل) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[١] فكانوا أغنياء في فقرهم. فقراء في غناهم[٢].

وقد قيل: أحسن ما يتوسل به العبد إلى ا: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من الحلال.

فالفقر إلى الله (عزّ وجلّ) هو عين الغنى بالله ولا غنى إلا به سبحانه وتعالى لأنه هو الغنى حقيقة، وكل ما سواه فقير إليه فينبغى ألا يتعلق إلا به. فمن تعلق بغير الله افتقر لأنه تعلّق بفقير وكيف يستغنى الفقير بالفقير؟!

وملك الغنى (سبحانه) لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، فإنه (سبحانه) الغنى بذاته عمن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أى وجه كان. فمن كمال ملكه وكمال غناه أن خزائنه لا تنفد، ولا تنقص بالعطاء، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد. وفى الحديث عن أبى هريرة (رضى الله عنه)

---

(١) سورة الضحى/ ٨.

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، جـ٢، ص٤٠٠، ص٤٤١.

عن النبي (ﷺ) قال: **«يد الله ملأى، لا تغيضها نفقةٌ، سحاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه»**(١).

وقال أبو سعيد الخدري: إذا دعوتم، فارفعوا في المسألة، فإن ما عنده لا ينفده شيء، وإذا دعوتم فاعزموا، فإن الله لا مستكره له.

وفي الصحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: **«إذا دعا أحدكم، فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة فإن ا(لا يتعاظمه شيء»** (٢).

فالعبد لا يسأل إلا الغني الواسع، وهو سبحانه يحب أن يسأل ويرغب إليه في الحوائج، ويلح في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لايسأله، والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أن يسأل، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته ولهذا قال رسول (ﷺ) في الحديث الذي رواه ابن عباس «... **وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله...**»(٣).

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي (ﷺ) أن الله (عزّ وجلّ) يقول: « **هل من داع فأستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له**»(٤).

فالله عزّ وجلّ هو الغني وهو الذي يحب أن يسأل وغيره يكره ذلك

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤) ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥).
(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٧٩)، ورواه أحمد، وصححه ابن حبان (٨٩٦).
(٣) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح (٢٥١٦) ورواه أحمد وأبو يعلى إلا أن طريقة تخريج الترمذي حسنة جيدة: انظر جامع العلوم والحكم حديث رقم ١٩).
(٤) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٨٥٨)، وغيرهما.

لأنه فقير محتاج ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك : ويحك، أتأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه بنصف الليل ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول : ادعني أستجب لك؟!

وقال طاووس لعطاء : إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونها حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك (١) .

والخلق عندما يعطون فإنهم يمنون بعطاياهم، وينتظرون عوضاً، وما ذاك إلا لفقرهم وحاجتهم.

قال عبد الرزاق سمعت النعمان بن الزبير الصنعاني يحدث أن محمد بن يوسف أو أيوب بن يحيى بعث إلى طاووس بسبعمائة دينار أو خمسمائة. وقيل للرسول : إن أخذها الشيخ منك، فإن الأمير سيحسن إليك ويكسوك، فقدم بها على طاووس، فأراده على أخذها، فأبى، فغفل طاووس، فرمى بها الرجل في كوة البيت، ثم ذهب وقال لهم : قد أخذها، ثم بلغهم عن طاووس شيء يكرهونه فقال : ابعثوا إليه، فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسول، فقال : المال الذي بعث به الأمير إليك، قال : ما قبضت منه شيئاً، فرجع الرسول، وعرفوا أنه صادق، فبعثوا إليه الرجل الأول، فقال : المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن؟ قال : هل قبضت منك شيئاً؟ قال : لا، ثم نظر حيث وضعه، فمدّ يده فإذا بالصرة قد بنى العنكبوت عليها. فذهب بها إليهم (٢) .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٤/ ١١، ٨/ ١٤١ .

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٥، ص٤٠ .

ولذلك كان الصالحون يتعففون عن عطايا السلاطين، لأن الكلّ فقراء والله هو الغني الحميد. روى كثير بن يحيى عن أبيه قال: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وعمر بن عبد العزيز عامل عليها، قال: فصلى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة واستند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم، فقال لعمر: من هذا؟ ما رأيت أحسن سمةً منه. قال: صفوان، قال: يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار فأتاه به، فقال لخادمه: اذهب بها إلى ذلك القائم، فأتى حتى جلس إلى صفوان وهو يصلي، ثم سلّم، فأقبل عليه، فقال ما حاجتك؟ قال: يقول أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك، فقال صفوان: لست الذي أرسلت إليه فقال: ألست صفوان بن سليم؟.

قال: بلى، قال: فإليك أرسلت، قال اذهب فاستثبت، فولى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يُرَ بها حتى خرج سليمان من المدينة [١].

وقال ابن شوذب: قسم أمير البصرة على قرائها، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ فقال له محمد بن واسع: قبلت جوائزهم؟ قال سل جلسائي. قالوا: يا أبا بكر اشترى بهم رقيقاً فأعتقهم. قال: أنشدك ا، أقلبك الساعة على ما كان عليه؟ قال اللهم لا إنما مالك حمار، إنما يعبدً الله مثل محمد بن واسع [٢].

فالعبد لا يسأل إلا الله ولا يستعن إلا به، لأن الإستعانة بغيره عجز، لأن العبد عاجز عن الإستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره،

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦٨.

(٢) المرجع السابق، جـ٦، ص١٢٠.

ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عزّ وجلّ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول وهذا تحقيق معنى قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله. فمن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً. كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه. ومن كلام بعض السلف: يارب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك؟ عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك؟[١].

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٢].

«اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[٣].

«اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»[٤].

«اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظْلِم أو أُظْلَم»[٥].

«اللهم قنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير»[٦].

---

(١) ابن رجب الحنبلي، مرجع سابق، جـ١، ص٤٨٢
(٢) سورة القصص/ ٢٤.
(٣) البخاري ٧/ ١٦٣، ومسلم ٤/ ٢٠٧٠.
(٤) رواه مسلم ٤/ ٢٠٨٧.
(٥) رواه النسائي وأبو داود، وانظر صحيح النسائي ٣/ ١١١١، وصحيح الجامع ١/ ٤٠٧.
(٦) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ١/ ٥١٠ (عن ابن عباس رضي الله عنهما).

العلي الأعلى المتعالى

٢٠ ٢١ ٢٢

العليّ: فعيل من العلو والعلاء، والعلاء الرفعة والسناء والجلال تقول العربى «فلان عليّ ذو علاء» إذا كان جليلاً عظيم الشأن. وقال الخليل بن أحمد: « الله عزّ وجلّ هو العلي الأعلى المتعالى ذو العلاء والعلو، فأما العلاء: فالرفعة، والعلو: العظمة والتجبر. وتقول« علا الشيء علاء» . ويقال: علوت وعليت جميعاً، وكذلك على علاء في الرفعة والشرف والارتفاع. والعلى والعالى أيضاً: القاهر الغالب للأشياء، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾ (١) قيل معناه: قهر أهلها وغلبهم واستولى عليهم. . . فالله (عزّ وجلّ) العليّ العالى ذو العلاء والجلال والرفعة والسناء، الغالب القاهر للأشياء كلها، والله عزّ وجلّ العلي العالى جلّ وتقدست أسماؤه (٢).

فالله عزّوجلّ له علو الذات فإنه فوق المخلوقات، وله علو الصفات وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، وله علو القهر فهو الواحد القهار.

قال ابن القيم:

وهو العليّ فكل أنواع العلـ ـــو له فثابتة بلا نكران

فجميع معانى العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات فإنه فوق المخلوقات وعلى العرش استوى أي علا وارتفع وله علو القدر وهو علو صفاته وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معانى صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلا

(١) سورة القصص، آية: ٤.
(٢) الزجاجى، مرجع سابق، ص١١٠.

يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (١) وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شئ في كل نعوته . وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه (٢).

وعلو الله تعالى بذاته وصفاته من أبين الأشياء وأظهرها، وهو ثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع (٣):

أما الكتاب فقد تعددت دلالته على ذلك، فتارة بلفظ العلو والفوقية والاستواء على العرش وكونه في السماء كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(٤)، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾(٥)، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(٦)، ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾(٧).

وتارة بلفظ صعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه كقوله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾(٨) ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾(٩)، ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾(١٠).

وتارة بلفظ نزول الأشياء منه ونحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾(١١)، ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾(١٢).

أما السنة فقد دلت عليه بأنواعها القولية والفعلية والإقرارية في

(١) سورة طه/ ١١٠.
(٢) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص٢٦.
(٣) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص٦١، ٦٢.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.
(٥) سورة الأنعام، آية: ١٨و ٦١.
(٦) سورة طه، آية: ٥.
(٧) سورة الملك، آية: ١٦.
(٨) سورة فاطر، آية: ١٠.
(٩) سورة المعارج، آية: ٤.
(١٠) سورة آل عمران، آية: ٥٥.
(١١) سورة النحل، آية: ١٠٢.
(١٢) سورة السجدة، آية: ٥.

أحاديث كثيرة تبلغ حد التواتر وعلى وجوه متنوعة كقوله (ﷺ) في سجوده: « **سبحان ربى الأعلى**»، وقوله: « **إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي تسبق غضبي**»، وقوله: ﴿**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء**﴾ وثبت عنه أنه رفع يديه وهو على المنبر يوم الجمعة يقول: « **اللهم أغثنا**». وأنه رفع يده إلى السماء وهو يخطب الناس يوم عرفة حين قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال: « **اللهم اشهد**». وأنه قال للجارية: أين الله؟ قالت في السماء فأقرّها وقال لسيدها: « **اعتقها فإنها مؤمنة**».

وأما العقل فقد دل على وجوب صفة الكمال لله تعالى وتنزيهه عن النقص. والعلو صفة كمال والسفل نقص فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده.

وأما الفطرة فقد دلت على علو الله تعالى دلالة ضرورية فطرية فما من داعٍ أو خائف فزع إلى ربه تعالى إلا وجد في قلبه ضرورة الاتجاه نحو العلو لا يلتفت عن ذلك يمنة ولا يسرة. واسأل المصلين يقول الواحد منهم في سجوده! «سبحان ربي الأعلى أين تتجه» أين تتجه قلوبهم حينذاك؟.

وأما الإجماع فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله تعالى فوق سمواته مستوٍ على عرشه وكلامهم مشهور في ذلك نصاً وظاهراً، قال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله تعالى ذكره فوق عرشه ونؤمن بما جفمن كل وجه عادم ال

وعلو الله (عزّ وجلّ) لا يخالف معينه لعباده، فالله (عزّ وجلّ) فوق العرش حقيقة ومعنا حقيقة كما جمع بينهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ**

مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١) .

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا كما قال (ﷺ) في حديث الأفعال : « **والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه**» .

فتفسير المعية بظاهرها على الحقيقة اللائقة بالله تعالى لا يناقض ما ثبت من علو الله تعالى بذاته على عرشه وذلك من وجوه ثلاثة :

الأول: أن الله تعالى جمع بينهما لنفسه في كتابه المبين المنزه عن التناقض وما جمع الله بينهما في كتابه فلا تناقض بينهما .

وكل شيء في القرآن تظن فيه التناقض فيما يبدو لك فتدبره حتى يتبين لك لقوله تعالى : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾(٢) فإن لم يتبن لك فعليك بطريق الراسخين في العلم الذين يقولون لله آمنا به كل من عند ربنا» وكل الأمر إلى منزله الذي يعلمه واعلم أن القصور في علمك أو في فهمك وأن القرآن لا تناقض فيه .

وإلى هذا الوجه أشار ابن تيمية وابن القيم حيث قال : وقد أخبر الله أنه مع خلقه مع كونه مستوياً على عرشه وقرن بين الأمرين كما في آية الحديد فأخبر أنه خلق السموات والأرض ثم استوى على العرش وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه وكما في الحديث : «والله فوقَ العرش يرى ما أنتم عليه «فعلوه لا يناقض معيته ، ومعيته لا تبطل علوه بل كلاهما حقٌ» .

الوجه الثاني: أن حقيقة معنى المعية لا يناقض العلو فالإجتماع بينهما ممكن في حق المخلوق فإنه يقال : ما زلنا نسير والقمر معنا ولا يعد ذلك تناقضاً ولا يفهم منه أحد أن القمر نزل في الأرض فإذا كان هذا ممكناً في

(١) سورة الحديد، آية : ٤ .
(٢) سورة النساء، آية : ٨٢ .

حق المخلوق ففي حق الخالق المحيط بكل شيء مع علوه سبحانه من باب أولى، وذلك لأن حقيقة المعية لا تستلزم الإجتماع في المكان.

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية (الفتاوى: المجلد الخامس/ ص١٠٣) حيث قال: وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة. وصدق رحمة الله تعالى فإن من كان عالماً بك مطلعاً عليك مهيمناً عليك يسمع ما تقول ويرى ما تفعل ويدبر جميع أمورك فهو معك حقيقة وإن كان فوق عرشه حقيقة لأن المعية لا تستلزم الإجتماع في المكان.

الوجه الثالث: أنه لو فرض امتناع اجتماع المعية والعلو في حق المخلوق لم يلزم أن يكون ذلك ممتنعاً في حق الخالق الذى جمع لنفسه بينهما لأن الله تعالى لا يماثله شيء من مخلوقاته كما قال تعالى: **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**.

وإلى هذا أشار ابن تيمية في العقيدة الوسطية حيث قال: وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو علىٌّ في دنوة قريب في علوه[1].

وهناك فرق بين العلو والاستواء، فالعلو من صفات الذات، والاستواء من صفات الأفعال فعلو الله على خلقه وصف لازم لذاته، والإستواء فعل من أفعاله سبحانه يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته

---

(١) محمد بن صالح بن عثيمين، المرجع السابق، ص٥٨، ص٦٠.

إذا شاء، ولذا قال فيه: (ثم استوىٰ) وكان ذلك بعد خلق السموات والأرض. كما أن العلو من الصفات الثابتة بالعقل والنقل، والاستواء ثابت بالنقل لا بالعقل(١).

وقد ورد اسم العلي في القرآن الكريم تسع مرات اقترن في خمس منها بالكبير، وفي اثنتين بالعظيم، وفي اثنتين بالحكيم.

قال تعالىٰ: ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(٢).

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٣).

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٤).

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٥).

﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾(٦).

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(٧).

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٨).

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٩).

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(١٠).

أما اسم الله الأعلىٰ فقد ورد مرتين:

قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾(١١).

---

(١) صالح الفوزان، شرح العقيدة الوسطية، ص٨١.
(٢) سورة البقرة آية ٢٥٥.
(٣) سورة الحج آية ٦٢.
(٤) سورة لقمان آية ٣٠.
(٥) سورة سبأ آية ٢٣.
(٦) سورة غافر آية ١٢.
(٧) سورة الشورىٰ آية ٤.
(٨) سورة الشورىٰ آية ٥١.
(٩) سورة الزخرف آية ٤.
(١٠) سورة النساء آية ٣٤.
(١١) الأعلىٰ آية ١، ٢.

﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾(١) .

وورد اسم الله المتعالي مرة واحدة .

قال تعالى ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾(٢) .

وقد فرق ابن الأثير بين الأسمين العلي والمتعالي، فقال: إن العلي هو الذي ليس فوقه شيء، فهو فعيل بمعنى فاعل، من علا يعلو، والمتعالي هو الذي جلّ عن إفك المفترين وعلا شأنه، وقيل: جلّ عن كل وصفٍ وثناء وهو متفاعل من العلو، وقد يكون المعنى العالي(٣) .

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ أعلى من أن يقاس به أو يعتبر بغيره(٤) .

فهو سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ الذي خلق كل شيء فسواه، فأكمل صنعته، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه، والذي قدّر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه لما خلقه لأجله، وألهمه غاية وجوده، وقدّر له ما يصلحه مدة بقائه وهداه إليه . . . وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق، ميسرة لكى تؤدى فى تجمعها دورها الجماعي، مثلما هي مسيرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي . الذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وإلكتروناتها، شأنها شأن المجموعة الشمسية في تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها . . . وهي تعرف طريقها وتؤدي مثلها وظيفتها . . . والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها كلها شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة . وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية، كما بين الخلية الواحدة وأرقى الكائنات الحية، درجات من التنظيمات والتركيبات كلها في مثل هذا

---

(١) الليل : ١٩، ٢٠ . (٢) الرعد آية ٩ .

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص .

(٤) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٣٤٥ .

الكمال الخلقى، وفي مثل هذا التناسق الجماعي، وفي مثل هذا التدبير والتقدير الذي يحكمها ويصرفها. والكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة(١).

فسبحان ربي الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى.

روى الإمام أحمد أن عقبة بن عامر قال: لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول ا «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال: «اجعلَوها في سجودكم»(٢).

وروى أيضاً أن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: إن رسول الله (ﷺ) كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى»(٣).

والمسلم عندما ينظر فى خلق الله (عزّ وجلّ)، وهو واحد وأنموذج من هذا الخلق يتوارى شعوره بنفسه ليملأها الشعور بالعلى الأعلى المتعالي (سبحانه وتعالى) فلا يقوم في نفسه خاطر استعلاء في الأرض وإنما يشعر بضآلته أمام آثار العلي الأعلى (سبحانه).

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾(٥). أى

(١) سيد قطب، فى ظلا القرآن، جـ٦، ص٣٨٨٤.
(٢) ورواه أبو داود وابن ماجه، وانظر صحيح مسلم (٧٧٢) في صلاة المسافرين.
(٣) ورواه أبو داود أيضاً، وانظر صحيح مسلم (٧٧٢) في صلاة المسافرين.
(٤) سورة القصص آية ٨٣.
(٥) سورة الفرقان/ ٦٣.

في سكينة ووقار متواضعين، غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين.

وأول ذنب عصى به الله (عزّ وجلّ) الكبر وهو ذنب إبليس اللعين، ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين قال الله تعالى للكافرين: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(١).

وأهل الكبر التجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٢).

ومن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فمصيره النار. قال رسول الله (ﷺ) «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعلة حسناً؟ قال: «إن الله جميلٌ يحبُ الجمالَ الكبرُ بطر الحق، وغمط الناس»(٣).

وإذا تغلغل مرض التكبر وتمكن من أقطار النفس صعب على صاحبه أن يثوب إلى الحق فضلاً عن التواضع.

عن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) أن رجلاً أكل عند رسول الله (ﷺ) فقال: «كل بيمينك» قال لا أستطيع! قال: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر. قال: فما رفعها إلى فيه(٤).

والكبر يزيد يوماً بعد يوم في النفوس الخاوية الخربة التي ليس فيها أثر من التواضع والخضوع للعلي الأعلى سبحانه وتعالى، حتى تلقى مصيرها المحتوم من الخسف في الأرض والعذاب الأليم جزاءً وفاقاً. فطالما استطالت على ظهر الأرض وسامت الضعفاء سوء العذاب.

---

(١) سورة الزمر/ ٧٢.　　(٢) سورة غافر/ ٣٥.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، وبطر الحق رده، وغمط الناس: احتقارهم.

(٤) رواه مسلم في باب الأطعمة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾(١) إلى قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ الآيات.

عن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «**لا يزال الرجلُ يذهب بنفسه حتى يُكتبَ في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم**»(٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»(٣).

أما الصالحون فيتواضعون ويشعرون بالذل والانكسار أمام العلي الأعلى المتعالي قال رسول الله (ﷺ): «**... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(٤) وقد ضرب لنا رسول الله (ﷺ) وهو سيد ولد آدم المثل الأعلى في التواضع ولين الجانب وكرم الطباع. فإنه حين رأى رجلاً يرتعد منه ظناً منه أنه ملك من الملوك قال له رسول الله (ﷺ): «هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد»(٥).

وعن أبي رفاعة تميم بن أسيد (رضي الله عنه) قال: انتهيت إلى رسول الله (ﷺ) وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليّ رسول الله (ﷺ)، وترك خطبته حتى انتهى إليّ فأتى بكرسي، فقعد عليه، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها(٦).

---

(١) سورة القصص/ ٧٦. (٢) رواه الترمذي، وقال حديث حسن.
(٣) متفق عليه، (مسلم/ ٢٠٨٨). (٤) أخرجه مسلم والترمذي.
(٥) صحيح سنن ابن ماجه برقم/ ٢٦٧٧، ٣٣١٢.
(٦) رواه مسلم في أبواب الجمعة من صحيحه، ورواه النسائي في سننه.

وعن الأسود بن يزيد قال: سُئِلت عائشة (رضي الله عنها) ما كان النبي (ﷺ) يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله - يعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة(١).

وكان (ﷺ) يسلم على الصبيان، وتأخذ الأمة بيده فتنطلق به حيث شاءت. عن أنس (رضي الله عنه) أنه مرّ على صبيان فسلم عليهم، وقال: كان النبي (ﷺ) يفعله(٢).

وعنه قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي (ﷺ) فتنطلق به حيث شاءت(٣).

وقد علم أصحابه (ﷺ) هذا الخلق النبيل قولاً وسلوكاً:

عن عياض بن حمار (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): **«إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحد على أحدٍ»**(٤).

وقد استقى أصحابه (ﷺ) من هذا النبع الفياض. فهذا زيد بن ثابت (رضي الله عنه) يركب فيدنو منه ابن عباس ليأخذ بركابه، فقال له زيد: مه يا ابن عم رسول الله فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا. فقال: أرني يدك فأخرجها إليه فقبلها فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله(ﷺ)(٥).

وقال عروة بن الزبير (رضي الله عنهما): رأيت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإستئذان.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإستئذان.

(٣) رواه البخاري. (٤) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

(٥) أبو الفرج بن الجوزي، مرجع سابق، جـ١، ص٧٠٦.

لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها.

وولي أبو هريرة (رضي الله عنه) إمارة مرة فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره، ويقولوا: طرِّقوا للأمير.

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم، لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه.

وعيّر أبو ذر بلالاً (رضي الله عنهما) بسواده، ثم ندم، فألقى بنفسه، وحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه فلم يرفع حتى فعل بلال.

ورأى محمد بن واسع ابنا له يمشي مشية منكرة، فقال: تدري بكم اشتريت أمك؟ بثلاثمائة درهم. وأبوك - لا أكثر الله في المسلمين مثله - أنا وأنت تمشي هذه المشية[1].

«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء»[2].

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها. أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[3].

---

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، جـ٢، ص٣٣٠، ص٣٣١.
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والطبراني، وانظر صحيح الترمذي ٣/ ١٨٤.
(٣) رواه مسلم ٤/ ٢٠٨٨.

الكبير المتكبر

٢٣ ٢٤

الكبير: العظيم الجليل، يقال فلان كبير بني فلان «أي رئيسهم وعظيمهم» ومنه قوله تعالى: ﴿إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾ أي عظماءنا ورؤساءنا، وكبرياء الله: عظمته وجلاله. ومنه قيل: كبرت تكبيراً وعظمت تعظيماً أي وصفته بالكبرياء والعظمة[1].

فالله عز وجل هو الكبير في كل شيء، وهو الذي كبر وعلا في ذاته وصفاته وأفعاله عن مشابهة مخلوقاته. فله تبارك وتعالى كبرياء الذات والصفات والأفعال. فهو سبحانه وتعالى أكبر من كل شيء، وأعلى من كل شيء، وأجلّ من كل شيء، تتضاءل أمامه الكبراء والعظماء. وقد جاء ذكر اسم الكبير في القرآن الكريم (ست مرات).

قال تعالى:

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾[2].

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[3].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[4].

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[5].

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص١٥٥.
(٢) سورة الرعد/ ٩.
(٣) سورة الحج/ ٦٢.
(٤) سورة لقمان/ ٣٠.
(٥) سورة سبأ/ ٢٣.

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾[١] .

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً ﴾[٣] .

ويلاحظ اقتران الكبير بالعلي المتعالي مما يدل على أنه كبير في علوه عليٌّ في كبريائه (سبحانه وتعالى).

أما المتكبر فهو المتعالي عن صفات الخلق، الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله، وتكبر عن كل سوء، وتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم. وهو سبحانه الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة فيقصمهم، والتاء في المتكبر تاء التفرد والتخصص بالكبر، لا تاء التعاطي والتكلف. فهو متفرد بالكبرياء والعظمة، وليس لملكه زوال، ولا لعظمته انتقال. فالكبرياء في صفات الله (عزّ وجلّ) مدح، وفي صفات المخلوقين ذم.

وفي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: قال الله عز وجل «**العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني عذبته**»[٣] .

قال الأصفهاني: «والتكبر يقال على وجهين: أحدهما: أن تكون الأفعال حسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره وعلى هذا وصف الله تعالى بالتكبر. والثاني: أن يكون متكلفاً لذلك متشبعاً به وذلك في وصف عامة الناس. فمن وصف بالتكبر على الوجه الأول فهو محمود. ومن وصف بالتكبر على الوجه الثاني فهو مذموم»[٤] .

---

(١) سورة غافر/ ١٢ .

(٢) سورة النساء/ ٣٤ .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس، وأبو داود في الزهد، ورواه ابن ماجه والبزار .

(٤) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٤٢٢ .

مــتــفــرد بالـكـبــرياء	فليس يشـبـهـه أحـد
لـو شـــاء أغلق بابه	عمن عصاه ومن جحد
مـتـوحـدٌ مـتـكـبـرُ	سبحانه الفرد الصمد
وله الكمـال بغـيـر	حـد والوجـود بلا عـدد
طوبى لعـبـد صـالح	لجلال سـيـده سـجـد

وقد ذكر اسم (المتكبر) مرة واحدة في القرآن الكريم:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

وآثار الكبير المتكبر في الحياة لا يحصيها العد، فما أكثر المتكبرين الذين تكبروا وعتوا في الأرض فساداً ثم كان عاقبتهم الذل والهوان. أذلهم المتكبر الحق ليجعلهم عبرة لمن يعتبر في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأنكى.

عن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) قال: أكل رجل عند رسول الله (ﷺ) بشماله، فقال له الرسول (ﷺ): كل بيمينك. قال: لا أستطيع. فقال (ﷺ): لا استطعت. ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه بعد. (أي شلت يده)(٢).

وقال رسول الله (ﷺ): «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»(٣).

وقد روى أن رجلاً من الأغنياء كان يطوف بالكعبة وحوله خدمه

---

(١) سورة الحشر/ ٢٣. (٢) رواه مسلم في باب الأطعمة.
(٣) متفق عليه انظر (البخاري ١٠/ ٢٢١، ومسلم/ ٢٠٨٨).

وأعوانه يطردون الناس لينفرد بالطواف . . وانقضى زمان فرآه أحد هؤلاء الناس على جسر في بغداد يتكفف الناس، فقال له : ألست أنت الذي كنت وكنت؟! قال : نعم. قال : فماذا حدث؟ قال : تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس، فأذلني الله في مكان يرتفع فيه الناس!

ويروي محمد بن الفضل الجرجرائي فيقول كنت أتولى ضياع عجيف (قائد المعتصم) وكان متكبراً جباراً، فرفع إليه أني خنته وأخربت ضياعه فأنفذ إليّ من قيدني وأدخلت عليه، فلما نظر إليّ شتمني، وقال : أخربت الضياع ونهبت الارتفاع لأقتلنك شر قتلة فبلت على نفسي . . فلما رآني كاتبه قال له : أعز الله القائد! أنت اليوم مشغول وقتل هذا في أيدينا ولن يفوت فأمر به الآن إلى الحبس حتى تفرغ له . . . ثم كان من أمر عجيف أن قتله المعتصم. فأُطلق سراحي، ثم عملت في ديار ربيعة، فنزلت إحدى الضياع، وخرجت من الليل من داري . إلى تل في الصحراء لأبول فخرج إليّ أحد الناس، وقال لي : أتدري على من تبول؟! قلت على تل من تراب .

هذا قبر رجل يعرف بعجيف قائد من قواد المعتصم، كان قد سخط عليه، ودفعه مقيداً إلى هنا ثم قتل وطرح في هذا المكان تحت الحائط . قال محمد بن الفضل : فعجبت من بولي خوفاً منه، ومن بولي عليه! (١) .

وهذا جاجارين (رائد الفضاء الروسي) الذي خرج إلى الفضاء، وصعد فوق القمر، فرجع يعلن في صلف وتكبر أنه بحث عن الله في الفضاء فلم يجده، يلقى مصرعه في حادثة طائرة عادية، وفي رحلة يقوم بها الملايين كل يوم وينجون! . فما أضعف الإنسان! قال علي بن

(١) إبراهيم الحازمي، الفرح بعد الشدة والضيقة، جـ١، ص٦٣ .

أبي طالب (رضي الله عنه): عجباً لابن آدم تقتله دقة، وتؤلمه بقه، وتنتنه عرقه، فكيف يتكبر؟!

وأول درس نتعلمه في ضوء اسم الله المتكبر، هو التواضع، ولين الجانب، والتواضع هو الانقياد للحق، مع لين الجانب، وقهر النفس.

قال الفضيل بن عياض: التواضع أن تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبل الحقّ، من كل من تسمعه منه، وهو أحسن ما يتزين به الإنسان.

قال منصور بن عمار: أحسنُ لباسِ العبد التواضعِ والانكسار. وقال آخر: الخير كله في بيت ومفتاحه التواضع، والشُر كلّه في بيت ومفتاحه التكبر، ومما يدل على ذلك أن آدم (عليه السلام) تواضع في ذنبه فنال العفو والكرامة، وأن إبليس تكبر فلم ينفعه شيء وقد ضرب لنا رسولنا محمد (ﷺ) المثل الأعلى في التواضع، فقد نهى أصحابه عن إطرائه.

عن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله[1].

عن الحسن (رضي الله عنه) أنه ذكر رسول الله (ﷺ) فقال لا وا ما كانت تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح عليه بها، ولكنه كان بارزاً من أراد أن يلقى نبي الله لقيه، وكان يجلس بالأرض ويوضع طعامه بالأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف عبده، ويعلف دابته بيده.

---

(١) رواه البخاري.

عن الأسود قال: قلت لعائشة (رضي الله عنها): ما كان رسول الله (ﷺ) يصنع إذا دخل بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى[1].

وقد كان أصحابه (ﷺ) مثالاً في التواضع ولين الجانب، فاستحقوا الشرف والرفعة في الدنيا والآخرة.

فهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع بالخلافة، قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه[2].

ونادى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يوماً: الصلاة جامعة... ثم صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه (ﷺ) ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب، فأظل يومي، وأي يوم! ثم نزل، فقال له عبد الرحمن بن عوف يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قمئت نفسك أي عبتها. فقال: ويحك يا ابن عوف: خلوت فحدثتني نفسي فقالت: أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل مني، فأردت أن أعرّفها نفسها.

وكان سلمان الفارسي (رضي الله عنه) أميراً على المدائن فجاء رجل من أهل الشام ومعه حمل تبن. فقال لسلمان: تعال احمل، وهو لا يعرفه.

---

(١) رواه البخاري في الأدب من صحيحه.

(٢) أبو الفرج بن الجوزي، صفة الصفوة، جـ١، ص٢٥٨.

فحمل سلمان فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير. فقال الرجل: لم أعرفك فقال له سلمان: لا حتى أبلغ منزلك وفى رواية أخرى: إني قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك.

وعن أبى الأحوص قال: افتخرت قريش عند سلمان، فقال: لكنى خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم يؤدى بي إلى الميزان فإن ثقلت فأنا كريم، وإن خففت فأنا لئيم (١).

فالمؤمن يعيش بين إخوانه متواضعاً هنياً ليناً، مجانباً الكبر لأن الكبر هو أول ذنب عصى به الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ (٢).

وقد حرم الله عز وجل الجنة على من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر في الحديث قال رسول الله (ﷺ): « **لا يدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال ذرة من كبر** »(٣).

وأوصى لقمان ابنه وهو يعظه بالبعد عن هذا الداء المهلك فجاء على لسانه في القرآن الكريم: ﴿ **وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ (٤).

والاختيال والتعاظم عرضان ظاهران لهذا المرض. لأن الكبر إذا تمكن في القلب كدّره، وظهرت آثاره على الظاهر، ولذلك قيل:

---

(١) انظر ترجمة سلمان الفارسى فى صفة الصفوة، جـ١، ص٥٤٢.

(٢) سورة البقرة/ ٢٤.

(٣) رواه مسلم فى كتاب الإيمان من صحيحه، وأبو داود فى كتاب اللباس، والترمذى فى البر والصلة والنسائى فى السنة.

(٤) سورة لقمان/ ١٨.

التواضع من تصفية الباطن تلقى بركاته على الظاهر، والتكبر من كدورة الباطن تظهر ظلمته على الظاهر.

ولأن المتكبر متعاظم في نفسه مختال في مشيته متعال على غيره في الدنيا، فإنه يحشر يوم القيامة على هيئة حقيرة تحت أقدام الخلائق.

قال رسول الله (ﷺ) « **يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس، يغشاهم الذل من كل مكان** » [١]. ويلقى المتكبر ربه وهو عليه غضبان.

قال رسول الله (ﷺ): « **ما من رجل يختال في مشيته ويتعاظم في نفسه إلا لقي الله وهو عليه غضبان**» [٢].

وتكبر الإنسان آت من جهله، فما هو إلا هباءة صغيرة تحيا على ظهر ذرة هي الأرض، وما الأرض إلا ذرة في مجموعة ذرات هي المجموعة الشمسية وما المجموعة الشمسية إلا ذرة في المجرة وما المجرة إلا ذرة في رحاب الكون الفسيح. وما عمر الإنسان وإن طال إلا لحظة في عمر الكون الذي ابتدأ منذ ملايين السنين.

ولله در القائل:

تمردت فوق الأرض يا نفسى فاهدئى ... ولا تذهبى فى العُجْب شتى المذاهب

فما أنت إلا ذرة فوق متنها ... وما هى إلا ذرة فى الكواكب

عجائب هذا الكون شتى وفتنتى ... بهيمنتى فى الكون كبرى العجائب

« اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الاربع»[٣].

---

(١) رواه أحمد والترمذي وغيرهما. (٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي وأبو داود، وانظر صحيح الجامع، ١٠/ ٤١٠، وصحيح النسائي ٣/ ١١١٣.

« اللهم جنبني منكرات الأخلاق، والأهواء، والأعمال، والأدواء» (١).

« اللهم إنا نعوذ بك من القسوة، والكبر، والغفلة، والكفر والسمعة، والرياء» .

* * *

(١) أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط ووافقه الذهبي ١/ ٥٣٢ .

العـــزيـــز

٢٥

العزيز من العزة أى القوة والغلبة، وهو من الشئ العزيز أى النادر الذي يصعب وجود مثله، وهو أيضاً بمعنى الممتنع، والخطير الذي يقل وجوده، وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه (١).

قال الراغب الأصفهانى: العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرض عزاز أى صلبة، قال تعالى: ﴿ **أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾(٢)، وتعزز اللحم اشتد وعز كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه، والعزيز الذي يُقْهِر ولا يُقْهَر قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾(٣)، ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾(٤).

فا (سبحانه) عزيز أى غالب لا يُغلب، قاهر لا يُقهر، وهو عزيز جليل وهو عزيز قوى شديد، وهوعزيز أى لا مثل له ولا نظير، وهو عزيز تشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه. قال ابن القيم في نوتيته المشهورة:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنّى يرام جناب ذى سلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شئ هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هى وصفه ... فالعزُ حينئذ ثلاث معان

وهى التى كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

---

(١) الزجاجى، مرجع سابق، ص٢٣: ص٢٣٩.

(٢) الراغب الأصفهانى، مرجع سابق، ص٣٣٢.

(٣) سورة النساء، آية: ١٣٩. (٤) سورة العنكبوت، آية: ٢٦.

فالعزّة لها ثلاثة معان، وكلها كاملة لله عزّوجل :

١ ـ عزّة القوة الدال عليها من أسمائه القوىٰ المتين، وهىٰ وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت .

٢ ـ عزة الامتناع، فإنه هو الغنىٰ بذاته، فلا يحتاج إلىٰ أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضار النافع المعطىٰ المانع .

٣ ـ عزة القهر والغلبة لكل الكائنات، فهىٰ كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصىٰ الخلق بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف منها متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا حول ولا قوة إلا به . فمِن قوته واقتداره أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون (١) .

وقال آخر مخاطباً العزيز سبحانه :

أنت العزيز ولا عزيز سواكا كل الخلائق يطلبون رضاكا

وقال :

عـزيز وكل العـالمين عـبـيـد تفـرد فوق العـرش فـهو مـجيـد

له الملك، تعنو الكائنات لنوره قـريب إليـها فـى الوجود بعيـد

له الأمـر لا شئ من الخلق كلهم يريـد إذا كـان العـزيز يـريد

وقد ذكر لله العزيز » كاسم من أسماء الله الحسنىٰ، أكثر من ثمانين مرة في القرآن الكريم، وغالباً ما يصحب هذا الاسم اسم آخر فما هو لله ولماذا؟

---

(١) عبد الرحمن آل سعدىٰ، الحق الواضح المبين، ص٤٤، ص٤٥ .

إن العـزيز وصف قـوة، واقـتدار، وغلبـة، وسيطرة، ولذلـك قـد تقترن هذه القوة بما يناسبها، ويقـترب من معناها مثل القوىٰ، والمقتدر، والمهيمن، والجبار، وذىٰ الإنتقام

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١).

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٢).

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾(٣).

فهو اقتـران قـوة بقـوة، وكمـال بكمـال، وقد يبلغ الخوف بالإنسـان مبلغـاً كـبيراً حين يرىٰ اقتـران هـذه الأسـمـاء الدالة علىٰ القـوة والغلبـة والاقتدار والسيطرة فيظن الجاهل أن العزة فيها شيء من الظلم أو الجور أو التعذيب بلا حسـاب فيأتىٰ تصحيـحاً لهـذا الظن الخاطئ في اقتـران العـزيز بالحكيم، ويتكرر هذا الاقـتران أكثـر من خمس وأربعين مـرة في القـرآن الكريم ليعلم الإنسـان أن عزة الله عـزوجل عزة حكيـمةٌ، لا جَـوْر فيها ولا طغيان.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٤).

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٦).

---

(١) سورة هود/ ٦٦.
(٢) سورة القمر/ ٤٢.
(٣) سورة الحشر/ ٢٣.
(٤) سورة آل عمران/ ١٢٦.
(٥) سورة المائدة/ ٣٨.
(٦) سورة النساء/ ٥٦.

وهناك ما هو أبعد من ذلك، وهو أن عزّة الله (عزّ وجلّ) لا تقترن بالحكمة فقط وإنما تقترن بالرحمة أيضاً. فقد يتوهم بعض الناس أن العزة تنافي الرحمة، فأراد الحق (سبحانه) أن ينفي ذلك بالنسبة له فهو سبحانه عزيز قوي مقتدر جبار ومع ذلك فهو عزيز رحيم. وقد اقترن اسم العزيز باسم الرحيم في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، في سورة الشعراء وحدها تسع مرات، جاء ثمان منها بالنص التالي:

﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾

والتاسعة ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾

ويقترب من هذا المعنى ويؤكده اقتران اسم العزيز باسمي الغفور والغفار في مثل قوله تعالى﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (١).

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٢).

ولا يُحمد العزيز من الناس إلا نادراً، ولكن عزة الله (سبحانه) عزّة محمودة لأنها عزّة حامدة تحمد لكل ذي عمل علمه، وتثيب كل محسن على إحسانه، ومن هنا جاء اقتران اسم العزيز باسم الحميد في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٣).

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٤).

وعزّة الله عز وجل عزّة عالمة محيطة مقدرة ـ أيضاً ـ ولذلك جاء

---

(١) سورة فاطر/ ٢٨.
(٢) سورة ص/ ٦٦.
(٣) سورة إبراهيم/ ١.
(٤) سورة البروج/ ٨.

اقتران اسم العزيز باسم العليم في القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (١).

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٢).

وآثار العزيز (سبحانه) في الكون والحياة لا يحصيها العد، فما من رسول أرسله الله عز وجل إلا وأيده بنصره وعزته، قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٣).

فنوح (عليه السلام) عصاه قومه وكذبوه، فجاء النصر من القوى العزيز فنجاه الله عز وجل، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤). بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، فما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى.

وبعد أن طوى الطوفان المعاندين من قوم نوح، وبقى الناجون المؤمنون مع نوح (عليه السلام) تفرقوا في البلاد، وعادت الجاهلية مرة أخرى، فبعث الله عزّ وجل إلى عاد أخاهم هوداً بالكلمة التي جاء بها كل الأنبياء ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٥).

فلما كذبوه حق عليهم الوعيد والإنذار، وجاء النصر من القوى العزيز، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾(٦).

---

(١) سورة الأنعام/ ٩٦.
(٢) سورة غافر/ ٢.
(٣) سورة المجادلة / ٢١.
(٤) سورة هود ٤٤.
(٥) سورة هود/ ٥٠.
(٦) سورة هود/ ٥٨ : ٦٠.

ثم أرسل الله (عزّ وجلّ) صالحاً إلىٰ قومه ثمود، بهذه الكلمة الخالدة: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ فلما طلبوا الآية جاءتهم الناقة: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾(١) .

ولكن القوم عاندوا وكذبوا واستهتروا فعقروا الناقة فنجى الله صالحاً والذين آمنوا معه وحقّ العذابُ علىٰ هؤلاء المعاندين المكذبين فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ (٢) .

وإبراهيم (عليه السلام) دعا قومه إلىٰ عبادة الله وحده وترك الأصنام التي يعبدونها، والتي لا تنفع ولا تضر: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣) .

وبعد أن أقام الحجة عليهم، أخذتهم العزة بالإثم بعد أن فقدوا الحجة والدليل فلجأوا إلىٰ القوة الغاشمة والعذاب الغليظ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾(٤) .

فجاءت الكلمة العليا من القوىٰ العزيز: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٥) .

وأرسل الله (عزّ وجلّ) موسىٰ (عليه السلام) إلىٰ فرعون بآيات

(١) سورة هود/ ٦٤ .
(٢) سورة هود/ ٦٥ : ٦٨ .
(٣) سورة الأنبياء/ ٥٢ : ٥٤ .
(٤) سورة الأنبياء/ ٦٨ .
(٥) سورة الأنبياء/ ٦٩ : ٧٠ .

وبراهين ساطعة فجاء رد فرعون ومن معه : ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾(١) . وكثر لغط فرعون وأتباعه وجدالهم واستهتارهم بعد أن ظهر الحق وعلا ولم تنفعهم نصيحة الرجل المؤمن. فجاء النصر من القوي العزيز : ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(٢) . فالله عزّ وجلّ عزيز غالب لا يغلب ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٣) .

وآثار العزيز سبحانه وتعالى في الوجود والحياة لا تنقطع ، فالكوارث والنكبات التي تصيب الجبارين والكافرين ما هي إلا أثر من هذه الآثار .

قال تعالى : ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٤) .

وما الثورات البركانية إلا أثر من هذه الآثار فيشعر الإنسان بضعفه وانهيار قواه أمام بركان هائل يقذف حمماً من اللهب ، فتخرج من باطن الأرض كصواريخ موجهة يصيب بها من يشاء ، فما هي إلا لحظات وتدفن قرى ومدن بكاملها في جوف الأرض وماذا يصنع الإنسان العاجز أمام قدرة القوي العزيز الذي يبعث هذا العذاب فيطمر الحياة والأحياء؟!

ففي عام (١٩٠٢م) وفي منتصف شهر إبريل انبعثت من بركان بيليه بمدينة (سان بيير) بعض الأدخنة ، وكان الأهالي يرون فيها زيادة في جمال منظر الجبال التي كانوا يخرجون إليها للتنزه في أيام الآحاد إلا أن السحب الدخانية بدأت تتكثف شيئاً فشيئاً ، وأخذت جميع الحيوانات والطيور تهجر المرتفعات ، وهي تحدث أصواتاً صاخبة ثم

---

(١) سورة غافر / ٢٥ .
(٢) سورة الأعراف/ ١٣٦ .
(٣) سورة الحج/ ٤٠ .
(٤) سورة الرعد/ ٣١ .

تصاعدت في الجو أصوات زمجرة البحر بعد أن ارتفعت درجة حرارته، وهكذا بقى الحال قرابة عشرين يوماً وفى يوم (٥ مايو) بدأت أولى النذر فقد ذهب ضحية الأحوال المنسابة (٢٤ موظفاً) في مصنع السكر، وأعلن الجنرال (موتيه) بناء على تقرير لجنة علمية أنه لا خطر على السكان، ولم يمض وقت طويل حتى أخذ البركان ينفث دخاناً أسود لمدة ثلاثة أيام، وفى (٨ مايو) أحس الناس بالخطر الذي يهدد حياتهم فأخذوا يجهزون للفرار، ولكن أين المفر؟ لقد جاء أمر ربك! فسرعان ما انفجرت قمة الجبل وانسابت فوق المنطقة سحابة غازية شديدة السخونة، وهى عبارة عن سيل من النيران الشديدة اللهب، وفى ثلاث ثوان فقط أخذت مياه الخليج في الغليان، ثم انطلقت الحمم البركانية وانسابت على جوانب الجبل المخروطى في أخاديد عظيمة بنيران متوهجة، وأخذت الغازات المتصاعدة تقذف كتلاً نارية تصل أحجامها إلى عدة أمتار مكعبة ذات غطاء جلدى كجلد البقر! فكانت رجوماً أبادت (٢٨ ألف نسمة) في لحظات!!

ويقولون إن أعظم انفجار في التاريخ كله؛ كان ذلك البركان الذي دمر بين يوم وليلة الحضارة المينونية العظيمة في الحوض الأوسط للبحر المتوسط، ونتج عنه طيران جزيرة (تيرا) في الهواء التي كانت تقوم عليها مدينة (أتاتبنس) الجميلة، وتطاير الرماد البركانى فوق الأراضى المصرية كأنه مطر من دماء!!(١).

فحقاً ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢).

ومن آثار العزيز سبحانه وتعالى أنه لا يترك من اعتصم به، والتجأ

---

(١) ابن خليفة عليوى، مرجع سابق، ص٢٣٩.

(٢) سورة الحج/ ٧٤.

إليه، وإنما يعزه ويذل عدوه فيعز سبحانه أولياءه، ويذل أعداءه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١).

عن محمد بن يزيد قال: أمرني عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) أن أخرج قوماً من السجن فأخرجتهم، وتركت يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج فحقد عليّ ونذر دمي فإني بأفريقية إذ قيل: قدم يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فهربت منه وعلم بمكاني فطلبني، فظفر بي، فلما دخلت إليه قال: لطالما سألت الله (عزّ وجلّ) أن يمكنني منك، فقلت له: وأنا طالما طلبت من الله أن يعيذني منك. فقال يزيد، ما أعاذك الله مني، والله لأقتلنك ولو سابقني ملك الموت إلى قبض روحك لسبقته. ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما، وأمر بي فأقمت في النطع، وكتفت، وشد رأسي وقام من ورائي رجل بسيف منتضى يريد أن يضرب عنقي، وأقيمت الصلاة، فقال: أمهلوه حتى أصلي، وخرج إلى الصلاة، فلما سجد أخذته السيوف فقتل، ودخل إليّ من حل كتافي ورأسي، وخلى سبيلي، فانصرفت سالماً (٢).

ومن التوجيهات التربوية التي نلمسها في ضوء هذا الإسم الجليل الاعتقاد الراسخ بأنه لا عزيز إلا الله عزّ وجلّ، ولا عزّة إلا منه سبحانه. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (٣).

وقد يقول قائل: كيف نجمع بين قوله ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وقوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

والجواب: ليس هناك تنافٍ بينهما، فإن العزة التي للرسول

---

(١) سورة آل عمران/ ١٠١.

(٢) إبراهيم الحازمي: الفرح بعد الشدة والضيقة، جـ١، ص ١٥٠.

(٣) سورة فاطر/ ١٠. (٤) سورة المنافقون/ ٨.

وللمؤمنين هي في الحقيقة ملك لله عزّ وجلّ، ومخلوقة منه، وعزته سبحانه هي مصدر كل عزة، وعلى هذا فالعزة لله جميعا، وهو يهب العزة لمن يشاء من الصالحين من عباده فيجعلهم الوارثين في الأرض القائمين بالأمر.

والمؤمن لا يطلب العزّة إلا من العزيز، لأنها لا تطلب من غيره، وكل عزّة تأتي من غير العزيز (سبحانه) فهي بطلان وغرور وذل:

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (١). أي اتخذوا هذه الآلهة ليتعززوا بها، فماذا كانت النتيجة؟! ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٢).

والمراد بالضد هنا أي ضد العزّ، وهو الذّل. ويحكي القرآن الكريم عن الكفار أيضاً: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (٣). أي في شدة وقوة، فماذا كان بعد ذلك؟ هددهم وأوعدهم:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (٤).

ثم عاد إلى تهديدهم: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (٥).

ثم جاء القرار الفاصل الحاسم:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ (٦).

فكل اعتزاز بغير الله (عزّ وجلّ) ذل وخسران. والعبد المؤمن لا يذل إلا للعزيز، وذلّ البشر للبشر باطل وضياع. والعزّة والإباء والكرامة من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام وغرسها في أنحاء المجتمع، وتعهد

---

(١) سورة مريم/ ٨١. (٢) سورة مريم/ ٨٢.
(٣) سورة ص/ ٢. (٤) سورة ص/ ٣.
(٥) سورة ص/ ٨. (٦) سورة ص/ ١١.

نماءها بما شرع من عقائد وسنّ من تعاليم وإليها يشير عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بقوله : « أحب من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول بملء فيه : لا . فالمؤمن لا يقيم ـ أبداً ـ في مكان يشعر فيه بالذل والهوان ، وإنما يتحول عنه ، وينشد الكرامة في غيره .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (١) .

قال تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) .

فالأمور بيد العزيز سبحانه وتعالى .

وفي وصية رسول الله (ﷺ) لابن عباس (رضي الله عنهما) : « **يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم: أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ، لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، وإن أجتمعوا على أن يضروك بشئ، لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام وَجُفت الصحف** » (٣) .

«اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت تباركت ربنا

---

(١) سورة النساء/ ٩١ .
(٢) سورة آل عمران / ٢٦ .
(٣) رواه الترمذي . ، وقال : حديث حسن صحيح .

وتعاليت لا ملجأ منك إلا إليك استغفرك وأتوب إليك»[١].

« اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنيت، وبك خاصمت، اللهم أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلنى، أنت الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون»[٢].

* * *

---

(١) أخرجه أصحاب السنن وأحمد والحاكم والبيهقى، وصححه الألبانى فى إرواء الغليل ٢/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخارى ٧/ ١٦٧، ومسلم ٤/ ٢٠٨٦.

الأول الآخر الظاهر الباطن الوارث

٣٠ ٢٩ ٢٨ ٢٧ ٢٦

جاءت هذه الأسماء الأربعة (الأول الآخر الظاهر الباطن) متتابعة في سورة الحديد. قال تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[١].

وقد فسر النبي (ﷺ) هذه الأسماء الأربعة تفسيراً واضحاً فقال مناجياً ربه: «**اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شئ فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان. أعوذ بك من شر كل شئ أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ. وأنت الآخر فليس بعدك شئ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ، وأنت الباطن فليس دونك شئ اقض عنا الدين وأغننا من الفقر** »[٢].

ففسر كل اسم بمعناه ونفى عنه ما يضاده وينافيه، وتدل هذه الأسماء على الكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية في «الأول والآخر»، والإحاطة المطلقة المكانية في «الظاهر والباطن». فالأول يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية، إذ السبب والمسبب منه تعالى. و «الآخر» يدل على أنه هو الغاية، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بعبوديتها ورغبتها، ورهبتها، وجميع مطالبها، و«الظاهر» يدل على عظمة «الباطن» يدل على إطلاعه على السرائر والضمائر،

(١) سورة الحديد/ ٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، حديث رقم (٢٧١٣).

والخبايا، والخفايا، ودقائق الأشياء، كما يدل على كمال قربه ودنوه. ولا يتنافى الظاهر والباطن لأن الله ليس كمثله شئ في كل النعوت [١].

قال ابن القيم:

هو أول هو آخر هو ظاهر   هو باطن هى أربع بوزان

ما قبله شئ كذا ما بعده   شئ تعالى الله ذو السلطان

ما فوقه شئ كذا ما دونه   شئ وذا تفسير ذى البرهان

« فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان لأزليته وأبديته سبحانه واسمان لعلوه وقربه فأوليته سبقه لكل شئ وآخريته بقاؤه بعد كل شئ، وظاهريته فوقيته وعلوه على كل شئ، ومعنى الظهور يقتضى العلو، وظاهر الشئ ما علا منه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شئ، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه وهذا قرب الإحاطة العامة» [٢].

ويعلل ابن القيم ورود هذه الأسماء معطوفة بعضها على بعض فيقول: « وأما في أسماء الرّب تبارك وتعالى فأكثر ما يجئ في القرآن بغير عطف نحو السميع العليم العزيز الحكيم الغفور الرحيم الملك القدوس السلام إلى آخرها. وجاءت معطوفة في أربعة أسماء وهى الأول والآخر والظاهر والباطن... فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معانى تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض وشعور الذهن بالثانى من شعوره بالأول، ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن

---

(١) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص٢٥.

(٢) انظر: شرح العقيدة الوسطية، صالح الفوزان، ص٢٩.

إلى البصر، وكذلك (الخالق البارئ المصور). وأما تلك الأسماء فلما كانت دالة على معانٍ متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها فهي ثابتة للموصوف بها. . . وأيضاً لأن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره ففي العطف مزيد تقرير وتوكيد يدفع به توهم الإنكار. . . فإذا قيل هو الأول ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكون الآخر غيره. . .

وكذلك الظاهر والباطن إذا قيل: هو ظاهر ربما سرى الوهم إلى أن الباطن مقابله فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية فكأنه قيل هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن، لا سواه. . . والذي يوضح ذلك أنه إذا كان للبلد مثلاً قاض وخطيب وأمير فاجتمعت في رجل حسُن أن تقول: زيد هو الخطيب والقاضي والأمير وكان للعطف هنا مزية ليست للنعت المجرد فعطف الصفات هنا أحسن قطعاً لوهم متوهم أن الخطيب غيره. وأن الأمير غيره[1].

أما الوارث (سبحانه) فهو الباقي بعد فناء المخلوقات، المسترد أملاكهم، ومواريثهم فالأشياء كلها صائرة إليه. فكل الأملاك ترجع إليه بعد فناء الملاك.

فهو سبحانه الذي يرث الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ [2].

وهو سبحانه يرث الأشياء كلها بعد فناء أهلها، وينادي حين ذاك: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [3].

---

(١) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، جـ١، ص١٩٠، ص١٩١.
(٢) سورة مريم/ ٤٠. (٣) سورة غافر/ ١٦.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (١).

قال الزجاجي: « الوارث اسم الفاعل من ورث يرث فهو وارث، فالله عز وجلّ وارث الخلق أجمعين لأنه الباقي بعدهم وهم الفانون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٢).

وقال الراغب الأصفهاني: « ووصف الله تعالى نفسه بأنه الوارث من حيث أن الأشياء كلها صائرة إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ وقال ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ وكونه تعالى وارثاً لما روى لله أنه ينادي لمن الملك اليوم لله فيقال: لله الواحد القهار» (٣).

وكل المخلوقات لها بداية وتسير نحو نهاية، فالإنسان يُولد ويموت، وكذلك كل شئ من حولنا فلا شئ من حولنا يستعصى على الميلاد والموت، فالذرة تولد وتموت، وقد كان ظن الماديين أن المادة لا تفنى ولا تستحدث أي لا تموت ولا تولد، غير أن تفجير الذرة هدم هذا الظن. والشمس هي الأخرى يجرى عليها ما يجرى على كل شئ من الميلاد والموت، . فعلماء الفلك يقولون: إن الشمس مولود حديث الولادة نسبياً في مجرتنا، فعمر المجرة يزيد على عشرة آلاف مليون سنة أما الشمس فعمرها نصف هذا العدد من السنين، فقد مضى عليها خمسة

---

(١) سورة الحجر / ٢٣.

(٢) سورة مريم/ ٤٠، الزجاجي، مرجع سابق، ص١٧٣.

(٣) سورة غافر/ ١٦، الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٥١٩).

آلاف مليون سنة. وبعد ألفى مليون سنة ستبدأ في الإنكماش، وسيؤول حالها في اضمحلالها النهائى إلى أن تصبح قزماً أبيض، ثم تفقد حرارتها وتبرد، وبعد خمسة آلاف مليون سنة ستكون قد استحالت إلى لا شئ إلى فراغ أسود.

فسبحان الأول قبل كل شئ، الآخر بعد كل شئ! فالكون المادى من حولنا ليس أزلياً وإنما هو مستحدث له بداية وله نهاية. فهناك في عناصر تكوينه عناصر غير ثابتة، إنها العناصر المشعة. فاليورانيوم مثلاً يظل يرسل دقائق مشعة حتى يتحول في نهاية الأمر إلى رصاص، فلو كان الكون أزلياً لنفذت العناصر المشعة وانتهت من زمن بعيد فلا يمكن أن تبقى حتى اليوم ترسل أشعتها، فوجود هذه العناصر دليل على حداثة هذا الكون(١).

وهناك قوانين (الترموديناميك) التي تتعلق بانتشار الحرارة وتنص على أن الحرارة تنقل باستمرار من الجسم الحار إلى الجسم البارد حتى تصل حرارة الجسمين إلى الإستواء ولو كان الكون أزلى الوجود، لسادت منذ زمن بعيد درجة حرارة واحدة في جميع أجزائه ولكن مازالت الشمس تصدر الحرارة والطاقة كما تفعل ذلك عشرات الألوف من الشموس الأخرى، وهذا يثبت بالدليل القاطع أن الكون (بما فيه من مادة) له بداية (٢) فمن الذي بدأ هذه البداية؟!

---

(١)، (٢) عدنان السبيعي، سنريهم آياتنا، ص٢٨، ص ٢٩.

سبحان الأول الذي بدأها وبرأها.

يقول السيد جيمس جينز: «إنّ الكونَ ليس بناءً ثابتاً بل إنه يحيا حياته، ويجتاز الطريق من المهد إلىٰ اللحد شأننا جميعاً، ولا تقدم سوىٰ التقدم نحو القبر»(١).

وهو سبحانه وتعالىٰ الظاهر بعلوه وغلبته وقدرته، وأين قوة المخلوقات ـ وإن عظمت ـ بجوار قوته وقدرته (سبحانه وتعالىٰ)؟، فكل الكائنات مقهورة له خاضعة لعظمته، منقادة لإرادته، فجميع نواصىٰ الخلق بيده، لا يتحرك منها متحرك، ولا يصرف منها منصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، و لا حول ولا قوة إلا به. فسبحان الظاهر بقدرته وعظمته! خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شئ ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعلوه وقدرته كل الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه.

وهو سبحانه «الباطن» يعلم السر وأخفىٰ، والخبايا والخفايا، ودقائق الأشياء:

قال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

فسبحان الباطن العليم بكل شئ المحيط بكل شئ، الحافظ لكل شئ، صغيره وكبيره حقيره وجليله، بعيده وقريبه، مجهوله ومعلومه!

وهو سبحانه الوارث لكل شئ الباقىٰ بعد فناء كل شئ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

(١) انظر: بن خليفة عليوىٰ، مرجع سابق، ص٩٥.

(٢) سورة الأنعام/ ٥٩.

فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (١).

ففي هذا اليوم تطوى صفحة الكون المنظور، وتنطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق جميعاً، ويفرغ المجال من كل حي، ويتجلى وجه الوارث الكريم الباقي، منفرداً بالبقاء، منفرداً بالجلال.

فالفناء يشمل كل حي، ويطوى كل حركة، ويغمر آفاق السموات والأرض ولا يبقى إلا ذو الجلال والإكرام. فكل شيء زائل، وكل شيء ذاهب. المال والجاه والسلطان والقوة، والحياة والمتاع، وهذه الأرض ومن عليها، وتلك السموات وما فيها ومن فيها... الكل هالك وذاهب ولا يبقى إلا الله منفرداً بالبقاء. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢).

فكل كائن حي له عمر قد يكون دقائق أو ساعات أو أياماً أو شهوراً أو سنوات أو عشرات أو مئات السنين، ولكن لابد أن يموت... فعمر الإنسان يعتبر في عمر الكون ثواني أو دقائق معدودات ثم يسرى عليه ما يسرى على كل مخلوق حي. فتتوقف حركته وتتوقف خلاياه، فلا ينبض القلب، ولا تزفر الرئة، ولا تتحرك الجفون، ولا تنظر العيون... بل تتوقف وتتحجر! فسبحان الأول بلا إبتداء والآخر بلا إنتهاء المتفرد بالبقاء.

ويبين ابن القيم (رحمه الله) كيفية التعبد بهذه الأسماء (الأول الآخر الظاهر الباطن)، فيقول: والتعبد بهذه الأسماء رتبتان:

الرتبة الأولى: أن تشهد الأوليه منه تعالى في كل شيء، والآخريه بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء.

---

(١) سورة الرحمن / ٢٦ - ٢٧.

(٢) سورة القصص / ٨٨.

الرتبة الثانية: من التعبد أن تعامل كل اسم بمقتضاه فيعامل سبقه تعالىٰ بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلىٰ غيره والوثوق بسواه والتوكل علىٰ غيره . . .

فينبغي علىٰ العبد أن يتوكل عليه وحده وأن يعامله وحده، وأن يؤثر رضاه وحده ويجعل حبه ومرضاته كعبة قلبه . . ثم يتعبد باسمه الآخر بأن يجعله وحده الغاية التي لا غاية سواه، ولا مطلوب وراءه، فهو الذي انتهت إليه الأواخر وكان بعد كل آخر. فينبغي علىٰ العبد أن يجعل نهايته إليه، فإن إلىٰ ربك المنتهىٰ. إليه انتهت الأسباب والغايات فليس وراءه مرمىٰ ينتهىٰ إليه.

وأما التعبد باسمه الظاهر فكما فسره النبي (ﷺ) « **وأنت الظاهر فليس فوقك شيء**» فإذا تحقق العبد علوه المطلق علىٰ كل شيء بذاته وأنه ليس فوقه شيء ألبته، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء إلىٰ الأرض ثم يعرج إليه ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾ صار لقلبه أمما يقصده، ورباً يعبده، وإلها يتوجه إليه، بخلاف من لا يدرىٰ أين ربه فإنه ضائع مشتت القلب ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه بقصده . . . وأما التعبد باسمه الباطن، فإذا شهدت إحاطته بالعوالم وقرب البعيد منه وظهور البواطن له وبدو السرائر وأنه لا شيء بينه وبينها. فعامله بمقتضىٰ هذا الشهود وطهر سريرتك فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبتك فإنها عنده شهادة وزك له باطنك فإنه عنده ظاهر[1].

وإذا استقرت معانىٰ هذه الأسماء في القلب توجه بكليته إلىٰ الله

---

(١) انظر: عبد الحميد كشك، أسماء الله الحسنىٰ، ص١٧٩.

وترك ما سواه وأخذ في أهبة السفر، وتعبئة الزاد ليوم المعاد. فيفر العبد إلى الله عزّ وجلّ لا منه، لأن الفرار نوعان: فرارُ السعداء، وفرار الأشقياء. فالأول إلى الله والثانى من الله. والفرار إلى الله عزّ وجلّ هو العمل بطاعته، والخوف من عقابه، والطمع في ثوابه، فإذا صدق العبد في فراره إلى الله عز وجل تجده لا يفرح إلا بالله ولا يسكن إلا إليه، ولا يستغنى إلا بالله، ولا يفتقر إلا إلى الله، ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله، فكله بالله، وكله لله، وكله مع الله، وسيره دائماً إلى الله.

وما دامت الدنيا منقطعة، والكل عنها راحلون، وعن وراثتها زائلون، فعلى العبد أن يقصر فيها أمله، وأن يجتهد فيها لآخرته، فلا يفرح فيها بموجود، ولا يأسف منها على مفقود. فنعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا.

قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره، ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء، فصحيح العقل لا يقطعه هذا الجزء الحقير عن النعيم الذي لا يزول.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (١).

ويسير من رضوانه ـ ولا يقال له يسير ـ أكبر من الجنات وما فيها.

فالدنيا منقطعة ولا وارث لها إلا خالقها، فلا أمل للعبد إلا فيما عند الله عزّ وجل وما عند الله خير وأبقى.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ

(١) سورة التوبة / ٧٢.

به نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (١).

فمتاع الدنيا مهما كثر لا يساوىٰ شيئاً بجوار نعيم الجنة، فهو قطرة في بحر.

روىٰ المستورد بن شداد (رضىٰ الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**ما الدنيا في الأخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بمَ يرجع؟**»(٢).

فالعيش هو عيش الآخرة، والحياة الحقيقية هىٰ حياة الآخرة، روىٰ أنس (رضىٰ الله عنه)، أن النبىٰ (ﷺ)، قال: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»(٣).

فمن عرف الأول الآخر الظاهر الباطن الوارث، وأيقن هذه الأسماء أعرض عما سوىٰ الحق بالكلية، ولزم الإقبال عليه، والأشتغال بمحابه، وجمع همومه وعزائمه وإرادته وأوقاته للوصول إليه. يحدوه في ذلك الرجاء الذي يسوق القلوب إلىٰ بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤).

اللهم ربَّ السموات وربَّ الأرض وربّ العرش العظيم، ربنا ربّ

---

(١) سورة الكهف / ٤٥-٤٦.

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) متفق عليه (بخارىٰ ٧/ ٣٠٢) ومسلم (١٨٠٥).

(٤) سورة البقرة / ٢١٨.

كل شيء فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر[١].

﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [٢].

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة الأنبياء/ ٨٩.

الملك - المليك
٣١ ٣٢

الملك هو المستغني عن غيره، وقد احتاج إليه غيره، وهو المالك لكل الخلائق والأكوان، والمتصرف فيها، فهو وحده ذو الملك والسلطان.

فالله عزّ وجلّ هو الملك الذي استغنى بذاته، وصفاته، وأفعاله عن كل مخلوق ويحتاج إليه كل مخلوق.

والله (سبحانه وتعالى) هو الملك وهو ملك الملوك، المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة.

والمالك: اسم الفاعل من مَلَكَ يَمْلُكُ فهو مالك، فالله (عز وجل) مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته لا يمتنع عليه منهاشيء، لأن المالك للشيء في كلام العرب هو المتصرف فيه، القادر عليه.

والله (عزّ وجلّ) قادر على الأشياء التي خلقها ويخلقها ولا يمتنع عليه منها شيء. وقد قرأ القراء (مالك يوم الدين)و (ملك يوم الدين) وقد رويت القراءتان عن رسول الله (ﷺ)[1]. والمليك أبلغ من المالك، لأن المالك والمليك كالناصر والنصير، والعالم والعليم[2].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[3] وأصل الملك في الكلام: الربط والشد، يقال: ملكت العجين، أملكه ملكاً، إذا شددت عجنه وإملاك المرأة من هذا إنما هو

(١) ابن قيم الجوزيه، بدائع الفوائد، جـ٢، ص٢٤٩.
(٢) أبو القاسم الزجاجي، مرجع سابق، ص٤٣.
(٣) سورة القمر/ ٥٤، ٥٥.

ربطها بالزواج . وهذا الربط والشد يرجع حاصله إلى القدرة التامة الكاملة . فالملكية المطلقة لا تثبت إلا لله وحده، وله سبحانه كمال القدرة والتصرف في ملكه .

قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[١] .

﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢] .

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣] .

فذكرت الآيات ملكه العظيم، ثم ذكرت قدرته التامة في ملكه .

وقد سمى الله (عزّ وجلّ) بعض خلقه باسم (الملك) فقال تعالى عن ملك مصر في عهد يوسف (عليه السلام) ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾[٤] . وفي سورة الكهف ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[٥] . وجاء على لسان بلقيس ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[٦] .

فما الفرق بين ملكية الحق وملكية الخلق؟

الثابت للبشر من معاني الملك غير الثابت للحق (سبحانه وتعالى)، فالبشر عندما يملك ويُسَمّى ملكاً، إنما هو مستخلف ومبتلى، وملكه طارىء يزول ولا يدوم فهو لم يكن ملكاً ثم صار ملكاً، وسيترك هذا الملك إن آجلاً أو عاجلاً . فملك البشر ملك استخلاف وابتلاء وليس ملكاً حقيقياً دائماً .

أما الحق (سبحانه وتعالى) فهو صاحب الملك الدائم .

---

(١) سورة الشورى/ ٤٩ . (٢) سورة الزمر/ ٤٤ . (٣) سورة الحديد/ ٢ .
(٤) سورة يوسف/ ٥٤ . (٥) سورة الكهف/ ٧٩ .
(٦) سورة النمل/ ٣٤ .

ملوك الدنيا إذا أعطوا انتقص ملكهم بالعطاء، أما الحق (سبحانه وتعالى) فخزائنه لا تغيض ولا تنفذ. وهو سبحانه الذي يعطي الملك لهؤلاء الملوك. فكل تمليك إنما هو هبة منه (سبحانه).

قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

فكل تمليك إنما هو منه سبحانه، وسيؤول إليه في النهاية:

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾(٢).

والبشرُ وما مَلَكَوا ملكٌ لله عز وجل، فهو المَلِكُ والمالك ملْكاً حقيقياً دائماً فالله سبحانه وتعالى يملك كلّ ما سواه من شيء ذاتاً لأنه الخالق (سبحانه) وتصرفاً فهو المعز المذل يؤتي الملك من يشاء، وعبودية فالجميع عباده وفي قبضته سبحانه وتعالى. وملكية الله (عزّ وجلّ) المطلقة هي نعمة كبرى ينبغي أن نحمده عليها.

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾(٣).

وكل المخلوقات مفتقرة محتاجة إلى غيرها، فالجماد فقير محتاج والنبات كذلك والحيوان كذلك، والإنسان كذلك، فالإنسان يجوع فيطلب الطعام، ويمرض فيسعى في طلب الدواء... وهكذا سائر الكائنات. والفقير لا يصح أن يكون ملكاً، لأن الملك الحق هو الذي

---

(١) سورة آل عمران/ ٢٦.

(١) سورة غافر/ ١٦. (٢) سورة الإسراء/ ١١١.

يستغني عن كل أحد أي لا يحتاج لأحد، وهذا لا يكون إلا لله (عز وجل) فهو الملك الحق.

وقد خلق الله (عزّ وجلّ) لكل شيء آفة من جنسه ليثبت بذلك عجزه، ولتتفكر العقول في أن كل ما سوىٰ الله عاجز ضعيف.

قال الشاعر:

لكل شيء آفة من جنسه   حتى الحديد سطا عليه المبرد

فالنبات تفتك به الأمراض، وتأكله الحيوانات، والحيوانات تفتك بها الميكروبات والفيروسات، والإنسان يقعده المرض وتجري عليه السنون فيصيبه الهَرِمُ، وتنتهي دنياه بالموت. وما من مستخلف في ملك الله من حولنا بغىٰ وطغىٰ إلا كانت عاقبته إلىٰ ذل وهوان. فالنمرود قال أنا أحيي وأميت فكانت عاقبته إلىٰ ذل وخسة وضياع. وفرعون قال أنا ربكم الأعلىٰ فأخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ، وجاءت نهايته: ﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾[١].

فكل شيء من حولنا يشعرنا بأنه لا مَلِكَ إلا الله ـ عز وجل ـ فهو الملك الحق وما عداه من الملوك لم يكن ملكاً ثم أعطاه الله ملكاً، وسيسلبه هذا الملك إن آجلاً أم عاجلاً. وعلىٰ المؤمن ألا ينسب شيئاً في هذا الكون إلا لله (عزّ وجلّ)، فالملك ملكه والكل ضيوف في مملكته. ولذلك كان رسول الله (ﷺ) يداوم علىٰ هذا الذكر صباحاً ومساءً:

«أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ربّ أسألك خير مافي

---

(١) سورة الفجر/ ١٠ : ١٤.

هذا الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر، وإذا أصبح قال أصبحنا وأصبح الملك لله...»[١].

والمؤمن لا يتضرع إلا لله، ولا يتوكل إلا عليه، فكل من في الأرض وما يملكونه ملك لله عز وجل، فالتضرع والتوكل على غير الله جهل، والرجوع إلى الله عز وجل والاستعانة به عين الفكر والفهم.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

وجاء في الأثر أن مَلكاً قال لأحد الصالحين: سلني حاجتك؟ فأجابه الصالح: ما سألت الدنيا ممن يملكها (وهو الله) فكيف أسألها ممن لا يملكها؟!

ووقف أحد الملوك على أحد الصالحين، ثم قال له الملك ألك حاجة؟

فقال الصالح: نعم.

قال الملك: ماهي؟

قال الصالح: تطعمني إذا جعت.

قال الملك: أجل.

قال الصالح: تسقيني إذا ظمئت.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٢٣) في الذكر والدعاء، وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) سورة آل عمران/ ٢٦.

قال الملك : أجل .

قال الصالح : تشفيني إذا مرضت .

قال الملك : ألتمس لك الأطباء .

قال الصالح : تحييني إذا مت .

قال الملك : ليس ذلك إلي .

قال الصالح : لِمَ سألتني عن حاجة لا تقدر على قضائها؟!

والعبد المؤمن يطمئن قلبه بربه ، لأنه (سبحانه) بيده ملكوت كل شيء ويملك خزائن كل شيء فلا يسأل عند الحاجة إلا هو .

وفي الحديث عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : كنت خلف النبي (ﷺ) يوماً فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وأعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفِعت الأقلام وجُفَّت الصحف[1] .

وقال الشاعر :

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك وهن منك في الدين

واسترزق الله مما في خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون

وقد سئل أحد الصالحين عن سبب توبته ، فقال : كنا في سنة

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ورواه أحمد ١/ ٢٩٣ ، وأبو يعلى (٢٥٥٦) ، وأصح طريق تخريج الترمذي من طريق حنش الصهفاني .

جدباء، والناس في قحط شديدٍ وبلاءٍ جهيد، فرأيت غلاماً يمرح ويضحك فقلت له: ألا تخشى الفقر والجوع؟ فقال: إن سيدي (مخدومي) عنده قرية وفيها بستان مليء من كل الثمار فعلامَ أخاف وأحزن؟! فقلت: إن هذا العبد لا يستوحش لأن مخدومه يملك بستاناً فكيف استوحش وأحزن وربي يملك خزائن السموات والأرض؟! فانتبهت وتبت إلى الله (عز وجل).

فاليأس والقنوط إنما ينشأ من انقطاع الصلة بملك الملوك، والأحزان والهموم التي تحول حياة كثير من الناس إلى جحيم إنما هي من البعد عن ملك الملوك، والطمع فيما عند المخلوق. ولذلك قيل: لو رجعت إليه (أي إلى الله) في أول الشدائد لأمدك بالفوائد، ولو رجعت إلى أشكالك (المخلوقات) لزادوا في أشغالك.

وإذا كان الله عز وجل هو الملك وهو ملك الملوك. فلا ينبغي الاحتكام إلا إليه فهو سبحانه وتعالى الملك الحقيقي، وهو الحاكم الحق.

فالحكم لله وحده، وهو شعار المؤمنين، ولا يجوز أن يحتكم المؤمنون إلى شرع غير شرع الله (عزّ وجلّ). فالاحتكام إلى القوانين البشرية، وترك الشريعة الربانية مناقض للإيمان قال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(١).

وحكم الله (عزّ وجلّ) فيه الخير والصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٢). وإذا

---

(١) سورة النساء/ ٦٥.

(٢) سورة المائدة/ ٥٠.

كان الله (عزّ وجلّ) هو ملك الملوك، فلا ينبغي لعبد مهما اتسع ملكه أن يسمىٰ ملك الملوك.

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «أخنع اسم عند الله رجل تسمىٰ بملك الأملاك»(١).

وفي رواية مسلم: «أغيظ رجل علىٰ الله يوم القيامة وأخبثه...»

قال ابن حجر واستدل بهذا الحديث علىٰ تحريم التسمي بهذا الإسم لورود الوعيد الشديد، ويلتحق به ما في معناه مثل: أحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء...(٢).

وإذا كان الملك لله عزّ وجلّ وحده فعلىٰ العبد المؤمن أن يستبشر بذلك، وخاصة يوم القيامة حيث يقتص الملك من الظالم للمظلوم ويذل كل الجبابرة والمتغطرسين قال تعالىٰ:

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٣).

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾(٤).

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾(٥).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «يقبض الله تبارك وتعالىٰ الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟»(٦).

وحاشا لله عزّ وجلّ أن يظلم أحداً، فهو سبحانه حكم عدل، قال

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ومعنىٰ أخنع إسم: أوضع إسم وأذله.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري جـ١، ص٥٩٠.

(٣) سورة غافر/ ١٦.

(٤) سورة الحج/ ٥٦.

(٥) سورة الفرقان/ ٢٦.

(٦) متفق عليه انظر (البخاري، كتاب الدعوات، باب يقبض الله الأرض).

تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(١).

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٢).

«اللهم أنت الملك الذي لا شريك لك والفرد الذي لا ندّ لك، كلّ شيء هالك إلا وجهك، أحق من ذُكر، وأحق من عُبد، وأنصر من أبتغي، وأرأف من مَلَك، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حلت دون النفوس، وأخذت بالنواصي، وكتبت الآثار، ونسخت الآجال، القلوب لك مفضية، والسر عندك علانية، الحلال ما أحللت، والحرام ما حرّمت، والدين ما شرعت، والخلق خلقك، والعبيد عبيدك، نسألك يا ذا الملك والملكوت، والعزة والجبروت، أن تقبل أعمالنا، وتغفر ذنوبنا، وتجيرنا من النار».

«اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»(٣).

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»(٤).

---

(١) سورة فصلت/ ٤٦. (٢) سورة الأنبياء/ ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، ومسلم في صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٢٧١٧).

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢١٠، وفي سنده محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف، لكن له شاهد مرسل في الموطأ بنحوه فهو حسن، وهو عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان أكثر دعاء النبي (ﷺ) يوم عرفة: لا إله إلا الله . . . إلخ الحديث.

الجبار القاهر القهار
٣٣ ٣٤ ٣٥

قال الراغب الأصفهاني: «أصل الجبر: إصلاح الشيء بضرب من القهر يقال: جبرته فانجبر.. وقد يقال: الجبر تارة في الإصلاح المجرد نحو قول علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه): يا جابر كل كسير، ويامسهل كل عسير، وتارة في القهر المجرد.. ولتصور القهر بالعلو على الأقران قيل: نخلة جبارة وناقة جبارة.. فأما في وصفه تعالى نحو: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾[1] فقد قيل: سمي بذلك من قولهم جبرت الفقير لأنه هو الذي يجبر الناس بفائض نعمه، وقيل: لأنه يجبر الناس أي يقهرهم على ما يريده حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية[2].

فالله سبحانه وتعالى جبار، أي: مصلح للأمور، ويقال: جبرت الكسر إذا أصلحته، وجبرت الفقير إذا أنعشته، وكفيته أمره، ومن الدعاء: يا جابر كل كسير.

فالجبار في الحقيقة هو الله (سبحانه وتعالى)، لأنه هو المصلح لأمور الخلق، والمظهر لهم الدين الحق، والميسر لكل عسير، والجابر لكل كسير.

وهناك معنى ثان للجبار، وهو من القهر، أي أنه القهار الذي يجبر الخلق على ما يريد، ويحملهم على ما أراد من أمور تقتضيها الحكمة الإلهية، فقد أجبر الخلق على أشياء لا انفكاك لهم منها حسبما تقتضيه حكمته، وذلك كإكراههم على الموت والبعث والنشور، وتسخير كل منهم لصناعة يتعاطاها، وأعمال يتحراها، والناس في ذلك بين راضٍ

---

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٨٥، ص٨٦. (٢) سورة الحشر، آية: ٢٣.

بصنعته لا يريد عنها حولا ، وكاره لها يكابدها مع كراهيته لها كأنه لا يجد عنها بديلاً .

قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾[1] وهو سبحانه وتعالى لا يقهر إلا على ما تقتضي الحكمة .

وهناك معنى ثالث للجبار وهو العالي الذي لا ينال ومنه يقال نخلة جبارة إذا طالت وعلت وقصرت الأيدي عن أن تنال أعلاها . وقد جمع ابن القيم هذه المعاني الثلاثة في قوله :

وكذلك الجبار من أوصافه ... والجبر في أوصافه نوعان
جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ... ذا كسرة فالخير منه دان
والثاني جبر القهر بالعز الذي ... لا ينبغي لسواه من إنسان
وله مسمى ثالث وهو العلـ ... ـو فليس يدنو منه من إنسان
من قولهم جبارة للنخلة العليـ ... ـا التي فاقت لكل بنان

فالجبار له ثلاثة معان ، فهو الذي يجبر الضعيف والكسير ، ويغني الفقير ، وييسر على كل عسير ، ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر ، ويعيضه على مصابه أعظم الأجر ، ويجبر جبراً خالصاً قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله ، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع الكرامات ، وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية .

والمعنى الثاني: إنه القهار لكل شيء الذي دان له كل شيء وخضع له كل شيء .

والمعنى الثالث: أنه العلي على كل شيء . فصار الجبار متضمناً لمعنى الرؤوف القهار العلي ، وقد يراد به معنى رابع وهو المتكبر على كل سوء

(١) سورة الزخرف ، آية : ٣٢ .

ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفؤٌ أو ضد أو سميٌّ أو شريك في خصائصه وحقوقه(١).

فكل المعاني السابقة متضمنة في اسمه الجبار (سبحانه) فهو العالي الذي لا ينال، وتقصر العقول عن الإحاطة بجلاله، وهو سبحانه الذي يغني الفقير ويصلح الكسير، وييسر العسير، وهو سبحانه الذي تنفذ مشيئته في خلقه فلا يجري في ملكه إلا ما يريد، وإرادته سبحانه إرادة حكيم في لطف خبير، فالله سبحانه هو الجبار المطلق الذي يجبر كل أحد ولا يجبره أحد، قاصم الجبابرة، ومذل الفراعنة، تنفذ مشيئته في كل أحد، وهو القهار الفرد الصمد.

قال الشاعر:

يا من له عنت الوجوه تنوعاً ... والليل داج والظلام سكون

رحماك يا جبار حكمك نافذ ... عنت الوجوه إليك والأبصار

وإليك منك يلوذ خلقك ما لهم ... فوق الحياة إذا غضبت قرار

رحماك أنت على الوجود ... وإذا انتقمت فقاهر جبار

وقد ورد اسم الجبار مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**﴾(٢).

ووردت كلمة «الجبروت» في الحديث النبوي:

عن حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) قال: أتيت النبي (ﷺ) ذات ليلة متوضأ وقام يصلي فأتيته فقمت عن يساره فأوقفني عن يمينه، فقال سبحان ذي الملك والملكوت، والعزة والجبروت، والكبرياء

---

(١) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص٧٧.

(٢) سورة الحشر/ ٢٣.

والعظمة»(١).

والجبروت والقهر في حق المخلوق مذموم، ولكنه في حق الحق محمود، لأن جبروته وقهره (سبحانه) حق أما الخلق فموصوفون بصفات النقص، مقهورون، ضعفاء تؤذيهم البعوضة، وتعكر صفوهم الذبابة، أسرىٰ الجوع والعطش، صرعىٰ الشبع، فكيف يوصف بالجبروت والقهر من هذا نعته!

والحق سبحانه وتعالىٰ لا يجري عليه حكم حاكم فيجب عليه طاعته ولا يتوجه عليه أمر آمر فيلزمه امتثاله، آمر غير مأمور، قاهر غير مقهور، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فجبروته وتكبره سبحانه حق.

وجبروته سبحانه وتعالىٰ رحمة ونعمة، لأنه بجبروته قهر الجبابرة، وأذل الأكاسرة والفراعنة، وأنصف المظلومين من الظلمة، ونصر جنده علىٰ المعاندين والكافرين الفجرة.

القاهر ـ القهار: القهر الغلبة والتذليل معاً ويستعمل في كل واحد منهما، قال تعالىٰ: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وقال: ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وقال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي لا تذلل، وأقهره سلط عليه من يقهره(٢).

والقاهر والقهار من أسماء الله الحسنىٰ، وكلاهما ورد في القرآن الكريم والقهار مبالغة في القهر. فالله عز وجل هو القاهر القهار الذي قهر خلقه بسلطانه وقدرته، وصرفهم علىٰ ما أراد طوعاً وكرهاً.

---

(١) رواه أبو داود (١/ ٢٣٠) والنسائىٰ وأحمد بإسناد حسن.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٤١٤.

قال ابن القيم:

وكذلك القهار من أوصافه فالخلق مقهورون بالسلطان
لو لم يكن حياً عزيزاً قاهراً ما كان من قهر ومن سلطان

فالقهار هو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، ثم ذكر المصنف أن قهره مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتم قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره(١).

وقد ورد اسم القهار ست مرات في القرآن الكريم:

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(٢).

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾(٣).

ويلاحظ أن اسم القهار يقترن دائماً باسم الواحد في القرآن الكريم. ويبدو أن الحكمة في ذلك أنَّ شرط القهار ألا يقهره أحد، وأن يكون هو قهار لكل ما عداه وهذا يقتضي أن لا يكون إلا واحداً فهو سبحانه الواحد القهار الذي يقهر كل أحد ولا يقهره أحد.

أما اسم القاهر فقد ورد في القرآن مرتين في سورة الأنعام قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

---

(١) عبد الرحمن آل سعدي، مرجع سابق، ص٧٦.
(٢) سورة الرعد/ ١٦.
(٣) سورة إبراهيم/ ٤٨.

وآثار الجبار في الحياة لا تحصى، فكم من ظالم جبار من البشر قصم الله ظهره ورد كيده في نحره.

روى ابن الجوزي قال: لما قتل الحجاج بن يوسف الثقفي سعيد بن جبير وكان سعيد من العلماء الأجلاء، وممن خرجوا على الحجاج لبطشه وظلمه، بلغ الخبر الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج فما بقي إلا ثلاثاً.

عن يحيى بن سعيد عن كاتب للحجاج يقال له يعلي، قال: كنت أكتب للحجاج وأنا يومئذ غلام حديث السن فدخلت عليه يوماً بعدما قتل سعيد بن جبير، وهو في قبة لها أربعة أبواب فدخلت مما يلي ظهره فسمعته يقول: مالي ولسعيد بن جبير! كلما أردت النوم أخذ برجلي! فلم ينشب بعد ذلك إلا قليلاً، قيل: عاش بعده خمسة عشرة يوماً، وقيل ثلاثة أيام[1].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: لم يكذب إبراهيم (عليه السلام) إلا ثلاث كذبات: اثنتين منهن في ذات الله (عزّ وجلّ): قوله: (إني سقيم)، وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟

قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ: فقال ادعي الله فترك فأخذ يتناولها فأخذ مثلها أو أشد. فقال: ادعي الله

---

(١) أبو الفرج ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ٣، ص٨٥.

لي ولا أضرك فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان فأخدموها هاجر.

فأتته (أي إبراهيم عليه السلام) وهو قائم يصلي فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: رد الله كيد الفاجر الكافر في نحره، وأخدمني هاجر(١).

وكم من إنسان ضاقت عليه الحياة، واجتمعت عليه الشدائد فتوجه إلى الله عزّ وجلّ بقلب كسير ليزيل الشدة والكرب فبدل الله ضيقه سعة، وأزال شدته وكربه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

روى ابن اسحق وابن أبي حاتم وغيرهما: أن مالكاً الأشجعي جاء إلى رسول الله (ﷺ) فقال له: أُسر ابني عوف، فقال له رسول الله (ﷺ)، أرسل إليه، وقل له إن رسول الله (ﷺ) يأمرك أن تكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وكانوا قد شدوه بالقد، فسقط القد عنه، فخرج فإذا بناقة لهم فركبها، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه فصاح بهم فأتبع أولها آخرها، فلم يفجأ أبويه إلا ينادي بالباب فقال أبوه: عوف ورب الكعبة، فقالت أمه: واسوأتاه؟! وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد، فاستبقا الباب والخادم، فإذا هو عوف قد ملأ الفناء إبلاً فقص على أبيه أمره وأمر الإبل، فقال أبوه قف حتى آتي رسول الله (ﷺ) فأخبره بخبر عوف، وخبر الإبل، فقال له رسول الله (ﷺ): اصنع بها ما أحببت، وما كنت صانعاً بمالك ونزل قول الله عز

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب الأنبياء.
(٢) سورة يونس/ ١٢.

وجل ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾(١).

فالقلوب عندما تتوجه إلىٰ الجبار (سبحانه) بخشوع وانكسار، فما أسرع ما يجبر كسرها، بل ويعطيها فوق ما ترجو وتأمل.

وقرأت يوماً: أن شاباً كان يتنزه وحيداً في البحر بقاربه، ودخل وقت الغروب... وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان حيث هاجت الأمواج، فانقلب القارب رأساً علىٰ عقب، وأصبح الشاب بين الأمواج يصارع الموت، ولم يستطع أن يتناول طوق النجاة المعد لمثل هذه الحالات، وانقطعت عنه كل الأسباب، ولم يبق إلا سبب واحد، وهو أن يدعو الله، فصرخ بأعلىٰ صوته يارب أنقذني! صدرت هذه الصرخة من أعماقه... ولم يدر بعد ذلك ماذا حدث.. غاب عن الوعي.. ليستيقظ فيرىٰ من حوله رجالاً كثيرين يقولون الحمد لله إنه حي لم يمت، وصاروا يهنئونه علىٰ نجاته من الهلاك.

فمن الذي جبر هذا القلب الكسير وأنجاه من الهلاك؟ إنه الجبار (سبحانه).

وتمتد آثار الجبار (سبحانه) إلىٰ داخل بدن الإنسان، فالبدن بإلهام من الجبار يرمم نفسه بنفسه، ويصل نفسه بنفسه، فهو إله ولكن من طراز عجيب.. فلو قارنا بين هذا الجسد والسيارة مثلاً.

نجد أن السيارة عندما ينفد الوقود تتوقف، أما الجسد فيأخذ من نفس كيانه وتذوب عضلاته وعظامه وأنسجته وبلغمه ودمه ومفاصله تدريجياً لتعطىٰ الوقود ليستمر الجسم في الحياة، وهكذا يفعل البدن في الصيام الطويل، أما السيارة فلا يمكن أن يتحول حديد العجلات

---

(١) سورة الطلاق/ ٢ انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٤، ص٣٨٠.

وحديد هيكلها وخشبها إلىٰ بنزين ووقود كما يحدث في البدن!

وإذا أصيب مطاط العجلات، وبدأ الهواء يتسرب فإن المطاط والعجلات لا يستطيعان فرز الصمغ والرقعة لإصلاح هذا التسرب، بينما إذا حدث نزيف في البدن فإنه سرعان ما يرقي نفسه بنفسه بواسطة صفيحات الدم وإحدىٰ خمائره (البروترومبين) وفيتامين **k**، ومعدن الكلس... وهكذا تشترك عناصر الجسم من عناصر معدنية وفيتامينات وخمائر وتشكيلات حيوية للانقاذ كفرقٍ مدربةٍ أحسن تدريب!!

وتحتاج السيارة إلىٰ زيت وشحم، ولكن في جسم الإنسان يمكن أن يتحول الوقود إلىٰ زيت وشحم وهكذا تمتليء مفاصل الإنسان بالزيت الملائم لتزلق العظام علىٰ بعضها البعض ولا تتآكل.

وتحتاج السيارة إلىٰ دهان لما يعلوها من غبار وصدأ وفي بدن الإنسان يحدث نفس الشيء، ولكن الهيكل هنا يقوم بإزالة الصدأ وإعادة طلي الجلد في كل لحظة، وهو ما يحدث تماماً في التجديد الدائم للبشرة والأظافر والشعر وإفراز الدهن والعرق وصبغ الجلد بمادة الميلانين من خلايا الجلد القاعدية[1].

والبدن يغير نفسه بإستمرار، وكل خلاياه باستثناء الخلايا العصبية فإنها تبقىٰ ثابتة بدون تبديل، ولعل السر في هذا يعود إلىٰ وظيفة الخلايا العصبية لأن فيها مخزون المعلومات وتعلم اللغة والمهارات والذاكرة والتراكم الذهني فإذا تغيرت كان معناه هدم هذه الأشياء مما يحرم الإنسان من التطور العقلي.

وتجدد الخلايا أمر يسترعي الانتباه لدقته وكثرته، فعندما تموت خلية

---

(١) خالص حلبي، الطب محراب الإيمان، جـ٢، ص٨٩، ص٩٠.

تأت الخلية الجديدة لتحل محلها بالضبط، فهناك دقة في وضع الخلية الجديدة مكان القديمة، ولو لم يحدث ذلك لمات الإنسان. ولعل هذا هوالسبب في موت الإنسان بمرض السرطان الذي يعني نمو خلايا البدن وتوزعها بشكل فوضوي غير منتظم.

وعدد الخلايا التي تموت، وتستبدل بغيرها كبير، ويكفي أن نعلم أنه في الساعة الواحدة مثلاً تموت عشرة مليارات كرية حمراء، وعمر الكرية الواحدة حوالي (١٢٠) يوماً، وهكذا فإن الكريات الموجودة في الدم تتبدل كلها في مدى (١٢٠) يوماً ويتجدد يومياً (٢٤٠) مليار كرية حمراء، ويعتبر نقي العظام هو المصنع العملاق لإنتاج هذه الكريات[(١)].

فمن الذي يقوم على هذا الإصلاح والتجديد؟!

وقد زود الجبار (سبحانه) البدن باحتياطي دائم بحيث أن المرض لا يحل به إلا بعد دفاعات مستميتة، فللتنفس رئتان، ويبقى الإنسان قادراً على الحياة حتى بنصف رئة، ولتصفية الدم كليتان، ويمكن للبدن أن يعيش بجزء من كلية... والغدة لا تقصر في وظيفتها إلا بعد إصابة ما يزيد على ثلاثة أرباعها.

وقد اكتشف عند مريض في اليابان إصابة الكبد بورمين في القسم الأيمن والأيسر منه فأجريت له عملية أولية استؤصل فيها الورم مع القسم الأيمن، وترك حتى يتجدد، ثم أجريت له عملية تالية استؤصل فيها القسم الأيسر مع الكتلة الورمية، وبعد فترة رجع الكبد إلى حجمه الطبيعي بعد أن استؤصل منه ما يزيد على ٩٠٪[(٢)].

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٧.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٨.

أما آثار القهار سبحانه وتعالىٰ فتبدوا في كل لحظة وفي كل ذرة في كياننا. فهو سبحانه قهر الكافرين والجاحدين والمعاندين، قهرهم بانتقامه منهم وإذلاله لهم، وقهره سبحانه وتعالىٰ عدل وحكمة ورحمة ونصر للمؤمنين. قال تعالىٰ: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وهو سبحانه الذي قهر سائر البشر بالجوع والعطش والنوم والمرض، فالإنسان يجوع فيبحث عن الطعام، ويعطش فيلهث وراء قطرة من ماء، ويمرض فتنهار قواه فيسرع إلىٰ الأطباء. ويأخذه النوم فلا يستطيع له دفعاً، وقد حار الأطباء في ظاهرة النوم واعترفوا بأن النوم سر غامض يقهر الإنسان ولا علاج له إلا به.

وقد أجرىٰ الدكتور النفساني (هارولد ويليامز) يعمل بمعمل أبحاث (ولتر ريد) تجربة عجيبة علىٰ جماعة مكونة من خمسة وعشرين رجلاً تطوعوا بالبقاء مستيقظين فترات تصل إلىٰ مائة ساعة أي أكثر من أربعة أيام... وبدأت المتاعب تطرأ عليهم بعد يومين، فقد تبين لهم أنه من الصعب أن يركزوا انتباههم، وأصبحوا سريعي التهيج، وبدأ بعضهم يرىٰ صور الأشياء مزدوجة... كما عانوا أيضاً من هلوسة غريبة، فقد سمع أحدهم وخيل إليه أن أمه تناديه وصار يلتفت حوله... بينما خيل للآخر أن الأثاث يتحرك، وخيل لثالث أن كلباً يسير في عنبر المستشفىٰ وهكذا بدأت عقولهم في الإنهيار[2] ولا علاج إلا بالنوم.

فسبحان القاهر القهار.

ومن آثار القهار سبحانه ما نراه من قهر العناصر المتنافرة واتحادها

---

(١) سورة الروم/ ٤٧.

(٢) ابن خليفة عليوي، مرجع سابق، ص١٢٨.

معاً على الرغم من تباينها واختلافها، فهو سبحانه قهر الروح وهي مخلوق من نور لتستقر في البدن المخلوق من الطين، ثم قهر هذه الروح فأخرجها من البدن عند الموت، وهو الذي قهر العناصر المختلفة فجعلها تتحد مع بعضها البعض ولولا ذلك لما وجد تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان.

وهو سبحانه الذي قهر نفوس العابدين بخوف عقوبته، عن سهل عن سعد (رضي الله عنه) أن فتى من الأنصار دخلته خشية الله فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك فذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ) فجاءه في البيت فلما دخل عليه اعتنقه النبي (ﷺ) وخرميتاً فقال النبي (ﷺ) جهزوا صاحبكم الفرق فلذ كبده[١].

ومعرفتنا للجبار القهار (سبحانه وتعالى) توجب علينا تنزيهه، فهو سبحانه لا يُنال لعلو قدره، وأمره نافد لأنه لا يخرج أحد في الوجود عن قبضته.

والتضرع إلى الجبار القهار (سبحانه وتعالى) بإنكسار مفتاح لكشف الكرب وإزالة الضر.

روى عن طاووس أنه قال: رأيت علي بن الحسين ساجداً في الحجر فقلت: رجل صالح من أهل بيت طيب لأسمعن ما يقول، فأصغيت إليه فسمعته يقول:

عُبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك، فوالله ما دعوت الله بها في كرب إلا كشف الله عني[٢].

ومن عرف الجبار القهار تواضع وتذلل حتى لا يتجبر في الأرض فينتقم منه جبار السموات والأرض. وقد ذم الجبار (سبحانه وتعالى)

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، ص١٠٠.

الجبارين من البشر، لأن تجبرهم يبدأ بالإعجاب بالنفس، ثم الترفع على الخلق، ثم التكبر الذي ينتهي إلى الإفساد والتجبر، فتجبر الخلق خلل وإفساد، وتجبر الحق نعمة وإصلاح.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ﴾(٢).

وجزاء المتجبرين ذل وهلاك في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾(٣).

وعن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم»(٤) وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «احتجت الجنة والنار فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب به من أشاء، ولكليكما عليّ ملؤها»(٥).

ولأن الجبار عات متمرد معاند للحق مذل للخلق فقد خصه الله (عزّ وجلّ) بوادٍ في جهنم يلقى فيه أشد العذاب.

عن أبي موسى (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «إنّ في جهنم

---

(١) سورة الشعراء/ ١٣٠.

(٢) سورة القصص/ ١٩.

(٣) سورة إبراهيم/ ١٥ : ١٧.

(٤) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(٥) رواه مسلم في باب صفة الجنة والنار.

وادياً يقال له هبهب حقاً على الله أن يسكنه كل جبار عنيد»(١).

والمؤمن الحق لا يخضع ولا يذل لأحد من البشر مهما علا وعظم لأن الكل مقهورون أمام الواحد القهار لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. فهو لا يذل ولا يخضع إلا لله الواحد القهار. وقد علمنا رسول الله (ﷺ) ألا نخاف إلا من الله، ولا نذل إلا له.

عن جابر (رضي الله عنه) أنه غزا مع النبي (ﷺ) قبل نجد، فلما قفل رسول الله (ﷺ) قفل معهم، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله (ﷺ)، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله (ﷺ) تحت شجرة فعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله (ﷺ) يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال «إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس... وفي رواية: قال جابر:... فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله (ﷺ) معلق بالشجرة، فاخترطه، فقال: تخافني؟قال: «لا» قال: فمن يمنعك مني؟ قال «الله»(٢). وفي رواية أخرى قال: من يمنعك مني؟ قال: «الله» فسقط السيف من يده.

وقد علّمنا رسول الله (ﷺ) أن لا نذل ونتضعضع عند الكرب والشدة وإنما نقول:

١ ـ **«لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»(٣).**

٢ ـ **«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي**

---

(١)رواه أبو يعلي والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه البخاري، ٦/ ٧١.

(٣) رواه البخاري، ٧/ ١٥٤، ومسلم، ٤/ ٢٠٩٢.

شأني كله «لا إله إلا أنت»(١).

٣ـ «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»(٢).

٤ـ «الله الله ربي لا أشرك به شيئاً»(٣).

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياى التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير،واجعل الموت راحة لي من كل شر»(٤).

* * *

(١) رواه أبو داود وأحمد وحسن الألباني وعبد القادر الأرناؤوط.

(٢) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، صحيح الترمذي ٣/ ١٦٨.

(٣) رواه أبو داود وانظر صحيح الترمذي ٤/ ١٩٦، وصحيح ابن ماجه ٢/ ٣٣٥.

(٤) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٨٧.

القادر القدير المقتدر القوي المتين

٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠

القادر والقدير المقتدر من أسماء الله الحسنى التي وردت في القرآن الكريم.

والقادر هو الذي يقدر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود بلا معالجة ولا واسطة فلا يلحقه عجز فيما يريد إنفاذه ولا فتور، ولا يعارضه منازع، ولا يخرج عن قبضته مخالف أو طائع، لا يتقيد بالأسباب إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

والقادر أيضاً يكون بمعنى المقدر للشيء، يقال قدّرت الشيء وقدرته بمعنى واحد كقوله تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[1] أي نعم المقدرون، وعلى هذا يتأول قوله (سبحانه): ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[2]. أي لن نقدر عليه الخطيئة أو العقوبة إذ لا يجوز على نبي الله أن يظن عدم قدرة الله ـ عز وجل ـ عليه في حال من الأحوال.

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائداً عليه ولا ناقصاً منه.

وهو أبلغ في الوصف بالقدرة من القادر لأن القادر اسم الفاعل من قدر يقدر فهو قادر: وقدير: فعيل من أبنية المبالغة[3].

---

(١) سورة المرسلات/ ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء/ ٨٧، ويجوز أن لن نقدر عليه أي: لن نضيق عليه. مثل قوله تعالى: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾.

(٣) الزجاجي، مرجع سابق، ص٤٨.

والمقتدر: هو التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء ولا يحتجز عنه بمنعة وقوة ويشترك مع القدير والقادر في تضمنهم صفة القدرة، إلا أن الاقتدار أبلغ وأعم لأنه يقتضي الإطلاق لما في زيادة المبني من دلالة على زيادة المعنى.

فالمقتدر (سبحانه) هو المتناهي في الاقتدار المتحكم في جميع الآثار، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، المتمكن بسلطانه من ملكه، يقدر على أشياء لا يقدر عليها غيره.

يقول الراغب الأصفهاني: «القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وصف بها الله تعالى فهي نفي العجز عنه ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة... بل حقه أن يقال قادر على كذا.. لأنه لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه، والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه.

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى، ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

والمقتدر يقاربة نحو ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(٢). لكن قد يوصف به البشر وإذا استعمل في الله تعالى فمعناه القدير، وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة... والقدر والتقدير تبيين كمية الشيء يقال قدرته وقدّرته، وقدّرة بالتشديد أعطاه القدرة يقال قدّرني الله على كذا أي أعطاني القدرة وقواني عليه فتقدير الله الأشياء على وجهين أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة(٣).

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٩. (٢) سورة القمر، آية: ٥٥.

(٣) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٩٤-٣٩٥.

والقوىٰ: ذو القوة والأيد، ويقال لمن أطاق شيئاً وقدر عليه: قد قوىٰ عليه ولمن لم يقدر عليه. قد ضعف عنه، فالله عز وجل قوىٰ قادر علىٰ الأشياء كلها لا يعجزه شيء منها(١).

فالله عز وجل هو القوي أىٰ صاحب القدرة التامة البالغة الكمال، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾(٢) والقوي هو المتناهي في القوة، الذي تتصاغر كلّ قوة أمام قوته، ويتضائل كلّ عظيم عند ذكر عظمته، ولا يكون ذلك إلا لله عز وجل. فهو تعالىٰ أعطي الملائكة قوة كبيرة يستطيع الملك بها أن يقتلع الجبال ويقلب المدن ومع ذلك يخشون عذابه ويرتعدون من هيبته.

فالله عز وجل هو القوىٰ الذي له كمال القدرة والعظمة، غالب لا يُغلب. قوته فوق كل قوه، لا يلحقه ضعف في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله.

والمتين مشتق من المتانة وهي شدة الشيء واستحكامة وصلابتة، فالمتين هو الشديد القوي الذي لا يحتاج في إمضاء حكمه إلىٰ جند أو مدد، ولا إلىٰ معين أو عضد، وهو الذي يؤثر في الأشياء ولا تؤثر فيه، لأن قدرته بلغت أقصىٰ الغايات فلا يعجزة شىء في الأرض ولا في السموات ولا يكون ذلك إلا لله عزّ وجلّ.

فالقادر والقدير والمقتدر أسماء تشير إلىٰ القدرة المطلقة، والقوىٰ يشير إلىٰ كمال هذه القدرة وتمامها، والمتين يشير إلىٰ كمال هذه القوة وصلابتها واستحكامها.

فسبحان القادر القدير المقتدر القوىٰ المتين!

وقد وردت هذه الأسماء كثيرا في القرآن الكريم، فقد ورد اسم القادر أكثر من عشر مرات:

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص١٤٩. (٢) سورة هود، آية: ٦٦.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾(٢).

أما اسم الله القدير فقد ورد في أكثر من أربعين موضعاً في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾(٥).

أما اسم الله المقتدر فقد ورد أربع مرات في الذكر الحكيم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(٦).

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾(٧).

أما اسم الله القوي فقد ورد في القرآن الكريم تسع مرات اقترن في سبع منها بالعزيز لقرب معناهما لأن العزة فيها قوة وشدة وغلبة وامتناع ليظهر الاسمان معاً شدة قوة الله وغلبته:

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٨).

---

(١) سورة الأنعام/ ٦٥.
(٢) سورة القيامة/ ٤.
(٣) سورة البقرة/ ٢٠.
(٤) سورة المائدة/ ١٢٠.
(٥) سورة فاطر/ ٤٤.
(٦) سورة القمر/ ٥٤-٥٥.
(٧) سورة الكهف/ ٤٥.
(٨) سورة الحج/ ٤٠.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١) .

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (٢) .

أما اسم الله المتين فقد ورد في سورة الذاريات :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٣) .

وآثار هذه الأسماء من حولنا وفي أنفسنا لا تعد ولا تحصى ، فآثار قدرته وقوته (سبحانه وتعالى) تشمل الوجود كله فكل الكائنات مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته فجميع نواصي المخلوقات بيده لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه . فما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا به ، فمن قوته واقتداره أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (٤) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٥) .

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات ،

---

(١) سورة الشورى/ ١٩ . (٢) سورة الأحزاب/ ٢٥ .
(٣) سورة الذاريات/ ٥٨ .
(٤) سورة لقمان/ ٢٨ .
(٥) سورة الروم/ ٢٧ .

وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادهم غير تتبيب، وخصوصاً في هذه الأوقات، فإن هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قواهم وقُدراتهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئا في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك، ولكنّ أمرَ الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي . . . ومن تمام عزته وقدرته وشمولها أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهي أيضاً أفعالهم فهي تضاف إلى الله خلقاً وتقديراً، وتضاف إليهم فعلاً ومباشرةً (أو كسباً واختياراً) على الحقيقة. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

ومن آثار قدرته ما ذكره الله في كتابة من نصرة أوليائه، على قلة عددهم وعُددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة، قال تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢).

ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى(٣).

---

(١) سورة الصافات/ ٩٦.

(٢) سورة البقرة/ ٢٤٩.

(٣) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص٤٥, ٤٦.

فسبحان القوى المقتدر! والحياة التي نحياها سلسلة من الدورات نراها في داخلنا ومن حولنا يظهر فيها تقدير القدير .

ولولا الدورات التي تتم ـ سواء في الأرض أو في السماء ـ لولاها ، لما كانت حياة ولا أحياء ، ولا كان هناك من يكتب ويتكلم ، ولا من يقرأ أو يسمع فبيئة الأرض تتكون من نوعين أساسين من المركبات ، عضوية ، تتألف منها جميع أشكال المادة الحية ، وغير عضوية ، تتألف منها جميع أشكال المادة غير الحية ، فتقوم النباتات الخضراء بتحويل بعض العناصر والمواد غير العضوية إلى مواد عضوية تساعدها على النمو ، وتتحول إلى غذاء لمختلف الكائنات الحية وتحتاج في ذلك إلى الطاقة الشمسية ، ثم تعود المواد العضوية على شكل جثث ونفايات إلى الأرض ، حيث تقوم الكائنات المحللة بتحويلها إلى مواد غير عضوية من جديد . وهكذا فالكربون له دورة في الحياة وكذلك الأوكسجين والنيتروجين والماء والأملاح المعدنية .

يقول عبد المحسن صالح : فالإنسان وهو حى يدور والمخلوقات معه تدور ، فإذا طواها الثرى كانت لها بين جنباته دورات مع عناصر الأرض والماء والهواء . . وهذه بدورها لابد أن تدور في مخلوق مرة ، ثم تدور في غيره مرة ، كما دارت قبل ذلك وتتصرف قدرة القدير في عجينة الحياة وعناصرها ، وتحيلها بطريقة أو بأخرى ، وتقلب آلاف

الملايين من أطنان مادة الحياة وجزئياتها وذراتها ، ثم تشكلها بطريقة سحرية لكى يسير طوفان الحياة . . في الماء وعلى الأرض وفى الهواء ، إنّ الدارسين لهذه الدورات يعلمون مظاهر روعتها ، ويدركون مقدار

عمقها فقد وضعت قواعدها منذ ملايين السنين وسارت الأمور في السماوات والأرض وكأنها عجلة ضخمة. . متوازية في سيرها، منتظمة في دورانها، رائعة في مدلولها، وفوق كل هذا فلا خلل فيها ولا فروج [١].

فسبحان القادر المقتدر القدير الذي أودع في الأرض هذه المقادير وهيمن على دوراتها!

وهناك دورات أعظم من هذه الدورات ألا وهى دورات المجرات والنجوم والكواكب وسائر الأفلاك. . فكما يدور كل شيء على الأرض تدور الأرض وهى لا تدور وحدها في الكون بل كل شيء من حولها في الفضاء خلق ليدور، فالأرض بالنسبة للشمس، كالإليكترون بالنسبة لنواة الذرة فكما يدور الإليكترون حول نواته حتى لا ينجذب إليها، كان لابد للأرض أن تدور حول شمسها حتى لا تنجذب إليها وتضيع في أتونها المتوهج. . والقمر يدور حول محوره، ثم يدور حول الأرض. . والكواكب الثمانية تدور كما تدور الأرض تماماً حول نفسها تاره، وحول الشمس تارة أخرى.

والشمس بدورها تدور حول محورها، ثم تصحب كواكبها التسعة وتدور بهم في مجرتها ومجرتنا. شيء ضخم تدور فيها شموسها (نجومها) ثم تدور المجرة حول نفسها كأنها شكل حلزوني أو عجلة ضخمة. . فكل شيء في الكون يدور ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [٢]. فمن الذي يهيمن على هذا الدوران ويجعله في أفلاك محدده وفي أماكن مقدرة. سبحان القوى القدير!

---

(١) عبد المحسن صالح، دورات الحياة، ص٣ ـ ص٤.

(٢) سورة يس/ ٤٠.

ثم من الذي أبدع هذا الكون متـرامى الأطراف، وقسمه إلى مجرات وسدم وأفلاك. وكل في فلكه يسبح ويدور إنّ مجرتنا التي نعيش فيها، فيها الآف الملايين من الشموس مثل شمسنا حتي قال العلماء: لو أردنا أن نطلق اسما على كل نجم من نجوم مجرتنا في ثانية واحدة فقط فإننا سوف نمكث (١٦٠٠) سنة كاملة، لا يغمض لنا فيها طرف ولا يتوقف فيها لسان عن ترديد الأسماء فقط فما بالنا ببلايين المجرات الأخرى. والمسافات التي تفصل بين النجوم مسافات واسعة شاسعة جداً لا تدركها الأبصار ولا العقول ولا حتي الخيال. فمجموعتنا الشمسية بالنسبة لمجرتها كسمكة صغيرة تسبح في محيط واسع. ولو أردنا أن نزور أقرب نجم إلينا بعد الشمس وركبنا قطاراً سريعاً يسير بسرعة (١٠٠) ميل في الساعة، وسار هذا القطار بنا دون توقف فإننا سنصل إلي هذا النجم بعد (٣٠) مليون سنة ولو اختصرنا المسافة وركبنا طائرة نفاثة فإننا سنصل إليه بعد خمسة ملايين سنة [١].

فسبحان القادر المقتدر المتين!

وتظهر قدرة الخالق (سبحانه وتعالى) في الموجودات الحية من حولنا فهى على كثرتها المهولة المحيرة، في تمام الإجادة، وغاية الإتقان، ومنتهى الإبداع مما يدل على أن الصانع قدير قدرة مطلقة بحيث أن الكثرة المهولة لا تعجزه أو تنقص من قدرته شيئاً. . فالخالق (سبحانه وتعالى) قادر تتساوى أمام قدرته المطلقة الكثرة والقلة. . الواحد والملايين والمليارات. فسبحان القادر المقتدر الذي خلق كل شيء بقدرته وقدره تقديراً بحكمته. وعندما نظر إلى مقادير الأشياء، ونجدها تنمو حتى تصل إلى حد معين لا تتجاوزه فمن الذي يأمر النمو

---

(١) المرجع السابق ص١٥٩.

بالتوقف عندما يكتمل جسم الكائن الحي ويأخذ أبعاده المقرره ويبلغ أشده؟

ولماذا ـ مثلا ـ لا يستمر نمو الذبابة حتى تصل في حجمها إلى حجم الفيل؟

ولماذا هذه المقادير والأحجام والقوالب المعينة لكل نوع من أنواع الكائنات الحية بحيث لا تستطيع التمرد عليها وتخطيها أو تجاوزها؟ لماذا لا نرى ذبابة في حجم الفيل وفيلاً في حجم الذبابة، وجملاً في حجم النملة، ونملة في حجم الجمل؟!

فسبحان القدير الذي خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى وهب لكل شيء مقداراً منتظماً وصورة بديعة يشفان عن حكمة واضحة. سبحان القدير الذي فصل كل شيء على قدر ماهيته تفصيلاً دقيقاً متقناً ووزنه بميزان دقيق كامل، ونسقه تنسيقاً بارعاً، وصنعه صنعة فائقة وألبسه أجمل صورة وألطف ثوب وأسهل شكل يعينه على أداء مهمتة!

وتظهر قدرة الخالق (سبحانه) في خلق الإنسان من ماء: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾(١).

فالخلية الآتية من الأب تقطع طريقاً يبلغ طولة مائة ألف ضعف طولها، لكي تلتقي بخلية الأم، وهي تعبر في طريقها نظاماً معقداً مؤلفاً من قنوات عديدة ملتف بعضها حول بعض وهي تضطر في هذه المسيرة أن تعدو عدواً للالتقاء مع خلية الأم.

وهكذا يتكون في رحم الأم ما نطلق عليه اسم الجنين.. وهذا

---

(١) سورة الفرقان/ ٥٤.

الأسلوب هو الذي اختاره الخالق القدير لإظهار قدرته اللانهائية في ترتيب وتنظيم هذه الحادثة . . وحدوث هذه الحادثة عن طريق الصدفة بقياس حساب الاحتمالات يعتبر صفراً، ذلك لأنه يستحيل علىٰ خلية أن تخرج من جسد الأب وتنتقل إلىٰ جسد الأم، وتبقىٰ علىٰ قيد الحياة، وتنجح في قطع الطريق الموصل إلىٰ رحم الأم كما أن قيام أحد أعضاء الأم بتلقف هذه الخلايا الصغيرة المقذوفة في فراغ البطن، وإرسالها إلىٰ الرحم لا يمكن أن يكون عن طريق الصدفة . . فحقاً وكان ربك قديراً وقد تلتقىٰ الخليتان ولا ينشأ الجنين . . . ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (١) .

ويخلق بدون خليتين (أىٰ بدون أب ولا أم) كما خلق آدم (عليه السلام) .

قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢) .

ويخلق من أب بدون أم كما خلق حواء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٣) .

ويخلق من أم بدون أب كما خلق عيسىٰ (عليه السلام) ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الشورىٰ/ ٥٠ .
(٢) سورة آل عمران/ ٥٩ .
(٣) سورة النساء/ ١ .
(٤) سورة آل عمران/ ٤٧ .

وتظهر قدرة الخالق (سبحانه وتعالىٰ) في إحياء الموتىٰ بعد أن يصيروا تراباً . .

﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) .

وقد كثرت الآيات القرآنية التي تشير إلىٰ ذلك، ومن ذلك ما قص في سورة البقرة من قصة الرجل الذي مر علىٰ قرية فوجدها خاوية علىٰ عروشها خربة فنظر إلىٰ أطلالها وتعجب قائلاً : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢) .

إنها حادثة فريدةٌ وبديعةٌ فالرجل يموت ويمكث مائة عام وطعامه وشرابه بجواره لم يتغيرا (مع أن الطعام والشراب أسرع الأشياء إلىٰ التغير والفساد) إنها طلاقة القدرة الإلهية، أما الحمار وهو رفيق رحلته فيموت معه وتتفرق عظامه وتندثر مكوناته .

فقدرة الخالق (سبحانه وتعالىٰ) قبضت الزمان عن الطعام والشراب فلم يمر عليهما سوىٰ لحظة من الزمان، أما الحمار فمرت عليه مائة عام . .

ثم أراه الله (عزّ وجلّ) كيف ينشز العظام ويجمعها ثم يكسوها لحماً . فلم يملك إلا أن قال من أعماقه ﴿ أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وطلاقة القدرة لا تقف عند حد جمع العظام ثم كسوتها لحماً بل

---

(١) سورة الشورىٰ/ ٩ .

(٢) سورة البقرة/ ٢٥٩ .

تسوية هذه العظام . . وتمييزها وتمييز بصمات الإنسان في جلد البنان خير دليل على طلاقه هذه القدرة وشمولها . .

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾(١) .

فالبنان إحدى آيات الله التي وضعها وصممها لتشهد على تميز كل إنسان، ومن ثم تصبح دليلاً وشاهداً عليه وتتميز البصمات عند دراستها بأربع صفات رئيسية :

(١) تفرع خط إلى خطين جزئيين أو أكثر .

(٢) انتهاء خط باتجاه الأعلى أو الأسفل .

(٣) وجود جزيره أو نقطه .

(٤) وجود حلقه .

وبدراسة البصمات من هذا المنطلق يمكننا تمييز (١٠٠) صفة لها ولكن يكفي عمليا تطابق واتفاق (١٢) صفة من الأشكال واتساع الزاوية وشكلها والصفات الجزئية للخطوط المكونة للبصمة وتختلف بصمة كل إصبع عن الآخر وتبعاً لنظرية الاحتمالات أصبح من الموكد استحالة تطابق شخصين في بصماتهما (٢) .

فحقاً ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ .

وما أروع قول الشاعر :

---

(١) سورة القيامة/ ٣ , ٤ .

(٢) حامد أحمد حامد، رحلة الإيمان في جسم الإنسان ص١٠٥ .

وأعـــجب شيء بـهن الخطوط فما اتحدت في الورى (بصمتان)
وطبـقـــة إبهـــامنا خـتـــمنا يميــزنا مـــا تـوالى الزمـــان
أنـامـلـنـا مـن بـديـع الفـنـون يقـصـر عن وصـفـهن البيـان

وتعقب هذه الحادثة مباشرة سؤال إبراهيم (عليه السلام) ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، ويريه الله ذلك عيانا ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

فسبحان القادر المقتدر العزيز الحكيم!

فأمام القدرة المطلقة تتساوى جميع الأمور الكبير والصغير والقليل والكثير..

فهي قدرة أزلية مطلقة لا يلحقها نقص ولا يطرأ عليها عجز. فإحياء ميت واحد كاحياء جميع الموتى وخلق جميع الناس وبعثهم كخلق إنسان واحد وبعثه قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾(٢).

وأمر الساعة أمام القدرة المطلقة كلمح البصر أو هو أقرب قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

ومن كمال قدرته سبحانه وتعالى جمع الناس في هذا اليوم فيجدون أعمالهم مسجلة لا تغيب منها صغيرة ولا كبيرة، فهو يجمع

(١) سورة البقرة/ ٢٦٠. (٢) سورة لقمان/ ٢٨.
(٣) سورة النحل/ ٧٧.

الأولين والآخرين في هذا اليوم العظيم للحساب والجزاء ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١) .

ودائما إذ تعلق الأمر بقدرة الله عز وجل ﴿فهو علي كل شيء قدير﴾ وقد تكررت هذه الكلمات ﴿والله على كل شيء قدير﴾ ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ في أكثر من خمسة وعشرين موضعاً في القرآن الكريم حتي يطمئن المؤمنون إلىٰ قدرة ا، ولا يركنون إلىٰ أحد سواه، وحتىٰ يعلم الكافرون والمعاندون أنهم غيرً معجزين .

ومن عرف القادر المقتدر لا يتوكل إلا عليه، ولا يعتصم بأحد سواه ولا يمتنع إلا به، ولا يفوض أموره إلا إليه لأن عنده سبحانه وتعالي تمام الكفاية، وحسن الولاية ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٢) .

ويعلمنا القرآن الكريم في ثنايا قصة موسىٰ (عليه السلام) مع فرعون أن من توكل علىٰ الله، وفوض أمره إليه فقد فاز في الدنيا والآخرة فكل الخلائق أضعف وأقل من أن يحدثوا به أذىٰ أو مكروهاً. فأمام إصرار فرعون واستهتاره، وتبجحه وسخريته من دعوة موسىٰ (عليه السلام) وقوله : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (٣). عند هذه اللحظة يلجأ موسىٰ (عليه السلام) إلىٰ القوىٰ المتين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٤) .

ويخرج رجل مؤمن من آل فرعون ـ وقع الحق في قلبه، ولكنه يكتم إيمانه ـ ليدافع عن موسىٰ، ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتىٰ، فيجول معهم جولة كبيرة تبدأ بقوله كما

---

(١) سورة آل عمران/ ٩ . (٢) سورة الطلاق / ٣ .
(٣) سورة غافر/ ٢٦ . (٣) سورة غافر/ ٢٧ .

يحكى القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ؟﴾ ثم يخوفهم : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا؟﴾ . . ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (١) . ولكن فرعون وملاءه يصرون على التنكر للحق ، فيلقى الرجل كلمته الأخيرة مدوية صريحة :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢) .

إنه يصدع بكلمة الحق لأنه يفوض أمره إلي القادر القوى البصير بعباده . لقد قال كلمة الحق ومضى لا يألو علي شىء ولا يهاب أحداً فوقاه الله سيئات مكر فرعون وملئه ، ولم يصبه شىء من ضرهم وأذاهم وكيدهم ، بل دارت الدائرة عليهم!

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(٣) .

---

(١) سورة غافر/ ٣٣ .

(٢) سورة غافر/ ٣٨ : ٤٤ .

(٣) سورة غافر/ ٤٦ .

ثم يأتي التعقيب الأخير بعد ذلك بقليل :

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (١) .

وهكذا كل من يفوض أمره إلي القادر المقتدر القوي المتين .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٢) ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (٣) .

فالضعف أو الذل يأتي من نسيان القوي المتين . ونصر الله عز وجل لأوليائه لا يكون في الدنيا فقط وإنما في الدنيا والآخرة . والنصر قد يكون بعد موت الرسول أو الداعية كما انتقم الله (عزّ وجلّ) من قتلة يحيى عليه السلام بعد موته ، وممن هموا بقتل (عيسى عليه السلام) ، ومن قتلة الحسين بن علي (رضي الله عنه) .

وقتل الداعية أو سجنه أو إيذاؤه إنما هو في حقيقته نصر وتأييد لهذا الداعية ، لأن صموده ويقينه وصبره أمام قاتليه وجلاديه إنما هو انتصار للمنهج والدعوة التي يدعو إليها كما حدث لعبد الله الغلام عندما قتله الملك ، فقال قومه «**آمنا بالله رب الغلام**» (٤) .

وكما يقول سيد قطب : الناس يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى ، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار لا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها . أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك ـ في منطق العقيدة ـ أنه كان

---

(١) سورة غافر/ ٥٢ . (٢) سورة فاطر/ ٤٤ .

(٣) سورة الكهف/ ٤٥ .

(٤) قصة أصحاب الأخدود أخرجها مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب .

في قمة النصر وهو يلقىٰ في النار . كما انتصر مرة أخرىٰ وهو ينجو من النار .

والحسين ـ رضوان الله عليه ـ وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب ، المفجعة من جانب آخر ؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة ؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة ، فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً .

فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف ، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين (رضوان الله عليه) يستوىٰ في هذا المتشيعون وغير المتشيعين من المسلمين . وكثير من غير المسلمين . وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام ، كما نصرها باستشهاده ، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانىٰ الكبيرة ، ويحفز الألوف إلىٰ الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه ، فتبقىٰ حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد ، وربما كانت حافزاً محركاً لخطىٰ التاريخ كله مدىٰ أجيال(١) .

فالشهادة في سبيل الله من أعظم أنواع الانتصار ، لأن قتل الداعية ليس موتاً له بل إحياءً ، وفضلاً وإكراماً من المولىٰ (عزّ وجلّ) قال تعالىٰ : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ **قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ** ﴾ (٣) .

---

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص٣٠٨٦ .

(٢) سورة آل عمران/ ١٦٩ ـ ١٧٠ .

(٣) سورة يس / ٢٦ـ٢٧ .

اللهم مُنّ علينا بشهادة في سبيلك يا قوىٰ يا قادر يا مقتدر!

والقدير سبحانه وتعالىٰ خلق هذا الكون متوازناً:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (١).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٢).

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣).

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾(٤).

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٥).

وهذا النظام الكونى مقدر وموزون من القدير (سبحانه)، وأىٰ خلل فيه أو اختلال يحدث كوارث يكون وبالها علىٰ الإنسان، والخلل يأتىٰ من تدخل الإنسان بممارساته الخاطئة وغير الواعية.

قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (٦).

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (٧).

وعلىٰ الإنسان أن يراعىٰ هذا التوازن الدقيق، فيتصرف بحكمة واعتدال حتىٰ لا يحدث خللاً في ميزان الكون وباله عليه.

والإنسان لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن البيئة المحيطة به، كيف ومنها غذاؤه وماؤه وكافة مقومات حياته! ولذلك فأىٰ خلل يحدث في البيئة المحيطة به إنما هو خلل في حياته التي يحياها. فمثلاً درجة الحرارة المناسبة هامة جداً لإتمام الحياة علىٰ وجه الأرض فارتفاعها أو انخفاضها

---

(١) سورة الفرقان/ ٢.
(٢) سورة الرعد/ ٨.
(٣) سورة الحجر/ ٢١.
(٤) سورة الحجر/ ١٩.
(٥) سورة الرحمن/ ٧.
(٦) سورة الأعراف/ ٥٦.
(٧) سورة الروم/ ٤١.

عن معدلها يؤثر تأثيراً سلبياً علي حياة جميع الكائنات الحية .

والغلاف الهوائى الذي يحيط بالأرض يحفظ الحياة والأحياء على وجهها، يقول (بول سوزان) في كتابه (الملاحة الفلكية) ص٧٨ : «إن الجو الأرضى حاجز حقيقى هو حقاً قليل الكثافة، ولكنه سميك جداً، فهو يوقف الأشعة ويحرق الشهب إنَّ هذا الحاجز الذي لا نحسه باللمس، ولا نراه بالعين، حتى لكأنه غير (مادى) يحمى حياتنا الدنيوية، ويحافظ عليها، لأنه لا يسمح بالوصول إلى سطح الأرض إلا لكل ما هو مفيد لنا» .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾(١) .

وما مشكلة ثقب الأوزون عنا ببعيدة . وكل هذا من إسراف الإنسان وسوء إستغلاله للبيئة المحيطة به .

والمؤمن بإسم الله القدير الذي خلق كلّ شىء فقدره تقديراً يدرك أهمية هذا التقدير فينظر إلى البيئة من حوله ويتعامل معها من منطلق أنها متكاملة متناسقة متوازنة فلا يستهين بمكوناتها، ولا يسرف في استهلاكها .

قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأنبياء/ ٣٢ . محفوظاً أى حافظاً .

(٢) سورة المؤمنون/ ١٨ ـ ٢١ .

فكل ما حول الإنسان مخلوق بقدر وحكمة وغاية، فينبغي عليه أن يكون أميناً في تعامله معه مبتعداً عن الإسراف والتبذير وسوء الاستهلاك والاستنزاف.

قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١).

﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي» (٣).

«اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد (ﷺ)، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد (ﷺ)، وأنت المستعان وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بك»(٤).

«اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين، وغلبة العدو، وشماتة الأعداء» (٥).

* * *

(١) سورة الأعراف/ ٣١.
(٢) سورة التحريم/ ٨.
(٣) رواه النسائي وأحمد وإسناده جيد، وانظر صحيح النسائي ١/ ٢٨٠.
(٤) رواه النسائي، انظر صحيح النسائي ٣/ ١١١٣.
(٥) رواه أبو داود والنسائي وأحمد، وانظر صحيح النسائي ٣/ ١١١٦.

المقــدم المؤخــــر

٤١ ٤٢

المقدم هو الذي يقدم الأشياء ويضعها في مواضعها، وينزلها في منازلها والمؤخر الذي يوخر الأشياء، ويضعها في مواضعها، كل ذلك تبعاً لحكمته ومشيئته فالله (سبحانه وتعالى) هو المنزل الأشياء منازلها يقدم ما يشاء منها ويؤخر ما يشاء.

قال ابن القيم (رحمه الله)

وهو المقدم والمؤخر ذانك الصـــــــ فتـــــان للأفعـــــال تابعتـان

وهما من صفات الذات أيضاً إذ هما بالـــــــذات لا بالغير قـائمتان

والمقدم والمؤخر من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد منها علي الله إلا مقروناً بالآخر، فإنّ الكمالَ من اجتماعها، فهو تعالى المقدم لمن شاء والموخر لمن شاء بحكمته.

وهذا التقديم كونياً كتقديم بعض المخلوقات على بعض وتأخير بعضها على بعض وكتقديم الأسباب على مسبباتها والشروط على مشروطاتها. وأنواع التقديم والتأخير في الخلق والتقدير بحر لا ساحل له. ويكون شرعياً كما فضل الأنبياء على الخلق وفضل بعضهم على بعض، وفضل بعض عباده على بعض، وقدمهم في العلم والإيمان والعمل والأخلاق وسائر الأوصاف، وأخر من أخر منهم بشيء من ذلك وكل هذا تبعًا لحكمته. وهذا الوصفان وما أشبههما من الصفات الذاتية لكونهما قائمتين بالله والله متصف بهما، ومن صفات الأفعال لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتها وأفعالها ومعانيها

وأوصافها، وهى ناشئة عن إرادته وقدرته (١) .

وقد ورد هذان الإسمان في الحديث الصحيح، فقد كان رسول الله (ﷺ) يدعو بين التشهد والتسليم فيقول: «**اللهم اغفر لى ما قدمت، وما أخرت وما أسررت، وما أعلنت، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى. أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت**» (٢) .

فالله عز وجل هو المقدم المؤخر فقد قدم الإنسان وفضله على كثير من خلقه .

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (٣) .

وفضل الله الأنبياء، وقدم بعضهم على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات .

قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ (٤) .

قال ابن كثير (رحمه الله): يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً**﴾ وقال ههنا ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ** ﴾ يعنى موسى ومحمد (ﷺ). ﴿**ورفع بعضهم درجات**﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبى (ﷺ) الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله (عزّ وجلّ) (٥) .

---

(١) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص١٠٠ .

(٢) رواه مسلم وأبو داود (١٥٠٩) فى الصلاة، وإسناده صحيح ، وأخرجه الترمذى في الدعوات، وقال: حسن صحيح .

(٣) سورة الإسراء/ ٧٠ .   (٤) سورة البقرة/ ٢٥٣ .

(٥) اسماعيل بن كثير، مرجع سابق، جـ٤، ص٣٠٤ .

فأفضل صفوة الرب تعالى: الأنبياء، وأفضلهم: الرسل، وأفضل الرسل: أولوا العزم وأفضل أولو العزم: الخليلان (محمد وابراهيم) عليهما السلام، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين (١).

ويبين ابن القيم (رحمه الله) هذا التقديم والتفضيل أوضح بيان: «وإذا تأملت أحوال هذا الخلق، رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه ويختار كاختياره ويدبر كتدبيره، فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص المشهود أثره في هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله، وصدق رسله، فنشير منه إلى يسير يكون منبهاً على ما وراءه دالاً على ما سواه:

* فخلق السموات سبعاً، فاختياره العليا منها، فجعلها مستقر المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيه ومن عرشه، وأسكنها من شاء من خلقه فلها مزية وفضل على سائر السموات، ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى وهذا التفضيل والتخصيص مع تساوي مادة السموات من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار.

* ومن هذا تفضيله(سبحانه) جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها (٢).

---

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، جـ٣، ص٥١٢.

(٢) روى البخاري في كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، قال رسول الله (ﷺ): «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

* ومن هذا اختياره من الملائكة المصطفين منهم على سائرهم، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، وكان النبي (ﷺ) يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» (١).

فذكر هؤلاء الثلاثة من الملائكة لكمال اختصاصهم، واصطفائهم وقربهم من الله.

* وكذلك اختياره (سبحانه) للأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام واختياره الرسل منهم، وهم ثلاثمائة وخمس عشرة(٢).

واختياره أولي العزم منهم، وهم خمسة قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (٣).

واختار منهم الخليلين: إبراهيم ومحمداً صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم.

* ومن هذا اختياره (سبحانه) ولد اسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كنانة من خزيمة، ثم اختار من ولد كنانة قريشاً، ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٧٠) في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه ٢/ ٢٦٢ من حديث أبي أمامه أنه سئل رسول الله (ﷺ) عن عدد الرسل. فقال: ثلاثمائه وخمس عشرة، وسنده صحيح على شرط مسلم كما قال الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٣) سورة الأحزاب/ ٧.

محمداً ﷺ (١) .

* وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين، واختار منهم السابقين الأولين، واختار منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها.

* واختار أمته على سائر الأمم، كما في مسند أحمد وغيره من بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله (ﷺ): «**أنتم موفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**» (٢) .

وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة، ومقاماتهم في الموقف، فإنهم أعلى الناس على تل فوقهم يشرفون عليهم. ففي حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله (ﷺ) : «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم» (٣) .

* ومن ذلك اختياره (سبحانه وتعالى) من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها وهي البلد الحرام، فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين. متذللين كاشفي رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا، وجعله حرماً آمناً، لا يسفك

---

(١) معنى حديث رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٧٦) في الفضائل: باب فضل نسب النبي (ﷺ) .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي في سننه (٣٠٠٤) بلفظ: أنتم تتمون سبعين أمة . .) وقال: حديث حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥٤٩) وحسنه في صفة الجن، وأحمد وابن ماجه من طرف وسنده صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم.

فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد، ولا يختلى خلاه[١]، ولا تلتقط لقطته للتمليك بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا. قال رسول الله (ﷺ): «من أتى هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»[٢].

* ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض، فخير الأيام عند الله يوم النحر، وهو يوم الحج الأكبر كما في السنن عنه (ﷺ) أنه قال: «أفضل الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القَرّ»[٣]. ويوم النحر هو يوم الحج الأكبر، ويوم عرفة مقدمة له بين يديه. وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة على غيرها من الأيام، فإنها أفضل الأيام عند الله، وهي الأيام العشر التي أقسم الله بها في كتابه بقوله ﴿وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[٤]. وفي الحديث الصحيح قال رسول الله (ﷺ) «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[٥].

ومن ذلك تفضيل شهر رمضان على سائر الشهور، وتفضيل عشره الأخير على سائر الليالي، وتفضيل ليلة القدر على ألف شهر. فإن قلت: أي العشرين أفضل؟ عشر ذي الحجة، أو العشر الأخيرة من

---

(١) يقطع نباته.

(٢) رواه البخاري في الحج: باب فضل الحج المبرور، ومسلم برقم (١٣٥٠) في الحج. باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ٤/ ٢٢١.

(٣) أخرجه أحمد بسند صحيح وأبو داود وصححه الحاكم ٤/ ٢٢١ ووافقه الذهبي، ويوم القر: هو حادي عشر ذي الحجة لأن الناس يقرون فيه بمنى.

(٤) سورة الفجر/ ١، ٢.

(٥) رواه البخاري في العيدين: باب فضل العمل في أيام التشريق.

رمضان؟ وأي الليلتين أفضل؟ ليلة القدر، أو ليلة الإسراء؟.

قلت: أما السؤال الأول، فالصواب فيه أن يقال: ليالي العشر الأخير من رمضان أفضل، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان وبهذا التفضيل يزول الاشتباه ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فضلت باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما أفضل باعتبار الأيام، إذ فيها يوم النحر، ويوم عرفة ويوم التروية.

وأما السؤال الثاني: فليلة القدر أفضل فقد ثبت في الصحيحين عن النبي (ﷺ) أنه قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(١). وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر، وأنه أنزل فيها القرآن(٢).

وقدم الله (عز وجل) مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، فقد كتب سبحانه ذلك في اللوح المحفوظ، فما من شيء كان أو يكون إلا وهو مكتوب مقدر قبل أن يكون، فقد علم بعلمه الأزلي الأبدي (سبحانه وتعالى) ما كان وما يكون من صغير أو كبير وظاهر وباطن من أفعاله أو أفعال عباده.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٣).

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في الصوم، ومسلم برقم (٧٥٩) في الصلاة، باب الترغيب في قيام رمضان.

(٢) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، ص٤٢: ص٥٨ (بتصرف).

(٣) سورة الحج/ ٧٠.

وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١).

وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ): «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»(٢).

وقال عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب قال رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»(٣).

وقد يكون التقديم والتأخير كونياً، فقد خلق (سبحانه وتعالى) السموات والأرض ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾(٤).

فخلق السموات والأرض ثم أنزل من السماء ماء أنبت به الزرع. فالنبات هو أسبق الكائنات الحية وجوداً على سطح الأرض من قبيل تمهيد الدار وإعدادها لسكانها من حيوان وإنسان.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾(٥).

وتظهر حكمة الحق سبحانه وتعالى في سبق النبات أولاً لأن حياة الإنسان والحيوان تقوم على ما يصنعه النبات لهما من غذاء وما يخرج لهما من أوكسجين. ففي كل خلية نباتية مادة خضراء تسمى (الكلوروفيل) أو ما يطلق عليه اسم اليخضور وهو يوجد في أجسام

---

(١) سورة الأنعام/ ٥٩.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد والترمذي، وحسنه.
(٤) سورة إبراهيم/ ٣٢.
(٥) سورة الذاريات/ ٤٧، ٤٨.

صغيرة داخل الخلية تسمى البلاستيدات الخضراء، ويقوم اليخضور بعملية التمثيل الضوئي التي يتم فيها فصل الكربون عن الأوكسجين فيلفظ الثاني ليتنفسه الحيوان ويحتفظ بالأول ليصنع منه الغذاء.

ويؤخر الله (عزّ وجلّ) العقوبة عن العصاة والظالمين فيفسح لهم الزمان، ويمد لهم في الأعمار، حتى تنقطع حجتهم، فإن تابوا ورجعوا وأنابوا فهو (سبحانه وتعالى) غفور رحيم. وإن أصروا واستكبروا فلن يعجزوه.

قال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ . وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾(١).

فالله عز وجل هو المقدم وهو المؤخر، وتقديمه وتأخيره كله حكمة وخير، ففعل الله (عزّ وجلّ) كله خير، والشر لا يدخل في فعله ولا ينسب إليه، وكون بعض مفعولاته شر بالنسبة لبعض الخلق فذلك عدل منه وحكمة. ولا يلزم من إثبات الحكمة في أفعال الله أن نعلم الحكمة في كل فعل، إذ قد تخفى الحكمة في بعض الأفعال، فيجب التسليم له تعالى والاعتقاد الجازم بأن لله حكمة في ذلك الفعل، قصرت عقولنا عن إدراكها.

(١) سورة إبراهيم/ ٤٢ : ٤٥.

«وإذا تقرر هذا فالرضى بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته - مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره - مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان.

وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك. أما الرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصحة والعافية والغنى - فهو أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملائم للعبد محبوب له. فليس في الرضى به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصى المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك»(١).

فالله عز وجل يقدم ويؤخر ويضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته. فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها. وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها وأن يضعها عند غير أهلها.

فهو (سبحانه وتعالى) يعلم عواقب الأمور ويعلم المصلحة أين تكون. وهو (سبحانه) الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمظهر لكل شيء. هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس لأحد معه اختيار ولا يشرك في حكمه أحداً تفرد بالأختيار والتدبير وليس لأحد معه قليل ولا كثير.

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مدارج المساكين، جـ٢ ص١٣٩.

ونعمة الله عز وجل في تقديم أمة محمد (ﷺ) من أجل النعم وأعلاها. فقد اصطفى الله عز وجل لها ديناً قويماً، وشريعة كاملة، لا يدرك الوصف حسنها فهي أكمل وأجل الشرائع. فهي من أعظم نعم الله (عز وجل) على عباده. وقد امتن الله عز وجل على عباده بأن هداهم لها.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

«اللهم اغفر لي ما قدّمت، وما أخرّت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»(٢).

* * *

(١) سورة آل عمران/ ١٦٤.

(٢) رواه مسلم، وأو داود في الصلاة وإسناده صحيح، والترمذي في الدعوات، وقال: حديث حسن صحيح.

الفتاح الحكم الديان

٤٣ ٤٤ ٤٥

قال الزجاجي: الفتاح والفاتح: الحاكم (ربنا افتح بيننا) أي: احكم بيننا، وأصله من فتح الباب بعد إغلاقه، كأن الحاكم إذا حكم بينهم فقد فتح الباب إلى الحق وبينه(١).

وقال الراغب: «الفتح إزالة الإغلاق والإشكال وذلك ضربان أحدهما: يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾(٢) والثاني يدرك بالبصيرة كفتح الهم وهو إزالة الغم، وذلك على ضروب، أحدها: في الأمور الدنيوية كغم يفرج وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه، كقوله تعالى: ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾(٣) والثاني فتح المستغلق من العلوم، نحو قولك فلان فتح من العلم باباً مغلقاً وفتح القضية فتاحاً فصل الأمر فيها وإزالة الإغلاق عنها»(٤).

قال ابن القيم (رحمه الله):

وكذلك الفتاح من أسمائه ... والفتح في أوصافه أمران
فتح بحكم وهو شرع إلهنا ... والفتح بالأقدار فتح ثان
والرب فتاح بذين كليهما ... عدلاً وإحساناً من الرحمن

فالفتاح هو الحكم المحسن الجواد، وفتحه تعالى قسمان: أحدهما فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي، والثاني الفتاح بحكمه القدري

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص١٨٩.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٣٧٠.

(٣) سورة يوسف، آية: ٦٥.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله جميع ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم. وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفيهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء وأتباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم. وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفي كل عامل ما عمله. وأما فتحه القدري فهو ما يقدره على عباده من خير وشر ونفع وضر وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

فالرب تعالى هو الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله(٢).

وقد ورد اسم الفتاح في القرآن الكريم مرة واحدة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾(٣).

أما الحكم: فهو الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها. فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه(٤). فهو سبحانه الحكم بالعدل في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط، وهذا معنى قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٥).

ومادة حكم أصلها منع منعاً لإصلاح. والحكم بالشيء أن تقضي

---

(١) سورة فاطر/ ٢.
(٢) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص٨٤، ص٨٥.
(٣) سورة سبأ/ ٢٦.
(٤) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، جـ٥، ص٦٢٧.
(٥) سورة هود/ ٥٦.

بأن كذا أو ليس كذا سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه، قال تعالى ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ . والحكم أعم من الحكمة فكل حكمة حكم وليس كل حكم حكمة(١) .

والله (عزّ وجلّ) هو الحكم الذي سلم له الحكم، ورد إليه فيه الأمر قال تعالى ﴿إن الحكم إلا لله﴾ وقال تعالى: ﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾ وقال سبحانه: ﴿أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ .

وهو سبحانه الحكم الحاكم الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(٢) .

وحكمه كله خير ورحمة وعدل وحكمة قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٣) .

وقد ورد اسم الحكم في حديث رسول الله (ﷺ) «إن الله هو الحكم وإليه الحكم»(٤) .

أما اسم «الديان» فقد ورد في حديث رسول الله (ﷺ) «يحشر الناس يوم القيامة عراة. ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان»(٥) .

والديان: القهار والحاكم القاضي، وهو فعال من دان الناس أي قهرهم على الطاعة يقال دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا والديان المقتص المجازي: «إن الله ليدين للجماء من ذات القرن» أي يقتص

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٢٦، ص١٢٧ .
(٢) سورة الرعد/ ٤١ . (٣) سورة المائدة/ ٥٠ .
(٤) رواه أبو داود ٤/ ٢٨٩ والنسائي ٨/ ٢٢٦ وإسناده جيد، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٤١٤٥) .
(٥) أخرجه أحمد والحاكم، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وابن أبي عاصم في السنة، وصححه الألباني في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم .

ويجزي والدين الجزاء. فالله عز وجل هو الديان الذي يجازي العباد بأعمالهم وينصف المظلوم من الظالم ويقضي بين الخلائق بالحق(١).

والله (عزّ وجلّ) فتح على عباده بإرسال الرسل إليهم، وتعريفهم شريعته لحاجة البشر الماسة إليها. فحاجة الناس إلى الشريعة ضرورية أكثر من حاجتهم إلى أي شيء آخر، فهم في حاجة إليها أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب والتنفس. فهذه إن عدمت كان من ورائها موت البدن. أما إذا فقدت الشريعة ففي فقدانها فساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبد. أي شقاء الدارين الدنيا والآخرة.

ويتوالى الرسل يدعون أقوامهم إلى توحيد الله وعبادته وحده، والكافرون يستعجلون العذاب ويطلبون الحكم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٣).

ويستعجل قومه الفتح والحكم بينهم وبينه:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٤). ويأتي الفتح والحكم من الله عز وجل:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٥).

---

(١) ابن الأثير، (النهاية في غريب الحديث والأثر) جـ٢، ص١٤٩.

(٢) سورة الأعراف/ ٥٩. (٣) سورة الأعراف/ ٦٥.

(٤) سورة الأعراف/ ٧٠. (٥) سورة الأعراف/ ٧٢.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١) . ويستعجل قومه العذاب فيأتي الحكم والفتح من الفتاح الحكم :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾(٢) .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(٣) .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٤) .

فجاء الرد منهم : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾(٥) .

فجاء الحكم والنهاية : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٦) .

ويطلب الكافرون من الله (عز وجل) أن يفتح بينهم وبين المؤمنين في غزوة بدر . فقبيل المعركة دعوا الله (عز وجل) أن يجعل الدائرة على

(١) سورة الأعراف/ ٧٣ .
(٢) سورة الأعراف/ ٧٨ .
(٣) سورة الأعراف/ ٨٠ : ٨٤ .
(٤) سورة الأعراف/ ٨٥ .
(٥) سورة الأعراف/ ٨٨ .
(٦) سورة الأعراف/ ٩١ .

أضل الفريقين فهم الذين طلبوا الفتح والفصل من الله فدارت الدائرة عليهم : قال تعالى : ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١) .

قال ابن كثير (رحمه الله) : يقول تعالى للكفار ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي تستنصروا وتستفتحوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم كما قال محمد بن إسحق عن الزهري وعن عبدالله بن ثعلبة أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة . وكان إستفتاحاً منه فنزلت ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية :

وروى الإمام أحمد أيضاً من هذا الطريق أن أبا جهل قال حين التقى القوم اللهم اقطعنا للرحم وآتنا بما لا نعرف فأحنه الغداة فكان المستفتح ، وأخرجه النسائي والحاكم في مستدركه ، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال السدي : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ يقول قد نصرت ما قلتم وهو محمد (ﷺ)(٢) .

فالكافرون عندما تضيق صدورهم بالحق يستعجلون النهاية وهذا من عمى بصيرتهم وحماقتهم :

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣) . وهذا دعاء عنيد يعبر عن كفر جامح يؤثر

(١) سورة الأنفال/ ١٩ .
(٢) إسماعيل بن كثير ، مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٢٩٦ .
(٣) سورة الأنفال/ ٣٢ .

الهلاك على الإذعان للحق الواضح المبين! فهي نفوس فاسدة تؤثر الهلاك والعذاب. وبمثل هذا العناد كان الكافرون يواجهون دعوة الرسل ويستعجلون الفتح والحكم ولا يتعظ اللاحقون بالسابقين ويظلون هكذا - إلا من رحم الله - حتى يفتح الله (عزّ وجلّ) وتنتصر دعوة الحق ويحكم الله بين الموحدين والكافرين.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾(١). ثم يسفر طغيانهم عن وجهه مستعيناً بالقوة المادية الغليظة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾(٢). فالكفر لا يسالم الإيمان حتى ولو سالمه الإيمان فهو يستخدم كل سلاح غاشم للقضاء على الحق. حينئذ يفتح الله (عز وجل) بين الفريقين: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ . وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾(٣).

فبعد الفتح لا يكون إلا النصر للموحدين والخيبة والهلاك لكل جبار عنيد.

ثم يأتي الفتح الأكبر يوم القيامة حيث تجتمع الخلائق كلها في صعيد واحد فيحكم الله بينهم بالعدل فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ

---

(١) سورة إبراهيم/ ٩.
(٢) سورة إبراهيم/ ١٣. (٣) سورة إبراهيم/ ١٣ : ١٧.

الْعَلِيمُ ﴾(١).

فا عز وجل هو الفتاح العليم أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، الديان الذي يجازي كل فريق بعمله:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾(٢).

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا .وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا .وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا .بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٣).

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قرأ رسول الله (ﷺ): «يومئذ تحدث أخبارها. فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا. قال: فهذه أخبارها»(٤).

فالحكم الديان يجعل الأرض تشهد، والألسنة، والأرجل، والجلود، لتتم الحجة وينقطع العذر:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾(٥). ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنتُمْ

---

(١) سورة سبأ (٢٦). (٢) سورة الروم/ ١٤ : ١٦.
(٣) سورة الزلزلة. (٤) رواه أحمد والترمذي وصححه.
(٥) سورة النور/ ٢٤، ٢٥.

تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١) .

وحتى يتحقق العدل الإلهي المطلق فالأعمال مدونة بدقة، والحساب دقيق:

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(٢) .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(٣) .

ثم تكون العاقبة والنهاية:

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾(٤) .

وأمام الحكم الفتاح الديان يخيب الظالم، ولا يجد الظالمون حميماً ولا شفيعاً:

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾(٥) .

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾(٦) .

فالحقوق تؤدى لأصحابها لأن الملك حكم عدل ليس عنده ظلم ولا هضم:

---

(١) سورة فصلت/ ١٩، ٢٣ .
(٢) سورة الكهف/ ٤٩ .
(٣) سورة الأنبياء/ ٤٧ .
(٤) سورة المؤمنون/ ١٠٢، ١٠٣ .
(٥) سورة طه/ ١١١ .
(٦) سورة غافر/ ١٨ .

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾(١) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»(٢) .

ولذلك أوصى رسول الله (ﷺ) بالتحلل من الحقوق، وردها لأصحابها قبل يوم القيامة، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء، فليتحلله من اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم : إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»(٣) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، أن رسول الله (ﷺ) قال **«أتدرون ما المفلس»** قالوا : المفلس فيما من لا درهم له ولا متاع فقال : **«إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»**(٤) .

ومن فتح الله (عزّ وجلّ) ما يقدره لعباده من خير وشر ونفع وضر .

قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٥) .

---

(١) سورة طه/ ١١٢ .

(٢) رواه مسلم، وقال السيوطي : رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والترمذي .

(٣) رواه البخاري وقال الحافظ بن حجر : وهذا الحديث قد أخرجه مسلم معناه من وجه آخر، وهو أوضح سياقاً من هذا .

(٤) رواه مسلم (٢٥٨١) .

(٥) سورة فاطر/ ٢ .

فالله عز وجل هو الفتاح الذي يفتح أبواب الرحمة لعباده، وهذه الرحمة لا يحصيها العد، ويعجز الإنسان عن تسجيلها وعدها، فهي في ذاته وفي تكوينه، وفي كل شيء من حوله سخره الله له. ولا تتمثل رحمة الله (عز وجل) في العطاء فقط بل قد يكون في المنع عين العطاء والرحمة وإذا صاحبت رحمة الله (عزّ وجلّ) المحنة صارت نعمةً وفيضاً ومنحة أما إذا تخلت رحمة الله عن النعمة فإنها تصير محنةً وبلاءً وشقاءً.

يقول سيد قطب (رحمه الله): «وما من نعمة - يمسك الله معها رحمته - حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة - تحفها رحمة الله - حتى تكون هي بذاتها نعمة ينام الإنسان على الشوك - مع رحمة الله - فإذا هو مهاد. وينام على الحرير - وقد أمسكت عنه - فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور - برحمة الله - فإذا هي هوادة ويسر، ويعالج أيسر الأمور - وقد تخلت عنه رحمة الله - فإذا هي مشقة وعسر ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام، ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار»[(١)].

فرحمة الله (عز وجل) هي الخير كلّه، وهي الفيض كلّه، وهي الطمأنينة والسعادة والراحة والهناء. لا يضر معها الضيق ولا الشدة ولا العناء. فقد وجدها إبراهيم - عليه السلام - في النار، ووجدها يوسف - عليه السلام - في الجب، كما وجدها في السجن ووجدها يونس - عليه السلام - في بطن الحوت، ووجدها موسى - عليه السلام - في اليم وهو

---

(١) سيد قطب، مرجع سابق، جـ٥، ص٢٩٢٢.

في المهد كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به يبحث عنه، ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ ووجدها رسول الله (ﷺ) وصاحبه في الغار والكافرون عند بابه يتعقبون الآثار... ووجدها كل من آوىٰ إلىٰ الله (عز وجل) دون سواه قاصداً بابه دون كل الأبواب[١].

فسبحان من يفتح أبواب رحمته فتغمر الوجود، وتفيض علىٰ كل موجود!

وهناك وعد من الفتاح (سبحانه وتعالىٰ) بفتح بركات السماء والأرض للمؤمنين المتقين. فإذا تحقق الإيمان والتقوىٰ فتحت البركات وصارت الحياة كلها أمن ورخاء ورفعة ونماء.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٢].

وهناك فتح من نوع اخر، إنه فتح استدارج للكافرين والمجرمين. لقد أرسل الله (عز وجل) إليهم رسله لدعوتهم وتنبيههم، فأخذهم بالبأساء والضراء، بالشدة والعناء لعلهم يتوجهون إلىٰ الله (عزّ وجلّ) ويتضرعون.

ولكن هذه الشدة لم تزدهم إلا عناداً واستكباراً ففتح الله عليهم

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩٢٣.
(٢) سورة الأعراف/ ٩٦.

أبواب الرخاء، وغمرهم بالخيرات والأرزاق، بلا كد ولا عناء. وفي غمرة فرحهم واستبشارهم بهذا السيل المتدفق من الخير. أخذهم على غرة، وكان الاستئصال بعد الاستدراج، وتلك سنة ماضية لا تتبدل ولا تتغير ولا تتخلف.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

فالحمد لله رب العالمين على هدايته للمؤمنين، واستئصاله للظالمين المشركين فنعمة تطهير الأرض من الكافرين والجاحدين نعمة كبرى ورحمة لا تعدلها رحمة، رحمة بكل المخلوقات التي تسبح الله (عز وجل)، وتوحده.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٢).

ورحمة بالمؤمنين خاصة فطالما تطاول عليهم المشركون وساموهم سوء العذاب.

وشريعة الحكم الفتاح أتم الشرائع وأكملها، وحكمه أحسن الأحكام وأعدلها. فهي شريعة بلغت الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال وكلها رحمة وعدل وإحسان.

---

(١) سورة الأنعام/ ٤٢ : ٤٥. (٢) سورة الإسراء/ ٤٤.

قال ابن القيم (رحمه الله): «وإذا تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حق التأمل وجدتها من أولها إلىٰ آخرها شاهدة بذلك[١] ناطقة به، ووجدت الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة بادياً علىٰ صفحاتها منادياً عليها، يدعو العقول والألباب إليها، وذلك لأن الذي شرعها علم ما في خلافها من المفاسد والقبائح، والظلم والسفة، الذي يتعالىٰ عن إرادته وشرعه، وأنه لا يصلح العباد إلا عليها، ولا سعادة لهم بدونها ألبتة. وجميع مسائل الشريعة آيات بينات، ودلالات واضحات، وشواهد ناطقات بأن الذي شرعها له الحكمة البالغة، والعلم المحيط، والرحمة والعناية بعباده، وإرادة الصلاح لهم، وسوقهم بها إلىٰ كمالهم وعواقبهم الحميدة»[٢].

فترك شريعة الحكم (سبحانه) والاحتكام إلىٰ شرائع البشر إنما هو إنحراف عن منهج الإسلام وانزلاق إلىٰ هاوية الجاهلية. فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله لا يخرمون منه حرفاً واحداً ولا يبدلون منه شيئاً. والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله ويحتكمون إلىٰ شرائع جاهلية من وضع البشر لا تقارن بحكم الله (عز وجل) وشريعته التي جاءت وكلها رحمة وعدل وإحسان.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٣].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ تعقيباً علىٰ هذه الآية: «ومن الذي يجرؤ علىٰ ادعاء أنه يشرع للناس، ويحكم فيهم، خيراً مما يشرّع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الإدعاء

---

(١) أيْ بالحكمة والمصلحة والعدل والرحمة.

(٢) ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص٤٠٩، ٤١٠.

(٣) سورة المائدة/ ٥٠.

العريض؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول: إن الله - سبحانه - وهو يشرع شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله الأخير، ويجعله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعته شريعة الأبد.. كان - سبحانه - يجهل أن أحوالاً ستطرأ، وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع، فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه، حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟! ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية، وحكم الجاهلية، ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب، أو هوى جيل من أجيال البشر فوق حكم الله، وفوق شريعة الله؟

ما الذي يستطيع أن يقوله.. وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟ قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة، والأوضاع المتجددة، والأحوال المتقلبة؟ ألم يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟ يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء... ولكن المسلم أو من يدّعون الإسلام ما الذي يقولونه من هذا كله، ثم يبقون على شيء من الإسلام، أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟»(١).

ثم ماذا يقول هؤلاء عندما يعترف بفضل الشريعة الإسلامية غير المسلمين؟(٢).

---

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ص٩٠٥.

(٢) زكريا هاشم إبراهيم، آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام، ص٣٢، ص٣٤.

يقول «إدوار لمبير» الذي كان ناظراً لمدرسة الحقوق الخديوية في القاهرة (١٩٠٦): «إن في الشريعة الإسلامية كنزاً لا يفنى ومنبعاً لا ينضب، وأنه خير ما يلجأ إليه المصريون في العصر الحاضر في البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر ولبلاد العرب هذا المجد العلمي».

ويقول «استيلانا» في بعض مؤلفاته: «إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل فيه ما يكفي الإنسانية كلها»:

ويقول «هولكم» أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد: «الشريعة الإسلامية تحتوي على جميع المبادىء اللازمة للنهوض».

ويقول «جيبتون» من أكبر علماء التاريخ في العصر الحديث: «وجاءت الشريعة الإسلامية عامة في أحكامها يخضع لها أعظم ملك وأقل صعلوك، فهي شريعة حيكت بأحكم منوال شرعي، وليس لها مثيل في العالم» أليس في شهادة كل هؤلاء وغيرهم ما يدل على فضل الشريعة الإسلامية وعظمتها؟!

فتحكيم شريعة الله (عز وجل) شرط في ثبوت عقد الإسلام، ولا يتحقق أصل الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد (ﷺ) نبياً ورسولاً إلا بالانقياد لشريعة الله والإقرار بجميع ما أنزل تصديقاً وانقياداً. وقد انعقد على ذلك إجماع المسلمين جيلاً بعد جيل:

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾.

«هذا أمر من الله (عز وجل) بأن كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾ فما حكم به الكتاب

والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فدّل على أنّ من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر»(١).

ويقول في البداية والنهاية: «فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق(٢) وقدمها عليه؟ من فعل ذلك فقد كفر بإجماع المسلمين(٣).

ويقول أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن في تفسير قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾» وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئاً من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله (ﷺ) فهو خارج عن الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع عن التسليم وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع عن أداء الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان»(٤).

ويقول ابن القيم (رحمه الله): «والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل

---

(١) إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، جـ٢، ص٦٧.
(٢) الياسق: كتاب يحوي مجموعة من الأحكام جمعه حنكيز خان للتتار من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والإسلامية وغيرها.
(٣) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، جـ٣، ص١١٩.
(٤) أبو بكر الجصاص، أحكام القرآن، جـ٣، ص١٨١.

الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر وإن جهله وأخطأه فهذا مخطيء له حكم المخطئين»(١).

ويقول الشيخ محمد حامد الفقي «من اتخذ من كلام الفرنجه قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله. ولا ينفعه بأي اسم تسمى به ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها»(٢).

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي: «إن العلماني الذي يرفض مبدأ تحكيم الشريعة من الأساس، ليس له من الإسلام إلا اسمه، وهو مرتد عن الإسلام بيقين، يجب أن يستتاب وتزاح عنه الشبهة، وتقام عليه الحجة، وإلا حكم القضاء عليه بالردة، وجرد من انتمائه للإسلام»(٣).

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾(٤).

«اللهم اجعلنا من المتقين الذين تفتح لهم بركات من السماء والأرض يارب العالمين» «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» «اللهم إني أسألك فواتح الخير، وخواتمه وجوامعه، وأوله، وآخره، وظاهره وباطنه، والدرجات العلى من الجنة آمين»(٥).

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، جـ١، ص٣٦٥.
(٢) راجع تعليقه على هامش فتح المجيد، ص٤٠٦.
(٣) يوسف القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ص٧٣، ص٧٤.
(٤) سورة الأعراف/ ٨٩.
(٥) من حديث أخرجه الحاكم عن أم سلمة مرفوعاً، ووافقه الذهبي ١/ ٥٢٠.

«اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي»[١].

* * *

(١) رواه أحمد ١/ ٣٩١، وصححه الألباني انظر تخريج الكلم الطيب ص٧٣.

الخالق الخلاق البارىء المصور

٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩

الخالق: اسم الفاعل من خلق يخلق وهو الخلاق، والخلاق: فعال للمبالغة، والخلق الفعل. وأفعال الله (عزّ وجلّ) مقدره علي مقدار ما قدرها عليه، وأصله من قول العرب: خلق فلان الأديم إذا قدره للقطع للإصلاح(١).

أو هو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة، وأصل الخلق التقدير فالخالق (سبحانه) هو الذي قدّر الأشياء، ثم أوجدها وفق هذا التقدير. ولذلك قيل: إنّ الخالق (سبحانه) قدّر الأشياء وهي في طوايا العدم، وكملها بمحض الجود والكرم، وأظهرها وفق إرادته ومشيئته وحكمته.

والخلق في كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه، قال تعالى: ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾(٢). وقد يقصد بالخلق التقدير، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾(٣).

لأن الآية تقتضي كثرة الخالقين، وثبت بالدلائل العقلية والسمعية أن لا موجد إلا الله تعالى، فوجب حمل الخلق في هذه الآية على التقدير وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾(٤).

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص١٦٦. (٢) سورة لقمان آية: ١١.
(٣) سورة المؤمنون آية: ١٤. (٤) سورة آل عمران آية: ٥٩.

ومعلوم أن المراد من قوله كن فيكون: الايجاد والابداع، وقوله «خلق من تراب» مقدم عليه، والشيء المقدم على الإيجاد ليس إلا التقدير، فثبت أن المراد بقوله «خلق من تراب» هو أنه قدّره منه.

وقوله لعيسى (عليه السلام)، وإذ تخلق من الطين. . .»[١]، المراد التصوير والتقدير.

قال الراغب الأصفهاني: الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء قال: «خلق السموات والأرض» ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: «خلقكم من نفس واحدة. خلق الإنسان من نطفة. .» وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) أما الذي يكون بالاستحاله فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى حيث قال: «وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني[٢].

والخلاق صيغة مبالغة أي تكثير. والله عز وجل خلاق: أي كثير الخلق. قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيم﴾[٣].

أما الباريء فقيل في تفسيره: إنه هو الموجد والمبدع يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم أوجدهم.

وعلى هذا يكون الخالق هو المقدر للأشياء، والبارئ هو الموجد والمخترع لها طبقاً لهذا التقدير.

---

(١) سورة المائدة: ١١٠.
(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٥٧.
(٣) سورة يس آية: ٨١.

وقد نقل الحافظ بن حجر العسقلاني في كتابه «فتح البارئ» عن الطيبي تفرقة بين هذه الأسماء الثلاثة: الخالق، الباريء، المصور فذكر: أن الخالق «من الخلق، وأصله التقدير المستقيم، ويطلق على الإبداع وهو إيجاد الشيء على غير مثال كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من نطفه﴾ «والبارىء» من البرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره إما على سبيل التقصي منه، وإما على سبيل الإنشاء، فالأول مثل قولهم: برأ فلان من مرضه، والمديون من دينه، ومنه استبرأت الجاريه.

والثاني مثل قولهم: برأ الله النسمه.. وقيل الباريء الخالق خلقاً بريئاً من التفاوت والتنافر المخلين بالنظام أي أنه يخلق خلقاً محكماً منتظماً لا خلل فيه ولا تنافر ولا تفاوت.

«والمصوّر» مبدع صور المخترعات، ومرتبها بحسب مقتضى الحكمه: فالله (عزّ وجلّ) خالق كل شيء بمعنى أنه موجده ومقدره من أصل ومن غير أصل، وبارئه أي مخرجه ومنفذه بحسب ما اقتضت الحكمه من غير تفاوت ولا اختلال، ومصوره في صورة يترتب عليها خواصه، ويتم بها كماله. وعلى هذا فالتقدير يقع أولاً، ثم الإحداث على الوجه المقدر ثانياً، ثم التصوير بالتسوية ثالثاً: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ .فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(١).

والخلاصة: الخلق هو التصميم والتقدير على مثال وعلى غير مثال. ولا يخلق على غير مثال إلا الله سبحانه وتعالى.

والبرء: التنفيذ والإخراج بدقه وحكمه وإتقان.

---

(١) سورة الإنفطار آية (٦ ـ ٨)، انظر فتح الباري، ص٣٩١.

والتصوير: إعطاء الملامح والسمات التي تميز كل مخلوق عن غيره.

والمثال الذي يوضح ذلك ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ عندما يريد الإنسان أن يبني بناءً فإنه يبحث أولاً عن مهندس يصمم له البناء ثم من يقدّر ما يحتاجه هذا البناء من أسمنت وحديد وخشب وكذا وكذا.. ثم من ينفذ هذا البناء وفق التصميم، وبالمقادير المعينة، ثم أخيراً من يزين هذا البناء ويعطيه ملامحه النهائية فيتميز بها عن غيره من الأبنية.

وإذا كان هذا البناء يحتاج إلىٰ عدة أشخاص لإخراجه إلىٰ الوجود، والفراغ منه، فالله عز وجل ليس كذلك؛ لأنه وحده سبحانه هو الخالق البارئ المصور ليس له شريك ولا معين، كما أنه سبحانه يخلق علىٰ غير مثال. أما في البناء السابق، فقد كان علىٰ مثال رآه المهندس فصمم مثله أو شبهه، أو صمم من عدة أمثله. والبناء السابق لم يخلق من عدم، وإنما تحول موجود إلىٰ موجود آخر تحول الإسمنت والحديد والخشب... إلخ إلىٰ بناء متكامل، أما الخالق سبحانه وتعالىٰ فيخلق من موجود ومن لا موجود أي من عدم.

قال الشاعر:

خلق الأشياء بقدرته وبنور الحكمة صورها
وبراها وفق مشيئة وبغير مثال قدرها

وقال:

يا خالق النطفة الأولى وبارئها بلا مثال: تعالى الخالق البارئ
مصور كل شيء وفق حكمته فالماء والطين غير النور والنار

وجاء في القرآن الكريم «بديع السموات والأرض» فما معنى البديع؟

البديع هو: المبدع من أبدع الشيء اخترعه على غير مثال سابق. والله (عز وجل) مبدع الأشياء على غير مثال تقدم.

فالإبداع في حق الله تعالى هو إيجاد الشيء بغير آله ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان. وليس ذلك إلا لله تعالى.

فالبديع (سبحانه) هو الخالق خلقاً في غاية الحسن والإحكام بلا إله ولا مادة ولا زمان ولا مكان[1]، وعلى غير مثال.

قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

وقيل: البديع هو الذي لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في مصنوعاته، فهو الذي أظهر عجائب صنعه، وأبدع غرائب حكمه، وهو الذي خلق الأكوان على غير مثال سابق.

قال الشاعر:

لا شيء مثلك في وصف ولا ذات ... يا خالق الأرض بدعاً والسموات

وليس قبلك شيء، كي نسميه ... وليس بعدك شيء في النهايات

والكون مبتدع، إذا أنت موجده ... بلا مثال شبيه في البدايات

بقدرة ما لها حد، تنظمه ... على الحقيقة في ماض وفي آت

وقد ورد اسم الخلّاق مرتين في القرآن الكريم، أما اسم الخالق فقد ورد كثيراً في القرآن الكريم.

---

(١) الأصفهاني، مرجع سابق، ص٣٨.
(٢) سورة البقرة آية: ١١٧.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾(١).

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل﴾(٣).

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(٤).

وقد ذكر اسم البارىء في القرآن الكريم ثلاث مرات، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(٦).

أما المصور فقد ورد مرة واحدة في الآية السابقة.

ووردت مادة (صوّر) كثيراً في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾(٧). وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾(٨).

وآثار هذه الأسماء في الحياة لا تعد ولا تحصى فكل الموجودات المشاهدة وغير المشاهدة إنما هي من خلقه سبحانه وتصويره وإبداعه.

قال تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴾(٩).

---

(١) سورة الحجر آية: ٨٦.
(٢) سورة يس آية: ٨١.
(٣) سورة الزمر آية: ٦٢.
(٤) سورة الحشر آية: ٢٤.
(٥) سورة البقرة آية: ٥٤.
(٦) سورة الحشر آية: ٢٤.
(٧) سورة غافر آية ٦٤.
(٨) سورة الأعراف آية: ١١.
(٩) سورة الحاقة آية: (٣٨-٣٩).

فالسموات والأرض أثر من آثار هذه الأسماء في خلقها وفي دقة تصميمها وإبداعها.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَق . . ﴾(١).

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ﴾(٢).

وتتجلى في هذا الخلق الدقة والنظام:

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾(٣).

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾(٤).

وإذا تأملنا المخلوقات من حولنا نجد أن الخالق (سبحانه وتعالى) قد خلق النبات قبل أن يخلق الحيوان؛ لأن الحيوان يعتمد على النبات في غذائه، قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾(٥).

ويشغل الحيوان مساحات شاسعة في الأرض فهو يعيش على الثرى وتحته، وتحت الماء في قاع المحيطات والبحار.

والنوع الإنساني واحد يتكون من ذكر وأنثى، أما الحيوان فأنواعه تبلغ الملايين.

وأحجام الجنس البشري لا تتفاوت كثيراً، أما في النبات والحيوان فتتفاوت الأحجام ما بين خلية واحدة إلى شجرة باسقه، وحوت ضخم، وديناصور عملاق.

---

(١) سورة الأنعام آية: ٧٣.
(٢) سورة الشورى آية: ٢٩.
(٣) سورة الملك آية: ٣.
(٤) سورة السجدة آية: ٧.
(٥) سورة النازعات آية (٣٠ـ٣١).

فهناك حيوان يتكون من خلية واحدة مثل الأميبا، وهذه الخلية الواحدة لها حياتها العجيبة التي تُظْهر إعجاز الخلق وإبداع الخالق، فهذه الخلية الواحدة ليس لها فم لالتهام الطعام وليس لها معدة لهضمه، ومع ذلك فهي تأكل وتهضم فكيف؟!

جعل الخالق (سبحانه) لهذه الخلية قدرة على التهام الطعام بأي جزء من جسدها، أما حبيبات الطعام التي لا يمكن هضمها فإن جسدها يلفظها!.

وتتنفس الأميبا على الرغم من أن جسدها ليس فيه أجهزة تنفس ظاهرة، فليس لديها رئات ولا خياشيم.. ومع ذلك فهي تولج إلى جسدها خلال أي جزء من سطحها أوكسجيناً من الهواء المختلط بالماء وتخرج حمض الكربونيك.

وتحس الأميبا وتشعر، وإذا صادفت في تجوالها حبة رمل غير صالحة للطعام، فإنها ترتد ببطء وتنساب بحيث تترك حبة الرمل جانباً!

فسبحان الخالق البديع!

والإنسان مهما ارتقى فلن يستطيع أن يخلق كائناً حياً كالأميبا والذبابة مثلاً، وقد تحدى الخالق (سبحانه) كل مخلوقاته بذلك: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[١].

فالإنسان مهما صنع من آلات، وأبدع من منجزات لا يستطيع أن يدنو بصنعته من صنعه خالقه؛ لأنه هو نفسه من صنع خالقه.

---

(١) سورة الحج آية ٧٣.

فصنعه المخلوق عندما ينفذ وقودها (غذاؤها) يسعى صاحبها ليمدها بالوقود. أما صنعة الخالق (سبحانه) فتسعى بنفسها للحصول على غذائها، فالنبات يشق الصخر باحثاً عن الماء والغذاء، والحيوان والإنسان يقطعان الأميال للحصول على الماء والطعام..

وإذا ما عطبت صنعه الإنسان أسرع إلى إصلاحها أما صنعه الخالق فلو حدث فيها عطب أو خلل فإنه يصلح نفسه بنفسه، فمثلاً عندما يصاب الإنسان أو الحيوان بجرح في جسده فإن الإنسان يطهر مكان الجرح فقط خشيه تسممه، ثم نراه بعد فترة وقد التئم، وبنى الجسمُ أنسجةً جديدةً عوضاً عن المفقوده.

وصنعه المخلوق لا تنتج مثلها، فلم نسمع مرة أن إنساناً آلياً أنتج إنساناً آلياً آخر، أو أن حاسوباً ولد حاسوباً صغيراً.

أما صنعه الخالق (سبحانه) فتنتج مثلها، فعند تلقيح النباتات أو التقاء الذكر والأنثى في عالمي الإنسان والحيوان نجد أن هذه الأنواع تنتج مثلها بمشيئة الله تعالى.

فالإنسان أو الحيوان أو النبات قد نشأ في البداية من خلية واحدة ملقحة، والتلقيح والإخصاب يعنى خلط الأشرطه الوراثيه بين خليتين جنسيتين للذكر والأنثى.

ويبلغ وزن الخلية الملقّحه التي خلق منها الإنسان واحد علي مليار من الجرام، والعجيب أن أصل الضفدعة أى البويضه التي نشأت منها أكبر من الخلية التي نشأ منها الإنسان بمائة مليون مرة!

ومن إبداع الخالق(سبحانه) أن جعل خلق الإنسان من الزوجين(الذكر والأنثى) من التقاء حيوانٍ منوي الأب مع بويضة الأم، ليجمع الولد أفضل الصفات الموجوده في هذين الزوجين

ويبدأ تكوين الجنين بالتقاء الزوجين، فتقطع الخلية القادمه من الأب(الحيوان المنوىٰ) مسافة تبلغ (مائة ألف طولها) وهذا مثل أن يقطع إنسان طوله(١٥٠ سم) مسافة (١٥٠ كيلوا متر عدواً دون توقف!) .

والطريق الذي يسلكه الحيوان المنوي ليس سهلاً ميسوراً بل معقداً، فهو يتألف من قنوات عديدة يلتف بعضها حول بعض، والحيوان المنوي يخترق هذه التعاريج، ويعدو عدواً للالتقاء مع خلية الأم (البويضه). ولا يضل طريقه، لأن هناك توجيهاً إلهياً ولولا هذا التوجيه الإلهي ما استطاعت خليه حيه الخروج من جسد والدخول في جسد آخر لتلتقي مع خلية أخرىٰ!

والخلية القادمة من الأب تحمل نصف بطاقه فيها نصف العمليات الوراثية، وتحمل خليه الأم النصف الثاني الآخر فإذا كانت خليه الأب تحمل وراثه القلب والكبد نجد خليه الأم لا تحمل هذه المورثات فالخليتان تكمل إحداهما الأخري.

فمن الذي يجعل هذا اللقاء بين متكاملين وليس بين مكررين؟! إنه توجيه الخالق (سبحانه) فكأن الحيونات المنويه وهي داخله ترفع كروتاً مكتوباً عليها إن فىّ من المورثات كذا وكذا فلا تلتقىٰ البويضه إلاّ مع من يكملها.

وفىٰ الجاسوسيه، وفىٰ التخطيط العقلىٰ للإنسان، عندما يودع إنسان إنساناً آخر أمانةَ، يقول له احتفظ بهذه الأمانة، وخذ نصف هذه الورقه ولا تعط الأمانة إلا لمن يأتيك بالنصف الآخر من الورقة ويذهب إليه رجل بالنصف الآخر من الورقه فإذا وجده يكمل النصف الأول أعطاه الأمانه. فكذلك البويضه لا تلتقىٰ إلا مع الحيوان المنوىٰ الذي يكملها(١).

---

(١) خلوق نور باقي، الإنسان ومعجزة الحياة، ترجمة أورخان محمد علي، ص ٤٩ : ص٥٢.

ثم تبدأ الخلايا في الانقسام، وبشكل دقيق رائع، وفي ترتيب هندسي بديع، وتعرف الخلية مكانها بدقه، وموضعها في الجسد، بالتحديد فالمعده تتشكل مع عضلاتها، وغشائها المخاطي، والعين تتشكل مع رموشها وحاجبها وأنسجتها الداخليه، فلا تجد مثلاً عيناً خرجت في المعده، ولا قلباً تكون في الرأس ولا أذنا نبتت في الذراع!

فمن الذي خلق وأبدع؟

وعندما ينظر الإنسان في فيه يجد ثلاثة أنواع من الأسنان: القواطع والأنياب والأضراس. والأخيره علي نوعين: أضراس أماميه، وأخري خلفيه. ولكل قاطع وناب جذر واحد، أما الضرس الأمامي فله جذران، وللضرس الخلفي ثلاثة جذور. وهناك ملائمة بين التركيب الخارجي لهذه الأسنان وتأديتها لوظيفتها.

فتنتهي القواطع بحد شبيه بحد السكين ليسهل عملها في تقطيع الأغذيه كالخبز والخضار، أما الأنياب فتنتهي علي شكل إزميل لأن عملها يقتضي ذلك وهو تمزيق اللحوم، أما الأضراس الأمامية والخلفية فتنتهي بسطوح ذات نتوءات لأن عملها طحن الطعام وتعدد جذور الأضراس يعطيها ثباتاً في تأديه وظيفتها.

ولو تأمل الإنسان في عظامه لوجد إعجازاً ليس له حد، فقد خلقها الخالق (سبحانه) لكي تعطي جسم الإنسان شكله وقوامه، فهي تشبه الأعمدة التي يقوم عليها البناء. ولولا تلك العظام لأصبح الإنسان قطعة من اللحم المتراكم! وفصل الخالق سبحانه وتعالى هذه العظام تفصيلاً، ولو لم تكن كذلك لما تمكن الإنسان أن يقوم من مكانه، ولعجز عن تحريك إصبع من أصابعه، ولأصبح كقطعة من حديد. لكن الخالق(سبحانه) فصل هذه العظام بمفاصل قد أعدت بإبداع وإتقان:

*فكل عظمة تنتهي بنهاية تناسب، وتوافق تركيب العظمه المتصله بها.

*وشكل الخالق (سبحانه) المفاصل تشكيلاً يلائم الحركة المطلوبه فمفصل الورك مفصل دائري ليتمكن الفخذ من الحركة في عدة اتجاهات أما مفصل الركبة فقد شكل بحيث يسمح للساق بالحركة في اتجاهين فقط إلى الأمام وإلى الخلف .

* وإذا تأملت مفاصل العظم وجدتها ملساء بخلاف سائر العظام الخشنة ، وذلك لتسهيل الحركة على المفصل ، ومنع احتكاك العظم وتآكله .

* وهناك سائل لزج يقوم بتسهيل حركه العظام في المفاصل ، وهو يقوم مقام الشحم في مفاصل الآلات المعدنيه ، وإذا كان الشحم لا يمنع نهائياً تآكل المعادن واحتكاكها ، فإن هذا السائل يمنع أي احتكاك أو تآكل في العظام المتحركه!

والقوة المحركة لهذه العظام هي العضلات اللحمية المربوطة بالعظام والكاسية لها . وكل عظم قد زوده خالقه بما يناسبه من العضلات اللحميه .

يقول الدكتور «إكرس» وهو خبير فني في جامعة رايس ، وقد تعاون مع جراحين آخرين في صنع قلب اصطناعي : إن جسمنا هو الكمال ذاته ، وهو غاية ما تصل إليه التقنيه ، ومهما يكن نوع الآله التي يمكن أن تصنع ومهما بلغت من التعقيد والكمال فإننا نجد في تركيب جسمنا ما هو أفضل منها ، ونظرة واحدة نلقيها علي تكون الطفل في رحم أمه تقنعنا بأعجوبه المراحل التي يمر بها كما تقنعنا بأنه لابد لهذه الصنعه المركبه العجيبه من صانع ماهر ، وكلما تعمق الإنسان في تشريع جسمه وأدرك دقائقه ازداد إيماناً بوجود الخالق ، إنّ عمليه الأكل والبلع والهضم وتحويل الطعام إلى دم وسكر وأحماض ، والاحتفاظ بالنافع

منه وطرح الفضلات . . كلّ أولئك يدعو بلسان الواقع إلىٰ الإقرار بوجود الخالق[1]!

وفىٰ الأرض بلايين البلايين من الأحياء التي تنطق بآثار الخالق البارئ المصور البديع (سبحانه)، يقول (لستر زمرمان) أخصائى التربه: أما التربة المنتجه الخصيبة فهى تربة حية يعيش بها عدد لا يحصى من الكائنات الدقيقه من حيوان ونبات، وقد تصل نسبة الكائنات الحية التي تعيش بهذه التربه إلىٰ ما يقرب من ٢٠٪ من المادة العضوية التي بها، وقد يصل عدد الكائنات الحيه إلىٰ بضعه بلايين في الجرام الواحد من التربه[1].

هذه البلايين من الأحياء تنقسم إلىٰ آلاف من الأنواع كل نوع له خصائصه ومزاياه وشكله وصورته وطرق تغذيته وطرق حياته، وكل فرد من أفراد هذه الأنواع فيه خصائص جنسه وكل تعقيدات الحياه!

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[2].

فمن الذي خلق هذه الكائنات وشكلها وأبدعها؟!

يقول أحد العلماء: «العالم الذىٰ نعيش فيه ملىٰء بالآلات الكثيرة العجيبة المعقده التي اخترعها العلماء، لم تكن معروفه من قبل، فعندنا الطائرات التي بلغت من دقة الصنع مبلغاً باهراً بحيث يستطيع قائدها في طرفة عين أن يعرف أين هو، وبأيه سرعه ينطلق، وفىٰ أىٰ اتجاه يسير، بالإضافة إلىٰ مخترعات أخرىٰ كالراديوا والتلفزيون، و الآلات الحاسبه التي تقوم بعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمه في لمح

---

(١) سعيد حوىٰ، الله (جل جلاله) ص٥٩ .

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨ .

البصر دون أن تخطىء» وإذا دقق الإنسان النظر في هذه المخترعات جميعها لم يجد آله أعجب ولا أدق صنعاً من جسم الإنسان فليس في الآلات التي ابتدعها العقل آلة تستطيع أن ترى وتسمع، وتحس، وتتذوق وتبكى، وتضحك وترضى وتغضب. .(١).

فحقاً ﴿هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه﴾.

والتفكر في بديع صنع الله عز وجل فريضة إسلامية، حث القرآن الكريم عليها، وأمر بها. ومدح من يتفكرون في المخلوقات من حولهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾(٥).

فالله سبحانه وتعالي قد خلقنا في أرض ممدوده تظلها سماء مرفوعه، وحفظ الحياة عليها بربطها بكواكب وأقمار ونجوم لكل منها مدار ومسار، وأحكم لها جميعاً الميزان، فالشمس تمنح النور أو تشع الطاقه التي تبعث الحياة في الأرض وما عليها، وأحكم سبحانه

---

(١) عن ابن خليفه عليوى، مرجع سابق، ص ٣٧٢.
(٢) سورة آل عمران (١٩٠-١٩١). (٣) سورة الذاريات(٢٠-٢١).
(٤) سورة الطارق آية ٦. (٢) سورة الغاشية آية ١٧.

الطبقات العليا بحزام واق من الإشعاعات الزائده فلا يصل منها إلى الأرض إلا ما تحتاج ولا ينفذ إلا ما ينفع . . والقمر ينير، والنجوم تهدي وتتلألأ . . والجميع في عوان كامل متكامل . والليل والنهار يتعاقبان بميقات مرسوم ونظام دقيق يتلاءم مع ظروف الحياة علي الأرض ويوفر للإنسان وسائر الكائنات أنسب أسباب النمو والارتقاء . . والأرض ـ بالماء ـ تخرج كل شيء حي، والماء يتبخر والسحب تتجمع، والمطر يتساقط، والأنهار تجري والعيون تتفجر، والرياح تصرف، وتتهيأ الظروف فتخرج الأرض لكل مكان رزقاً، وتنتج من كل تربة فضلاً . وهذه العمليه متجدده تجدد الليل والنهار! .

ويصحبنا العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في رحلة نتأمل فيها خلق الإنسان، وكيف أبدع الخالق (سبحانه وتعالى) أعضاء الإنسان، فيقول: القرآن الكريم يدعو العبد إلى الفكر والنظر في مبدأ الخلق ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقه من الدلائل علي خالقه وناظره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الداله على عظمة الله ما تقتضي الأعمار في الوقوف علي بعضه . انظر إلى النطفة بعين البصيره وهي قطره من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئة مذللة الانقياد علي ضيق طرقها، واختلاف مساربها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها؟ وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى بينهم المحبه، وكيف قادهما بسلسله الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه . . ثم يتحدث عن العظام فيقول: ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواماً للبدن، وعماداً له، وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفه، وأشكال متباينة، فمنها الصغير، والكبير،

والطويل، والقصير والمنحنى، والمستدير، والدقيق، والعريض، والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض .؟ وكيف اختلفت أشكالهاباختلاف منافعها ؟ .

وتأمل كيفيه خلق الرأس، وكثرة ما فيه من العظام مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سبحانه وتعالىٰ علىٰ البدن وجعل فيه الحواس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق . . وجعل حاسة البصر في مقدمته ليكون كالطليعه والحرس الكاشف للبدن؟!! ، وانظر كيف حسن شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما ثم جملهما بالأجفان غطاءً لهما . وستراً وحفظاً وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذي والقذىٰ والغبار ويقيانها من البرد والحر المؤذيان . ثم غرس في أطراف الأجفان الرموش جمالاً وزينة ولمنافع أخرىٰ . .

ثم اقتضت حكمة الخالق البارئ المصور أن جعل ماء الأذن مراً في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلاً إلىٰ باطن الأذن . . وجعل ماء العينين ملحاً ليحفظهما فإنهما شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائهما صيانة لهما، وحفظاً وجعل ماء الفم عذباً حلوا ليدرك به طعوم الأشياء علىٰ ما هي عليه . .

ونصب(سبحانه) قصبة الأنف في الوجه فأحسن شكله وهيئته ووضعه، وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح، وليستنشق به الهواء . . وجعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعاً اجتمعت فيه الفضلات فخرجت بسهولة . .

ثم يقول . . وتأمل كيف خلق اليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معيشته فطولهما بحيث يصلان إلىٰ ما شاء من بدنه،

وعـرض الكف ليـتـمكن من القـبض والبـسط، وقـسم فيـه الأصـابع الخمسه، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل الإبهام باثنتين ووضع الأصابع الأربعه في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام علي الجميع فجاءت علي أحسن وضع، صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الأولون والآخرون علىٰ أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعاً آخر للأصابع سوىٰ ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلاً . . وركب الأظفار علي روؤسها زينه لها وعماداً ووقاية، وليلتقط الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع . . فتبارك الله أحسن الخالقين[١].

ويلفتنا القرآن الكريم إلىٰ دراسة الإبل للوقوف علىٰ بديع صنع الله (عز وجل) فيها: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾[٢].

وفىٰ خلق وتركيب الجمل إعجاز يفوق التصور، فهو حيوان قادر علي المعيشة في الصحراء بما فيها من لهيب وقلة ماء، ولذلك يسمىٰ سفينة الصحراء وقد زوده الخالق(سبحانه) بما يلائم حياته وبيئته، فالأرجل طويلة نسبياً حتي تساعده علي سرعة الحركة لاتساع المسافات في الصحراء وتنتهي هذه الأرجل بالخف وهو عبارة عن وساده لينه مسطحه تمكنه من السير علي رمال الصحراء الناعمة وأحجارها وصخورها القائمة. وبدونها لا يستطيع السير لمسافات طويلة.

وقد زوده الخالق (سبحانه) بمخازن لتخزين الغذاء والماء، فله سنام، وفىٰ بعض أنواعه سنامان، وهذا السنام مخزن لحفظ كميات من الدهن، يواجه بها ما قد يتعرض له من فقدان للغذاء لمدة طويلة ولا يوجد هذا المخزن في أىٰ حيوان آخر.

---

(١) ابن القيم الجوزيه. مفتاح دار السعاده، ص ٢٣٧: ص ٢٤٢ (بتصرف).
(٢) سورة الغاشية آية ١٧.

وعنق الجمل طويل حتى يستطيع تناول ما على الأشجار، وشفته العليا مشقوقه حتى يستطيع أن يتحاشى الأشواك إذا ما أكل نباتاً به أشواك. ويستعمل هذه الشفه المشقوقه أيضاً عند هبوب العواصف فيقفل بها فتحتى أنفه، فلا تدخلهما ذرات الرمال.

وإذا ما دخلت ذرة فإن بالأنف شعراً كثيفاً يمنعها. ويوجد بإذنه أيضاً شعر كثيف لهذا الغرض، والعينان لهما- أيضاً- طبقتان من الأهداب تمنعان دخول أية مواد غريبة قد تحملها الأعاصير إلى العينين.

وفى جسم الجمل تركيبات لم يصل العلماء إلى سرّها حتى الآن بيد أنهم عرفوا عملهاوأثرها وهذه التركيبات تعمل علي خفض درجة حرارة الجمل، فكلما اشتد الحر وارتفعت درجه الحرارة برد داخل الجمل. فلا يعرق ولا يبول فيفقد الماء. كما يتجنب الجمل فقدان الماء عن طريق التنفس بالمحافظه علي كمية بخار الماء الموجود بهواء الزفير بفضل الأغشية المخاطية الأنفيه، والمتصفه بقابليتها لامتصاص الماء.

فالجمل أكثر الحيونات تحملاً لمشاق الصحراء من نقص للماء والغذاء، وارتفاع في درجة الحرارة فهو يستطيع تحمل فقدان المياه من جسمه بدرجه كبيرة تصل إلى (٣٠٪) من وزنه، فإذا كان وزن الجمل (٣٠٠كيلو جرام) فإنه يتحمل نقصاً من وزنه يصل إلى (٩٠ كيلو جرام) وهذا الفقد لا يؤثر في طبيعة السائل الدموي لديه. وتكفي عشر دقائق لتعويض هذا الماء إذ يستطيع شرب(١٠٠لتر) من الماء خلالها وهذه الكمية من الماء تتوزع داخل جسمه، وتصل إلي خلاياه خلال ساعتين من الزمن.

ويقوم وبر الجمل بدور كبير بالنسبه لحياته في الصحراء وتحمل مشاقها، فهو يقلل من التبادل ما بين حرارة الجسم وحراره الوسط

المحيط . كما يعمل علي الحد من كمية الماء المتبخرة عبر غدد التعرق الموجودة على سطح الجلد . وكلما ازدادت كثافة الوبر على جسمه كانت عملية العزل أكبر وأعلى .

أما كيف يحول الجمل الغذاء المدخر إلى دهون، ثم يرفعها من أمعائه إلى سنامه، فهذا شيء حيرّ العلماء، وما زالوا يبحثون فيه .

فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه . .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1] .

«اللهم متعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوراث مني، وانصرني على من يظلمني ، وخذ منه بثأري»[2] .

* * *

---

(١) سورة آل عمران، آية : (١٩٠ ـ ١٩٤) .

(٢) أخرجه الترمذي، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر صحيح الترمذي ٣/ ١٨٨ .

الوهاب ـ المنان ـ الرزاق ـ الرازق ـ المقيت

٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤

الوهاب(جلّ جلالّه) كثير الهبة والعطيه، فالله تعالىٰ وهاب يهب لعباده واحداً بعد واحد، يعطيهم، فجاءت الصفه علىٰ فعال لكثرة ذلك وتردده.

والهبه العطاء تفضلاً وابتداءً من غير استحقاق ولا مكافأة[1] أو عوض ولا غرض. فمن يكثر العطاء بهذه الصفه أىٰ بدون عوض ولا عرض يسمىٰ وهاباً.

فالهبه لها ركنان: الأول التمليك، والثانىٰ: بغير عوض.

أما التمليك فلا يصح إلا من الله، فالعبد لا يملك شيئاً حتىٰ يملّكه لغيره، وإنما هو وما مَلَكَ مِلْكٌ لله (عز وجل).

وأما أنه بغير عوض فإن ذلك لا يحدث من العباد لأن العبد عندما يعطىٰ إنما يفعل الفعل إما لتحصيل المدح في العاجل، أو الثواب في الآجل، فثبت بذلك أنه لا واهب إلا الله (سبحانه وتعالي).

فهو الذي يملك ويعطىٰ لأنه مالك الملك فيصح منه التمليك، وهو (سبحانه) يعطىٰ بغير عوض، ولا غرض لأنه منزه عن الزيادة والنقصان فكان فعله منزهاً عن الأعواض والأغراض.

ومن وهب من المخلوقين شيئاً لغيره لا يسمىٰ وهاباً؛ لأن الوهاب من كثرت مواهبه، واتسعت عطاياه. والمخلوقون يهبون مالاً ونوالاً

---

(١) أبو القاسم الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٦.

حالاً دون حالً ، وشيئاً دون شيء . ولا يستطيعون أن يهبوا كل شيء وفي كل حال . فهم مثلاً لا يستطيعون أن يهبوا شفاءً لسقيم ، ولا ولداً لعقيم ، ولا هدي لضال ، ولا عافية لذي بلاء . والله سبحانه وتعالى يهب ذلك كله فعطاياه دائمة وأياديه متوالية ، ونعمه لا تعد ولا تحصى فكان وحده هو الوهاب (سبحانه وتعالى) .

فالله سبحانه وتعالى وهاب يهب العطاء دون عوض ، ويمنح الفضل بغير غرض ، ويعطي الحاجه بغير سؤال ، كثير المن والإفضال ، واللطف والإقبال ، لا يقطع نواله عن العبد في حال . عطاؤه دائم ، وبذله شامل يعطي بلا وسيلة ، وقد ينعم بلا سبب ولا حيله .

قال ابن القيم رحمه الله :

وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السموات العلى والأرض تلك المواهب ليس ينفكان

فقد شمل (سبحانه وتعالى) الكائنات بأسرها ببره وهباته وكرمه ، فهو مولى الجميل ، ودائم الإحسان ، وواسع المواهب ، وجميع النعم الظاهرة والباطنه من مواهبه وبره وإحسانه .

وقد ورد اسم الوهاب ثلاث مرات في القرآن الكريم ، مرة في سورة(ال عمران) ، ومرتين في سورة (ص) .

قال تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران آية ٨ . (٢) سورة ص آية ٩ .

قال تعالىٰ علىٰ لسان سليمان (عليه السلام) : ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(١) .

أما الفعل فقد ورد كثيراً في القرآن الكريم :

قال تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم (عليه السلام) : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾(٥) .

والمنان اسم من أسمائه الحسنىٰ (سبحانه وتعالىٰ)، وهو المعطىٰ ابتداء .

وفىٰ اللغة : مَنَّ عليه أىٰ أنعم وأحسن ، والمنُّ الإنعام مطلقاً ، فالمنان (سبحانه) هو المعطىٰ ، من المنّ بمعنىٰ العطاء لا من المنّه ، وكثيرا ما يرد في كلام العرب بمعنىٰ الإحسان بدون مقابل ، وعلي هذا فهو يقترب في معناه من الوهاب . بيد أن المنان يختص بالنعم الثقيلة العظيمة ، والوهاب أشمل .

ولذلك جاء المن من الله تعالي علي عباده المؤمنين في القرآن الكريم ببعث الرسول إليهم وهدايتهم وتمكينهم في الأرض ، ووقايتهم من العذاب .

---

(١) سورة ص آية ٣٥ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٣٩ .
(٣) سورة مريم آية ٥٠ .
(٤) سورة الشورىٰ آية ٤٩ .
(٥) سورة الفرقان آية ٧٤ .

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾(٣).

فالله عز وجل هو المنان الذي يهب النعم العظيمه، ومن أعظم هذه النعم بل أصل كل النعم إرسال الرسول ﷺ لينقذ من الضلال ويعصم من الهلاك. ثم الهدايه للإيمان، وهي من أعظم النعم وأجلها.

وقد يقع لفظ المنان على الإنسان الذي يعطي شيئاً ثم يمنّ به على من أعطاهم، وهذا المنّ مذموم؛ لأن المنّه تفسد الصنيعه.

ويفرق الأصفهاني بين نوعين من المنّ، فيقول: «المنّه: النّعمه الثقيلة، وهي على نوعين:

النوع الأول: أن تكون هذه المنّه بالفعل، فيقال: منَّ على فلان إذا أثقله بالنّعمه، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾(٥). ، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(٦). وهذا كله على الحقيقه لا يكون إلا منّ الله تعالى فهو الذي منّ على عباده بهذه النعم العظيمه.

النوع الثاني: أن يكون المنّ بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس، ولقبح ذلك قيل: المنه تهدم الصنيعه. قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ

(١) سورة آل عمران آية ١٦٤.
(٢) سورة الحجرات آية ١٧.
(٣) سورة الطور آية ٢٧.
(٤) سورة آل عمران آية ١٦٤.
(٥) سورة الصافات آية ١١٤.
(٦) سورة إبراهيم آية ١١.

أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) .

فالمنه من الله عليهم بالفعل وهو هدايتهم للإسلام، والمنهَ منهم بالقول المذموم(٢) .

وقد ذمَ اللُّه عزّ وجلّ في كتابه هذا المنّ، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣) .

وقد ذم الرسول ﷺ المنّ بالعطيه فقال عليه الصلاة والسلام، ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامه، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال أبو ذر: خابوا وخسروا! من هم يا رسول الله قال: « **المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»(٤) .

وقد ورد اسم الله (المنان) في حديث رسول الله . عن أنس بن مالك • رضى الله عنه) قال: سمع النبي الله رجلاً يقول: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار. فقال النبى صلى الله عليه وسلم لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب**»(٥) .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٧ .
(٢) الأصفهانى، مرجع سابق، ص ٤٧٤ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٦٢ .
(٤) أخرجه مسلم(٢٦٠) .
(٥) رواه أصحاب السنن وابن حبان وأحمد والحاكم، وانظر صحيح النسائي ١/ ٢٧٩ وصحيح ابن ماجه ٢/ ٣٢٩ .

والرزاق والرازق اسمان من أسماء الله الحسنى، وهما مشتقان من مادة الرزق، والرزق هو كل ما ينتفع به.

والرزق رزقان: رزق الأجسام بالأطعمه ونحوها، ورزق الأرواح بالعلوم والمعارف وهو أشرف الرزقين لأن ثمرته باقيه وبه حياة الأبد، ورزق الأبدان إلى مدة قريبة الأمد.

وكذلك الرزاق من أسمائه — والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله — نوعان أيضاً ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان والـ — رزق المعد لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا — رزاقه والفضل للمنان
والثانى سوق القوت للأعضاء فى — تلك المجارى سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو — ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رزاقه بهذا الاعتبـ — ـار وليس بالإطلاق دون بيان

قال ابن القيم:

فرزق الله لعباده نوعان: عام وخاص

١ـ الرزق العام: هو ما يوصله لجميع المخلوقات مما تحتاجه في معاشها وقيامها، فسهل لها الأرزاق، ودبرها في أجسامها، وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والحيوانات كلها.

وعام أيضاً من وجه آخر في حق المكلفين، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة علي العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقاً ونعمه بهذا الاعتبار، ويقال «رزق الله» سواء ارتزق من حلال أم من حرام وهو مطلق رزق.

٢ـ الرزق الخاص: وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخره، وهو الذي على يد الرسول ﷺ ، وهو أيضاً قسمان:

(أ) رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له، متعبدة لله. وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها.

فالرزق الخاص هو ما خص به المؤمنون، ويشمل الأمرين السابقين. وينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى «اللهم ارزقني» أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفه والإيمان الثابت والعمل الصالح والخلق الحسن، وما يصلح به بدني من الرزق الحلال الهني الذي لا صعوبة فيه، ولا تبعه تعتريه[١].

قال الشاعر:

يا خالق الرزق للعباد وللو	**حش وللطير أنت رزاق**
فكل شيء إليك متجه	**وكل قلب إليك مشتاق**
وأعظم الرزق نور معرفة	**له وراء الضلوع إشراق**

وقد ورد اسم «الرزاق» مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة الذاريات. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[٢].

أما «الرازق» فقد ورد في حديث رسول الله ﷺ: **«إن الله هو المسعِّر، والقابض، الباسط، الرازق...»**[١].

(١) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص(٨٥-٨٦).

(٢) سورة الذاريات آية ٥٨.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد، وهو حديث صحيح الإسناد انظر صحيح الترمذي ٢/ ٣٢ وصحيح ابن ماجه ٢/ ١٥.

وورد خير الرازقين خمس مرات في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[١].

والمقيت اسم من أسماء الله الحسنى، وقيل في معناه: إنه هو الحفيظ، وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) المقيت: المقتدر، وقيل هو الذي يعطي أقوات الخلائق، فهو الذي خلق الخلق وساق إليهم الأقوات، وأوصل إليهم الضرورات والكماليات.

واشتقاقه من القوت، والقوت ما يمسك الرمق، وجمعه أقوات.

قال تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[٢].

وقاته يقيته قوتاً أطعمه قوته، وأقاته يقيته جعل له ما يقوته وفي الحديث الشريف «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت**»[٣]، وقيل: من يقيت. قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾[٤]. ، وقيل: مقتدراً، وقيل: حافظاً، وقيل: شاهداً، وحقيقته قائماً عليه يحفظه ويقيته[٥].

ويبدو أن هناك فرقاً بين اسم المقيت واسم الرزاق، فالمقيت أخص من الرزاق؛ لأنه يختص بالقوت أما الرزاق فيتناول القوت وغير القوت.

فالمقيت (سبحانه) يقدر حاجة الخلائق بعلمه، ثم يسوقها إليهم بقدرته، ليقيتهم بها ويحفظهم.

---

(١) سورة المائدة آية ١١٤.

(٢) سورة فصلت آية ١٠.

(٣) رواه مسلم وغيره.

(٤) سورة النساء آية ٨٥.

(٥) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٤.

ويلاحظ أن هناك ـ أيضاً ـ فروقاً بين أسماء الوهاب والمنان والرزاق.

فعلي الرغم من أن الهبه والمن والرزق عطاء من قبل الوهاب الرزاق • سبحانه)إلا أن الهبة أكثر ما تأتى في النص القرآنى تأتى في إعطاء الولد وهبته من قبل الله (عزّ وجلّ) للناس، فالوهاب سبحانه وتعالى وهب لإبراهيم (عليه السلام) إسماعيل واسحق ويعقوب (عليهم السلام)، ووهب لداود سليمان (عليهما السلام) ووهب لزكريا يحيى(عليهما السلام) ووهب لمريم عيسى(عليه السلام)، ويهب لكل الناس الإناث والذكور ويجعل من يشاء عقيماً.

قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾(١).

وقال تعالى علي لسان إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾(٢).

وقال تعالى عن زكريا: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٤).

قال تعالى﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾(٦).

ومن دعاء المؤمنين في القرآن الكريم: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾(٧).

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٤
(٢) سورة إبراهيم آية ٣٩.
(٣) سورة الأنبياء آية ٩٠.
(٤) سورة ص آية ٣٠.
(٥) سورة مريم آية ١٩.
(٦) سورة الشورى آية ٤٩.
(٧) سورة الفرقان آية ٧٤.

أما المنُّ فأكثر ما يأتي في القرآن الكريم في بعث الرسل والهداية والإيمان والتمكين في الأرض، والانقاذ من العذاب:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾(١).

﴿أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾(٢).

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(٣).

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾(٤).

﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾(٥).

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾(٦).

أما الرزق فيأتي كثيراً في الأموال والطعام والشراب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾(٨).

وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾(٩).

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٤.
(٢) سورة الأنعام آية ٥٣.
(٣) سورة الحجرات آية ١٧.
(٤) سورة يوسف آية ٩٠.
(٥) سورة القصص آية ٨٢
(٦) سورة الطور آية ٢٧.
(٧) سورة القرة آية ٣.
(٨) سورة الحج آية ٣٤.
(٩) سورة البقرة آية ٦٠

وقال تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾(١).

وأهل الجنة يرزقون فيها بغير حساب:

قال تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٢).

والله تعالى أعلم.

وآثار هذه الأسماء في الكون والحياة لا تعد ولا تحصى، بل لولاها ما كانت الحياة. فبقاء نوع الإنسان أثر من آثار الوهاب (سبحانه) وتعالى فهو الذي يهب الأولاد ولا واهب سواه، وإرسال الرسل وهداية البشر منّ وعطاء من قبل المنان(سبحانه وتعالى)، وحياة الإنسان وسائر الكائنات في هذا الوجود أثر من آثار الرزاق سبحانه وتعالى فهو الذي يمد هذه الكائنات بأرزاقها ليحفظ حياتها.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾(٣).

ونعيش الآن لحظات مع هبة من هبات الوهاب (سبحانه وتعالى) وهي هبة الولد لندرك من خلالها أنه لا واهب حقاً إلا الله (سبحانه وتعالى)، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا علي أن يخلقوا ولداً ويهبوه ما استطاعوا، فسبحان من يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور!

إن هذا الولد الذي يفرح به والده، ويؤثرانه على كل ما عداه من متاع الدنيا وزينتها.. من الذي أبدعه وصوره جنيناً، وغذاه ونماه صغيراً وحفظه ورعاه كبيراً؟!

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٦.

(٢) سورة غافر آية ٤٠.

(٣) سورة هود آية ٦.

تعالىٰ أيها الوالد لتري كيف أعد لك الوهاب هذه الهبه إن خلقه ليكون هبه لوالديه ليس عملاً ميسوراً، بل هو عملية معقده، وإن كانت يسيره أمام طلاقة القدرة الإلهية.

لقد تشكل قالبه من اجتماع خليتين ضعيفتين هما الحيوان المنوىٰ والبويضة كما أسلفنا من قبل ـ لقد جاء الحيوان المنوىٰ من دفعة منىٰ كانت تحوىٰ ما يقرب من (٥٠٠) مليون حيوان منوىٰ، ومن هذا الشعب المنوىٰ أو إن شئت فقل القوات المنوية الزاحفه بدأ السباق! ولكن إلىٰ أين؟ إلىٰ الالتحام بالبويضه التي تنطلق من مصنع خاص هو المبيض الذي يحوىٰ(٣٠٠) ألف بويضه(تقريباً)، ويبدأ زحف الحيوانات المنوية في صورة هجوم كاسح أشبه بمهاجمة قلعة حصينة، فيسقط العديد من الحيوانات المنوية صرعىٰ تذويب وإضعاف الغلاف الخارجىٰ، ويكون نصيب نطفة واحدة هو الدخول بعد أن مهد لها الطريق بتضحيات نطف كثيرة.

والسؤال المثير هنا: كيف يقبل جسم المرأة جسماً أجنبياً عنه ولا يقاومه؟ مع أن جسم الإنسان له خاصية معروفه وهي رفض الجسم الأجنبىٰ أيا كان؟

فهو لا يقبل أىٰ شىٰء من المحيط الخارجىٰ إلا بعد أن يحوله إلىٰ مستقلبات تشبه بناء الجسم وترفده بالغذاء والقوة، حتىٰ الطعام الذي يتناوله الإنسان لو حقن داخل الوريد لكان معناه قتل الإنسان فوراً، ولذا فإن دخول الطعام عبر الجهاز الهضمىٰ يعنىٰ الآلاف من عمليات التحويل حتىٰ يصل إلىٰ الشكل الذي يرضىٰ عنه الجسم وعند ذلك يسمح له بالدخول. وهذه الخاصية هي التي دفعت العلماء لخفض مقاومة الجسم وترويضه ليقبل الجسم الغريب كما هو الحال في عمليات زرع الأعضاء مثل القلب والكلية والرئه. فهلا انطبقت هذه القاعده

علي الحيوان المنوىٰ لأنه جسم غريب؟!

ألست معي أيها القارئ إن هذا الأمر يثير الدهشة؟

والذي يجعل الإنسان يهتف بلسانه وقلبه : سبحان الخالق الوهاب أن الطب يجيبنا عن هذا السؤال إجابه مدهشة فيقول : إن النقيض هو الذي يحدث! فنقول كيف ذلك؟!

فيقول : إنَّ القدرة الإلهية تمهد لهذا اللقاء التاريخىٰ الحاسم، فتجعل جسم الأنثي يستعد كلياً وتتبدل أخلاطه ويتغير مزاجه ليستقبل هذا الجسم الغريب في حفاوة وترحاب فيفرش له الورود، ويعد له سلماً للصعود، ويصنع له زرابىٰ مبثوثه لراحته، ونمارق مصفوفه لاتكائه!

فالطرق التناسليه عند المرأة تتغير بما يوافق حياة الحيوان المنوي وأعجب ما فيها تشكل سلم خصوصىٰ للحيوان المنوىٰ حتي يتسلقه!!

وهذا المفرز الاحيني اللصوق (الصادر) من عنق الرحم حيث ينسدل إلىٰ أعلىٰ المهبل، وهذا في يوم الإباضة، ويبقىٰ لمدة ٢٤ ساعة فقط، وهكذا يعدل حموضة المهبل القاتلة للنطف عاده، كما تهيئ البيئة الصالحة لحياة النطفة وهي البيئة القلوية في المسالك التناسلية العلوية. حيث يصبح الحيوان المنوىٰ قادراً علىٰ الإلقاح، لأنه وجد أن قدرة الحيوان المنوىٰ علي اللقاح لا تتم إلا بعد استقراره ولو لمدة ساعات قليلة في المسالك التناسليه عند المرأة، وكأنه بهذا الاستقرار يغير من طاقته بحيث يصبح أكثر نشاطاً وحيوية، بالإضافة إلىٰ الحبل الذي يصعد عليه حتي يصل إلىٰ الرحم حيث الأمان والاطمئنان علي حياته ثم ليتابع رحلته حيث يحصل اللقاء الحاسم في تخلق الإنسان في محطة البوق، وعند منطقة محدده وهي الثلث الوحشىٰ النهائي من البوق.

وماذا لو لم يحدث هذا اللقاء؟

إن الرحم يبكى دماً لا دمعاً إذا لم يحدث هذا اللقاء، ويكون ذلك في صورة الدم الطمثى الذي هو تعبير عن عدم حدوث اللقاء.

فقل لى بربك أيها القارىء الكريم هل تستطيع البشريه بما أوتيت من علم وتقدم أن تخلق هاتين الخليتين(الحيوان المنوي والبويضه) ثم تجمع بينهما في عرس ولقاء كهذا؟!

فسبحان الذي قدّر فهدى!

وبعد أن يحدث هذا اللقاء بين البويضة والحيوان المنوى تبدأ مراحل متسلسله ولكنها واحده، ففى المرحلة الأولى يبدأ انقسام رهيب سريع يصل إلى خمسين انقساماً أو يزيد في الخلية الأولى، ريثما تصل إلى الرحم لتعشش فيه. ثم تبدأ بعدها المرحلة الثانية وهي عملية التخصص، فتتخصص الخلايا وتتشكل الأعضاء، هكذا يتخلق الإنسان وتتشكل أعضاؤه وأجهزته في ورشة عمل من أدق ما تكون، فهذه المجموعه تخلق العين، وتلك الأحشاء، وثالثه للأطراف.. ثم نرى رعايه القدرة الإلهيه تجمع الخلايا مع بعضها لتكوين الأنسجة، وتجمع لأجهزة لتكوين الأعضاء، وتجمع الأعضاء لتكوين الأجهزة، وتجمع الأجهزة لتكوين الإنسان السوى، وأى خلل بسيط في العمل معناه تشوه مرعب، ولنتصور لو أن طائفة من الخلايا أخطأت فوضعت الفم في موضع الشرج!! أو العينين في الصدر أو الدماغ في البطن!

ثم تأتى المرحلة الثالثة، وهى زيادة الوزن وإعطاء الرونق الأخير لإنسان حتي يخرج للحياة في أجمل صوره ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم** ﴾.

فيصل وزنه إلى(٣٢٥٠) غراج تقريباً بعد أن كان وزنه ١/ مليار من

الغرام، أى أنه يزداد ما بين مرحلة النطفه إلى مرحلة التخلق الإنسانى الأخير (٣٠٠٠) مليار مرة.

ثم يصدر القرار الإلهى بنزول هذه الهبة الربانية إلى الحياه، فينطلق هرمون مستعجل من الغده النخامية إلى الرحم الذي يحوى الجنين يخبر الرحم بأن هذا الولد أصبح صالحاً للحياة مع الناس، وهكذا تبدأ التقلصات الخفيفه في البدء ثم تشتد متقاربة، وتبدأ الأم تشعر بالآم المخاض، والجنين لا يقف مكتوف الأيدى، وإنما يلقى برأسه على المخرج، ويدفع ويدفع بكل ما وهبه الخالق من قوة ونشاط حتى يخرج رأسه، ثم كتفه الأيمن لأن الله جلّت قدرته يحب التيامن، ثم كتفه الأيسر، ثم يدق برأسه أول باب من الدنيا وما إن يخلص من أمه حتى يملأ البيت بكاءٌ إنه بدأ يشعر بثقل الحياة الدنيا ومشاقها!

ينزل حياة جديدة، ويبدأ في تكوين مشاعره وبناء نفسه، ومعرفته فيستخدم أجهزته التي منحتها له القدرة الإلهية وهو جنين. وتسير حياته كالنهر فهو هو لم يتغير، وهو هو في كل لحظة . . عملية الهدم والبناء مستمرة في أعضائه، فتموت مليارات الخلايا، وتتجدد مليارات غيرها، كلّ شئ في جسده يتجدد ويتغير إلا منطقه واحده في الجسم هي الجهاز العصبى، والمركزى، لأن موتها وتجددها معناه فقدان الذاكره، والتعلم من جديد مع كل تجديد للخلايا، وهذه رحمة من الله عزّوجلّ بالإنسان(١).

أرأيت أيها القارئ الكريم كم من نعمة عليك في هبه الولد لك من قبل الوهاب (سبحانه وتعالى)!

ألا تساوى هذه الهبه العظيمه حمد الوهاب وشكره؟!

---

(١) خالص جلبى، مرجع سابق، ص ٥٠ : ٦٤ (بتصرف)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(١) .

وهب ـ لي ـ على الكبر ـ إسماعيل وإسحاق ـ حقاً إنه سميع الدعاء وهو وحده المستحق للحمد والثناء .

أما إذا أردت أيها القارئ أن تعرف أثراً من آثار المنان (سبحانه وتعالى) فاستمع إلى قصص من يدخلون في دين الله أفواجاً كل يوم بل كل ساعة، ينتقلون من الظلام إلى النور، ومن الشقاء إلى السعاده، ومن التيه والضياع إلى الهدى واليقين. فمن الذي يهديهم ويشرح صدورهم للإسلام .

﴿اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(٢) .

إن هذا مما يثير غيظ الكافرين، فيشيرون إلى هؤلاء المهتدين : ﴿أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنا﴾(٣) .

ولندع خالد بن الوليد (رضي الله عنه) يقص علينا كيف منّ الله عليه بالإسلام بعد أن كان من أشد المناوئين لله ورسوله، قال خالد : «لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي حبّ الإسلام، وحضرني رشدي وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها علي محمد، فليس موطن أشهده إلا انصرفت وأنا في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، ودافعته قريش بالراح يوم الحديبية فقلت أين المذهب؟

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٩ .
(٢) سورة الحجرات آية ١٧ .
(٣) سورة الأنعام آية ٥٣ .

وقلت أخرج إلى هرقل، ثم قلت : أخرج من ديني إلى نصرانية أو يهوديه فأقيم مع عجم تابعاً لها مع عيب ذلك علي ودخل رسول الله ﷺ مكه عام القضيه فتغيبت فكتب إليَّ أخي : «لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك ومثل الإسلام يجهله أحد؟!! وقد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال : أين خالد؟! فقلت : يأتي الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام؟!! فاستدرك يا أخي ما فاتك»

فلما أتاني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام، وسرتني مقاله النبي ﷺ فأرى في المنام كأني في بلاد ضيقه جدبه فخرجت إلى بلد أخضر واسع فقلت : إنّ هذه الرؤيا . . فأجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ، وطلبت من أصاحب فلقيت عثمان بن طلحة فذكرت له الذي أريد فأسرع الإجابة وخرجنا جميعاً فأدلجنا سحراً، فلما كنا بالهده إذا عمرو بن العاص فقال : مرحباً بالقوم . فقلنا : وبك . فقال : أين مسيركم؟ فأخبرناه وأخبرنا أنه يريد النبي ﷺ فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ أول يوم من صفر سنة ثمان، فسلمت على رسول الله ﷺ، بالنبوه فرّد على السلام بوجه طلق فأسلمت . . وبايعت رسول الله ﷺ . . فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يحزبه[1] .

وفي كل يوم بل في كل ساعه يمن الله عز وجل على من يشاء من عباده فيهديه للدين الحق . وقد أجرى بحث ميداني عن من يدخلون الإسلام حديثاً في منطقة الرياض، قام به طلاب كليه العلوم

---

(١) أبو الفرج الجوزي، صفه الصفوه، ح١ ص(٦٥١-٦٥٢).

الإجتماعيه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تبين منه أن عدد المسلمين حديثاً بمنطقة الرياض في الفترة من ١٤٠٦ إلىٰ ١٤١٠هـ قد بلغ حسب إحصاءات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد (٢٦٤٥) مسلماً حديثاً من حوالي ٣٩ دولة. وأشار البحث إلىٰ أن ما يقرب من نصفهم (٤٦٪) دخلوا الإسلام منذ أقل من سنه من تاريخ إجراء البحث عام ١٤١٠هـ[١].

وفي الفلبين أشارت التقارير إلىٰ تدفق المئات يومياً للدخول في الإسلام، وآخر دفعة (دخلت الإسلام) تألفت من (٨٤٧) فرداً من القبائل اللادينية في محافظة أجوسان، وأن اثنىٰ عشر زعيماً من هذه القبائل حضروا إلىٰ قاعدة أبي بكر الصديق، وهي مركز القيادة العامة لجبهة مورو لطلب الدخول في الدين الإسلامي.

ودخل في الإسلام سبعة آلاف شخص في الكويت عن طريق جمعية التعريف بالإسلام الكويتية[٢].

وفي أعالي الحبشه يواصل القساوسة ومعلمو اللاهوت في العاصمة الأثيوبية أديس أبابا إشهار إسلامهم وسط موجة من الذعر تسود الكنيسة الأثيوبية فللمرة الأولىٰ وفي أقل من شهرين تقدم اثنان من شباب القساوسة إلىٰ مكتب رابطه العالم الإسلامي في أديس أبابا ليعلنا عن إسلامهما عن قناعة تامة.

وفي أول رد فعل للكنيسة الأثيوبية قامت بتوزيع منشور سري بين أعضائها أشارت فيه إلىٰ أن سكان العاصمة يبلغون ٥, ٢ مليون نسمه

(١) جريدة المسلمون عدد ـ ٢٨٢ ـ ١٢ ذي الحجة ١٤١٠هـ.

(٢) جريدة الأمه الإسلامية عدد ـ ٥٢ ـ ١٥ شوال ١٤١٢هـ.

وأنه ٧,٦٪ منهم هم الذين يحضرون (صلوات الأحد) وتساءلت بانزعاج أين الـ٩٣٪ الآخرون؟!(١).

ففي كل يوم يمن المنان على من يشاء من عباده فيشرح صدره للإسلام.

وآثار الرزاق لا تعد ولا تحصى على كل الخلائق فلولاها ما دامت لهم حياة، وهل تحيا الكائنات بدون أقوات وأرزاق؟

والآن أيها القاريء أمامك بعض الثمار اليانعه التي أعددتها لالتهامها (رطب ـ برتقال ـ عنب ـ الخ) فتعالى معي لنقوم برحلة نرى فيها كيف أبدعت القدرة الإلهية لنا هذه الثمار، وكم من الجنود والعمال قد سخروا لتجهيز هذه الأرزاق.

كيف تنبت هذه الأشجار؟ وكيف تحمل الثمار؟ ومتى يقطفها الإنسان؟ وكيف تتحول في جسده إلى غذاء لمليارات الخلايا؟

أول جندي نلتقي به في رحلتنا هو المطر الذي ينزل من السماء، ونسأل المطر كيف تتكون؟ فيجيبنا إنه بخار من المحيطات والبحار تبخر بفعل الطاقة الشمسية، واستهلك في هذه العملية حوالي ثلث الطاقة الشمسية الواصله إلى الأرض، ولولا إتساع رقعة الماء فوق الأرض ما تبخرت بكمية تكفي الكائنات على وجه الأرض، ثم تحملني الرياح وتصعد بي إلى طبقات الجو العليا، فإذا التقيت بأجسام باردة كجبل مرتفع أو رياح باردة في الطبقات العليا تركت حرارتي ورجعت مائعاً على شكل قطرات صغيرة جداً، حجم كل قطرة جزء من ألف من المليمتر تقريباً. وبسبب حجمي الصغير لا أستطيع السقوط على سطح

---

(١) جريدة الأمة الإسلامية عدد ـ ٩٦٢٥ ـ ١٠ جمادي الآخرة ١٤١٣هـ.

الأرض وهذا هو التلقيح الأول بالنسبه لي، ومتى تسقط على سطح الأرض؟ انتظر قليلاً . . . تأتيني الرياح بعد ذلك بأتربة وأملاح ودخان وهباءات وغيرها، فاتكثف على هذه الشوائب، ويزداد حجمي فيتألف من قطراتي المتناهيه في الصغر قطرات أكبر تسمى المطر . . .

وهذا هو التلقيح الثاني. وتكون هذه القطرات مشحونة كهربائياً إما سالبة وإما موجبة. ثم تحملني الرياح في شكل سحاب إلى أن التقي إما بسحاب آخر أو جبل، أو أي مرتفع ذي كهرباء مضادة، فتتصل الكهرباء السالبه بالكهرباء الموجبة، فيكون تلقيح من نوع آخر، وهو التلقيح الثالث، وينشأ عنه البرق ثم الرعد - فأصبح محايداً لا كهرباء فيّ، فتتضخم قطراتي بسرعة، وتسقط على الأرض في شكل مطر، وإذا كانت البرودة شديدة في شكل ثلج. فسبحان خالقي وخالقكم القائل: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾(١).

أرأيت أيها القاريء الكريم أن الماء منذ تبخره حتى يتكثف ويعود مطراً يحتاج إلى تلقيح ثلاث مرات، والرياح هي التي تحمله وتنقله ليمرَّ بهذه الأطوار، وبدون هذه العملية تصبح الحياة على سطح الأرض مستحيله، وهذه العمليه متواصله منذ ملايين السنين. وسماها الرزاق رزقاً.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٢).

نسيت أن أقول لك إنّ هناك شيئاً ضرورياً لنزول المطر وهو أنّ

---

(١) سورة الحجر آية: ٢٢.   (٢) سورة الجاثيه آية: ٥.

جاذبية الأرض له أقوىٰ من سرعة انطلاق جزيئياته، ولو زادت سرعة انطلاق جزيئياته عن فعل الجاذبية الأرضية لذهب الماء، ولهرب من الأرض إلىٰ الكون الفسيح.

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾(١).

وماذا بعد أن ينزل المطر علىٰ الأرض؟

عندما ينزل المطر من السماء علىٰ الأرض يُدفع في مسامها الضيقه في التربه الطينية، والواسعه في التربه الرملية. فيدفع الهواء أمامه من هذه المسام ليحل محله فتتمدد التربة بالماء ويزيد حجمها لأن جزيئات الطين تتحرك بقوة دفع الماء لها.

قال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾(٢).

وعندما يدخل الماء في الأرض يهبط إلىٰ عمق تكون فيه التربة مشبعة باستمرار (مستوىٰ أو منسوب الماء الأرضى)، وهو يكون بعيداً عن متناول جذر كثير من النبات، وإذا ما استجاب جميع الماء لشد الجاذبيه فسرعان ما يختفي الماء كله، وتموت النباتات. . .

فكيف يتم إنقاذ هذا الموقف؟

جعل الرزاق (سبحانه) الجاذبية الشعرية منقذةً لهذا الموقف، وذلك بأن جعل كل طبقة رقيقه من الماء تعلق بكل حبة من حبيبات التربة تبتل بالماء، وكذلك يعلق الماء بين الحبيبات فتتمكن الجذور من الحصول عليه.

---

(١) سورة المؤمنون آية: ١٨ . (٢) سورة الحج آية: ٥ .

وقد تسحب الخاصية الشعرية الماء من مستوى الماء الأرضي فيرتفع داخل الفتحات الدقيقة الموجودة بين حبيبات التربة بنفس الطريقة التي يرتفع بها في أنبوبة رقيقة كالشعر.

لاحظ أن الرزاق (سبحانه) حفظ الماء حتى الآن مرتين مرة من الانفلات في الكون الفسيح خارج جاذبية الأرض، وأخرى من التسرب في باطن الأرض..

وماذا عن النبات وثماره؟

نبدأ أولاً بالحديث عن الحب والنوى من أين جاءت هذه البذور؟

لقد خلقها الرزاق (سبحانه وتعالى) وأودع فيها سر حياة كل نبتة، وجعل في كل حبة وفي كل نواة غذاءً مدخراً تعتمد عليه النبتة حتى يستطيل عودها وتضرب في الأرض بجذورها فتأخذ غذاءها. ويشبه هذا النطفة الأولى التي يخلق منها الإنسان، فهذه النطفة قبل أن تعلق برحم الأم تتغذى من خلية البويضه التي جعلها الله (عزّ وجلّ) أكبر خلية حية في الإنسان.

توضع الحبة في الأرض، ويصب عليها الماء، فتنفلق الحبة ويتجه الجذر إلى أسفل، وينمو الساق إلى أعلى أي أن الجذر يتجه عكس الساق.

يقول العلماء إن الجذر يتجه إلى أسفل بفعل الجاذبية الأرضية، والساق إلى أعلى نحو الشمس.

بيد أن علماء الفضاء تمكنوا في رحلات الفضاء من إنبات بعض البذور في مناطق إنعدام الوزن (خارج الجاذبيه) فوجدوا أن الجذر والساق يمتد كلاهما على نقيض صاحبه!

فسبحان الذي قدر فهدى.

وتسعى الجذور وتجد في باطن الأرض متفادية العوائق والصخور فإن لم تستطع أن تتفاداها أزاحتها عن طريقها، وإلا صبت عليها أحماضاً لتذيبها!

وعلى الجذور شعيرات جذرية كثيرة العدد فارعة الطول، تتشابك وتتغلغل في التربة، وتنتشر طولاً وعرضاً وعمقاً، وهذه الشعيرات والجذور تمتص المعادن والماء من الأرض.

والآن قل لنا كيف يصنع النبات الغذاء؟

في الخلية النباتيه مادة خضراء تسمى (الكلوروفيل) أو ما يطلق عليه اسم اليخضور. وهو يوجد في أجسام صغيره داخل الخليه تسمى البلاستيدات الخضراء، ويقوم اليخضور بعملية التمثيل الضوئي التي يتم فيها فصل الكربون عن الأُوكسجين فيلفظ الثاني ليتنفسه الإنسان والحيوان، ويحتفظ بالأول ليصنع منه الغذاء وقد توصل العلماء إلى أن «الخلية الخضراء الواحدة تقوم ببناء عشرين مركباً عضوياً في دقيقة واحدة إذ عُرّضت للشمس، وتلك المركبات مختلفة الأنواع منها السكريه، والأحماض الأمينية التي عجز العلم الحديث عن تحضيرها صناعياً بنفس الصفه أو الصوره».

فمن الذي يدفع تلك الخلايا للقيام بتلك المهمة الصعبه؟!

فهل هناك مصنعُ على ظهر الأرض يستطيعُ أن يصنع مثلما تصنع الخلية الخضراء؟!

أنه بدون هذه المادة الخضراء لا تقوم حياة على الأرض، فهذا اليخضور يحول التراب والهواء والأملاح إلى برتقال وتفاح وعنب وقمح وأرز وآلاف الأصناف والأنواع من المحاصيل والثمار! فما أعجبه من ساحر!

وقد شاء الرزاق (سبحانه) فكرمنا بأن جعلنا لا نأكل التراب والأزوت والأملاح، وإنما صمم لها مصنعاً في الورقه الخضراء في النبات ليحول لنا هذه المواد إلى طعام شهي وفاكهة نضيجة!

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ [1] حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وعندما تنضج الثمرة يتغير لونُها، وكأنها تقول للإنسان صرت طازجة فخذني لتأكلني!

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ «إن إنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء . . . وإنّ أقلّ «رزق» يُرَزقه الإنساني في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد»[3].

وهناك رزق آخر في النبات يجب على الإنسان أن ينتفع به إلا وهو الجمال، فالألوان المتناسقة في الزهور والثمار فيها إبداع وجمال، فتنسيق الألوان، وتداخل الخطوط، وتنظيم الأوراق يبدو معجزة باهرة.

ومن أروع ما في الكون من جمال خضرة النبات، فاللون الأخضر

---

(١) أي من الخضرأ واليخضور. (٢) سورة الأنعام آية ٩٩.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص٢١٠٧.

يجلب السرور إلى النفس، ويثير فيها البهجة، ويظهر جمال الحياة.

وقد جاء في الأثر: ثلاث يذهبن الحزن: الماء، والخضرة، والوجه الحسن.

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾(١).

أرأيت أيها القارئ معي كم من الجنود قد سخروا لك من أجل طعامك وشرابك؟

الرياح ـ المطر ـ الأملاح ـ الشمس ـ السحاب ـ الجبال ـ جاذبية الأرض ـ التربة ـ الجاذبية الشعرية ـ الحبّ والنوى ـ الجذور ـ اليخضور. . . .

كل هؤلاء الجنود وغيرهم مما لا يعلمهم إلا خالقهم، من الذي سخرهم ليعدوا لك رزقك؟

استمع إلى الرزاق: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا .مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾(٣).

فمن السماء أرزاق، ومن سطح الأرض أرزاق وفي جوفها أرزاق، ومن سطح الماء أرزاق وفي أعماقه أرزاق. ومن أشعة الشمس أرزاق

(١) سورة النمل آية: ٦٠. (٢) سورة عبس آية (٢٤ ـ ٣٠).
(٣) سورة ق آية (٩ ـ ١١).

ومن ضوء القمر أرزاق. حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق[١].

والآن كيف يوزّع الرزاقُ المقيت هذه الأرزاق داخل جسم الإنسان؟

عندما نتناول الطعام، يدخل تجويف الفم، فتقوم الأسنان بتقطيعه وتمزيقه وطحنه فيتفتت إلى أجزاء صغيرة بتأثير الفكين والأسنان واللسان ويمتزج باللعاب الذي يرطب، ويسهل انزلاق جزيئات الغذاء في القناة الهضمية. كما يساعد اللسان في عملية مزج الطعام باللعاب.

ثم يقوم اللسان بعدئذ بدفع البلعة الغذائية إلى مؤخرة التجويف الفمي أي إلى البلعوم الذي هو ملتقى لطريقي الهضم والتنفس، ثم يمر الغذاء إلى المريء ويمنع من دخوله القصبة الهوائية بواسطة جندي إلهي هو لسان المزمار... ففي دخوله الموت العاجل..

ومن المريء يمرّ الغذاءُ في المعدة التي توجد أسفل الحجاب الحاجز على يسار التجويف البطني من الجسم، وتبطن جدار المعدة عضلات قويه تنقبض بقوه فتمزِّق الغذاء بالعصارة المعدية. حيث يصبح الغذاء شبه سائل.

وهل يصبح جاهزاً ليمتصه الجسم عند هذا الحد؟

لا لأن هناك ماكينات في انتظار الطعام لأداء وظيفتها تجاهه!

ثم يمرّ الغذاء إلى الأمعاء الدقيقة وطولها ستة أمتار، وتصب في بدايتها إفرازات الكبد والبنكرياس، وفي هذه الماكينة (الأمعاء الدقيقة) يتم هضم المواد الغذائية نهائياً وتحويلها إلى جزئيات صغيرة يسهل على جدران الأمعاء الدقيقة امتصاصها ودفعها في الدم.

---

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ص ١٧٨١.

أما المواد الغذائية غير المهضومة فتمر إلى الأمعاء الغليظة، ويبلغ طولها حوالي ١٧٠ سم، حيث تطرد من فتحة الشرج على شكل براز.

والسؤال: كيف يتحرك الغذاء في القناة الهضمية؟ وكيف يتم تنظيم مروره من ماكينة إلى أخرى؟

يتحرك الغذاء في القناة الهضمية عن طريق انقباضات متتالية للعضلات الموجودة في جدار هذه القناة، ويطلق على هذه السلسلة المتتالية من الحركات اسم الحركه الدودية.

أما تنظيم مرور الغذاء من المريء إلى المعده ومن المعده إلى الأمعاء الدقيقه، فيتم بواسطة عضلات حلقية تعمل عمل الصمامات. عندما يفتح الصمام تتحرك جزيئات الغذاء من منطقة إلى أخرى. كما توجد عضلة حلقية أخرى عند فتحة الشرج تضبط مرور فضلات الغذاء إلى الخارج وقت الإراده.

كيف يتم توصيل الطعام من الأمعاء الدقيقة إلى خلايا الجسم؟

يبطن جدار الأمعاء الدقيقة من الداخل زوائد صغيره تدعى بالخملات وتمر الجزيئات الغذائية الصغيرة من خلال الخملات إلى الدم. ويوجد في الملمتر الواحد حوالي ٢٠ - ٤٠ خمله، والمساحة الإجمالية لجميع الخملات هي حوالي ٣٠٠م٢. وتحتوي كل خمله على شعيرات دموية وأوعية لمفاوية. فتمر السكاكر البسيطة، والأحماض الأمينية والجلسرين والأملاح المعدنية والفيتامينات في الشعيرات الدموية. وتقوم الأوعية اللمفاوية بطرح الأحماض الدهنية إلى مجرى الدم.

يحمل الدم نواتج هضم المواد الغذائية إلى الخلايا حاملاً معه الأكسجين الذي يتحد عند دخوله إلى الدم مع صبغة حمراء توجد في

كريات الدم الحمراء تعرف بالهيموجلوبين مكوناً بذلك مركباً جديداً يعلاف بأكسيهموجلبين . . . .

وينتقل الدم إلى خلايا وأنسجة الجسم حاملاً معه الغذاء والأكسجين، فيقوم الأكسجين بأكسدة المواد الغذائيه وإنتاج الطاقة . . . أو تتحد هذه المواد الغذائية مع بعضها مكونة المواد اللازمة للنمو ولتعويض الأنسجة التالفة . . .

فمن الذي صمم هذه الأجهزة المحكمة لتهضم وتوزع هذه الأرزاق؟

وكلّ خلية من هذه الخلايا مدينة قائمة بذاتها محاطة بأسوار عالية، وهي تطلب ما تحتاجه ويقوم غشاؤها بمهمة الحارس الأمين، فهو يتلقى الأوامر باحتياجات الخليه، ومن ثمّ لا يسمح بدخول أي مواد غير التي تحتاجها.

وإذا كان جسم الإنسان يتكون من مليارات الخلايا، وكلّ خلية مدينة كاملة بمرافقها من ماء وكهرباء وصحة وغذاء وإداره وحراسه فمعنى هنا أن اللقيمات الي يأكلها الإنسان هي غذاء وقوت لمليارات المدن بداخله.

فمن الذي يوصل هذه الأقوات إلى هذه المليارات؟! إن الإنسان عندما يقذف اللقمه في جوفه لا يدري ما يحدث لها إنه ينام ملء جفونه، وقد يعمل، وقد يركض ويلعب، ولا شأن له بما أكله. فمن الذي يتولى شأن هذا الطعام في جوف الإنسان حتى يوصله إلى طالبيه ومستحقيه؟!

والإنسان ليس وحده الذي يأكل ويشرب ويقتات في هذا الكون. . . فهناك ملايين الملايين من الأحياء إبتداء من ذوي الخلية

الواحدة في النبات والحيوان وانتهاء بالإنسان ـ في برها وبحرها وجوها ـ وكل هذه المخلوقات منكبه كل يوم بل كل ساعة بل كل دقيقه على هذه المائدة الأرضية التي أعدّها الرزاق المقيت وعمرّها بأنواع الطعام الذي لا ينفد ولا ينضب فيتناول كل مخلوق ما يقيته، ويأكل منها رزقه الذي يناسبه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

وقد أورد ابن خلكان في وفيات الأعيان أن ابن بابشاذ النحوي كان يوماً في سطح جامع مصر وهو يأكل شيئاً وعنده ناس، فحضرهم قط فرموا له لقمه فأخذها في فمه وغاب عنهم، ثم عاد إليهم، فرموا له شيئاً آخر، ففعل كذلك، وترددمراراً. . . وهم يرمون له وهو يأخذ ويغيب به ثم يعود من فوره. . . حتى عجبوا منه. . . فلما استرابوا في الأمر تبعوه، فوجدوه يرقى إلى حائط في سطح الجامع ثم ينزل إلى موضع خال في بيت خرب وفيه قط آخر أعمى، وكل ما يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القط ويضعه بين يديه وهو يأكل(٢).

فسبحان الرازق الرّزاق!

فنعم الوهاب الرّزاق لا تعد ولا تحصى، فكم من سائل رفع يديه فأعطاه ما سأل، وأحسن إليه وأكرمه.

فإبراهيم (عليه السلام) سأل ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٣). وسأله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة هود آية: ٦.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٥١٦.

(٣) سورة الشعراء آية: ٨٣. (٤) سورة الصافات آية: ١٠٠.

فوهب له الوهاب ما سأل فقد آتاه العلم والنبوة، وألحقة بالصالحين. قال تعالى: ﴿وإنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

ووهب له من الصالحين قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿ ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾(٣). ودعا زكريا (عليه السلام) ربه قائلاً: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(٤).

فاستجاب الله له ووهبه يحيىٰ (عليه السلام) قال تعالىٰ: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾(٥).

ودعا سليمان (عليه السلام) ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(٦).

فإستجاب الله له ووهبه ما سأل: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾(٧).

ونجد في سورة الأنبياء الصفات التي يستحق بها الإنسان استجابة دعائه في الحال. وجاءت هذه الصفات تعقيباً علىٰ إجابة دعاء زكريا (عليه السلام).

قال تعالىٰ: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(٨).

* إنهم كانوا يسارعون في الخيرات فهم لا يفعلون الخيرات فقط،

---

(١) سورة النحل آية: ١٢٢. (٢) سورة الصافات آية: ١٠١.
(٣) سورة الأنبياء آية: ٧٢. (٤) سورة آل عمران آية: ٣٨.
(٥) سورة الأنبياء آية: ٩٠. (٦) سورة ص آية: ٣٥.
(٧) سورة ص آية (٣٦-٤٠). (٨) سورة الأنبياء آية: ٩٠.

وإنما يسارعون فيها. فسارع الله في استجابة دعائهم.

* ويدعوننا رغبا ورهباً أي رغبة في رحمتنا ورهبة من عذابنا، فهم يجمعون في دعائهم بين الرجاء والخوف.

* وكانوا لنا خاشعين، أي خاضعين غير متكبرين، والخشوع هو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل.

وبهذه الصفات استحقوا إجابة دعائهم، وإعطائهم ما طلبوا: فمن أراد أن يكرمه الله مثلهم فليتحلَّ بمثل صفاتهم.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حكيم قال خطبنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ثم قال أما بعد فإني أوصيكم بتقوىٰ الله وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإنَّ الله عزَّ وجلّ أثنىٰ علىٰ زكريا وأهل بيته فقال: «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين»(١).

وإذا كان الوهاب الرّزاق (سبحانه وتعالىٰ)، قد بيّن لنا هذه الصفات لنتعلق به ونnال هبة الوهاب، فإنه سبحانه قد بين لنا أيضاً أسباب نيل الأرزاق، ومن هذه الأسباب:

١ ـ السعي والكد في الأرض.

قال تعالىٰ: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾(٣).

وليس هناك أفضل ولا أشرف من أنبياء الله (عزّ وجلّ)، وكانت لكل منهم حرفة وسعي وكدّ في الأرض لنيل الرزق.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص١٩٤.

(٢) سورة الملك آية: ١٥. (٣) سورة الجمعه آية: ١٠.

ويذكر محمد الوصابي أنه «كان لكل واحد من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) حرفة يعيش بها فكان آدم حراثاً وحائكاً، وكانت حواءِ غزالة، وكان إدريس خياطاً وخطاطاً، وكان نوح وزكريا نجارين، وهود وصالح تاجرين، وكان إبراهيم زرّاعاً وبنّاءً ونجاراً، وكان داود حداداً، وكان سليمان خوّاصاً، وكان موسىٰ وشعيب ومحمد (ﷺ) وسائر الأنبياء عليهم السلام رعاة»(١).

وقد حثّ رسول الله (ﷺ) علىٰ العمل والسعي في الأرض فقال: «لأن يأخذ أحدكم أحبلة ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب علىٰ ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه»(٢).

وقال (ﷺ) «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان به صدقه»(٣).

والسعي والكد والتماس الأسباب في طلب الرزق لا ينافي التوكل؛ لأن التوكل سبب من الأسباب، بل هو من أقوىٰ الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذىٰ جعله الله سبباً في حصول المدعو به.

والتوكل عمل قلبي، أساسه تعلق القلب بالله عز وجل، واعتماده عليه، وثقته به وسكونه إليه. وهو لا يصح إلا مع القيام بالأسباب التي هو واحد منها. وكما قيل: القلب يتوكل والجوارح تعمل.

وهذا سيد المتوكلين محمد (ﷺ) لم يترك شيئاً من الأسباب: فقد

---

(١) محمد الوصابي، البركة في فضل السعي والحركة، ص٦.

(٢) رواه البخاري (٣/ ٢٦٥) ومسلم والنسائي.

(٣) رواه البخاري (٥/ ٢) ومسلم (١٥٥٢).

استأجر دليلاً مشركاً يدله على طريق الهجرة، وكان يدّخر لأهله قوت سنه، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد، وهكذا أكان أصحابه، وهم أكمل المتوكلين بعده(١).

وبذلك تنقطع حجة الكسالى والمتواكلين.

٢ ـ الاستغفار والتوبة:

قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾(٢).

وقال تعالى على لسان هود (عليه السلام): ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾(٣).

وقد جاء في الأثر: أن رجلاً شكا إلى الحسن البصري الجدب فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه ثالث: جفاف بستانه فقال له: استغفر الله، وشكا إليه رابع: عدم الولد، فقال له: استغفر الله. ثم تلا الآية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . . . ﴾(٤).

والمعاصي تحجب النعم، وتضيق الأرزاق، وتوجب لعنه دواب الأرض وهوامها:

قال أبو هريرة (رضي الله عنه): «إن الحباري لتموت في وكرها من ظلم ظالم وقال مجاهد: إنّ البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدات السنة، وأمسك المطر، وتقول هذا بشؤم معصية بني آدم».

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٢، ص١٣٥.
(٢) سورة نوح آية (١٠ ـ ١٢).
(٣) سورة هود آية: ٥٢.
(٤) سورة نوح آية: ١٠.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولن «منعنا القطر بذنوب بني آدم»(١).

وقال أنس بن مالك: «إن الضب في جحرة يموت هزلاً بذنب ابن آدم»(٢).

٣ - شكر الرزاق:

وشكر الرزاق سبحانه مبني على خمس قواعد: الخضوع له، وحبه، واعترافه بنعمته، وثنائه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فيبدأ الشكر بالخضوع للرزاق (سبحانه) ومحبته لتوالي أياديه ونعمه وعطاياه. ثم الاعتراف بالنعمة والثناء على المنعم، والثناء على المنعم نوعان: عام، وخاص. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك. والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٣).

فالتحدث بنعمة الله (عزّ وجلّ) شكر. وفي الأثر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر، والجماعة رحمة. والفرقة عذاب».

وبعد الاعتراف بالنعمه والثناء على المنعم يأتي استعمال النعمة في طاعة المنعم لا في معاصيه. فيستعين بالنعمة على طاعة المنعم ومرضاته، وهذا من تمام حقيقة الشكر، وقد كتبت عائشة (رضي الله عنها) إلى معاوية (رضي الله عنه): «إنّ أقلَ ما يجب للمنعم على من

---

(١) ابن القيم الجوزيه، الجواب الكافي، ص١٦.

(٢) ابن قتيبه، تأويل مشكل الحديث، ص٢٣٣.

(٣) سورة الضحى آية: ١١.

أنعم عليه: أن لا يجعل ما أنعم عليه سبيلاً إلى معصيته»(١).

وقد أمر الرزاق (سبحانه وتعالى) بشكره على نعمه، وجعل شكر النعم سبباً في زيادتها، وكفرها إيذاناً بتحولها وزوالها، قال تعالى: ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(٤).

فشكر النعمة يزيدها، وكفر النعمة أي سترها وجحدها يمحقها ويذهبها وفي الآخرة عذاب شديد.

وكثير من الناس ينسبون النعم التي عندهم إلى العلم والخبرة والكدّ الشخصي والسعي الدءوب! وهذا كله كفر بنعمة الله، فالعلم والخبرة والكد كلها أيضاً من نعم الله عزّ وجلّ. فالمنعم أولاً وآخراً هو الله عزّ وجلّ.

ويتساءل البعض: من الناس من لا يشكر النعم، ومع ذلك فهي باقية، وهم يظنون أن العذاب الشديد في الآية يقتصر على محق النعمة فقط وذهابها. ولا يدرون أن العذاب الشديد قد يكون في نزع البركة من النعمة، وتحولها إلى نقمة على صاحبها فيشقى بها، ويتمنى لو لم تأت. وقد يكون العذاب الشديد انتقام آجل في الدنيا أو في الآخرة. ولكنه واقع واقع لأنه وعد من صادق. فكفر النعمة لا يمضي بلا جزاء.

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ح٢، ص٢٥٣ : ٢٤٤.
(٢) سورة الأنفال آية: ٢٦. (٣) سورة سبأ آية: ١٥.
(٣) سورة إبراهيم آية: ٧.

فشكر النعم يحفظها ويزيدها، وكفرها يضيعها ويزيلها.

٤ ـ الإنفاق من هذا الرزق:

وهذا فرع من فروع الشكر على النعم؛ لأن الانفاق منها شكر لها.

وقد حثنا الرزاق (سبحانه وتعالى) على الإنفاق من الأرزاق في كثير من الآيات القرآنيه، قال تعالى: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾(٢).

وقد وعد (سبحانه وتعالى) أن يخلف ما ينفق.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٣).

وبينّ أنّ البذلَ والإنفاق في سبيله يعود على صاحبه عاجلاً أم آجلاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٤).

وبينّ رسول الله (ﷺ) أن النفقه لا تنقص المال.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ)، قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد عبد بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله عزّ وجلّ»(٥).

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٤.

(٢) سورة إبراهيم آية: ٣١.

(٣) سورة سبأ آية: ٣٩.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٧٢.

(٥) رواه مسلم (٢٥٨٨).

والنفوس السخية، والأكف الندية يضاعف لها في رزقها ويغفر لها.

قال تعالىٰ: ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾(١).

والرزاق (سبحانه وتعالىٰ) في عون المتصدق ييسر له الأسباب، ويسوق له السحاب:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة اسق حديقه فلان، فتنحي ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلىٰ ما يخرج منها، فأتصدّق بثلث، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثه»(٢).

٥ ـ تحري الرزق الحلال والبعد عن الحرام:

فالرزق كما سبق منه حلال ومنه حرام. والمؤمن يتحرىٰ ولا يأكل إلا من الرزق الحلال.

بتلعها دفعة يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن

---

(١) سورة التغابن آية: ١٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الذهد والرقائق باب الصدقه في المساكين.

كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(١) .

والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعباده، كما أن الأكلَ من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول (ﷺ) «أيها الناس إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم» وقال: «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغير، يمدّ يديه إلى السماء يارب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وقلبه حرام، وغذي بالحرام فأنىّ يستجاب لذلك»(٢) .

فالإنفاق الذي هو سبب نماء المال والبركة في الرزق لا يقبل إذا كان من حرام: فالله طيب لا يقبل إلا طيباً» وقد ضرب لنا رسول الله (ﷺ) المثل الأعلى في الورع وترك الشبهات، فقد وجد تمرة في الطريق، فقال: «لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها»(٣) .

وهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يستقي ما في بطنه خوفاً من الحرام:

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت كان لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) غلام يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن

(١) سورة البقرة آية: ١٧٢ .

(٢) رواه مسلم (١٠١٥)، وغيره.

(٣) متفق عليه (البخاري ٥/ ٦٣، مسلم برقم (١٧٠١).

الكهانة إلا أني خدعته، فلقيني، فأعطاني لذلك هذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه»(١).

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٢).

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(٣).

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(٤).

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾(٥).

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك.

اللهم اغفر لي ذنبي، ووسّع لي داري، وبارك لي في رزقي(٦).

اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني، وانقطاع عمري(٧).

اللهم اجعلنا ممن يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب.

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك(٨).

* * *

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١١٧).   (٢) سورة الشعراء آية: ٨٣.
(٣) سورة آل عمران آية: ٨.   (٤) سورة الفرقان آية: ٧٤.
(٥) سورة آل عمران آية: ٣٨.
(٦) رواه أحمد ٤/ ٦٣ وانظر صحيح الجامع ١/ ٣٩٩.
(٧) رواه الحاكم ١/ ٥٤٢ وانظر سلسله الأحاديث الصحيحه برقم ١٥٣٩.
(٨) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٩٧.

المنهاج الأسنى
في
شرح أسماء الله الحسنى

٢

الحقوق جميعها محفوظة للمؤلف - الطبعة العاشرة ١٤٢٢هـ

الصف والإخراج بقسم الصف بدار بلنسية

دار بلنسية

دار بلنسية للنشر والتوزيع- المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٥٧٢٤٢ - الرمز البريدي ١١٥٧٤- هاتف وفاكس: ٤٥٤٧٥٤٩(٠١)

المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى

تأليف
د. زين محمد شحاتة
أستاذ مشارك بكلية التربية
جامعة الملك سعود

تقديم
الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الجزء الثاني

مكتبة العواصم

بسم الله الرحمن الرحيم

الكريمُ - الأكرمُ - الجوّادُ - المحسنُ - البرُّ

٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩

الكريم في كلام العرب: الجوّاد، والكريم: العزيز، والكريم: الصفوح. هذه ثلاثة أوجه كلها جائز وصف الله عزّ وجلّ بها.

فإذا أريد بالكريم الجواد أو الصفوح تعلق بالمفعول به لأنه لابد من متكرم عليه ومصفوح عنه موجود، وإذا أريد به العزيز كان غير مقتض مفعولاً. ويقال: «فلان يتكرم على أصحابه أي يجود عليهم ويتسخى» لله وفلان يكرم على لله أي يعز علي وشاة كريمة» إذا كانت عند الحلب تستقر وتولى على الحالب صفحة وجهها لأنها تعرض عنه ولا تمنعه من الحلب، فكذلك الكريم من الرجال الصفوح كأنه يعرض عن ذنب صاحبه [1].

والكرم إذا وصف به الله تعالى فهو اسم لإحسانه وإنعامه، ومعناه أيضاً نفي الدناءة عنه عزّ وجلّ لاستحقاقه صفات الجلال، فهو سبحانه لم يزل كريماً، ولا يزال كريماً.

فالله (سبحانه وتعالى) كريم كثير الإحسان، والعطايا، لا يخيب رجاء أحد، ولا يضيع من توسل به، ولا يترك من التجأ إليه.

وهو سبحانه وتعالى كريمٌ ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، كثير العطاء، دائم الإحسان، واسع الكرم، يعطي ما شاء لمن يشاء وكيف يشاء بغير سؤال، ولا يحتاج إلى وسائط ولا شفعاء في وصول النوال.

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص(١٧٦ - ١٧٧).

فهو سبحانه وتعالى كريم إذا أعطى أجزل، وإن عُصي أجمل، وإذا أبصر خللاً جبره وما أظهره، وإذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره.

فالكريم اسم لكمال إحسانه وإنعامه، يبتدئ بالنعمة من غير استيجاب، ويتبرع بالإحسان من غير سؤال ويعفو عن السيئات، ويغفر الذنوب، ويخبئ العيوب، ويكافئ بالثواب الجزيل على العمل القليل.

فالكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾(١) وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه. والكرم لا يقال: إلا في المحاسن الكبيرة كمن ينفق مالاً في تجهيز جيش في سبيل الله أو تحمل حمالة ترقئ دماء قوم، وكل شئ شرف في بابه فهو كريم»(٢).

أما الأكرم فقد جاء بصيغة التفضيل والتعريف، ليدل على أنه سبحانه وتعالى هو الأكرم وهذا بخلاف ما لو قال«ربك» «أكرم» فإنه لا يدل على الحصر، وقوله (الأكرم) يدل على الحصر، ولم يقل«الأكرم من كذا» بل أطلق الاسم، ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد فدّل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شئ فوقه ولا نقص منه(٣) فهو سبحانه أكرم الأكرمين، لا يوازيه كريم، ولا يعادله فيه نظير.

فالكريم - إذا أريد به الشرف والطهارة - غير حاصل إلا لله (سبحانه

---

(١) سورة النمل آية ٤٠.
(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٤٢٩.
(٣) ابن تيميه، الفتاوى، ح١٦، ص(٢٩٣ - ٢٩٦).

وتعالىٰ لأنه هو الموجود الواجب لذاته، المنزه عن قبول العدم بوجه من الوجوه. وإذا أريد علىٰ به العزة فالعزيز المطلق هو الله. وإن فسر بالذىٰ تكثر منافعه وفوائده فهذا لا يصدق إلا علىٰ الحق سبحانه لأنه هو الموجد لجميع المخلوقات الممد لجميع الكائنات، وإذا فُسرّ بمعنىٰ الصفح والعفو فليس أحد أكثر ولا أقدر علىٰ ذلك منه (سبحانه وتعالىٰ) ويقول الداعىٰ في دعائه: يا كريم العفو، فقيل: إنّ من كرم عفوه أنّ العبدَ إذا تاب عن السيئة، محاها عنه وكتب له مكانها حسنه.

وقد ذكر اسم الكريم (سبحانه وتعالىٰ) مرتين في القرآن الكريم، في سورة النمل قال تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (١). وفىٰ سورة الانفطار قال تعالىٰ ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٢).

أما اسم الله الأكرم فقد ذكر مرة واحدة في سورة العلق، قال تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ (٣).

وقد ورد في القرآن الكريم ذو الجلال والإكرام. قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (٤).

أىٰ ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود، والإحسان العام والخاص، فهو المكرم لأوليائه الذين يجلونه ويعظمونه ويحبونه (٥).

أما اسم الله الجواد فمعناه كثير العطايا، فهو الجواد المطلق الذي عم

---

(١) سورة النمل آية: ٤٠

(٢) سورة الانفطار آية٦.

(٣) سورة العلق آية٣.

(٤) سورة الرحمن آية ٧٨.

(٥) عبد الرحمن السعدىٰ، تيسير الكريم الرحمن، ٥/ ٦٢٦.

بجوده جميع الكائنات، وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال، أو لسان الحال من برٍ وفاجرٍ ومسلمٍ وكافرٍ، ومن جوده الواسع ما أعده لأوليائه في دار النعيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال ابن القيم:

وهو الجوّاد فجوده عمّ الجو　　　دَ جميعَه بالفضل والإحسانِ

وهو الجوّاد فلا يخيبّ سائلا　　　ولو أنه من أمةِ الكفرانِ

وقد ورد اسم الجوّاد في الحديث القدسي الجليل، الذي يقول فيه الله عزّ وجّل «**يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته، فسلوني الهدى أهدكم... إلى قوله تعالى... وذلك بأني جواد واجد ما جد أفعل ما أريد...**»[١].

وفي الحديث النبوي قال رسول الله (ﷺ): «**إن الله جوادُ يحبُ الجودَ**»[٢].

أما اسم الله المحسن فقد ورد في الحديث الصحيح، عن سمرة عن النبي (ﷺ) قال: «**إن الله تعالى محسن فأحسنوا**»[٣].

وعن شدّاد بن أوس عن النبي (ﷺ) قال: «**إن الله محسنٌ يحبُ**

---

(١) رواه الترمذي، ورقمه (٢٤٩٥)، وقال عنه: حديث حسن مع أن في شهر بن حوشب كلاماً، وقد روى مسلم هذا الحديث بلفظ مغاير (انظر جامع العلوم والحكم حديث رقم ٢٤).

(٢) أخرجه الألباني في حجاب المرأة المسلمة/ ١١، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث/ ١٦٢٧م٤: ص١٧.

(٣) صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ١٨١٩.

الإحسانَ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحَ، وليحد أحدكم شفرته، ثم ليرح ذبيحته»(١).

والإحسان يقال على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني في فعله وذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً، وعلى هذا قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) «الناس أبناء ما يحسنون، أي منسوبون إلي ما يعلمونه وما يعملونه، من الأفعال الحسنة... والإحسان أعمّ من الإنعام، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(٣) فالإحسان فوق العدل، وذلك أن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل فتحري العدل واجب وتحري الإحسان ندب وتطوع(٤).

والله سبحانه وتعالى محسن في إنعامه فيعطي النعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى.. ومحسن في فعله فهو سبحانه وتعالى أحسن كل شيء خلقه.

قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (٥).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٦).

أما اسم الله البر، فهو فاعل البرِّ (بالكسر)، والبر هو الإحسان والاتساع والصلة والخير، وقيل: البر هو خير الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ١٨٢٠.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٧. (٣) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٤) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١١٩.
(٥) سورة السجدة آية٧. (٦) سورة المائدة آية ٥٠.

فهو سبحانه بر بعباده أي يحسن إليهم، ويوسع عليهم بالخير، ويعطف عليهم، ولا يقطع الإحسان بسبب العصيان.

قال الراغب الأصفهاني: «البِرُّ التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تارة نحو، إنه هو البر الرحيم: وإلى العبد تارة فيقال: برَّ العبدُ بَّه أي توسع في طاعته فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعة..»(١).

فالله عز وجل هو البر بعباده أي العطوف عليهم، المحسن إليهم، عم برّه جميع خلقه، فلم يبخل عليهم برزقه - وهو البرّ بالمحسن في مضاعفة الثواب له، والبرّ بالمسيء في الصفح والتجاوز عنه.

وقد ورد هذا الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة الطور، قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

قال الشاعر:

وآثار الكريم (سبحانه وتعالى) في الوجود لا تعد ولا تحصى، يقول الشهيد سيد قطب مفسراً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٣).

إن هذا الخطاب: «يا أيها الإنسان» ينادي في الإنسان أكرم ما في كيانه، وهو إنسانيته التي بها تميزّ عن سائر الأحياء، وارتفع إلى أكرم مكان، وتجلى فيها إكرام الله له، وكرمه الفائض عليه. ثم يعقبه ذلك

---

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٤٠.
(٢) سورة الطور آية (٢٥-٢٨).
(٣) سورة الإنفطار آية (٦-٨).

العتاب الجميل الجليل: «ما غرك بربك الكريم ؟» . . . يا أيها الإنسان ما الذي غرّك بربك، فجعلك تقصر في حقه، وتتهاون في أمره، ويسوء أدبك في جانبه؟ وهو ربك الكريم، الذي أغدق عليك من كرمه وفضله وبرّه . .

ثم يفصّل شيئاً من هذا الكرم الإلهي، الذي أجمله في النداء الموحي العميق الدلالة . . يفصل شيئا من هذا الكرم الإلهي المغدق على الإنسان المتمثل في إنسانيته التي ناداه بها في صدر الآية . فيشير في هذا التفصيل إلي خلقه وتسويته وتعديله، وهو القادر على أن يركبه في أي صورة وفق مشيئته . فاختياره هذه الصوره له منبثق من كرمه وحده، ومن فضله وحده، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذي لا يشكر ولا يقدر بل يغتر ويسدر!

فخلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة الكاملة الشكل والوظيفة أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق والأدب الجم، والحب لربه الكريم الذي أكرمه بهذه الخلقه، تفضلاً منه، ورعاية منه (١) .

فالجمال والسواء والاعتدال في خلق الإنسان إنما هي آثار من كرم الكريم سبحانه وتعالى . وتبدو هذه الآثار في تكوين الإنسان الجسدي وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي .

فهذه الأجهزة العامة التي يتكون منها جسد الإنسان . . . الجهاز العظمي . والجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدوري، والجهاز التنفسي، والجهاز التناسلي، والجهاز العصبي . . . الخ كلها

(١) سيد قطب في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٨٤٨ .

عجائب متقنة الصنع تنطق بلسان الحال: أنا من فيض الكريم.

تقول مجلة العلوم الإنجليزية: إن يدَ الإنسانِ في مقدمة العجائب الفذّه، وإنّ من الصعب جداً - بل من المستحيل - أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف. فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائياً. وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها ثم يزول الضغط بقلب الورقة، واليد تمسك القلم وتكتب به. وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة إلى سكين إلى آلة كاتبة، وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كل ما يريده الإنسان واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمه وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما[1].

وجهاز الذوق في الإنسان اللسان، ويرجع عمله إلي مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلمات غشائه المخاطى، ولتلك الحلمات أشكال مختلفة فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ويغذى الحلمات فروع من العصب اللسانى البلعومى، والعصب الذوقى. وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية، فينتقل الأثر إلى المخ... وهذا الجهاز موجود في أول الفم، حتي يتمكن الإنسان من أن يلفظ ما يحس أنه ضار به، وبه يحس المرؤ المرارة والحلاوة، والبرودة والسخونة والحامض والمالح، واللاذع ونحوه... ويحتوى اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب. فكم عدد الأعصاب؟ وما حجمها؟ وكيف تعمل منفرده؟ وتتجمع بالإحساس

---

(١) انظر: الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، ص ٥٨.

عند المخ ![1].

ويتكون الجهاز العصبي الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة من خلال شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم. وتتصل بغيرها أكبر منها، وهذه بالجهاز المركزي العصبي. فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم، ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة بالجو المحيط، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم، وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف. وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية الواحدة.

ومن كرم الله عزّ وجلّ أن علّم الإنسان ما لم يعلمُ فشرفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البريه آدم على الملائكة. والعلم يكون تارة في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبيان، وهو ما يُكّتَب ويُدَوّن ﷺ وهو أساس تقدم البشرية وارتقائها فهو من أجلّ النعم على الإنسان قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].

ومن آثار الكريم خَلْقُ الإنسان في أحسن تقويم، فإذا ما نظرنا إلى أبعاده أو شكله أو تركيبه الداخلي أو تركيب الأعضاء الخارجية نجده حقاً في أحسن تقويم، فهو يقع في سلم الأحجام في منتصف المسافة بين الذره والمجرة، أي ما بين ما يضرب به المثل في الصغر، وما يضرب به المثل في الكبر، وحجم الإنسان مناسب لحياته على وجه الأرض، فطوله وعرضه يرتبطان بخصائص خلايا الأنسجة وطبيعة التغيرات

---

(١) المرجع السابق، ص٥٨.
(٢) سورة العلق اية (٣-٥).

الكيماوية وعملية الهدم والبناء فيه. فالتيار العصبى ينتشر بسرعة معينة، فطول الإنسان طولاً بالغاً يجعله ذا إدراك بطيء للمؤثرات الخارجية، ولذلك تكون استجابته الحركية متأخرة مما يسبب له الضرر قطعاً. وكذلك إذا قصر في طوله قصراً شديداً كان سريان الإحساس العصبى سريعاً سرعة تفقده إمكان التحكم والتفكير المناسب.

والتفاعلات الكيماوية لدى أى كائن حى ترتبط بحجمه فكلما زاد الحجم قلت هذه العمليات، فلو كان طول الإنسان أكثر مما هو عليه لنجم عن ذلك نقص في شدة التفاعلات الكيماوية مما يفقد الإنسان قدراً كبيراً من سرعة التفاعلات الكيماوية مما يجعل الإنسان لا يستطيع حمل القلم أو الكتابة به.

وفى التركيب الداخلى، فالقلب والرئتان معلقان في داخل قفص عظمى يتكون من العمود الفقرى وضلوع الصدر في حين نجد الأعضاء الرقيقة كالمخ والنخاع تحتويها صناديق عظيمة مبطنة بأغشية ومواد سائلة ولزجة.

والأعضاء الزوجية على أبعاد متساوية تماماً سواء أكانت أعضاء ظاهره أم باطنة، فالكليتان والمبيضان والخصيتان من الداخل والحاجبان وفتحتا العينين والأنف والأذنين والثديين واليدين والرجلين كل واحدة منها على بعدٍ متساوٍ من منتصف الجسم، فإذا ما مرّ خط وهمى رأسى من منتصف الجسم ومرّ في الإنسان ليقسمه قسمين نرى كلّ عين على مسافة متساوية من هذا الخط مع العين الأخرى، وكذلك الأنف والأذن وغير ذلك. أما الأعضاء الفرديه فنرى أن الفم مثلاً في منتصف هذا الخط. . وفى التركيب الداخلى نرى أن القلبَ في ناحية يقابله في الأخري الكبد والطحال.

ومن آثار الكريم جعل الأعضاء في أفضل أماكنها، فالأذنان في مكان بحيث يسمع الإنسان أىٰ صوت سواء أكان الصوت من اليمين أم من اليسار، فماذا لو كانت فتحتا الأنف في مكان الأذنين، ؟ والأذنان في مكان الأنف وللعين جفن يحميها من الأذىٰ وللجفن شعر يعكس الشمس عنها وفي الأنف. شعيرات تحجز الغبار والتراب وتدفيء الهواء الداخل، وللعين ماء تفرزه غدد تجعلها لا تجف فكيف لو كانت هذه الغدد في الأنف... وشعيرات الأنف في العين؟[1].

فسبحان الكريم الذي خلق الإنسان فسواه فعدله، في أىٰ صورة ما شاء ركبه؟!

ولا يقتصر كرمُ الكريم سبحانه علىٰ تسوية الإنسان وإبداع خلقه فقد كرّمه سبحانه وتعالىٰ وفضّله علىٰ كثير من خلقه، كرّمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته، والتىٰ استاهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشىء، ويركّب فيها ويحلّل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة.

وكرمه بتسخير القوىٰ الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوىٰ الكونيه في الكواكب والأفلاك.

وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيها الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان!

وكرّمه بإعلان هذا التكريم كلّه في كتابه المنزل من الملأ الأعلىٰ الباقىٰ

(١) انظر القرآن والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، ص ١٢١.

في الأرض . . القرآن»[١] .

ومن آثار الكريم سبحانه وتعالى مضاعفة جزاء الأعمال الصالحة .

عن ابن عباس (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) فيما يرويه عن ربه - عزّ وجلّ - قال : **إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها، كتبها الله له عنده عشر حسنات، إلي سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيره، ومن هم بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنةَ كاملةَ، فإذا هو همّ بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة»**[٢] .

ففي الحديث السابق بيان سعة فضل الله وإكرامه لأمة محمد (ﷺ) حيث تضاعف الحسنات التي عملها العبد، ولا تضاعف السيئة، وحيث تكتب الحسنة التي همّ بها حسنة كاملة وإن لم يعملها، ولا تكتب السيئة إلا إذا عملها . ولولا ذلك لكاد أن لا يدخل الجنة أحد لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم للحسنات .

ومن أفضل ما خلق الكريم لعباده الصالحين الجنة، وما فيها من نعيم : عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله (عزّ وجلّ) : **أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم:(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)**[٣] .

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ح٤، ص٢٢٤١ .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما (البخاري ١١/ ٢٧٧ , ٢٧٩ ومسلم (١٣١) .

(٣) رواه الشيخان وغيرهما (البخاري في بدء الخلق) (باب ما جاء في صفة الجنة) (ومسلم في الجنة وصفه نعيمها) . (٣) السجدة اية ١٧ .

وعن أنس (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «**غدوةٌ في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدهّ(سَوْطِه) في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفها يعني خمارها خير من الدنيا وما فيها**» (١).

ويظهر أثر كرم الكريم (سبحانه وتعالى) على عُصاة الموحدين عندما يخرجهم من النار ويدخلهم الجنة. ففي الحديث عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة، دخولاً الجنة رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع، فيقول:يارب وجدتها ملأى فيقول الله عز وجل له اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع. فيقول: يارب وجدتها ملأى! فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنه. فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي، وتضحك بي وأنت الملك، قال: فلقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقول« ذلك أدنى أهل الجنة منزلة**» (٢).

أما اسمه الجواد (سبحانه) فقد عمّ الوجود كلّه بجوده وإنعامه فهو يجود على الطائعين والعاصين، وعلى المؤمنين وعلى الجاحدين، لا يخيب سائلاً، ولايرد متضرعاً، جوده شامل، وخيره إلى الجميع نازل.

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما (البخاري ١٣٦ في الجهاد باب الغدوة، ومسلم ٣/ ١٤٩٩ في الامارة، فضل الغدوة والروحة في سبيل الله.

(٢) رواه الشيخان، البخاري ١١/ ٣٨٦، ومسلم (١٨٦).

ففي الحديث عن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله (ﷺ) يقول الله تعالى: «**يا عبادى كلّكُم ضال إلا من هديته، فسلونى الهدى أهدكم**..» إلى قوله تعالى: «**ولو أن أولكم وآخركم وحيّكم وميّتكم، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته، فأعطيت كل سائل ـ منكم ما سأل، ما نقص ذلك من ملكى، إلا كما لو أن أحدكم مرّ بالبحر، فغمس فيه إبرة، ثم رفعها إليه، ذلك بأنى جواد ماجد، أفعل ما أريد عطائى كلام، وعذابى كلام، إنما أمرى إذا أردته أن أقول له: كن فيكون**»(١).

فالجود السخاء، والمجد نيل الشرف والكرم، والمجيد الرفيع والشريف الفعال، والإسمان جواد وماجد جمعا كل صفات الكرم والعطاء والرحمة والإحسان، وكلّها صفات ثابتة لله تعالى، واجبة لذاته تعالى، لا يعتريها نقص ولا فناء.

ومهما يجود الجواد سبحانه ويعطي فإنّ ذلك لا ينقص من خزائنه شيئاً؛ لأن النقص يدخل على الشيء المحدود الفاني، وجود الله وعطاؤه من رحمته وكرمه، وهما صفتان قديمتان ـ لا يتطرق إليهما نقص.

ويتجلى إحسان الخالق سبحانه في خلق كل شيء على الصورة التي خلق بها بإتقان وإحسان ثم هدايته للوظيفة التي خلق لها. وحينما يجول الإنسان ببصره وبصيرته ـ في حدود ما يطيق ـ في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ومن الخلية الواحدة

---

(١) سبق تخريجه.

إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان .

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا والخلائق والأحياء ، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى وكلها تعمل منفردة ومجتمعه داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات . . .

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته ، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها ، داخل حدود القاموس العام في توافق وانتظام (١) .

فسبحان الذي أحسن كلّ شيء خلقه .

فالأرض أحسن الله خلقها بأن مهدها البشر في كل مكان وزمان فهي ممهدة كمهد الطفل ، وما البشر إلا أطفال هذه الأرض يضمهم حضنها ويغذوهم درها! وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة .

وقد جعلها الخالق المحسن تبعد عن الشمس بثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال وذلك حتى تكون الحرارة على ظهرها مناسبة لحياة النبات ، كما أحسن خلقها بأن جعلها منحرفة عند الدوران بزاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة مما يسمح بحدوث الفصول الأربعة . . . وأحسن خلقها بأن وزّع على سطحها البحار والمحيطات ولم يجعلها في مكان واحد ، وجعلها تشغل أكبر مساحة من هذا السطح حتى يتبخر ما يكفي لإرواء اليابس وأعطاها خلقها بأن جعل جلّ هذا الماء مالحاً ، ولولا هذه الملوحة

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج٤ ، ص٢٣٣٨ .

لتعفن الماء ومن ثمّ تعذرت الحياة على سطحها . . .

ولنأخذ الإنسان كمثال لنرى، كيف أحسن الخالق (سبحانه) خلقه؟ وحتى تستمر حياة هذا الإنسان إلى أجل مسمى لابد من التغذية، فكيف يشعر الإنسان أنه بحاجة إلى تغذيه؟ إلى طعام وشراب؟

إن الخالق المحسن جعل في تركيب جسده ما يشعره بالإحساس بالجوع عن طريق تقلصات في أعماق المعده، أما الإحساس بالعطش فيتم عن طريق جفاف الحلق والفم من الريق، فيقوم المركز المختص في الدماغ بترجمة هذه الإحساسات والتنبيهات إلى ما يعرف بإحساس الجوع والعطش، وعندما يتم الشبع أو الرى، تصل الإشارات إلى مركز الشبع والري فيترجمها المركز في صورة إحساس بالإمتلاء. فماذا لو لم يعطه الخالق هذه المراكز وتلك الأحاسيس؟!

فكل عضو من أعضاء الإنسان أحسن الخالق سبحانه وتعالى خلقه وهيئته. فالجلد الذي يغطى السطح الخارجى خلقه الله (سبحانه) غير قابل للاختراق بواسطه الماء والغازات، كما أنه لا يسمح للجراثيم التي تعيش على سطحه بالدخول إلي الجسم، فضلاً عن أنه قادر على تحطيم هذه الجراثيم بمساعدة المواد التي تفرزها غدده، وقد خلقه الخالق سبحانه وتعالى مرناً، قابلاً للتمدد، قوى الاحتمال ليقوم بوظائفه خير قيام.

وقد جعله الله سبحانه وتعالى مأوى كمية هائلة من أعضاء الاستقبال يسجل كل منها التغيرات التي تحدث في البيئة فالخلايا القابلة للمس والمبعثرة على سطحه تحس بالضغط والألم والحرارة والبرد،

وتلك الموجودة في الغشاء المخاطى للفم تتأثر بالطعام والحرارة، وشبكة أعصاب الشم تتأثر بالروائح وهكذا..

ولنأخذ مثالاً آخر لعضو آخر من أعضاء الجسد إنه العضو الذي جعله الخالق (سبحانه وتعالى) مسؤولاً عن بقاء الجنسِ البشرىِ إنه الخصية فكيف أحسن الخالق خلقها؟

لقد خلقها الخالق سبحانه وتعالى غدة بيضاوية الشكل تزن حوالى (١٥) غراماً.

وهي على حجمها الضئيل شديدة التعقيد فهي تحتوي على ما يناهز ألف أنبوب أدق من خيط الحرير الرقيق. ويبلغ طول كلّ أنبوب ما بين (٣٠) و(٦٠) سم أي ما مجموعة (٥٠٠) متر، وتلتقي هذه الأنابيب جميعها في « (١٢) أو (٢٠) قناة تتصل بدورها في مجمع فرد أضخم من الأنابيب ويراوح طوله بين (٦) و(٧) أمتار. في هذا الجهاز يتكون كل يوم (٥٠) مليون حيوان منوى. ويستطيع الرجل الواحد ـ خلال شهرين ـ أن ينتج ما يكفى لإنجاب ذريه تملأ الأرض كلها!

وإلى جانب جهاز القنوات حيث يتم تكوين النطف، توجد خلايا (ليدغ) التي تنتج التستوسيترون، والغريب المدهش أن هذه المادة متوفرة أيضاً في جسم الأنثى حيث تفرزها الغدد الكظرية. وهذا الهرمون يساعد علي نمو العضلات والعظام وبعض الأنسجة وإذا افتقر جسم الرجل إليه تحول الرجل إلى شخص أمرد، رخو، بليد، أما المرأة فنقص هذا الهرمون لديها يؤدي إلي البرود الجنسي كما أن الزيادة فيه تفضي بها إلى اكتساب مظاهر رجولية (١).

---

(١) ج. د. راديكيلف، تعرف إلى أعضاء جسمك، ترجمة يوسف شكرى، ص١٧٩.

فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه.

فكل شيء قد فصل على قَدّ قامة ماهيته تفصيلا متقنا، ووزن بميزان دقيق كامل... ونظم تنظيماً تاماً ونسق تنسيقاً بارعاً، وصنع بمهارة، وألبس أجمل صورة، وألطف ثوب، وأبهى طراز من أقرب طريق إليه... وأسهل شكل يعينه على أداء مهمته... ووهب له وجوداً ينضح حكمه... لا عبث فيه ولا إسراف...[1].

خذ مثلاً: الطيور لباسها الريش الناعم الخفيف... فهل يمكن أن تلبس ثوباً أنسب لها ولحكمة خلقها منه؟... لقد أعطاها الخالق خلقها في إتقان وإحسان فجعل جسمها خفيفاً ذا عظام مساميه ومجوفة، وخاصة عظام الصدر والبطن، تجاويفها كثيرة، ودائماً مليئة بالهواء، وهي كبيرة وأقوى من بقية العظام لكي تكون سنداً للعضلات التي تحرك الجناحين، ومثل ذلك عظام الحوض حتى تدعم مشي الطائر على رجليه... يقول عالم الطيور (روبرت مورفي) «إن الهيكل العظمي للطائر المعروف باسم (فريجيت بيرو) أي البارجة الطائر والذي يبلغ ما بين جناحيه المبسوطتين سبعة أقدام يزن أربع أوقيات فقط أي أقل من وزن ريشه.. إلا أنه متين ومرن جداً، وتركيب جمجمة الطير رقيق ومتين جداً ومجوف بشكل عجيب، وصفه أحد العلماء بقوله: إنها شعر منظوم في عظام... ويملك الشاهين (نوع من الصقور) سرعة تزيد على (١٨٠) ميلاً في الساعة عند انقضاضه على فريسته ويطير الصقر (٣٦٠) كيلو متر في الساعة الواحدة،. والطائر الخطاف بسرعه (١١٠) كيلو متر في الساعة... ولذا فقد زودها الخالق المحسن (عزّ

---

(١) سعيد النورسي، النوافذ، ترجمة إحسان الصالحي، ص٦٥.

وجلّ) بجهاز إضافي يتكون من خمسة أزواج، أو أكثر من الأكياس الهوائية تتصل بالرئتين وتتفرع منتشرة انتشاراً واسعاً في الجسم كلّه، وتمتد فروع من هذه الأكياس في العظام المجوفة، وتصل أحياناً إلى العظام الصغيرة في أصابع القدمين، وهذا الجهاز من الأكياس الهوائية لا يساعد على خفة وزن الطير فحسب بل إنه أيضاً يضيف إلى الرئتين جهازاً إضافياً لجلب الهواء، أي أنه يزيد كفاءة التنفس، ويقوم بوظيفة التبريد ليخفف من حرارة الطائر في أثناء سرعته، وقد قدر أن الحمامة الطائرة تستخدم ربع ما يدخل جسمها من الهواء في التنفس، والثلاثة الأرباع الباقية للتبريد [١].

بالإضافة إلى ماسبق نجد الخالق قد جعل للطائر جسماً مغزلياً فلماذا؟ إن الجسم المغزلي ضرورة للطائر لأنه يسهل طيرانه في الهواء.

وللريش الذي يغطي جسم الطائر مزايا هامة تساعده على الطيران، فهو خفيف، وصلب، وناعم الملمس، مما يخفض نسبة الاحتكاك بالهواء إلى الحد الأدنى، كما توجد فيه فراغات هوائية مما يجعله خفيفاً مما يساعد الطائر على الطيران، كما يشكل الريش عازلاً يمنع تسرب الحرارة من جسم الطائر، ويمنع الماء من التسرب إلى جسمه إذا طار في جو ممطر أو سبح في الماء، والمتأمل في مناقير الطيور يجد عجباً فقد أعطى الخالق (سبحانه وتعالى) كل طائر منقاراً يلبي حاجته في الحصول على طعامه. فالطيور آكله الحشرات أعطاها منقاراً رفيعاً طويلاً كي تتمكن به من الوصول إلي الحشرات التي تختبيء في الشقوق الصغيرة في الأشجار وبين الصخور. أما الطيور التي تعيش حول الماء كالبط

---

(١) جون هـ. طرائف من عالم الحيوان، ترجمة عبد الحافظ حلمي، ص١٥٨.

مثلاً، فغالبا ما تكون أطراف مناقيرها مثلمه على شكل منشار؛ مما يجعل منقارها بمثابة مصفاة تستعمل لفصل الماء عن مواد الطعام، أما الطيور آكلة اللحوم، كالصقور والبوم، فلها مناقير معقوفة وحاده جداً تمكنها من تمزيق قطع اللحم، بينما الطيور الآكلة للبذور والحبوب لها مناقير عريضه مخروطية الشكل.

وتشبه الأسماك الطيور في إنسيابية جسمها. وقد زودها الخالق (سبحانه وتعالى) بسائل مخاطي لزج يفرزه جلدها مما يجعلها تتحرك بسهولة في الماء. فالشكل الإنسيابي ولزوجة الجلد يقللان من مقاومة الماء لحركة السمك. وهناك عامل آخر يساعدها على الحركة وهو وجود كيس هوائي يعرف بكيس العوم، فعندما تريد السمكة السباحة على مستوى قريب من سطح الماء ينتفخ الكيس، فتقل كثافة السمكة، ويسهل عليها أن تتحرك إلى أعلى، أما إذا أرادت أن تسبح على مستوى أعمق فتتقلص عضلات بطنها ضاغطة على الكيس، فيتقلص الكيس، وتزداد كثافة السمكة، فيسهل تحركها إلى أسفل!

فسبحان الذي أحسن كلّ شيء خلقه.

وأحسن عطاء أعده المحسن لعباده الصالحين الجنة وما فيها من نعيم قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩)

هَلْ جزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾(٢).

وقال رسول الله (ﷺ): قال الله تعالى: « **أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت. ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلبِ بشرٍ**. واقرؤوا إن شئتم:

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) (٤).

وقال رسول الله (ﷺ): « **أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة ـ عود الطيب ـ أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء**» (٥).

وأجل عطاء وأشرف إحسان في الجنة رؤية الحق (سبحانه وتعالى).

عن صهيب (رضى الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: « **إذا دخل أهل الجنة، الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون:ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف**

(١) سورة الرحمن (٤٦ ـ ٦٠).
(٢) سورة النبأ (٣١ ـ ٣٦).
(٣) سورة السجدة آية ١٧ .
(٤) متفق عليه (البخارى فى أحاديث الأنبياء ومسلم في الجنة وصفه نعيمها).
(٥) متفق عليه (البخارى فى أحاديث الأنبياء ومسلم فى الجنة وصفه نعيمها).

الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم» (١).

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ويقف المؤمن مشدوداً أمام عطاء الكريم وجوده وإحسانه، فهي عطاءات ونعم لا تعد ولا تحصى تسبغ حياته وتملأ وجوده وكيانه ولا يملك المرؤ إلا أن يلهج لسانه بشكر هذه النعم.

وقد بينّ لنا رسول الله (ﷺ) أن تكريم الإنسان وإحسان خلقه له شكر خاص يتمثل في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلاة الضحى، والعدل بين الناس، وإعانتهم، والكلم الطيب، وكثرة الخطا إلى المساجد، وإماطة الأذى عن الطريق. والأحاديث التالية تبين ذلك:

عن أبي ذر (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميده صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدق ونهى عن المنكر صدقه، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**» (٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (في التفسير) ومسلم في الإيمان).
(٢) رواه مسلم(٧٢٠).
(٣) متفق عليه، البخاري ٥/ ٢٢٦، ومسلم (١٠٠٩/١٠٠٧).

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (ﷺ) **«إنه خلق كل إنسان من بني آدم علي ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبّر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح اللهَ، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح عن النار»**(١).

وجود الله عزّ وجلّ وإنعامه وإحسانه علي الإنسان بالأموال والأرزاق تستوجب شكر هذه النعم بالبذل والإنفاق منها، ومع أن البذل والإنفاق شكر من الإنسان للكريم الجواد إلا أن الله عزّ وجلّ رتب أجراً للإنسان علي هذا البذل وذلك أيضاً من كرمه وجوده وإحسانه. ، فهو يقابل الشكر بالشكر والمزيد.

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾(٣).

وفي البذل والسخاء فلاح الدنيا والآخرة، قال رسول الله ﷺ: **«السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب الله تعالى من عابد بخيل»**(٤).

والكرم والسخاء يفتحان باب السعة والنماء، قال رسول الله : **«ثلاثة أقسم عليهن. ما نقص مال عبد من صدقة،ولا ظلم عبد مظلمة**

---

(١) رواه مسلم. (٢) سورة البقرة آية ٢٧٤.
(٣) سورة إبراهيم آية ٧.
(٤) رواه مسلم.

صبر عليها، إلا زاده الله بها عزا،ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»(١) .

فمن يبذل اليوم القليل يعود بذلة عليه بالخير الكثير .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٢) .

وفي الحديث النبوي الشريف قال رسول الله ﷺ : **«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفا»**(٣) .

والانفاق والبذل يمحو الذنوب ويمسح الخطايا ، فإذا انزلق المسلم إلى ذنب وشعر بالبعد عن خالقه ، فطهوره من ذلك بالجود والسخاء فيعطي من ماله الفقراء والمحتاجين حتى يعود إليه نقاءه وضياءه .

قال تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٤) .

وعن أبي ذر (رضي الله عنه) أنّ رسولَ الله ﷺ قال : **« تعبد عابد من بني إسرائيل فعبد اللهَ في صومعته، فقال:«لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً! فنزل ومعه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتي غشيها، ثم أغمى عليه. فنزل الغدير يستحم، فجاءه سائل، فأوما إليه أن يأخذ الرغيفين، ثم مات.. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع**

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي في كتاب الزهد ٤/ ٥٦٢ ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) سورة سبأ آية ٣٩ .

(٣) رواه البخاري(٦/ ١٤١) ومسلم (١٠١٠) .

(٤) سورة البقرة آية ٢٧١ .

حسناته، فرجحت حسناته، فغفر له»(١).

والصدقة والبذل لهما أثر طيب في معاش الإنسان ومعاده، ففي الحديث النبوي الشريف قال رسول الله ﷺ: «**إن الصدقة لتطفيء غضب الربّ وتدفع ميتة السوء**» (٢).

وروى عن عائشة (رضي الله عنها) أنهم ذبحوا شاة، **فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقى كلها إلا كتفها»**(٣).

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾(٤). وأجدر الناس بالتصدق عليهم أقرباء المسلم وذوو رحمة.

قال رسول الله ﷺ: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة**(٥).

وعن حكيم بن حزام (رضى الله عنه)أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: عن الصدقات أيها أفضل؟ قال: **على ذى الرحم الكاشح**(٦).

والكاشح هو الذي يضمر عدواته في كشحه، وهو خصره، والحديث يعني أن أفضل الصدقة على ذى الرحم القاطع المضمر العداوة في باطنه.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٩٨).
(٢) رواه الترمذي (في الزكاه) وابن حبان في صحيحه في الإحسان وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه ورواه الطبراني وإسناده حسن.
(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) سورة النحل آية ٩٦.
(٥) رواه الترمذي وحسنه.
(٦) رواه أحمد والطبراني، واسنادُ أحمدَ حسنٌ.

«اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارضَ عنا»[١].

«اللـهم إني أســألك بأن لـك الحــمــد لا إلـه إلا أنت، المنان، بـديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم [٢]، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار.

اللهم مُنّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البرُّ الرحيم.

* * *

---

(١) رواه الترمذي و الحاكم وصححه، وحسنه عبد القادر الأرنؤوطي في تحقيقه لجامع الأصول برقم / ٨٨٤٧.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح أبي داود وفي صحيح النسائي ١/ ٨٩.

القابض الباسط

٦٠ ٦١

القابض اسم الفاعل من قبض يقبض فهو قابض، « والله يقبض ويبسط» أي يقتر على من يشاء ويتوسع على من يشاء على حسب ما يرى من المصلحة لعباده. فالقبض ههنا: التقتير والتضييق. والبسط التوسعه في الرزق والإكثار منه. فالله عزّوجلّ القابضُ الباسطُ يقترُ على من يشاء ويوسّع على من يشاء.

والباسط أيضاً: باسط الشيء الذي ليس بمفروش يبسطه ويفرشه كما بسط الله الأرض للأنام وبث فيها أقواتها(١).

فالقبض هو التضييق والبسط هو التوسيع والنشر فالله يقبض ويبسط أي يسلب تاره ويعطي تاره أو يسلب قوماً ويعطي قوماً أو يجمع مرة ويفرق أخرى أو يميت ويحيي(٢).

ويحسن أن يقرن بين هذين الاسمين وأن يوصل بينهما ليكون ذلك أنبأ عن القدرة وأدل على الحكمة. كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣).

وإذا ذكرت القابض مفرداً عن الباسط كأنك قد قصرت بالصفة على المنع والحرمان، وإذا وصلت أحدهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين منبئاً عن وجود الحكمة منهما(٤).

---

(١) أبو القاسم الزجاجي، مرجع سابق، ص٩٧، ص٩٩.
(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٩١.
(٣) سورة البقرة آية ٢٤٥.
(٤) الخطابي، شأن الدعاء، ص ٥٨.

فالله سبحانه وتعالى يقبض بعدله وحكمته، ويبسط برحمته ولطفه.

قال ابن القيم:

هو قابضٌ هو باسطٌ هو خافضٌ هو رافعٌ بالعدلِ والإحسانِ

والله عزّ وجلّ يقبضُ الأرواحَ عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الإحياء، ويقبض الصدقات من الأغنياء ويبسط الأرزاق للضعفاء، ويقبض القلوب فيضيقها. ويبسطها بما يتقربه إليها من برّه ولطفِه وجمالِه. فهو القابضُ للأرزاق والأرواح والنفوس الباسط للأرزاق والرحمة والقلوب.

وقد ورد هذان الاسمان في الحديث النبوى قال رسول الله ﷺ «**إن الله تعالى هو الخالق، القابض الباسط الرزاق المسعّر**»[1].

والله عز وجل يبسط الأرزاق ويبسطها بمقتضى حكمته ولصالح العباد. وفى القرآن الكريم قصتان تبينان أن بسط الأرزاقِ وسعتها قد يكون نقمة لا نعمة.

القصة الأولى قصة صاحب الجنتين قال تعالى: **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي**

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب البيوع وقال: حديث حسن صحيح كما أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد من حديث أنس بن مالك، وانظر: صحيح الجامع للألباني حديث / ١٨٤٦.

لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[1] .

فصاحبُ الجنتين أنموذجٌ للرجل الثرىٰ الذىٰ بسط الله له في الرزق فأذهلته الثروة وأبطرته النعمه حتىٰ نسىٰ الباسطالذىٰ بسط له كل هذا الرزق. فقد أعطاه الباسط سبحانه وتعالىٰ جنتين مثمرتين من الكروم، ومحفوفتين بسياج من النخيل تتوسطها الزروع ويتفجر بينهما نهر. فامتلأت نفسه بما في الجنتين وتعالىٰ علىٰ صاحبه الفقير، ونسىٰ الله عزّ وجلّ، ونسىٰ أن يشكره علىٰ ما أعطاه ثم أنكر قيام الساعة وفىٰ ظنه لو قامت فهو لا بد أن يجد رعاية في الآخرة كما بسط له في رزقه في الدنيا! .

إن بسط الرزق هنا اختبار وامتحان، وقد رسب الرجل في هذا الاختبار بجداره، فصار الرزق الكثير والمال الوفير محنة لا منحه، وشقاء لا سعادة. فعندنا يقبض الله عز وجل الرزق ويضيقه علىٰ هذا وأمثاله فلا شك أن ذلك نعمة من الله عز وجل .

(١) سورة الكهف آية (٣٢-٤٤).

أما القصة الثانية فقصه قارون: وقد جاءت في سورة القصص قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾(١).

فالقصة تبدأ يتعين اسم بطلها «قارون» وتحدد قومه«قوم موسى» وتقرر مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي«فبغى عليهم» وتشير إلى سبب هذا البغي إنه الثراء:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ ثم تمضي القصة بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالاً كثيراً، فبغي على قومه. ووجد من قومه من حاول أن يرده عن هذا البغي، ويرجعه إلى النهج القويم:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٢).

فجاء رده جملة واحدة تحمل في طياتها الفساد والإفساد﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾(٣). لقد نسي مصدر النعمة وحكمتها، وفتنه المال وأعماه الثراء. فهذا المشهد من القصه يتجلي فيه البغي والتطاول،

(١) سورة القصص: آية ٧٦.
(٢) سورة القصص آية ٧٧.
(٣)القصص ٧٨.

والإعراض عن النصح والإصرار على الفساد، والاعتزاز بالنعمة، والكفر بواهبها ومانحها.

ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون على قومه وهو في كامل زينته وترفه.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾(١).

لقد تهاوت نفوس طائفة من الناس وطارت قلوبهم أمام ما أوتى قارون، وتمنوا مثله واستيقظ الإيمان في قلوب فريق آخر فاعتزوا بإيمانهم ويقينهم. فثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون.

وعندما تبلغ فتنة المال ذروتها، وتتهاوي أمامها النفوس، تتدخل القدرة الإلهية لتضع حداً للفتنه، وترحم الضعفاء من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيماً:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾(٢).

هكذا في لمح البصر ابتلعته الأرض وابتلعت داره؟ وهوى في بطنها بعد أن علا فيها واستطال فوقها. فهوي فيها ضعيفاً عاجزاً لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه ولا مال.

---

(١) سورة القصص آية(٧٩ـ٨٠).

وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت كثيراً من الناس فردتهم الضربة القاضية إلى الله فوقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم، ولم يؤتهم مثل ما أوتي قارون:

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾[١].

فالثراء ليس آية على رضى الله. فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف. إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء والفناء.

ويسدل الستار على هذه القصة، وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة، وقد رجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان: فيأتي هذا التعقيب في أنسب أوان[٢].

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٣].

فقبض الرزق ليس دليلاً على الغضب، وبسطه ليس دليلاً على الرضا، وإنما هي الحكمة العليا التي تبتلي هذا بالقبض وذاك بالبسط.

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا

---

(١) سورة القصص آية ٨٢
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٧١٠، ص٢٧١٤.
(٣) سورة القصص آية ٨٣.

تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[1].

وقد يكون في القبض الخير الكثير للعبد، فالقبض وأن كان شراً في ظاهره إلا أنه يكون سبباً في الخير وكثيراً ما نسمع هذه العبارات : الإخفاق أساس النجاح، الشدائد تخلق لرجال، الألم يصوغ الإنسان.

فقبض الصحة عن الإنسان، وابتلاؤه بالمرض قد يكون فرصة عظيمه ترد الإنسان عن شرور كثيرة قد تؤدىٰ بحياته كلها.

يقول أحدُ الأطباءِ الكبارِ: «إنَّ المرض يتيح لنا أندر ما في الدنيا، إنه يمنحنا فرصة ثانية للانتفاع بالصحة وحدها، بل بالحياة نفسها، إن المرض يطرد من رؤوسنا سخافات كثيرة، ويردنا إلىٰ التواضع والتطامن ويرينا أنفسنا علىٰ حقيقتها، وبأقدارها الصحيحه، وأبرز ما يكون الأثر النافع للمرض حين يعترينا منه جزع، وكثيراً ما أصلح التيفود أو الالتهاب الرئوىٰ حال السكيرين واللصوص والقتله[2].

وكثير من الناس لا يهتدىٰ إلىٰ نفسه ولا يعرف ربه ولا يفطن إلىٰ هدف حياته إلا حين يضيق عليه الباب فيبتلىٰ بالمرض ويلازم الفراش، فحينئذ يقول : «بعد أيام قليله تقضىٰ في الفراش يصبح الزمن ترفاً لم نكن نتصوره، فهناك وقت للتفكير، ووقت للاستمتاع، ووقت للإبداع والابتكار، وأخيراً وقت للتفكير في خير ما في الطبيعة الإنسانية وأعمقه، المرض من أعظم مزايا الحياة، فهو يهمس في الأذن بأن مصير

---

(١) سورة الفجر آية (١٥ ـ ٢٠).

(٢) عبد الرزاق نوفل : القرآن والعلم الحديث، ص ٤٤ .

الإنسان مرتبط بأسمى القوى»[١] .

وكم في الحياة من قادة وأدباء وعلماء كان مرضهم سبباً في نجاحهم المنقطع النظير. ولدى كل منا الكثير من القصص في هذا الميدان.

فالمرض قد يكون خيراً من الصحة للعبد، والفقر قد يكون خيراً من الغنى.

قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] .

فالمؤمن يرضى بما قدره الله عز وجل له؛ لأنه لا يعرف مصلحة نفسه من كل وجه، والله عز وجل يعلم ما يصلح عبده، ومن ثمّ فلا يجوز اتهامه سبحانه وتعالى في قضائه. وإذا رضي العبد بما قدره الله عز وجل له انقلبت الشدة نعمة، وتحولت المحنه إلى منحة.

وإذا رضي العبد بالرزق القليل رضي الله منه بالعمل اليسير، وسلامة القلب مع الرضا؛ والسخط يزرع في القلب الحسد والغش والدغل والغل مع تلون العبد وعدم ثباته مع الله (عزّ وجلّ)، بل قد يفتح السخط باب الشك في الله (عز وجل) وقضائه وقدره وحكمته وعلمه، فقلّ أن يسلّم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه وإن كان لا يشعر به.

والشيطان يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة. فهناك يلقي عليه حباله ويصطاده.، وكلما ازداد سخطاً تمكن الشيطان من ناصيته وسلس له قيادة. فنجد العبد يقول مالا يرضى الرب، ويفعل مالا

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤

(٢) سورة البقرة آية ٢١٦ .

يرضيه. بل وينوىٰ مالا يرضيه، ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم «**إنَّ العين لتدمع. وإنَّ القلبَ ليحزن. ولا نقول إلا ما يُرضِي ربّنا**» فإن موت البنين من العوارض التىٰ توجب للعبد السخط علىٰ القدرفأخبر النبي ﷺ: أنه لا يقول في هذا المقام إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالىٰ.

والذنوب والمعاصىٰ كلها أساسها عدم الرضا، والطاعات كلها أساسها الرضا، فمن رضىٰ بما قسم الله له من مال اطمأنت نفسه وشكر ربه، ومن سخط بقسمة الله له. جنح إلىٰ المعاصىٰ وتغلغلت في نفسه الأحقاد، فإبليس لم يرضَ بحكم الله ولم يسجدْ لآدم. وآدم لم يرضَ بما أبيح له من الجنة فأكل من الشجرة. وانبثقت من هنا كل المعاصىٰ.

والذي يتأمل ما قدّره الله عز وجل ويكرهه العبد يجده لا يخلو إما أن يكون عقوبة علىٰ ذنب، ومن ثم فهو دواءُ لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامىٰ به المرض إلىٰ الهلاك. أو يكون سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه. فالمكروه ينقطع ويتلاشىٰ. وما يترتب عليه من النعمة يدوم ولا ينقطع.

فالراضىٰ عن الله عزّ وجلّ واقف مع اختيار الله له، وما أجمله من اختيار لو عرف العبد ربه، وعرف نفسه:

وقد اجتمع وهيب بن الورد، وسفيان الثورىٰ، ويوسف بن أسباط.

فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءه قبل اليوم: فوددت أنىٰ ميت.

فقال له يوسف: ولَمِ؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف: لكنىٰ لا أكره طوال البقاء.

فقال الثورى: ولَمِ تكره الموت؟

قال: لعلى أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.

فقيل لوهيب: أى شئ تقول أنت؟

فقال: أنا لا أختار شيئا، أحبّ ذلك إلىّ أحبهّ إلى الله.

فقبل الثوري بين عينيه. وقال: روحانية ورب الكعبة [١].

ولله درّ القائل:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر * والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خالقنا * وفى اختيار غيره اللوم والشوم

وكان عمران بن حصين (رضى الله عنه) قد استسقى بطنه، فبقى ملقى على ظهره مدة طويلة، لا يقوم ولا يقعد، وقد نقب له في سريره موضع لحاجته، فدخل عليه مطرف بن عبد الله الشخير. فجعل يبكى لما رأى من حالته. فقال له عمران: لِمَ تبكِ؟ فقال: لأنى أراك على هذه الحال الفظيعة. فقال: لا تبك. فإن أحبه إلىّ أحبُّه إليه. وقال: أخبرك بشئ، لعل الله أن ينفعك به. وأكتم علىّ حتى أموت. إن الملائكة تزورنى فآنس بها. وتسلم علىّ فأسمع تسليمها [٢].

ولما قدم سعد بن أبى وقاص(رضى الله عنه) إلى مكه ـ وقد كُفَّ بصره ـ جعل الناس يهرعون إليه ليدعو لهم. فجعل يدعو لهم. قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام. فتعرفت إليه فعرفنى، فقلت، يا عم، أنت تدعو للناس فيشفون. فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك. فتبسم. ثم قال: يا بني، قضاءُ الله أحبّ إلىّ من بصرى.

(١) ابن القيم الجوزيه، مدراج السالكين، ج٢، ص ٢٥، ص ٢١٥ (بتصرف).

(٢) ابن الجوزى، صفه الصفوه، ج١، ص ٦٨٢.

فقضاءُ الله لعبده كلّه خير ساءه ذلك القضاء أم سره فقضاؤه لعبده المنع عطاء، والمحنة نعمة، والبلاء عافية وإن كان في صورة بلية.

عن عثمان بن الهثيم قال : كان رجل بالبصره من بنى سعد، وكان قائداً من قواد عبيد الله بن زياد فسقط عن السطح فانكسرت رجلاه. فدخل عليه أبو قلابة يعوده فقال له : أرجو أن تكون خَيره . فقال له : يا أبا قلابة وأى خير في كسر رجلى جميعاً؟ فقال : ما ستر الله عليك أكثر.

فلما كان بعد ثلاث ورد عليه كتاب ابن زياد أن يخرج فيقاتل الحسين. فقال للرسول : قد أصابنى ما ترى فما كان إلا سبعاً حتى وافى الخبر بقتل الحسين: فقال الرجل رحم الله أبا قلابة لقد صدق، إنه كان خيرة لى[(١)].

وأعظم ما في الرضا أنه يثمر رضا الله عز وجل عن العبد، ففى الحديث، قال رسول الله ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط**»[(٢)].

«**اللهم لك الحمد كلّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرّب لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن**

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٢٣٨.
(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن (برقم / ٢٣٩٨).

يوم الخوف، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين»(١).

«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب، والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنه مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»(٢).

* * *

---

(١) رواه أحمد والحاكم، والبخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٢٨٤، وفي صحيح الأدب المفرد للبخاري برقم ٥٣٨.

(٢) رواه النسائي وأحمد٤/ ٣٦٤ وإسناده جيد، وانظر صحيح النسائي١/ ٢٨٠، ٢٨١.

الحكيمُ

٦٢

الحكيم من أحكم الأفعال وأتقنها فلا تفاوت فيها ولا اضطراب، ومنه قيل: «بناء محكم» أي قد أتقن وأحكم. فالله (عزّ وجلّ) حكيم كما وصف نفسه بذلك لإتقان أفعاله واتساقها وانتظامها وتعلق بعضها ببعض[١].

فهو سبحانه وتعالى حكيم يحكم خلق الأشياء بإتقان التدابير فيها، وحكم التقدير لها، فالحكمة في حقه (سبحانه) هي معرفة الأشياء وإيجادها على غاية من الإحكام والإتقان والكمال.

قال الخطابي: «معنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها، إذ ليس كل الخليقة موصوفاً بوثاقة البنية، وشدة الأسر كالبقة، والنملة، وما أشبهها من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة. وكذلك هذا في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[٢] لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد والخنزير والدّب وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه وإبرازه علي الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها كقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[٣].

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٢) سورة السجدة، آية: ٧.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٢.

فالله سبحانه وتعالي حكيمٌ موصوفٌ بكمال الحكمة يضع الأشياء في مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان:

أحدهما: الحكمة في خلقه، فإنه خَلق الخلْق بالحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطىٰ كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطىٰ كلّ جزء من أجزاء المخلوقات وكلّ عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يري أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً، ولا فطوراً.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالىٰ شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد، ويعبدوه، فأىٰ حكمة أجل من هذا؟ وأىٰ فضل وكرم أعظم منه؟! وقد اشتمل شرعه ودينه علىٰ كل خير يملأ القلوب علماً، وإيماناً ويثمر كلّ خلق جميل وعمل صالح.

وأوامره ونواهيه محتوية علىٰ غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهىٰ إلا عما مضرته خالصة راجحة[1].

وقد جمع ابن القيم (رحمه الله) هذين النوعين في قوله:

---

(١) آل سعدىٰ، مرجع سابق، ص٤٨: ص٥٤.

وهو الحكيمُ وذاك من أوْصَافه نوعان أيضاً ما هما عدمان
والحكمة العليا على نوعين أيضاً حصلاً بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه نوعان أيضاً لا يفترقان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه أيضاً وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللائى حمدن وكونها في غاية الإتقان والإحسان

وقد ذكر اسم الحكيم في القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة اقترن في أكثرها بالعزيز وبالعليم. مما يدل على أن حكمته صادرة عن عزة وعلم.

قال تعالى ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(١).

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(٣).

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾(٤).

كما اقترن أيضاً هذا الإسم بالخبير، وبالتواب، وبالحميد، وبالعلي، وبالواسع.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٥).

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾(٦).

---

(١) سورة آل عمران/ ١٢٦. (٢) سورة الأنفال/ ٤٩. (٣) سورة النمل/ ٦.
(٤) سورة الفتح/ ٤. (٥) سورة الأنعام/ ٨١. (٦) سورة النور/ ١٠.

﴿ تنزيلٌ مِّنْ حكيمٍ حميدٍ﴾(١) .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾(٢) .

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾(٣) .

وآثار حكمته (سبحانه وتعالىٰ) في مخلوقاته لا يحصيها العد :

١ـ عندما ينظر الإنسان إلىٰ الأرض التىٰ يعيش عليها يجدها كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها ، فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار ، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام فيكون في ذلك تتابع الفصول ، الذي يؤدىٰ بدوره إلىٰ زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنىٰ من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة ، ويحيط بالأرض غلاف غازىٰ يشتمل علىٰ الغازات اللازمة للحياة ويمتد إلىٰ إرتفاع كبير(يزيد علىٰ ٥٠٠ ميل) ويبلغ هذا الغلاف الغازىٰ من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلينا ، والغلاف الجوىٰ الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياةويحمل بخار الماء من المحيطات إلىٰ مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيىٰ الأرض بعد موتها .

وهذا الغلاف يحفظ الأكسجين اللازم للحياة ، وهو موجود بنسبة مقدرة تقديراً (٢١ ٪ من الهواء) ، ولو زادت هذه النسبة إلىٰ ٤٠ ٪ مثلاً لاحترقت كل المواد القابلة للاحتراق ولما استطاع الإنسان إن يطفىء حريقاً ، ولو هبطت هذه النسبة إلىٰ ١٠ ٪ مثلاً لانتهت الحياة من علىٰ سطح الأرض فسبحان الحكيم القدير .

---

(١) سورة فصلت/ ٤٢ . (٢) سورة الشورىٰ/ ٥١ .

(٣) سورة النساء/ ١٣٠ .

ولو نظرنا إلى الماء لوجدنا العجب العجاب فهو يمتاز بخواص تعمل على صيانة الحياة، وتدل على الحكمة والتدبير، فللماء درجة ذوبان مرتفعه، وهو يبقى سائلاً فترة من الزمن طويلة. وله حرارة تصعيد بالغة الارتفاع، وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت، ويصونها من التقلبات العنيفة ولولا كل ذلك لتضاءلت صلاحية الأرض للحياة إلى حد كبير، ولقلت متعة النشاط الإنساني على سطح الأرض بدرجة عظيمة.

وللماء خواص أخرى فريدة تدل على الحكمة فقد رسم وصمم بما يحقق صالح المخلوقات، فالماء هو المادة الوحيدة المعروفة التي تقل كثافتها عندما تتجمد، ولهذه الخاصية أهمية كبري بالنسبة للحياة، إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد بدلاً من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحار والأنهار، ويكون تدريجياً كتلة صلبة لا سبيل إلى إخراجها وإذابتها. ويكون الجليد الذي يطفو على سطح البحر طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق درجة التجمد، وبذلك تبقى الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية حية. وللماء - أيضاً - توترسطحى موتفع يساعد علي نمو النبات بما ينقله إليه من المواد الغذائية التي بالتربة والماء أكثر السوائل المعروفة إذابة لغيره من الأجسام، وهو بذلك يلعب دوراً كبيراً في العمليات الحيوية داخل أجسامنا بوصفه مُركباً أساسياً من مركبات الدم[1].

وكل هذه الخواص العجيبة للماء ما هى إلا أثر قدرة الحكيم (سبحانه) وهي تدل علي عناية الخالق سبحانه وتعالى بخلقه، واهتمامه

---

(١) نخبة من العلماء الأمريكين، الله يتجلى فى عصر االعلم، ترجمة الدمرداش سرحان، ص٧، ص٤، ص ٤٥.

بمصالحهم، وبما ينفعهم.

أما الأرض اليابسة فهي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات، فالتربة تحتوي العناصر التي يمتصها النبات، ويمثلها ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام يفتقر إليها الحيوان، ويوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الأرض، مما هيأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة ونشأة كثير من الصناعات والفنون. فالأرض مهيأة على أحسن صورة للحياة، ولا شك أن ذلك من تيسير حكيم خبير(١).

٢ـ وإذا نظرنا إلى عالم الحشرات من حولنا نجد عجباً، فتكاثر هذه الحشرات كفيل بالقضاء علي الجنس البشري ولكن الحكيم سبحانه وتعالى قد وضع ضوابط وموازين لكبح جماح هذه الحشرات،، فلم يجعل لهذه الحشرات رئتين مثل الإنسان وإنما جعل لها أنابيب تتنفس عن طريقها، وحين تنمو هذه الحشرات وتكبر، لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها، ومن ثمّ لم توجد قط أطول من بضع بوصات، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلاً. وهذا الحد من نمو الحشرات منعها من السيطرة علي العالم، ولولا وجود هذا الضابط، لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض، وكيف يوجد الإنسان وأمامه الزنانير في حجم الأسود، والعناكب في حجم الفيلة(٢)!.

٣ـ وهذا التوازن الحكيم ليس قاصراً على الحشرات، فالطائر المعروف باسم (كاسر العظام) تضع الأنثى زوجين من البيض لا غير وتضع أنثى النعام عشرين بيضة ومع ذلك فإن العددين يبقيان متساويين تقريباً مع زيادة بسيطة في عدد كاسر العظام.

---

(١) المرجع السابق، ص٧.

(٢) كريستي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ترجمة محمود صالح الفلكي، ص ١٦١.

والطائر المعروف باسم(نورس فليمر البحرى) لا تضع أنثاه إلا بيضة واحدة، والعصفور الدورى تضع أنثاه من أربع إلى ست بيضات، ومع ذلك فإن عدد الطائر (نورس) أكثر الطيور في العالم كله.

وبعض أنواع الذباب تضع الأنثى مئات البيوض، مع أن ذبابة الخيل لا تضع إلا بيضة واحدة ومع ذلك فهي متساوية العدد مع الذباب.

فمن الذي أوجد هذا التوازن الدقيق المحكم؟!

٤ـ والواقعتين التاليتين مثالٌ بارز علي هذا التوازن المحكم، فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار في استراليا كسياج وقائى. ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا، وزاحم الناس، وأتلف مزارعهم، ولم يجد الأهالى وسيلة لصد هذا الجيش الكاسح من الزرع الصامت، وطاف علماء الحشرات بنواحى العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبّار، ولا تتغذي بغيره، وهى سريعة الانتشار وليس لها عدو يعوقها في استراليا، وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبّار، ثم تراجعت، ولم يبقَ منها سوى بقية قليلة للوقاية تكفى لصد الصّبار من الانتشار إلى الأبد[1].

وفى إحدى مناطق الجهات الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة، كان يعيش نوع من الأيائل، يسمى (آيل البعل) طعامه الرئيسى، نوع من الورد البرى، أما الأيائل نفسها فهى طعام أسد الجبل، فإذا تركت هذه الثلاثة وشأنها، ظل عدد كل نوع منها ثابتاً دون أن يطرأ تغيير

(١) الموجع السابق، ص ١٦٠.

كبير، فلنفرض مثلاً أن عدد الأيائل قد زاد فجأة لسبب ما، فإن ذلك سوف ييستتبع حتماً ازدياد عدد الأسود الجبلية، لأنها سوف تجد وفرة من الطعام الذي تأكله، ولكن سوف يحدث في نفس الوقت أن الورد البرى سوف يصبح شحيحاً في تلك المنطقة. ولذلك فإن عدد الأيائل سوف يعود إلى التناقص شيئاً فشيئاً.

وقد قررت حكومة الولايات المتحدة يوماً أن تحمى أيائل البعل، بقتل الأسود الجبلية في المنطقة. فسرعان ما تكاثرت الأيائل حتى أتت على الورود البرية كلها، ثم تحولت إلى الأشجار الصغيرة، وشجيرات الآرتيميزيا، وحتي هذه لم تكفها فمات آلاف منها جوعاً، وتعلمت الحكومة من هذا درساً واقعياً، وأخذت تدعوا الناس إلى عدم الإخلال بتوازن الطبيعة(١).

فمن الذي أوجد هذا النظام المحكم المتوازن؟!

٥ـ وانظر إلى فم الحيوانات المفترسة كالآساد والذئاب تجد أن الحكيم (سبحانه) قد زودها بأنياب قاطعة، وأسنان حادة، وما ذاك إلا لأن طعامها هو ما تفترسه من كائنات لابد من مهاجمتها، وقد زودت في أرجلها بعضلات قوية، وبأظافر ومخالب حادة لاستعمالها في الهجوم. أما معدتها فقد حوت الأحماض والمواد الهاضمة للحوم.

أما الحيونات التى تعيش على المراعى فقد صممت وأحكمت أجهزتها بما يتناسب مع حاجتها: فأفواهها واسعة نسبياً، وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة، وأعطيت بدلاً منها الأسنان للقضم والقطع، فهى تأكل الحشائش والنباتات بسرعة، وتبتلعها دفعة

---

(١) ابن خليفة عليوى، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

واحدة لتنزل إلى أعجب جهاز للهضم فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش وهو مخزن له، فإذا ما انتهي عمل الحيوان وجلس للراحة ذهب الطعام من الكرش إلى تجويف آخر، ثم عاد إلى الفم ليمضغ مضغاً جيداً، حيث يذهب بعد ذلك إلى تجويف ثالث ثم رابع. وهذه العملية صممت لفائدة الحيوان، لأن العشب من النباتات العسرة الهضم لما يحتويه من الألياف(السليلوز) ولو أن الحيوان مضغ هذه الأعشاب مضغاً جيداً فور تناولها لضاع اليوم كلّه دون أن يأكل ما يشبعه ومن ثم فهو يبلع سريعاً، ويخزن في الكرش، ثم يرجعه مرة ثانية أثناء راحته للمضغ على مَهَلٍ بعد أن يكون قد حصل له شئ من التخمر.

٦ـ ولو نظرنا إلى أرجل هذه الحيوانات لوجدنا دقة التصميم وإحكام الصنعة، فالحيوانات التى من خصائصها الجرى والجر والحمل صممت أرجلها بحيث تكون قوية لتساعدها على الجري، وتنتهى كل رجل بحافر صلب يحمي الرجل مما قد يصيبها من كثرة الجرى أو وعورة الطريق.

أما البقر والجاموس فأرجلها قصيرة قوية تنتهى بأظلاف صلبة مشقوقة لتساعدها على السير في الأراضى الزراعية اللينة. بينما أرجل الجمل تنتهى بأظلاف مشقوقة تحتها وسادة لينة سميكة تسمى«الخف» لتمنع القدم من الغوص في الرمال، وعلى أرجله كذلك أربطة من جلد خشن تحميه من الحصى والرمال عندما يبرك.

٧ـ وفى عالم الطيور نجد اختلاف تصميم الأرجل تبعاً لحاجة الطير، فالطيور التى تتغذى على اللحوم كالصقر والنسر نجد لقدمها مخالب قوية حادة، وهى منثنية بما يساعدها في القبض على الفريسة.

أما تلك التى تتغذى على الحبوب كالدجاج والحمام فأقدامها ذات

أظافر مدببة تصلح للنبش في الأرض. والطيور التي يستلزم أمر تغذيتها البحث عن غذائها في الماء تتصل أصابعها بغشاء جلدي تستعمله كالمجداف في سباحتها.

٨ـ ومن طريف ما نراه من حكمة في الخلق والتصميم أن معظم الحيوانات الثديية تمتاز بحاسة شم قوية حادة، وحاسة بصر ضعيفة، بينما الطيور بخلاف ذلك، فهي ذات بصر قوي، وشم ضعيف، وما ذاك إلا لأن الأولى تهتدي في غذائها الذي يكون دائماً على الأرض بحاسة الشم، بينما الطير وهو في السماء بحاجة إلى حدة في بصره ليري غذاءه في أثناء طيرانه.

فسبحان الخالق الحكيم!

٩ـ وما لنا نذهب بعيداً وأمامنا الإنسان الذي ينطق كل عضو فيه بل كل خلية بالإبداع والحكمة.

ـ انظر إلى الجنين في بطن أمه كيف يتغذى؟ وكيف يتنفس؟ وكيف يقضي حاجته؟ وكيف تفرز أجهزته؟ وكيف أحكم تصميم الحبل السري له؟ فلا هو طويل مما يسبب تخمر الغذاء قبل وصوله إليه، ولا هو قصير فيؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه فيوذيه !إنه مصمم بحكمة وتقدير.

ـ وانظر إلى إحكام الصنعة في قلب الإنسان، فهو كتلة من اللحم تزن حوالى ٣١٢ غراماً، وحجمه في قبضة اليد، ينبض حوالى ٧٠ مرة في الدقيقة وفى العام ٤٠ مليون مرة، وفي كل نبضة يدخل القلب حوالى ربع رطل من الدم، ويضخ في اليوم الواحد ٢٢٠٠ جالوم من الدم. وحوالى ٥٦ مليون جالون على مدي الحياة بأكملها!

فهل هناك محرك آخر يستطيع القيام بمثل هذا العمل الشاق، دون

أن يحتاج إلى إصلاح؟!

والجهد الذي يبذله القلب في النبضة الواحدة يرفع ثقلاً مقداره رطلان إلي ارتفاع قدمين! .

ـ يحوي الجسم البشري أكثر من ٦٠٠ عضلة، وأكثر من ٢٠٠ عظمة وتحوي العضلة المتوسطة الحجم على ١٠ ملايين ليف عضلي، وتحوي عظمة الفخذ علي أكثر من ٣٠ ألف عمود كلسي خاص. وعمل العضلات مجتمعة في اليوم الواحد يساوي ما حمولته ٢٠ طن.

ـ في كل يوم يتنفس الإنسان ٢٥ ألف مرة، يسحب فيها ١٨٠ متر مكعب من الهواء، يتسرب منها ٥ ,٦ متر مكعب من الأكسجين إلى الدم.

ـ في الدم الكامل ٢٥ مليون كرية حمراء لنقل الأوكسجين، و٢٥ مليار كرية بيضاء لمقاومة الجراثيم ومناعة البدن، ومليون مليون صفيحة دموية لحفظ الدم ضد النزف. وتتكون هذه الخلايا بصورة أساسية من مخ العظام الذي يصب في الدم بمعدل ٥ ,٢ مليون كرية حمراء في الثانية، و٥ ملايين صفيحة، و ١٢٠ ألف كرية بيضاء! .

ـ في العين الواحدة ١٤٠ مليون مستقبل للضوء، وهي ما تسمى بالمخاريط والعصي، ويتحكم في حركات العين ستة عضلات، ويشرف على التوازن الدماغ والمخيخ والعضلة السيسائية ويخرج من العين وكمحصلة لعمل الشبكية نصف مليون ليف عصبي ينقل الصورة بشكل ملون.

ـ جهازُ الاستقبالِ السمعي في الأذن الباطنة(عضو كورتي) يحتوي على حوالي ٣٠ ألف خلية سمعية لنقل كافة الأصوات، وحساسيته عظيمة، وفي دهليز الأذن الوسطى نرى الأقنية نصف الدائرية المسؤولة

عن التوازن في الإنسان حيث يمثل التوازن أمراً معقداً جداً يشترك فيه الدماغ والمخيخ والأذن الباطنة . . والسؤال كيف يتم التوازن بمثال هذه الدقة؟

ويكفي أن نعلم أن الأذن الباطنة فيها قسم يسمى (التيه) لأن الباحث يكاد يتيه من أشكال الدهاليز والممرات، والجدر، والحفر، و الغرف، والفوهات، والاتصالات وشبكة التنظيم والعلاقات الموجودة داخل هذا القسم!

- الدماغ مغلف بثلاثة أغلفة فضلاً عن التصفيح العظمي، بحيث يعتبر الرأس كصندوق محكم الإغلاق، وبين الأغلفة يتسرب سائل خاص هو السائل الدماغي الشوكي الذي يقوم بفعل ماص الصدمات. وما ذاك إلا لأن الدماغ يمثل حكومة البدن وباقي الجسم يمثل الشعب، ولابد من التحصينات الشديدة، والحراسة المشددة لحماية الحكومة. وهذا الإتقان المحكم جعل علماء الفضاء يصممون نفس الطريقة لحماية القمر الصناعية بإيجاد الغلافات والسوائل علي نفس الطريقة! وتحتاج الحكومة المركزية (الدماغ) يومياً إلى ١١٥ غرام من الغلوكوز، وكمية من الفوسفات، و ١٠ـ ١٥ ٪ من الأكسجين الذي يحتاجه الجسم، وكمية من الدم لا تقل عن ١٠٠٠ ليتر فإذا نقصت هذه المواد تقاعس الدماغ عن القيام بعمله!

- ومن أعجب ما في الإنسان اللسان فهو كتلة من اللحم تقوم بالمضغ والبلع وذوق الطعام والتصويت، فيه ١٧ عضلة تحركه إلى كافة الجهات، وثلاثة أعصاب لتنظيم نقل الحس، وعلى سطح اللسان يوجد ٩٠٠٠ (تسعة آلاف) نتوء ذوقي لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والملح، وإنّ حركة اللسان في أي إتجاه ينتج حرفاً معيناً وبذلك يستطيع الإنسان أن ينطق بفصاحة، وأثناء المضغ والبلع تفرز ستة غدد اللعاب

إلى الفم لتطرية الطعام وتهيئته المبدئية بالاشتراك مع الأسنان!.

- يعتبر الكبد أكبر غدد البدن إذ يزن (١٥٠٠) غرام، ويحوي ٣٠٠ مليار خلية يمكن أن تتجدد كلياً خلال أربعة أشهر وله وظائف مدهشة ما بين مستودعات السكر والدهن والفيتامين أو احتجاز السموم وقلبها إلى مواد غير ضارة، أو تحويل الفضلات إلى مواد غير ضارة، وهو مركز التموين الرئيسي لسكر الدم، وبروتينات الدم، كما يقوم بإفراز الأصبغة، وتكوين الكولسترول!.

- تزن الكلية الواحدة ١٥٠ غراماً، فيها مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم تسمى(النفرونات)، ويرد إلى الكلية في مدى ٢٤ ساعة ١٨٠٠ ليتر من الدم، ويتم رشح ١٨٠ ليتر منه ويعاد امتصاص معظمه ويطرح منه حوالي ١,٥ ليتر وهو المعروف بالبول. ويبلغ طول أنابيب النفرونات حوالي (٥٠) كيلو متراً، وبهذه الطريقة يتم تصفية الدم من كل شوائبه وبشكل مدهش، وكأننا نرى أمانة العاصمة وهي تنظف ليس مرة واحدة في اليوم بل ٣٦ مرة ويزيد . فهل تستطيع دولة من الدول أن تنظف مدنها ٣٦ مرة في اليوم[١]؟!!

- يغلف الجسم ستار محكم بديع هو الجلد، وعلي الرغم من كونه ذا مسام تفرز الماء إلى خارج الجسم فإنها لا تمتص الماء إلى داخل الجسم مطلقاً. ولما كان الجلد معرضاً لهجمات الميكروبات والجراثيم التي تسبح في الجو فقد تم تسليحه بإفرازات قادرة على قتل تلك الميكروبات، وإذا تغلبت الجراثيم، واخترقت الحدود(منطقة الجلد)تلقتها حرس الحدود (كرات الدم البيضاء) فتضرب حصاراً حولها ثم تشتبك معها في معركة من أشرس المعارك فإما أن تهزمها وتطردها خارج الجسم، وإما أن تندحر وتموت هذه القوات فتتقدم قوات أخرى وأخرى وهكذا، فإذا رأيت بشرة حمراء وفيها صديد على

(١) خالص حلبي، الطب محراب الإيمان، ص ٢٩٧: ٣٠٧.

الجلد فاعلم أن صديدها ما هو إلا أشلاء قوات ماتت في سبيل الدفاع عنك، أما الإحمرار فهو (وطيس المعركة) أي القوات(كرات الدم) مازالت تقاتل العدو الغادر.

ـوتحت هذا الجلد يوجد حوالي ٥ـ ١٥ مليون مكيف لحرارة البدن، والمكيف هنا هو الغدة العرقية، لأن تبخر العرق من الجلد يمتص معه نسبة عالية من حرارة البدن. فمن الذي أحكم هذه الأعضاء؟!

إنّ كلّ شيء فينا ومن حولنا مخطط ومنظم ومحكم ويسعى نحو تحقيق هدف رسمه له الحكيم (سبحانه وتعالى) عرفنا ذلك أم لم نعرف

فمثلاً ثمرة التفاح خلقت للإنسان، ولذلك نجدها تحمل فيتامين (c)، وكذا غرام من الحديد، وهذه المقادير هي التي يحتاجها جسم الإنسان يومياً.

ولو سألنا : لماذا الحديد مع فيتالمين (c) لله لكان الجواب ميسوراً وهو حتي لا يتعفن فيتامين(c) لأنه مادة ذات تحمل ضعيف، بل هناك مزيد من التخطيط بإضافة أيونات الكربونات إلى محتوى التفاح.

ولو سألنا لماذا؟

لكان الجواب: لأن الكمية الكبيرة من حامض الفاكهة الموجودة في التفاح تؤدي إلى زيادة الحموضة في المعدة، وهذه الآيونات تحد من ذلك ولذلك نتجشأ بعد أكل التفاح[1] فهناك قدرة إلهية حكيمة رتبت الأمور ونظمتها أحسن تنظيم.

وننظر الآن إلى جانب آخر من جوانب حكمته سبحانه وتعالى،

---

(١) خلوق نور باقي، مرجع سابق، ص ٣٣، ص ٣٤.

وهي حكمة شرعه، فأحكامه الشرعية في غاية الإحكام.

انظر مثلاً إلى العقوبات التي حددها الإسلام لجرائم الزنا والقذف والسرقة والسّكْر والمحاربة والردة والبغي، تجد إقامة هذه الحدود فيها نفع للناس لأنها تمنع الجرائم، وتردع العصاة، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك الحرمات، وتحقق الأمن لكل فرد على نفسه، وعرضه، وماله، وسمعته، وحريته، وكرامته، فأي حكمة أعظم من ذلك؟

يقول عبدالقادر عوده مبينا بعض أوجه هذه الحكمة:

«ففي جريمة الزنا مثلاً فرقت الشريعة بين المحصن والبكر، فخففت عقوبة البكر، وغلظت عقوبة المحصن، وعلة التخفيف على البكر، والتشديد على المحصن أنّ الإحصان يسد الباب على الجريمة، ويفتح للمحصن أبواب الحلال فانقطعت لذلك الأسباب التي تؤدي إلى الجريمة من ناحية العقل ولم تعد هناك معاذير لتخفيف العقوبة، وأصبح لابد أن يؤخذ المحصن بعقوبة الاستئصال(الرجم)، لأنه مثل سيئ لغيره، وليس للمثل السيئ في الشريعة الإسلامية حق البقاء.

والحكيم (سبحانه) عندما وضع هذه العقوبة إنما كان ذلك لحكمة وهي محاربة الدوافع التي تدعو للجريمة بالدوافع التي تصرف عنها، فالدافع الذي يدعو الزاني للزنا هو اشتهاء اللذة والاستمتاع بالنشوة التي تصحبها، والدافع الوحيد الذي يصرف الانسان عن اللذة هو الألم، ولا يمكن أن يستمتع الإنسان بنشوة اللذة إذا تذوق مس العذاب، وأي شيء يحقق الألم، ويذيقه مس العذاب أكثر من الجلد مائة جلدة؟!

فالحكيم سبحانه وتعالى حينما وضع عقوبة الجلد ووضعها علي أساس من طبيعة الإنسان، وفهم لنفسيته وعقليته، فهي تدفع العوامل النفسية التي تدعو إلى الزنا بعوامل نفسية مضادة تصرف عن الزنا.

وعقوبة الزنا في القوانين الوضعية الحبس وهى عقوبة لا تؤلم الزانى إيلاماً يحمله على هجر اللذة التى يتوقعها من وراء الجريمة ولا تثير فيه العوامل النفسية المضادة للعوامل النفسية الداعية.

أما التغريب فهو عقوبة تكميلية بالنسبة لعقوبة الجلد، وحكمته:

* التمهيد لنسيان الجريمة، بأسرع ما يمكن، وهذا يقتضى إبعاد المجرم عن مسرح الجريمة، لأن بقاءه بين ظهرانى الجماعة يحيى ذكرى الجريمة، ويحول دون نسيانها بسهولة.

* إبعاد المجرم عن مسرح الجريمة يجنبه مضايقات كثيرة في المجتمع، وقد تصل إلى حد قطع الرزق، والمهانة، والتحقير، فالإبعاد يهىء الجانى ليحيا من جديد حياة كريمة.

فالتغريب شُرع لمصلحة الجاني ولمصلحة الجماعة أيضاً، وكثيراً ما نشاهد من تصيبهم معرة الزنا يهجرون موطن الجريمة مختارين لينأوا بأنفسهم عن الذلة والمهانة التى قد تصيبهم في موطن الجريمة.

أما رجم المحصن فهو عين الرحمة به وبالمجتمع، . وكثيراً ما نرى بعض الناس يتصرفون تصرفات هوجاء مثل حرق الزانى، وتقطيع أوصاله، وإغراقه وتهشيم عظامه، والتمثيل به أشنع تمثيل. وأقل الناس جرأة على القتل يكتفى بدس السم للزانى فإذا كان هنا هو الواقع فما الذي نخشاه من عقوبة الرجم؟!

ويقول البعض: إنّ في عقوية الرجم شيئاً من القسوة، ولهؤلاء نقول إن الرجم هو القتل لا غير، ولا فرق بين من يقتل شنقاً أو ضرباً بالفأس أو تسميماً بالغاز أو صعقاً بالكهرباء أو رجماً بالحجارة أو رمياً بالرصاص، فقد لا يصيب الرصاص مقتلاً من أول مرة وقد يصيب الحجر مقتلاً من أول مرة. وعادة رماة الرصاص عددهم محدود، وطلقاتهم معدودة، ورماة الأحجار عددهم غير محدود،

ومائة أو مئات يقذفون شخصاً في مقاتله بالأحجار فسيموت قطعاً أسهل وأسرع من قتيل الرصاص ثم إن التفكير في مثل هذه المسألة لا يتفق مع طبيعة العقاب ، فالعقوبة إذا خلت من الألم لم تعد عقوبة وإنما تصير عبثاً ولعباً .

وفي جريمة القذف جعل الحكيم (سبحانه) العقوبة هي الجلد وعدم قبول شهادة القاذف، ووصمه بالفسوق . وهذه العقوبة تحارب الغرض الذي يرمي إليه القاذف فالقاذف يرمي إلى إيلام المقذوف نفسياً وتحقيره . فكان جزاؤه الجلد ليؤلمه إيلاماً بدنياً، لأن الإيلام البدني هو الذي يقابل الإيلام النفسي، ولأنه أشد منه وقعاً على النفس والحس معاً، والقاذف يرمي من وراء قذفه تحقير المقذوف ، هذا التحقير فردي، لأن مصدره فرد واحد هو القاذف فكان جزاؤه أن يحقر من الجماعة كلها، وأن يكون هذا التحقير العام بعض العقوبة التي تصيبه فتسقط عدالته ولا تقبل له شهادة، ويوصم وصمة أبدية بأنه من الفاسقين . فأي حكمة أعظم من هذه؟!

وعقوبة السرقة القطع، ومن الحكمة في ذلك أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه من كسب غيره، فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال، ويريد أن يكسب عن طريق الحرام، وهو لا يكتفي بثمرة عمله فيطمع في ثمرة عمل غيره، وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته علي الانفاق أو الظهور ليرتاح من عناء الكدّ والعمل أو ليأمن على مستقبله . فالدافع الذي يدفع إلى السرقة هو زيادة الكسب والثراء فحاربته الشريعة بتقرير عقوبة القطع لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الكسب إذ أن اليد والرجل كلاهما أداة العمل أيّاً كان ونقص الكسب يؤدي إلى نقص الثراء ، وهذا يؤدي إلى نقص القدرة على الإنفاق والظهور فالحكيم (سبحانه وتعالى) دفع بهذا الحد

العوامل النفسية التي تدعو إلى ارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن الجريمة.

ولو تأملنا عقوبة المحارب لرأيناها متدرجة حسب عمله ، فالقتل عقوبة قاطع الطريق إذا قَتَلَ وهى حد لا قصاص، فلا تسقط بعفو ولى المجنى عليه، والقاتل في هذه الحال دفعه إلى القتل غريزة تنازع البقاء بقتل غيره ليبقى هو، فإذا علم أنه حين يقتل غيره إنما يقتل نفسه امتنع في الغالب عن القتل.

وإذا قتل وأخذ المال، قتل وصلب، فالقتل والصلب عقوبة مركبة علي جريمة مركبة فتشديد العقوبة هنا لصرفه عن هذه الجريمة المزدوجة .

وإذا أخذ المال ولم يقتل قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى دفعة واحدة . أى قطع يده ورجله من خلاف. فالقطع هنا ضعف ما يحدث في السرقة العادية! لماذا؟

الجواب عن ذلك سهل ميسور وهو أن خطورة قاطع الطريق أشد من خطورة السارق العادى، وفرصته في الإفلات قد تزيد على ضعف فرصة السارق العادي، فهو في أغلب الأحوال علي ثقة من النجاح . . وهذا مما يقوى العوامل النفسية الداعية للجريمة فوجب من أجل ذلك تغليظ العقوبة حتى تتعادل العوامل الدافعة مع العوامل الصارفة في النفس.

وعقوبة النفى على قاطع الطريق إذا أخاف الناس ولم يأخذ مالاً ولم يقتل، وذلك لأنه عندما يخيف ولا يأخذ مالاً ولا يقتل أحداً إنما يقصد من وراء ذلك تحقيق الشهرة والصيت فعوقب بالنفى الذي يؤدى إلى الخمول وانقطاع الذكر.

وعقوبة الردة القتل، لأنها تقع ضد الدين الإسلامى، وعليه يقوم

النظام الإجتماعي للجماعة، فالتساهل في هذه الجريمة يؤدي إلى زعزعة هذا النظام، ومن ثمّ جاءت العقوبة أشد العقوبات استئصالاً للمرتد من المجتمع، وحماية للنظام الإجتماعي.

وعقوبة البغي القتل، لأن هذه الجريمة موجهة إلى نظام الحكم والقائمين عليه، فلابد من تشديدها، لأن التساهل فيها يؤدي إلى الفتن والإضطرابات وعدم الاستقرار وهذا بدوره يؤدي إلى تأخر الجماعة وانحلالها، ولا شك أن القتل أقدر العقوبات على صرف الناس عن هذه الجريمة التي يدفع إليها الطمع وحب الاستعلاء، وعقوبة شرب الخمر الجلد، لأن الدافع الذي يدفع الشارب هو رغبته في نسيان آلامه النفسية والهروب من عذاب الحقائق إلى سعادة الأوهام التي تولدها نشوة الخمر فكانت العقوبة الجلد لترده إلى ما هرب منه، ولتضاعف له الألم إذ تجمع له بين ألم النفس وألم البدن، وترده إلى العذاب الذي هرب منه، و تجمع له بين عذاب الحقائق وعذاب العقوبة.

وفي عقوبة القصاص نجد عين الرحمة والحكمة، وقد بيّن الحكيم سبحانه وتعالى حكمة مشروعية القصاص بياناً شافياً موجزاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

فالحكمة من وراء القصاص هي المحافظة على حياة بني الإنسان، فإذا علم مريد القتل أنه سيقتل إذا قتل امتنع عن القتل خوفاً من العقوبة التي ستوقع عليه، وبذلك يحفظ حياته وحياة من كان يريد قتله.

ثم إنّ مشاهدة إيقاع القصاص على الجاني يؤدي إلى امتناع كثير من مريدي القتل من تنفيذ ما أرادوه إدراكاً منهم أنّ مصيرهم لن يكون أحسن حالاً من مصير ذلك الذي اقتص منه. والحكمة من مشروعية

(١) سورة البقرة/ ١٧٩.

القصاص ليست منحصرة في المحافظة على حياة الناس فحسب بل إن تحقيق العدالة بين الجاني والمجني عليه مراعى عند إيقاع هذه العقوبة، فكما حرم الجاني المجني عليه من التمتع بحياته، وجب أن يحرم الجاني من الحياة ليكون الجزاء من جنس العمل. وليس من المستساغ عقلاً أن يقتل شخصٌ شخصاً بغير وجه حق ثم يرى أولياء المقتول القاتل حراً طليقاً يتمتع بحياته.

وفي القصاص أيضاً شفاءٌ لغيظ أولياء المجني عليه، ومراعاة للجانب النفسي لهم لتهدأ نفوسهم، ويزول غيظ صدورهم فيمتنعوا بذلك عن الانتقام الذي يتجاوز الجاني إلى كل من له صلة به [١].

وبعد؛ ما سبق كان غيضا من فيض من حكمة الحكيم سبحانه وتعالى في شرع العقوبات فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع. فلم يشرع قطع اللسان في الكذب، ولا في الزنا الخصاء ولا في السرقة إعدام النفس، وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه وصفاته من حكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وعدله لتزول النوائب وتنقطع الأطماع عن التظالم والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما آتاه الله مالكه وخالقه، فلا يطمع في استلاب غيره حقه [٢].

فالحكيم (سبحانه وتعالى) لم يشرع دون حكمة وغاية وهدف، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ولذلك مدح سبحانه وتعالى من يتفكرون في مخلوقاته.

---

(١) عبد القادر عوده، التشريع الجنائي الإسلامي، جـ١، ص٦٤٠: ٦٤٩ (بتصرف).
(٢) ابن القيم الجوزيه، أعلام الموقعين، جـ٢، ص٩٥.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(٤).

فالمؤمن دائم التفكير في نفسه، وما في خلقه من آيات عظيمة وحكم كثيرة.

ودائم التفكير أيضاً في الكون المحيط به، وما في هذا الكون من آياته وسنن.

والأحكام الشرعية في الإسلام من لدن حكيم خبير، ولذلك فهي ما جاءت إلا لإسعاد البشرية، وأمنها ولذلك أنكر الحكيم (سبحانه) على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل علي كل خير الناهي عن كل شر، فقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥).

فليس هناك أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها،

---

(١) سورة آل عمران/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) سورة الغاشية/ ١٧ ـ ٢٠.

(٣) سورة الروم/ ٨. (٤) سورة الأعراف / ١٨٥.

(٥) سورة المائدة/ ٥٠.

فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء، العادل في كل شيء [(١)].

ولذلك كان الإعراض عن حكم الله عزّ وجلّ يتراوح بين الكفر الأصغر والكفر الأكبر. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في بيان أنواع الحكم بما أنزل الله: «إنْ اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعَدَلَ عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر، وإنْ اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر»[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[(٣)].

فإفراد الله تعالى بالحكم من عبادته، وعبادته وحده هي الدين القيم.

والحكمة ضالة المؤمن وبغيته.، وهي تعنى معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل. ولذلك امتنّ الله عزّ وجلّ على من يؤتيهم الحكمة، فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [(٤)].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ « الحكمة في كتاب الله نوعان: مفرده، ومقترنة بالكتاب. فالمفردة: فُسّرت بالنبوة، وفُسّرت بعلم القرآن أو هى الاصابة في القول والفعل.. والمقترنة بالكتاب فهى السنة كما قال الشافعى وغيره من الأئمة [(٥)].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٢، ص٦٧.
(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، ص٣٦٥.
(٣) سورة يوسف/ ٤٠.
(٤) سورة البقرة/ ٢٦٩.
(٥) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ٢، ص٤٧٨.

اللهم آتني الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً [١] .

اللهم اجعلني من أوفر الناس نصيباً من الحكمة .

اللهم اجعلني ممن يتفكرون في آلائك ونعمائك ليدرك حكمتك في الخلق والأمر .

اللهم وفق ولاة أمور المسلمين للحكم بشريعتك يارب العالمين .

* * *

(١) قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة ٢٦٩)

السميع البصير

٦٣ ٦٤

السميع اسم من أسماء الله الحسنى. بمعنى السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناء فعيل: بناء مبالغة، كقولهم: عليم من عالم، وقدير من قادر.

والله عزّ وجلّ سميع يسمع السرّ والنجوى، سواء عنده الجهر والخفوت، والنطق والسكوت. فهو الذي يسمع دعوات عباده وتضرعهم إليه، لا يشغله نداء عن نداء، ولا يمنعه إجابة دعاء عن إجابة دعاء.

ويكون السماع أيضاً بمعنى القبول والإجابة، كما في قول النبي (صلى الله عليه وسلم): «**اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع**»[١]. أي دعاء لا يُستجاب، ومثله قول المصلي: «سِمع الله لمن حمده» أي قَبِل الله حمد من حمده.

فهو سبحانه وتعالى السميع الذي يجيب الدعوة عند الاضطرار، ويكشف المحنة عند الافتقار، ويغفر المذلة عند الاستغفار، ويرحم الضعف عند الذل والانكسار.

وقد ذكر السميع في القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة، اقترن في أكثر من ثلاثين منها بالعليم.

كما اقترن في عشرة مواضع بالبصير، وجاء مقترناً بالقريب مرةً واحدةً.

---

(١) رواه أحمد جـ٣/ ١٩٢.

قال تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١) .

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢) .

﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (٣) .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٤) .

يقول ابن القيم :

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

فسمعه تعالى نوعان : أحدهما سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة الخفية والجلية ، وإحاطته التامة بها .

الثاني : سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿إن ربى لسميع الدعاء﴾ وقول المصلى «سمع الله لمن حمده» أى استجاب (٥) .

أما اسم الله البصير : فمعناه الذي أحاط بصره بجميع المُبْصَرات في أقطار الأرض والسموات ، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء . وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة ، وسريان

(١) سورة البقرة/ ١٣٧ .
(٢) سورة الحج/ ٧٥ .
(٣) سورة سبأ/ ٥٠ .
(٤) سورة إبراهيم/ ٣٩ .
(٢) عبد الرحمن آل سعدى ، الحق الواضح المبين ، ص٣٥ .

القوت في أعضائها الدقيقة، ويرىٰ سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها، وجميع النباتات علىٰ اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرىٰ نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك(١).

قال ابن القيم:

وهو البصير يرى دبيب النملة السـ ـــوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ويرى كذلك تقلب الأجفان

فهو سبحانه وتعالىٰ البصير الذي يشاهد الأشياء كلها، ظاهرها وخفيها، يبصر خائنة الأعين وما تخفي الصدور. يشاهد ويرىٰ ولا يغيب عنه ما فوق السموات العلا أو ما تحت الثرىٰ.

وقد ورد اسم البصير في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً، اقترن في أحد عشر موضعاً منها بالسميع.

قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢).

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٣).

والاقتران بين هذين الاسمين له دلالته لأن كلا من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوىٰ والسفلىٰ من الأصوات يسمع سرها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفىٰ عليه جميع اللغات. قال تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ

---

(١) عبد الرحمن آل سعدىٰ، المرجع السابق، ص٣٤-٣٦.
(٢) سورة البقرة/ ٢٣٣.
(٣) سورة غافر/ ٥٦.

قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

قالت عائشة (رضي الله عنها): تبارك الذي وَسعَ سمعُه الأصواتِ، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله (ﷺ) وأنا في جانب الحجرة، وإنه ليخفى عليّ بعضُ كلامها، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. والبصير الذي أحاط بصرُه بجميع المُبْصرات في أقطار الأرض والسموات... فسمعه أحاط بجميع المسموعات وبصره أحاط بجميع المبصرات لا يخفى عليه شيء في المخلوقات ولا في الأرض ولا في السموات!

قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (٢).

فسمعه وبصره (سبحانه) صفتان من صفاته، فلا يخرج مسموع عن سمعه، ولا موجود عن بصره، ولا يحجب الموجودات شيء فيسمع السر والنجوى، ويبصر ما فوق السموات العلي، وما تحت الثرى.

فالله عزّ وجلّ يسمعُ ويبصرُ حقيقةً على ما يليق به، منزهٌ عن صفات المخلوقين ومماثلتهم. وقد جاءت الآيات صريحة في إثبات السمع والبصر لله (عزّ وجلّ) (٣).

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٤).

---

(١) سورة المجادلة/ ١.
(٢) سورة الرعد/ ١٠.
(٣) صالح الفوزان، مرجع سابق، ص٦١.
(٤) سورة المجادلة/ ١.

فالله (عزّ وجلّ) قد سمع قول خولة بنت ثعلبة عندما جاءت تجادل النبي (ﷺ) أي تراجعه في الكلام في شأن زوجها وهو أوس بن الصامت وذلك حين ظاهر منها.

وتشتكي إلى الله (عزّ وجلّ)، فقد قال لها الرسول (ﷺ): قد حُرِّمَت عليه. فقالت: والله ما ذكر طلاقاً. ثم تقول: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي وأن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك. ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي تراجعكما في الكلام. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كلّ الأصوات ويبصرُ كلّ المخلوقات. وقال تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [١].

يقول الله تعالى لموسى وأخيه هارون (عليهما السلام) لما أرسلهما إلى فرعون **(إنني معكما)** أي بحفظي وكلاءتي وبصري لكما (أسمع وأرى) أي أسمع كلامكما وكلام عدو كما وأرى مكانكما، وما يجري منكما ومنه.

وقال تعالى: ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [٢].

(الَّذِي يَرَاكَ) أي يبصرك (حين تقوم) للصلاة وحدك، **(وتقلبك في الساجدين)** أي ويراك إن صليت في الجماعة راكعاً وساجداً وقائماً **(إنه هو السميع)** لما تقوله **(العليم)** به[٣].

فالله (عزّ وجلّ) سميعٌ يسمعُ جميعَ الأصواتِ بصيرٌ يرى كلَّ شيء

(١) سورة طه/ ٤٦.
(٢) سورة الشعراء/ ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٠.
(٣) صالح الفوزان، مرجع سابق، ص٦٢

ولا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (١).

فهو سبحانه وتعالىٰ يسمع من ناداه ويجيب من دعاه: قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (٢).

فكم من داعٍ دعا السميعَ البصيرَ فاستجاب له وأعطاه سؤله، والأمثلة علىٰ ذلك لا يحصيها حصر. فالأنبياء والصالحون بل والعصاة في كل عصر ومصر لا ملجأ لهم عند الكروب إلا السميع البصير القريب.

فهذا رسول الله محمد (ﷺ) يشتد عليه الأذىٰ من قومه بعد موت عمه وزوجه خديجة (رضىٰ الله عنها)، فخرج إلىٰ الطائف رجاء أن يؤوه وينصروه. فدعاهم إلىٰ الله (عزّ وجلّ)، فوجد أعينا عمياً وآذانا صماً، بل وآذوه أشدّ الأذىٰ فأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له صامطين، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتىٰ دميت قدماه... فانصرف راجعاً من الطائف إلىٰ مكة محزوناً، وفي مرجعه دعا بالدعاء المشهور: « اللهم إليك أشكو ضعف قوتىٰ، وقلة حيلتىٰ، وهوانىٰ علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربىٰ، إلىٰ من تكلنىٰ، إلىٰ بعيد يتجهمنىٰ؟ أو إلىٰ عدو ملكته أمرىٰ.، إن لم يكن بك غضب علىٰ فلا أبالىٰ، غير أن عافيتك هىٰ أوسع لىٰ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحلّ عليّ غضبك، أو أن ينزل بىٰ سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك (٣). فاستجاب السميع البصير وأرسل إليه ملك

---

(١) سورة آل عمران/ ٦.   (٢) سورة البقرة/ ١٨٦.

(٣) أخرج القصة ابن هشام عن ابن اسحاق (انظر زاد المعاد جـ٣، ص٣٢).

الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، وهما جبلاها اللذان هما بينهما فقال«لا، بل استأني بهم لعلّ الله يُخْرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً» (١).

وموسى (عليه السلام): ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (٢).

وزكريا (عليه السلام): ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(٣).

ويوسف (عليه السلام): قال الله تعالى عنه وعن النسوة: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤).

والأمثلة من حياة الصالحين كثيرة، روى التنوخي في الفرج بعد الشدة أنّ رجلاً حزن حزناً شديداً، على شيء وأمرٍ أهمه وأقلقه فألح

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥).
(٢) سورة طه/ ٢٥ : ٣٦.
(٣) سورة آل عمران/ ٣٨-٣٩.
(٤) سورة يوسف/ ٣٢ : ٣٤.

في الدعاء، فهتف به هاتف، يا هذا قل:

«يا سامع كلّ صوت، وباريء النفوس بعد الموت، ويا من لا تغشاه الظلمات، ويا من لا يشغله شيء عن شيء»

قال: فدعا بها، ففرّج الله عنه، ولم يسأل الله تلك الليلة حاجة إلا أعطاه.

والمؤمن متيقن من أنّ الله سَميعٌ بصيرٌ «فلذلك يعبد الله عزّ وجّل كأنه يراه فوق سمواته على عرشه، مطلعاً علي عباده ناظراً إليهم، يسمع كلامهم، ويرى ظواهرهم وبواطنهم، وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحي، ويكلم به عبده جبريل، ويأمره وينهاه بما يريد، ويدبر أمر المملكة، وأملاكه صاعدة إليه بالأمر، نازلة من عنده به.

وكأنه يشاهده وقد جاء لفصل القضاء بين عباده، فأشرقت الأرض بنوره ونادى وهو مستو علي عرشه. بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب لله وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم وكأنه يسمع نداءه لآدم «يا آدم، قم فابعث بعث النار» بإذنه، وكذلك نداؤه لأهل الموقف ماذا أجبتم المرسلين وماذا كنتم تعبدون؟

وبالجملة: فيشاهد بقلبه رباً عرّفت به الرسل، كما عرّفت به الكتب... فيجري إيمانه مجرى العيان، وإيمان غيره محض تقليد العميان [1].

فالعبد يستحضر قرب الله عزّ وجلّ منه، وأنه بين يديه يسمعه ويراه، فيبذل جهده في تحسين العبادة وإتمامها وإكمالها، ويعظم ربه ويخشاه ويهابه ويخافه.

---

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، جـ٣، ص١٥٤.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أنّ رسولَ الله (ﷺ) سُئل عن الإحسان، فقال: « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» (١).

فالإحسان أن يعبد المؤمنُ ربَّه في الدنيا علي وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته (٢).

وروىٰ عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: أخذ رسول الله (ﷺ) ببعض جسدىٰ، فقال: «**اعبد الله، كأنك تراه**» (٣).

وخطب عروة بن الزبير إلىٰ ابن عمر ابنته وهما في الطواف، فلم يجبه، ثم لقيه بعد ذلك، فاعتذر إليه، وقال: كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا (٤).

قوله (ﷺ): « **فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

«قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبدَ إذا أمر بمراقبة الله في العبادة، واستحضار قربه من عبده، حتي كأن العبد يراه، فإنه قد يشق ذلك عليه، فيستعين علىٰ ذلك بإيمانه بأن الله يراه، ويطلع علىٰ سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره، فإذا حقق هذا المقام، سَهُلَ عليه الانتقال إلىٰ المقام الثانىٰ، وهو دوام التحديق بالبصيرة إلىٰ قرب الله من عبده ومعيته، حتي كأنه يراه. وقيل: بل هو إشارة إلىٰ أن من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه، فليعبد الله علىٰ أن الله يراه ويطلع عليه، فليستحِ من نظره إليه، كما قال بعض العارفين: اتقِ الله أن يكون أهون الناظرين إليك... وقد قيل: من عمل لله علىٰ المشاهدة، فهو

---

(١) رواه مسلم حديث رقم (٨) كما أخرجه أبو داود والنسائىٰ والترمذىٰ ٢٦١٣.
(٢) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، جـ١، ص١٢٦.
(٣) أخرجه أبو نعيم فىٰ الحلية ٦/ ١١٥، وإسناده صحيح.
(٤) المرجع السابق، جـ١/ ٣٠٩.

عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه، فهو مخلص. وفي هذا إشارة إلى المقامين اللذين تقدم ذكرهما: أحدهما: مقام الإخلاص، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه، وإطلاعه عليه، وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله، وعمل عليه، فهو مخلص لله، لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل.

والثاني: مقام الشهادة، وهو أن يعمل العبد علي مُقتضى مشاهدته لله بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان، حتي يصير الغيب كالعيان وهذا هو حقيقة مقام الإحسان المشار إليه في حديث جبريل (عليه السلام)، ويتفاوت أهل هذا المقام فيه بحسب قوة نفوذ البصائر»[1].

وقد كان السلف الصالح يستحضرون قرب الله عزّ وجلّ منهم واطلاعه عليهم في عبادتهم وفي كل أحوالهم وقد وردت الأحاديث الصحيحة بالندب إلى استحضار هذا القرب كقوله (ﷺ): «**إن أحدكم إذا قام يصلي، فإنما يناجي ربه، أو ربه بينه وبين القبلة**»[2].

وقوله للذين رفعوا أصواتهم بالذكر: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً» وفي رواية: «هو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، وفي رواية: «هو أقرب إلى أحدكم من حبل الوريد»[3].

(١) ابن رجب الحنبلي، مرجع سابق، جـ١، ص١٢٩.
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم (٥٤٧)، وابن حبان (٢٢٦٧).
(٣) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٠٧٤) وغيرهما.

وقوله: « يقول الله (عزّ وجلّ): أنا مع عبدى إذا ذكرنى، وتحركت بى شفتاه» (١).

وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته، ويقول: من لم تقر عينه بك، فلا قرت عينه، ومن لم يأنس بك، فلا أنس.

وقيل لمالك بن مغول وهو جالس في بيته وحده: ألا تستوحش؟ فقال: ويستوحش مع الله أحد!؟

وقال مسلم بن يسار: ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله (عز وجل) (٢).

وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: أما بعد، فأوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حالك في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك والسلام.

وقال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى، وتظهرونها لى، إن كنتم ترون أنى لا أراكم، فأنتم مشركون بى، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم. ورأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما سترنا الله وإياكما (٣).

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى خلق أفعال العباد (٤٣٦)، وصححه ابن حبان (٨١٥)، والحاكم ١/ ٤٩٦ ووافقه الذهبى.

(٢) أبو نعيم، حلية الأولياء، ٢٩٤١٢.

(٣) ابن رجب الحنبلى، مرجع سابق، جـ١، ص٤٠٨، ص٤٠٩.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهرَ يوماً فلا تقلْ　　خلوتُ ولكنْ قلْ عليّ رقيبُ
ولا تحسبنّ الله يغفلُ ساعة　　ولا أنّ ما تخفيه عنه يغيبُ

وروى التنوخي في الفرج بعد الشدة: قال عبد الله بن أحمد بن داسه المقرئ البصري إن بعض الجند اغتصب امرأة من الطريق، فعرض له الجيران يمنعونه منها، فقاتلهم هو وغلمانه حتى تفرقوا، وأدخل المرأة إلى داره، وغلق الأبواب، ثم راودها عن نفسها، فامتنعت، فأكرهها، ولحقها منه شدة، حتي جلس منها مجلس الرجل من المرأة.

فقالت: يا هذا، اصبر حتى تغلق الباب الذي بقى عليك أن تغلقه.

قال: أى باب هو؟

قالت: الباب الذي بينك وبين الله.

فقام عنها، وقال: اخرجى، قد فرج الله عنك.

فخرجت، ولم يتعرض لها.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢).

«اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي» (٣).

---

(١) سورة آل عمران/ ٣٨.
(٢) سورة البقرة/ ١٢٧.
(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وغيرهم، وانظر صحيح الترمذي ٣/ ١٦٦.

«اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع» (١).

* * *

(١) رواه الترمذي وأبو داود، انظر صحيح الجامع ١٠/ ٤١٠ .

العالم العليم الخبير

٦٥ ٦٦ ٦٧

العليم والعالم اسمان متضمنان صفة العلم، فالعالم اسم الفاعل من علم يعلم فهو عالم، والعليمُ من أبنية المبالغة في الوصف بالعلمِ، وهو بمنزلة قدير من القادر.

والعلامّ بمنزلة عليم في المبالغة في الوصف بالعلم إلا أن علاماً يتعدىٰ إلىٰ مفعول [1]. وبناء فعال بناء تكثير وزيادة.

والله عزّ وجلّ عالمٌ وعليمٌ أيْ علمه سبحانه وتعالىٰ بالغٌ شاملٌ لجميع المعلومات محيط بها، سابق علي وجودها، لا تخفىٰ عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء. فقد أحاط علماً بكل شيء: ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهو العليم أحاط علماً بالذى ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما ... قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ ... ـف يكون ذا إمكان

فالله (عزّ وجلّ) هو العليمُ المحيطُ علمه بكل شيء: بالواجبات

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص٥٠، ٥٧.

والممتنعات والممكنات. فيعلم تعالىٰ نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة وهىٰ الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب علىٰ وجودها لو وجدت كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (١).

فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت علىٰ وجه الفرض والتقدير.

ويعلم (تعالىٰ) الممكنات، وهىٰ التىٰ يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد، مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوىٰ والسفلىٰ لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن والجلي والخفىٰ. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢).

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جداً لا يمكن حصرها وإحصاؤها، ولأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه لا يغفل ولا ينسىٰ، وأن علوم الخلائق علىٰ سعتها وتنوعها إذا نسبت إلي علم الله اضمحلت وتلاشت، كما أن قدراتهم إذا نسبت إلىٰ قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم علىٰ ما لم يكونوا عليه قادرين(٣).

فعلمُ الله (عزّ وجلّ) لا نهايةَ له. ومعلومات العبد قليلة محصورة

---

(١) سورة الأنبياء/ ٢٢.   (٢) سورة الأنفال/ ٧٥.

(٣) عبد الرحمن آل سعدىٰ، الحق الواضح المبين، ص٣٧، ٣٨.

لها نهاية. وعلم الله (عزّ وجلّ) مستفادة منه الأشياء أي أن علمه سابق للأشياء وسبب لها. وعلم العبد مستفاد من الأشياء. وعلمُ الله (عزّ وجلّ) لا يتغير بتغير المعلومات، وعلمُ العبدِ يتغير. وعلمُ الله (عزّ وجلّ) ثابتٌ لا يزول، ولا يزيد بالإضافة ولا ينقص بالنسيان. ﴿**وما كان ربك نسيا**﴾، ﴿**لا يضل ربى ولا ينسى**﴾، وعلم العبد جائز الزوال عرضه للنسيان والله (عزّ وجلّ) لا يشغله علمٌ عن علمٍ، والعبدُ يشغله علمٌ عن علم فسبحان من:

علْمُهُ قد أحاط بالكون قدماً ... قبل خلقِ الأرواحِ والجسمانِ
خطّ فى اللوح ما أراد، ولما ... يبدُ للنورِ هيكلَ الإنسانِ
كلُّ شيءٍ أحصاه علماً وعداً ... فى إمامٍ مفصلِ التبيانِ

أما اسم الخبير فهو العالم بالشئ، يقال: «خبرت الشئ واختبرته» إذا علمته [1].

والله (عز وجل) خبير بالأشياء أى عالم بكنهها مطلع على حقيقتها. يعلم دقائقها، فلا تخفى عليه خافية، ولا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجرى في الملك والملكوت شئ، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر ذلك.

فهو سبحانه وتعالى خبيرٌ لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء، ولا تتحرك حركة ولا تسكن ساكنة في السموات والأرض إلا يعلم مستقرها ومستودعها. فالفرق بين لفظى الخبير والعليم أن الخبير

---

(١) الزجاجى، مرجع سابق، ص١٢٧.

يفيد معني العليم المتصل علمه بكنه الأشياء وخفاياها الباطنة .

عَلِم الخبيرُ بواطنَ الأشيــاءِ ... علماً يُحيط بها بغيرِ خفاءِ

ما ذرةٌ سكنتْ بها وتحركتْ ... إلا بعلــم سابــقٍ وقضــاءِ

وقد ورد اسم عالم ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم أضيف في عشر منها إلى الغيب والشهادة، وأضيف في ثلاث منها إلى الغيب وحده .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾(٢) .

كما ورد هذا الاسم مرتين في صورة الجمع :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (٤) .

أما اسم الله العليم فقد ورد في القرآن الكريم أكثر من مائة وخمسين مرة .

قال تعالى : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٦) .

---

(١) سورة التوبة/ ٩٤ . (٢) سورة الجن/ ٢٦ . (٣) سورة الأنبياء/ ٥١ .
(٤) سورة الأنبياء/ ٨١. (٥) سورة البقرة/ ٣٢ . (٦) سورة لقمان/ ٣٤ .

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[١] .

وقد ورد في القرآن الكريم «علامّ الغيوبِ» أربع مرات ثنتان منها في سورة المائدة (١٠٩ , ١١٦):

قال تعالى: ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[٣] .

وفي سورة التوبة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[٤] .

وفي سورة سبأ:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾[٥] .

ويلاحظ إضافة «علامّ» إلى الغيوب في هذه المواضع، والغيوب جمع غيب.

فالزيادة والتكثير في هذا الاسم «علامّ» تشاكل الجمع في غيوب.

أما اسم الخبير فقد ورد في أكثر من أربعين موضعاً في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٦] .

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[٧] .

---

(١) سورة الفتح/ ٤ . (٢) سورة المائدة/ ١٠٩ . (٣) سورة المائدة/ ١١٦ .
(٤) سورة التوبة/ ٧٨ . (٥) سورة سبأ/ ٤٨ .
(٦) سورة آل عمران/ ١٨٠ . (٧) سورة الأنعام/ ١٨ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾(١).

فالله (سبحانه وتعالى) عليمٌ خبيرٌ يعلمُ ما ظهرَ وما بطنَ وما غابَ وما حضرَ لا يند عن علمه شئ في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا طباق الجو.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٢).

فهذه الآية تبين صورة لعلم الله الشامل المحيط الذي يشمل آماد الزمان وآفاق المكان، وأغوار المنظور، والمحجوب والمعلوم والمجهول.

العلم علي كل شئ، المحيط بكل شئ، الحافظ لكل شئ: الصغير والكبير والحقير والجليل، والمخبوء، والظاهر، والمجهول والمعلوم، والبعيد والقريب.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ (٣) آماد وآفاق وأغوار في المجهول المطلق في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل وفي أحداث الحياةوتصورات الوجدان.

﴿ويعلم ما فى البر والبحر﴾ آماد وآفاق وأغوار في المنظور على استواءٍ وسعة و شمول.. تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في غالم الغيب المحجوب.

---

(١) سورة الإسراء/ ٣٠.
(٢) سورة الأنعام/ ٥٩.
(٣) سورة الأنعام/ ٥٩.

﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ حركة الموت والفناء، وحركة السقوط والانحدار من علو إلى سفل، ومن حياة إلى اندثار. ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾. . حركة البزوغ والنماء، المنبثقة من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. . التعميم الشامل الذي يشمل الحياة والموت، والازدهار والذبول، في كل حي على الإطلاق»(١).

ومن الأمور التي اختص الله بعلمها ما ورد في آخر سورة لقمان .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢). فهذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى له بها، فعلمُ وقت الساعة لا يعلمه نبيٌ مرسلٌ ولا ملكٌ مقربٌ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه.

وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها وما تدري نفس بأي أرض تموت، في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان لا علم لأحد بذلك(٣).

وقد روى ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص١١١٣.
(٢) سورة لقمان/ ٣٤.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، ص ٥٣.

«مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله: إنّ الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير»(١).

والله عزّ وجلّ قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه، ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقع دائم، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها، وهم لا يعلمون متى تأتي، فقد تأتيهم بغتة في أي لحظة، ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد، وكنز الرصيد، والله ينزل الغيث وفق حكمته، بالقدر الذي يريده، وقد يعرف الناس بالتجارب والمقايس قرب نزوله، ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه والنص يقرر أن الله هو الذي ينزل الغيث، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية والتي تنظمه فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة.. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ اختصاص بالعلم كالاختصاص في أمر الساعة فهو سبحانه الذي يعلم وحده علم اليقين ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كلّ طور.. من فيض وغيض. ومن حمل حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم.. ونوع هذا الحمل ذكر أو أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته.. فكل أولئك مما يختص الله بعلمه.. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ماذا تكسب من خير وشر، ومن نفع وضر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض، ومن طاعة ومعصية، فالكسب أعم من الربح المالي وما في معناه، وهو في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء وفي كتاب التفسير.

ما تصيبه النفس في الغداة. وهو غيب مغلق عليه الستار. . وكذلك ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فذلك أمر وراء الستر المسبل السميك الذي لا تنفذ منه الأسماع والأبصار. والسياق القرآنى يعرض هذه الغيبيات في رقعة فسيحة هائلة.

رقعة فسيحة في الزمان والمكان وفى الحاضر والواقع، والمستقبل المنظور والغيب السحيق، وفى خواطر النفس، ووثبات الخيال ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيد المصدر، وما في الأرحام الخافى عن العيان، والكسب في الغد، وهو قريب في الزمان ومغيب في المجهول. . وموضع الموت والدفن وهو مبعد في الظنون إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء تجتمع أطرافها كلها عند نقطة الغيب المجهول، وتظل هذه الأشياء مغلقة في وجه الإنسان لأنها فوق مقدور الإنسان ووراء علم الإنسان. . فهي خالصة لله لا يعلمها غيره، إلا بإذن منه وإلا بمقدار. ﴿إن الله عليم خبير﴾ وليس غيره بالعليم ولا بالخبير[1].

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تبرز إحاطة علم العليم الخبير (سبحانه)، فقد نبأت هذه الآيات بأمور لم يكن أحد يعلمها وقت نزول القرآن. ثم وقعت مطابقةً تماماً لما نزل في القرآن.

فقد نص القرآن الكريم من أخبار الماضى والمستقبل ما يعجز عنه البشر

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[2].

---

(١) سيد قطب، فى ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٧٩٨، ص ٢٧٩٩.
(٢) سورة يوسف/ ١٠٢.

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(١).

ومن هذه الأخبار التي أخبر بها العليم الخبير:

*ذكر القرآن الكريم قصة رسولين، وفدا إلى مصر وكان لهما شأن فيها، وهم يوسف وموسى عليهما السلام، أما يوسف فقد ذكر أنه قابل حاكم مصر، وكان له معه شأن فقد أوّل له رؤياه، وصار مقرباً منه ممكناً في الأرض. وقد أطلق القرآن الكريم على هذا الحاكم لقب«ملك» وجاء ذلك اللقب خمس مرات في سورة يوسف. أما موسى عليه السلام فقد ولد في مصر، ثم تركها، ثم عاد إليها، بعد إعلامه بالرسالة ليدعو حاكمها. وقد لقب الحاكم في أيامه بلقب فرعون، ولم يطلق عليه لقب الملك أبداً. وقد ذكر هذا اللقب أربعاً وسبعين مرة في سبع وعشرين سورة من القرآن الكريم. فلماذا لُقّب الحاكمُ أيام يوسف (عليه السلام) بالملك، ولُقب أيام موسى (عليه السلام) بالفرعون؟

الإجابة على هذا السؤال لم يعرفها علماء الآثار إلا منذ عهد قريب بعد انكشاف حجر رشيد ومعرفة الكتابة المصرية القديمة. فلقب فرعون اختص به الحكام المصريون فقط ومعناه الباب العالي. أما الحكام الأجانب فقد كانوا يلقبون بلقب ملك. وعندما جاء يوسف (عليه السلام) إلى مصر لم يكن حاكم مصر من المصريين، وإنما كان من الرعاة الهكسوس، ولذلك لقب بالملك. أما في أيام موسى ـ عليه السلام ـ فقد كان مصرياً، ولم يكن أجنبياً، ولذلك لقب بالفرعون.

فالقرآن الكريم وضع كل لقب في موضعه ليكون ذلك من دلائل

---

(١) سورة آل عمران/ ٤٤.

إعجازه بعد اثنى عشر قرناً من الزمان . ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾(١) .

*وقد أخبر العليم الخبير المسلمين بمستقبل الدين الإسلامى، وأنه سيتمكن في الأرض، وسيظهره على ما سواه، مع أن المسلمين وقتها كانوا قلة مستضعفين في الأرض.

قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(٢) .

وصدقت هذه النبوءة، وعلا الإسلام وانتشر وهو في علو وانتشار إلى قيام الساعة، في كل يوم يدخل فيه أفراد وجماعات ممن شرح الله صدورهم.

* وأخبر العليم الخبير عن مستقبل القرآن الكريم، وذكر (سبحانه وتعالى)أن هذا القرآن سيحفظ إلى قيام الساعة قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٣) .

والعجيب أن هذه النبوءة تصدق كل يوم، فالقرآن الكريم منذ أن نزل على خاتم المرسلين ﷺ ما زال كما هو لم تقترب منه يد بشر، فهو محفوظ بحفظ الله له. وعلى الرغم من كثرة أعداء الإسلام، واتحاد كلمتهم على كراهيته، فإنهم قد سُخّروا من حيث لا يدرون لخدمة هذا القرآن. فهم الذين اخترعوا ماكينات الطباعة، والتى طبعت بها الكتب المختلفة، وطبع بها القرآن الكريم ليسهل تداوله، وليكثر في أيدى

---

(١) سورة هود/ ٤٩ .
(٢) سورة التوبة / ٣٣ .
(٣) سورة الحجر/ ٩ .

الناس . وهم الذين اخترعوا أجهزة الكمبيوتر التى سطرت على شاشاتها الآيات القرآنية . ، وعدت بها حروفه وكلماته . وأخبر العليم عن مستقبل بنى الإسلام وفى أنه سيحفظه ويعصمه من الناس .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾(١) ل

وهذا ضمان لا يملكه بشر ، لأن محمداً ﷺ كان مستهدفاً من قبل الكثيرين من أعدائه من اليهود والمشركين والمنافقين وبلغ من ثقة الرسول بهذا الوعد كما يروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : أنه كان يُحرس بالليل ، فلما نزلت هذه الآيه قال : ﴿يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله﴾(٢) .

* أخبر العليم الخبير عن مستقبل جماعة المسلمين فنزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بمكة والمسلمون يومئذ قلة يعدهم الأمن والنصر والغلبة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(٣) . . فلما هاجروا إلى المدينة ، ظنوا أنهم قد وجدوا مأمنهم في مهاجرهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب وتكالب عليهم الأعداء من كل جانب فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد .

وأصبحت كلّ أمنيتهم أن يجئ يوم يضعون فيه السلاح . في هذه

---

(١) سورة المائدة/ ٦٧ .

(٢) رواه الطبرى ٤٦٩/ ١٠ والترمذى(٣٠٤٩) فى التفسير عن عائشة ، وصححه الحاكم ٢/ ٣١٣ ووافقه الذهبى .

(٢) سورة الصافات/ ١٧١ـ١٧٣ .

الفترة العصيبة يخبرهم العليم الخبير بما سيكون من الخلافة والملك، علاوة على الأمن والاطمئنان(١).

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٢).

* ومُنعَ المسلمون من دخول مكةَ عام الحديبية، واشترطت قريش عليهم إذا جاءوها في العام المقبل أن يدخلوها بدون سلاح إلا السيوف في القرب. فكيف يأتمنون قريشاً، ويدخلون مكة بدون عدة حربية كاملة؟!! وماذا لو رشقهم أهل مكة بالنبال والسهام؟!! في هذا الوقت العصيب يأتيهم وعد من الله العليم الخبير بثلاثة أشياء: الدخول والأمن وقضاء الشعيرة.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾(٣) فدخلوها في عمرة القضاء آمنين، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم.

*وأخبر العليم (سبحانه وتعالى) عن: مستقبل الكافرين، فعندما استعصى أهل مكة على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فاستجاب الله له، وأصابهم القحط والفقر حتي أكلوا العظام، وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٣٠١.
(٢) سورة النور/ ٥٥.
(٣) سورة الفتح/ ٢٧.

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

فاستعطفوا فنزل: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾(٢).. وفي ذلك ثلاث نبواءات:

١ـ كشف العذاب قليلاً.

٢ـ عودتهم إلى مكرهم السيء.

٣ـ الانتقام منهم بعد ذلك.

فعندما تضرعوا، وقالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾(٣). سقاهم فأخصبوا، ولكنهم عادوا إلى مكرهم السيء، فبطش بهم البطشة الكبرى في يوم بدر حيث قُتل من صناديدهم سبعون، وأُسر سبعون.

*وقد أخبرهم العليم الخبير عن هزيمتهم الحربية في يوم بدر ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٤). ونزلت هذه الآية في مكة ولم يكن أحد يومها يفكر في اللقاء الحربي، فضلاً عن فرارهم ﷺ حتى إنّ عمر (رضي الله عنه) لما نزلت هذه الآية جعل يقول: أي جمع هذا؟ قال: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ(٥).

*وأخبر العليم الخبير عن معركة حربية تقع بين الروم والفرس،

(١) سورة الدخان/ ١٠, ١١

(٢) سورة الدخان/ ١٥، ١٦.

(٣) سورة الدخان/ ١٢.

(٤) سورة القمر/ ٤٥.

(٥) انظر تفسير ابن كثير، ج٤، ص ٢٢٦.

وحدّد نتيجة المعركة قبل وقوعها ببضع سنين. بل حددّ يوم وقوعها، وأشار إلى أنه في هذا اليوم سيفرح المؤمنون. وتحققت النبوءة بالكامل. والتقت في هذا اليوم الروم، والفرس، وانتصرت الروم علي الفرس، والتقي أيضاً المسلمون مع الكافرين في بدر، وانتصر المسلمون في اليوم نفسه كما أخبر القرآن.

قال تعالى: ﴿آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

فقد كان المشركون في مكة يجادلون المسلمين قبل الهجرة، ويقولون لهم: إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب، وقد غلبهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم، فنزلت الآيات السابقة.

وفي الآيات السابقة تحديد دقيق﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ كما أن هناك ربطاً بين هذا النصر نصر الروم على الفرس وانتصار المسلمين على المشركين في بدر ويكون ذلك في يوم واحد.

وهذا يستحيل أن يتنبأ به بشر، لأنه ربط لأمور في الغيب، ولحوادث لا صلة لإحداها بالأخرى. فلا توجد أسباب ووسائل تربط بين معركة المسلمين مع قريش، ومعركة الفرس مع الروم. والعجيب أن الروم كانوا قد بلغوا من الضعف حداً كبيراً، حتى غزوا وهزموا في عقر دارهم، وهذا يجعل المتنبأ يحجم عن الكلام في انتصارهم على الفرس فسبحان العليم الخبير.

---

(١) سورة الروم/ ١: ٥.

وقد يسأل البعض لماذا قال في بضع سنين ولم يحدد الوقت تحديداً أدق من هذا في يوم كذا في شهر كذا في عام كذا، وهو سبحانه وتعالى العليم الخبير؟

والجواب على ذلك يسير، وهو أن هذا الأمر يرجع إلى المتلقين للنبأ، فالناس في حساباتهم لا يجرون على وتيرة واحدة، فمنهم من يحسب بالشمس، ومنهم من يحسب بالقمر، ومنهم من يكمل الكسور، ومنهم من يلغيها. فكان مقتضي الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع للشبهة وأبعد عن الجدل. وربما امتدت الحرب أياماً وشهوراً، ولذلك لم يقل ﴿**بعد بضع**﴾وإنما قال ﴿**فى بضع**﴾وفى الآية لمحة طريفة في قوله تعالى: ﴿**فى أدنى الأرض**﴾ ويقصد بها المنطقة المحيطة بالبحر الميت، وقد ثبت علمياً أنها أدنى بقعة أى أخفض بقعة على اليابسة.

هذا غيض من فيض من إخبار العليم الخبير في القرآن الكريم عن أنباء الغيب ولا يتسع المجال هنا لذكر أكثر من ذلك. وهناك مؤلفات عن الإعجاز العلمى في القرآن الكريم ذكرت كثيراً من هذه الأمور.. فمن أراد الاستزاده فليراجعها.

وكل علم يتعلمه الإنسان مصدره العليم الخبير فهو سبحانه وتعالى الذي يمد الإنسان بكل علم، وكل فتح، فمنه وحده التعليم والمعرفه، وأجل علم علمه الله عز وجل للإنسان هو القرآن الكريم، فهو النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الله بالإنسان، هذا القرآن الذي يعتبر الأساس الثابت الذي يقيم عقيدة أهل الأرض وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم وأحوالهم على الحق، ويرشدهم إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

والعلم بصفة عامة له مكانة عظيمة فهو الضياء الذي يشرق علي

العقول فيحيها بعد موتها، وينيرها بعد ظلمتها، ولذلك حفل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بما يحضّ علي العلم ويرغب فيه.

فأول آية نزلت من السماء في القرآن الكريم بدأت بالفعل﴿اقرأ﴾ لتحض علي القراءة والتعلم، ثم ذكر بعدها القلم كأداة من أدوات العلم لا غنى عنها.

وثانى سورة نزلت في القرآن الكريم بعد السورة السابقة سورة القلم، وبدأت بالقسم بأداتين من أدوات العلم وهما: نون: وهى الدواة علي ما ذهب إليه بعض المفسرين، والقلم، قال تعالي: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(١). وليست هناك إشادة بالعلم أعظم من رفع الحق لمكانة حامليه قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾(٣).

وقد استشهد الحق (سبحانه) في الآية السابقة بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده، وهذا يدل على فضل العلم وأهله لأنّ الله (عزّ وجلّ) لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

فحامل العلم له مكانته وفضله، وهو لا يستوي مع غيره من سائر الناس، عن أبى أمامة(رضى الله عنه) قال: ذكر لرسول الله ﷺ

---

(١) سورة القلم/ ١ ,٢.
(٢) سورة المجادلة/ ١١.
(٣) سورة آل عمران/ ١٨.
(٤) سورة الزمر/ ٩.

رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، ثم قال: إن اللهَ وملائكته، وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتي الحوت ليصلون على معلم الناس الخير**»(١).

والعلماء مغبوطون بنعمة العلم، لأنها أجل نعمة وأعظم منحة. عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»(٢).

والعلماء يكرمون بعلمهم في الدنيا، ويؤجرون عليه في الاخرة فكم من رجل لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم رفعت مكانته بعلمه ومن أجمل ما ورد في ذلك قصة ابن أبزى فيروى أن نافع ابن الحارث لقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر ولاه على مكة فسأله: من استخلف علي أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال عمر: فاستخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله (عزّوجلّ)، وإنه عالم بالفرائض(المواريث) قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ، قد قال: «إن اللهَ يرفعُ بهذا الكتابِ أقواماً ويضعُ الآخرين»(٣).

وطالب العلم لاحد لطموحه في الإسلام فهو أبداً يطلب المزيد من العلم.

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(٥).

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح(رقم/ ٢٦٨٦).

(٢) رواه الشيخان(البخاري ١/ ١٥٢)، ومسلم(٨١٦).

(٣) رواه مسلم(٨١٧). (٤) سورة طه/ ١١٤.

(٥) سورة يوسف/ ٧٦.

وقد قال معاذ بن جبل (رضي الله عنه) : «تعلموا العلم فإنَّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة، وبذله لأهله قربة، به يعرف الله ويعبد، وبه يوحد، ويه يعرف الحلال من الحرام، وتوصل الأرحام، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة، والدليل علي السراء، والمعين على الضراء، والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء، ومنار سبل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدي بهم، أدلة في الخير، تقتفى آثارهم وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتهم تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه، و سباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، والعلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة للأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، التفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، وهو إمام للعمل، والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء»[١] .

ومفتاح العلم النافع في الدنيا والآخرة تقوى الله (عزّ وجّل) .

قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢] .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[٣] .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[٤] .

---

(١) رواه أبو نعيم والخطيب وغيرهم، انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ص ١٥٣ .
(٢) سورة البقرة/ ٢٨٢ .
(٣) سورة طه/ ٢٥ : ٢٨ .
(٤) سورة طه/ ١١٤ .

«اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً»[١].

«اللهم إني أسألك علماً نافعاً، وأعوذ بك من علم لا ينفع»[٢].

«اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً»[٣].

«اللهم فقهني في الدين»[٤].

«يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الأوهام والظنون، ولا تغيره الحوادث، ولا يصفه الواصفون، يا عالماً بمثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، لا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرض أرضاً، ولا جبل ما في وعره، ولا بحر ما في قعره. أسألك أن تجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك، وخير ساعتي مفارقة الأحياء من دار الفناء إلى دار البقاء التي تكرم فيها من أحببت من أوليائك، وتهين فيها من أبغضت من أعدائك، أسألك إلهي عافية جامعة لخير الدنيا والآخرة منّاً منك عليّ وتطولاً يا ذا الجلال والإكرام»[٥].

* * *

(١، ٢، ٣) رواه ابن ماجه وانظر صحيح ابن ماجه ١/ ١٥٢، ٢/ ٣٢٧، ١/ ٤٧.

(٤) مأخوذ من دعاء رسول الله ﷺ لابن عباس (رضي الله عنهما)، رواه البخاري ومسلم ٤/ ١٧٩٧.

(٥) ابن الجوزي، مرجع سابق، ج٤، ص ٤١٦.

الرقيبُ الشهيدُ الحافظُ الحفيظُ

٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١

الرقيبُ اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، الحفيظ الذي لا يغفل، الحاضر الذي لا يغيب، العليم الذي لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه، يرى أحوال العباد ويحصى أعمالهم ويحيط بمكنونات سرائرهم، فهو مطلع على الضمائر شاهد على السرائر، يعلم ويرى ولا يخفى عليه السر والنجوى. من الأسرار قريب وعند الاضطرار مجيب.

إذا خلوت يوماً فلا تقل خلوت ولكن قلْ: عليّ رقيبُ
ولا تحسبن اللهَ يغفلُ ساعةً ولا أنّ ما تخفيه عنه يغيبُ

وقد ورد هذا الإسم في القرآن الكريم ثلاث مرات.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾(١).

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢).

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ

---

(١) سورة النساء/ ١.

(٢) سورة المائدة/ ١١٧.

﴿إلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾(١) .

فالرقيب (سبحانه) يراقب الأشياء ويلاحظها. فلا تفوته لفتة ناظر، ولا فلتة خاطر، ولا تغيب عنه ذرة في السموات ولا الأرض.

يقول ابن القيم :

وهو الرقيبُ على الخواطرِ واللوا ... حظِ كيف بالأفعالِ والأركانِ

أما الشهيد فهو مشتق من الشهود بمعنىٰ الحضور، ويستلزم ذلك العلم، فالله عزّ وجلّ شهيد أيْ مطلع علىٰ كلّ الأشياء، يسمع جميع الأصوات، خفيها وجليها، يبصر جميع المخلوقات دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيْء.

فهو (سبحانه) شهيد أيْ حاضر مع كل مخلوق في كل زمان ومكان، لا يغيب عنه شيْء في ملكه، وكل شيْء داخل ملكه. مطلع علي كل شيْء، مشاهد له، عالم بتفاصيله، بالغ الغاية في علمه بالأمور الظاهرة المشاهدة.

وهو (سبحانه) شهيد يشهد علىٰ الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد من أفعالهم. وهناك ارتباط بين أسماء العليم والخبير والشهيد، فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم، ، وإذا أضيف إلىٰ الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلىٰ الأمور الظاهرة فهو الشهيد.

والفرق بين الرقيب والشهيد أن الرقيب فيه زيادة حفظ، فالشهيد مطلع علي جميع الأشياء لا يغيب عنه شيْء في الوجود، والرقيب مطلع عليها حفيظ لها.

---

(١) سورة الأحزاب/ ٥٢.

وقد ورد اسم الله الشهيد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾(٢). ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾(٣).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(٤).

وتشترك الأسماء الثلاثة الرقيب والشهيد والمحيط في صفة العلم بيد أن الرقيب يفيد مع العلم الحفظ، والشهيد يفيد مع العلم الحضور، والمحيط يفيد مع العلم القدرة والشمول.

أما الحافظ الحفيظ فهو من الحفظ، والحفظ معناه صون الأشياء عن الزوال.

فالله (سبحانه وتعالىٰ) هو الحفيظ الذي يرعىٰ خلقه ويصونهم، وهو الحفيظ أيضاً العالم بجميع المعلومات علماً لا تغير له ولا زوال، وهو المحيط بما في السموات والأرض.

وقد ذكر ابن القيم معنىٰ الحفيظ فقال:

وهو الحفيظ عليهم وهو الكفـــ ـــيل بحفظهم من كل أمر عان

«فللحفيظ معنيان: أحدهما أنه قد حفظ علىٰ عباده ما عملوه من

---

(١) سورة آل عمران/ ٩٨.

(٢) سورة النساء/ ٣٣. (٣) سورة العنكبوت/ ٥٢.

(٤) سورة الفتح/ ٢٨.

خيرٍ وشر وطاعةٍ ومعصيةٍ، فإنَّ علمه محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علم الله بأحوال العباد كلّها ظاهرها وباطنها، وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير أجزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاتهم عليها بفضله وعدله.

والمعني الثاني للحفيظ: أنه تعالي الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال: «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عان» أي شاق مكروه. وحفظه لخلقه نوعان: عام و خاص.

فالعلم: حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشي إلى هدايته وإلى مصالحها بإرشاده وهدايته العامة التي قال عنها: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١) أي هدى كلّ مخلوقٍ إلى ما قدّر له وقضى له من ضروراته وحاجاته كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره والمضار، وهذا يشترك فيه البرّ والفاجر بل الحيوانات وغيرها. فهو الذي يحفظ السموات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكل بالآدمي حفظةً من الملائكة يحفظونه من أمر الله، أي يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه سوى ما تقدم، بحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل يقينهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها بسلامةٍ وحفظٍ وعافيةٍ. ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢) وهذا عام في دفع جميع ما يضرهم في

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠. (٢) سورة الحج، آية: ٣٨.

دينهم ودنياهم، فعلي حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك«أي الله فظ أوامره بالامتثال ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعديها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك من فضله»(١).

وقد ورد اسم الحفيظ في القرآن الكريم ثلاث مرات.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾(٢).

﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾(٣).

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾(٤).

وورد اسم الحافظ أيضاً ثلاث مرات في القرآن الكريم.

مرة بصيغة المفرد:

قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٥).

ومرتين بصيغة الجمع:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٦).

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾(٧).

والله سبحانه وتعالى رقيب علي كلّ شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

---

(١) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص ٥٩ : ٦١.
(٢) سورة هود/ ٥٧. (٣) سورة سبأ/ ٢١
(٤) سورة الشورى/ ٦. (٥) سورة يوسف/ ٦٤.
(٦) سورة الحجر/ ٩. (٧) سورة الأنبياء/ ٨٢.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾(١).

﴿وَهُوَ معكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٣).

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٤).

فهو سبحانه وتعالى رقيب ومطلع على كل شيء، وحاضرٌ وشهيدٌ لا يغيب، وهو بالمرصاد أي يرصد الأعمال والأفعال لا يفوته شيء، ولا يند عنه شيء. فهو سبحانه وتعالى رقيب شهيد حفيظ يحفظ بانتظام وميزان ما في السموات والأرض، وما في البر والبحر، من رطب ويابس فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فخالق هذا الكون يضبط كل شيء فيه ويرعاه، ويحفظه ولا ينساه.

ومن آثار رقابته ورايته وحفظه (سبحانه وتعالى) أن جعل ملائكة يكتبون ويسجلون أعمال العباد: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٥).

وفي الحديث الصحيح عن أبى هريرة(رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرجُ الذين باتوا فيكم، فيسألهم الله ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: تركناهم**

---

(١) آل عمران/ ٥. (٢) سورة الحديد/ ٤.

(٣) سورة الفجر/ ١٤.

(٤) سورة غافر/ ١٩.

(٥) سورة ق/ ١٨.

وهم يصلون، وأتيناهم وهو يصلون»[١] .

قال ابن عباس(رضي الله عنه) : وهؤلاء الملائكة يكتبون كل ما يتكلم به الناس من خير أو شر حتى أنه ليكتب قوله أكلت شربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر ما وألقى سائره وذلك قوله تعالى : ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾[٢] .

وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله[٣] .

فأقوال العبد وأفعاله تحفظ عليه .

وقد أثبت العلم الحديث إمكانية استرجاع ما يصدر عن الإنسان من الأصوات ، ذلك أن كلام الإنسان يتحول إلى موجات هوائية وأن هذه الموجات تبقى كما هي في الأثير إلى الأبد بعد حدوثها ، ومن الممكن سماعه مرة أخري ، ولكن علم البشر الآن قاصر عن إعادة هذه الأصوات أو حفظ تلك الموجات مرة أخرى ، ولكن من ناحية علمية نظرية من الممكن التقاط هذه الأصوات مرة أخري وسماع الأصوات القديمة إذا ما نجح الإنسان في اختراع آلة تقوم بذلك . وهذا يجعل ما أخبر به القرآن من تسجيل ما ينطق به الإنسان أمراً سهلاً ميسوراً .

---

(١) متفق عليه (البخاري ٢/ ٢٨ , ٣١)، ومسلم(٦٣٢).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٤.

«يقول الدكتور (باورز) الأمريكي: «إنّ الكلمة إذا خرجت من فم القائل، مضت كالسهم لا ماح لأثرها، وأشد منها الفعلة، فإنها متى فعلت بقيت علي الأبد مفعولة.. كالكلمة وبقيت مسترسلة في فضاء الزمن اللانهائي، وسواء أكانت ظاهرة أو مستترة فستبقى فعالة تزكوا أبداً، وتنمو عنصراً جديداً لا يفنى ولا ينعدم».

ويقول (وليم جيوس)«إننا إذا ألقينا حجراً في وسط المحيط فإن هذا الحجر الملقي يحدث تموجات، وذبذبات في البحر إلى الأبد. إننا في كل مرة نحرك فيها يدنا نخلق تموجات في الأثير الكوني(الأشعة الكونية) لا تنقطع أبداً، وهذا يصدق على الأفعال والأصوات فإن الصوت يحدث أيضاً تذبذبات كهربائية لا تنقطع أبداً، ويمكن التقاط الأصوات للكائنات في مختلف العصور إذا وفقنا لجهاز التقاط مناسب، لأن أصواتهم لازالت تجول حول العالم في رحلات أبدية خلا الأثير (الإشعاع الكوني)»[1].

فكلُّ كلمةٍ أو حركةٍ أو فعلةٍ محفوظةٌ في الفضاء، ومسجلة في صحائف الكرام الكاتبين. وتمثل الطبقات الهوائية أي الغلاف الهوائي للأرض مظلة فولاذية واقية من الأخطار الفضائية، وهي مظلات في غاية الليونة واللطافة ولا تشاهد بالأبصار. وهذا الغلاف يصل ارتفاعه إلى حوالي (١٠٠٠)كيلو متر، ويتكون هذا الغلاف من ٢١ ٪ أكسجين، ٧٨٪ نيتروجين، ١ ٪ غازات أخري، وهو غلاف غازي، والغاز صورة من صور المادة، ولذلك سماه الحق ـ سبحانه ـ سقفاً.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[2].

---

(١) انظر ابن خليفة عليوي، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٢) سورة الأنبياء/ ٣٢.

وهذا السقف محفوظ بجاذبية الأرض له، ولذلك لا يتسرب ولا يتلاشى في الفضاء، وهو أيضاً حافظ لما فيه ولما يعيش في كنفه، لما يلي:

١ـ به الأُكسجين والنتروجين وكلاهما لازم لحياة الإنسان والحيوان والنبات علي سطح الأرض.

٢ـ يحفظ دورة الماء التي تسير فيه من التبخر حتى التكثف.

٣ـ يحفظ الصوت ويرجعه مرة ثانية، وقد أقسم بهذا المولى (عزّ وجلّ) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾[1].

٤ـ يحمي الحياة على ظهر الأرض من أهوال الفضاء من أشعة فتاكة وشهب ونيازك، ومن درجة الحرارة المنخفضة جداً حوالى ٢٧٠ درجة مئوية تحت االصفر في الفضاء الكوني.

٥ـ ينظم هذا الغلاف درجات الحرارة على سطح الأرض.

فسبحان الحفيظ الذي خلق هذا السقف المحفوظ ليحفظ مخلوقاته!

وصدق الشاعر:

جلّ الحفيظُ فلولا لطفُ قدرته ... ضاع الوجودُ وضلّ النجم والفلكُ

حتى القطيرة من ماء إذا نزلت ... من السحب لها في حفظها ملكُ

أما آثار الحفظ والرعاية والعناية في داخل جسم الإنسان فلا يحصيها المقال.

وندع الدكتور خلوق نور باقي يحدثنا بأسلوبه العلمي الممتع عن

---

(١) سورة الطارق/ ١١.

بعض الآثار والتي تتمثل في منظومة الدفاع في داخل الجسم، فيصف لنا أين تنشأ وتنمو هذه الكتائب؛ وأين تتدرب؛ ونوع التدريب الذي تتلقاه، وكيف تقوم بعلمها، ووصف لمعركة ميدانية بين هذه الكتائب والغزاة، وكيف تتصرف هذه الكتائب عندما تشعر بإنكسارها أمام هؤلاء الغزاة، وأين توجد قوات حرس الحدود في جسم الإنسان، والمناورات العسكرية التي تقوم بها.

يقول: «تتكون منظومة الدفاع عند الإنسان في العمود الفقرى في نخاع العظام والحكمة أو السر في ذلك، هو أن الخلايا الدفاعية تنمو بانقسامات عديدة ومعقدة، ولكى تحفظ هذه الخلايا التي تمر بكل هذه الانقسامات وتصان من التأثيرات الخارجية الضارة، ترى أن الخالق العليم قد وضعها في أبعد الأماكن عن التأثير الضوئى في أجسامنا، وأكثرها أمناً، ألاو هى نخاع العظام.. ونخاع العظام مختبر بيلوجى عجيب.. فهو مختبر يستطيع فيه النخاع بواسطة خلية واحدة صنع خلايا لا تعد ولا تحصى. خلايا ذات قابليات عديدة ومدهشة. وفى جميع الأحياء نجد الخلايا تستطيع تكرار نفسها فقط.. ولكن هناك استثناء واحد هو نخاع العظم ففى نخاع العظم وبواسطة خلية اعتيادية جداً يصنع كل نوع من أنواع الخلايا! فكيف تنتج خلية معينة خلية أخرى مختلفة عنها لا علاقة لها بها على الإطلاق؟! هذا سر إلهى؟! بعد أن يتم صنع الخلايا اللمفاوية في نخاع العظم ترسل هذه الخلايا إلى الغدة «العصنزيه» الموجودة قرب قاعدة العنق للتعلم والتدرب.. وفى هذا المركز التدريبى تتعلم ويطبع فيها ما يقارب ثلاثين ألفاً من الشفرات، لماذا؟ لأن جسم الانسان يحتوي على ما يقارب ثلاثين ألف نوع من أنواع الخلايا، وكل خلية لها شفرة معينة وخاصة بها لذا يجب

علي الخلية اللمفاوية تعلم وحفظ جميع هذه الشفرات في هذا المركز التدريبي.

وماذا بعد هذا التدريب الدقيق؟

تقوم الخلايا بالتجول في أنحاء الجسم في شبكة تحيط بكل جزء من أجزاء الجسم ابتداء من الشعرة في الرأس حتى أخمص القدمين.. وهذا النظام الشبكي ليست شبكة الأوعية الدموية التي نعرفها والتي تنقل الدماء النقية المحملة بالأكسجين وإنما شبكة الدم الأبيض و الذي نلاحظه عندما نجرح جرحاً خفيفاً فتخرج مادة بيضاء، هي دماء هذا النظام.. وتجول الخلايا اللمفاوية ضمن هذه الشبكة مراقبةً كل خلايا الجسم عشر مرات يومياً على الأقل.. فتقوم هذه الخلايا بفحص جميع الأنسجة والخلايا، فإذا عثرت على خلية لا توافق شفرتها الشفرات التي تعلمتها وحفظتها فإنها تقوم بقتلها في الحال.. وهذا هو السبب في مشكلة نقل الأعضاء إلى الجسم.. ولذا يلجأ الأطباء إلى نقل أعضاء من الأب أو الأم أو الإخوة أو الأشخاص القريبين في محاولة لتمرير هذه الأعضاء من رقابة الخلايا اللمفاوية.. فإذا كانت شفرات هذه الأعضاء مناسبة للشفرات في الخلايا اللمفاوية فإنها تكون في مأمن منها..

وإذا حدث واستطاعت جرثومة أو جسم غريب الانفلات من الخلايا اللمفاوية فإن هذا سيكون نتيجة انحراف آخر أو قصور آخر فأضعفت الخلايا اللمفاوية.. ولا شك أن ذلك يكون قدراً إلهياً.

فالخلايا الدفاعية التي نسميها الخلايا اللمفاوية قد خلقت بشكل مناسب لكي تستطيع حفظ الإنسان وصيانته ضد الأخطار في كرتنا الأرضية، لذا فإن مستوى تدريب هذه الخلايا وتعليمها عال جداً ودقيق

لدرجة يصعب معها خداعها.

ولكن ماذا يحدث عندما تدور حرب خاصة بين الخلايا اللمفاوية والجراثيم الغازية؟

عندما تتقابل الخلايا اللمفاوية مع الجراثيم تقوم بالاقتراب منها، ثم تنفث سمومها فيها وتقتلها. ولكن ماذا لو كانت هذه الجراثيم شراسة مثل جرثومة السل؟

فجرثومة السل جرثومة ذات بأس وقوة، لأنها تستطيع أن تفرز من غشائها مادة تكون لها درعاً واقية، فلا تؤثر فيها السموم التي تفرزها الخلايا اللمفاوية، تماماً كما يرتد الرصاص عن الدروع دون أن يؤثر فيها، كما أن الخلايا اللمفاوية لا تستطيع ابتلاع هذه الجراثيم لأنها كبيرة. إذن فما العمل؟

في هذه الحالة ترسل الخلايا اللمفاوية إنذاراً إلى الكبد، فيقوم الكبد نفسه أو بأمر من نخاع العظم (هذه المسألة غير معلومة تماماً حتى الآن) بصنع خلايا خاصة تحمل أجساماً تدعى «أجسام كولجي» وهي تشبه الخلايا اللمفاوية ولكنها أكبر منها حجماً بست مرات، فتقوم بابتلاع جراثيم السل التي لم تستطع الخلايا اللمفاوية ابتلاعها.. تبتلعها ولكنها لا تستطيع هضمها، فتقوم بصنع قبر لها، إذا تبدأ بغرز طبقة من الكالسيوم حولها، حتي تبنى ما يشبه الهرم حول الجرثومة التي تموت وتهضمهم خلاياها. لذلك فإننا عندما نتطلع إلى صورة بالأشعة لرئة إنسان نري نقطاً جبسية صغيرة، ما هي إلا مقابر لجراثيم السل.

وهناك منظومة دفاعية أخرى هي منظومة التجمعات اللمفاوية، وأهمها التجمعات اللمفاوية الموجودة في اللوزتين، ثم التجمعات الموجودة في الزائدة الدودية التي تقوم بحراسة الإنسان من الجراثيم

الداخلة عن طريق المدخل السفلى في الإنسان، وهذا هو السبب في مواجهة الكثيرين لمتاعب في هذين الموضعين، لأنهما بوابتا المراكز الدفاعية.

وهناك صفارة إنذار في الجسم تدعو إلى التأمل والإعجاب، وهي ارتفاع درجة الحرارة عند المرض. فهذه ظاهرة كيماوية خارقة في الجسد، ذلك لأن الخلايا الدفاعية، لاسيما الخلايا البالعة للميكروبات«الكريات البيضاء» إن خلقت بنشاط اعتيادى فإنها قد تهاجم إحدى خلايا الجسم أو قد تضرها، لذا نري أنها غير نشطة في الحرارة الاعتيادية للجسم، ولكنها تصبح نشطة وفعالة عند درجة (٣٨,٥ مْ)، وكذلك المواد المضادة (أنتى كور) التي تجول في الدم فإنها لو كانت فعالة في درجة ٣٧مْ لكان من المحتمل أن تصيب إحدي خلايا الجسم بضرر عن طريق الخطأ. . فارتفاع درجة حرارة المريض ما هو إلا صفارة إنذار أو رفع درجة الاستعداد لتبدأ وسائل الدفاع عملها فوراً. . ولذلك لابد من مراعاة ذلك عند تخفيض حرارة جسم المريض فلا تقوم بتخفيضها عشوئياً حتى لا يؤثر ذلك على النظم الدفاعية الداخلية.

ولا يكتفى النظام الدفاعى بهذا إذ نرى أنّ الجسم يقوم بسحب مياه الخلايا الاعتيادية لكى يمنع الضرر، وهذا هو السبب في زيادة الحاجة إلى التبول عند ارتفاع درجة حرارة الإنسان حيث يبدأ الجسم بالتخلص من الماء تدريجياً، والهدف من تقليل المياه الموجودة داخل الخلايا هو لكون الخلية المنكمشة ـ نتيجة فقدها الماء ـ أقل تعرضاً للخطر في أثناء المعركة الناشبة مع الجراثيم مما لو كانت في حالة امتلاء، وهذا النظام الدفاعي يعمل آلياً دون أن يحس به أحد. والجراثيم الداخلة عن طريق الفم تجد أمامها آلافاً من خلايا اللوكوسيت الموجودة ضمن اللعاب دون أن يشعر بها الإنسان. وكثير من الحيونات تقوم بعلاج جروحها وذلك

بلعقها، أي أنها تقوم في الحقيقة بسكب خلايا اللوكوسيت على هذه الجروح دون أن تدرى ماهية عملها.

وتعتبر الخلايا «الملانينية» عنصراً من العناصر الدفاعية في الجسم، إذ لا توجد أية أشعة اعتيادية لا تستطيع هذه الخلايا تلافى أضرارها.

ومن العناصر الدفاعية المهمة أيضاً طبقة الأدمة الموجودة تحت البشرة. وهذه الطبقة ما زالت طبقة غامضة لا يعرف عنها الكثير من الناحية البيولوجية.. ومن المشاهدات والتجارب نرى أن الجسم عندما يضطر إلى دخول معارك شديدة مع جراثيم قوية فإنه يجر ساحة المعركة إلى هذه المنطقة الغامضة، أي إلى طبقات الأدمة، وأفضل مثال على ذلك الأمراض النافضة مثل الحصبة، وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن هناك خلايا خاصة جداً في هذه المنطقة، مهمتها قتل الجراثيم التي لا تستطيع الخلايا الدفاعية الاعتيادية القضاء عليها. وكثيراً ما يحاول الجسم سحب معركة القتل مع الجراثيم من ساحات المدن (أى من داخل الأعضاء) إلى الساحات الخارجية.

فالمنظومة الدفاعية في جسم الإنسان ابتداء من نخاع العظم والكبد وحتى طبقة الأدمة الغامضة.. أكثر دقة من كل الأنظمة الدفاعية الموجودة في الدول المتقدمة، فهذه الإدارة الدفاعية تعرف من أين تأتى الجراثيم، وكيف تأتى، وما العمل الواجب القيام به، وكيف تحفظ وتصان حياة المدنيين (الخلايا الاعتيادية) وما هى الخطوة الأولى في مواجهة الجراثيم، وما هى الخطوة الثانية، وأخيراً كيف يتم التخلص من جثث القتلى في المعارك، كل ذلك بنظام دقيق يثير الإعجاب.

وبالإضافة إلى ما سبق هناك ضمانات أخرى أودعها الخالق الحفيظ في جسم الإنسان في كل عضو من أعضائه فمثلاً خلايا القلب تعمل

بعشر طاقتها، ذلك لأنه قد أخذ في الاعتبار أن الإنسان قد يهرول أو يركض. وكذلك الكبد والكليتان، كلاهما يعمل بعشر طاقتهما، أي أن الإنسان يستطيع العيش بشكل طبيعي بعشر قابليات بنيته أي أن الواهب الحفيظ قد وهب للإنسان فرصة حياة بطاقة معينة وجعل له تسع وحدات من الطاقة كوحدات احتياطية»(١).

فحقاً ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

قال الشاعر:

يا حافظاً لوجود العالمين ... فما يحيد عن غايته نقصاً وخسراناً
وحافظ الخلق أن يلقوا بأ ... نفسهم إلى الهلاك زرافات ووحدانا
خلقت فيهم عيوناً يبصرون بها ... وقد خلقت بهم للسمع آذانا
لو لم تكن أنت يا رباه حافظهم ... لم يشهد الوجود فوق الأرض إنسانا(٢)

أما آثار حفظه ورعايته لأوليائه من المؤمنين فلا تحصيها الكلمات ولا تحيط بها السطور.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(٤).

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(٥).

---

(١) خلوق نور باقي، الإنسان ومعجزة الحياة، ترجمة أورخان محمد علي، من ص ١٠٣ إلى ص ١١٩ (بتصرف يسير).
(٢) الشاعر أحمد مخيمر.
(٣) سورة الروم/ ٤٧.
(٤) سورة غافر/ ٥١.
(٥) سورة الصافات/ ١٧١ ـ ١٧٣.

فحفظ الله (عزّ وجلّ) ونصره لأوليائه يكون في الحياة الدنيا وفى الآخرة. والمتأمل في سيرة نبينا محمد ﷺ يجد رعاية الله عزّ وجلّ وحفظه منعا أعداءه من الوصول إليه.

قال الله (عزّ وجلّ) ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾(١).

قال الإمام الطبرى في معنى هذه الآية: فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئاً سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك، كما كفاك المستهزئين(٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾(٣).

والمتأمل في حادثة هجرة الرسول ﷺ يجد أن أعداء الإسلام قد أحكموا خطتهم في دار الندوة، وأجمعوا على قتل رسول الله ﷺ للقضاء على دعوته وأسندوا هذه المهمة إلى شباب ذوى قوة وجلد من كل قبيلة من قبائلهم. وفى الجانب المقابل أخذ الرسول ﷺ يُعد عدته فما إن جاءه الوحى بأمر الهجرة حتى باشر في تنفيذه بدقة، وإحكام.

وعلى الرغم من كل الجهد والإعداد في تأمين الهجرة استطاعت قريش أن تصل إلى مكان الغار، وصارت قريش قاب قوسين أو أدنى من بغيتها، حتي قال أبو بكر (رضى الله عنه): «يا نبى الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا»(٤).

---

(١) سورة الحجر/ ٩٤-٩٥.
(٢) تفسير الطبرى، ج١٤، ص٩٩.
(٣) سورة المائدة/ ٦٧.
(٤) رواه البخاري (فى هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة).

وهنا تدخلت العناية الإلهية، فرأت قريش على باب الغار نسج عنكبوت، فقالوا: لو دخل ها هنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فرجعت قريش عن الغار[١].

وبعد خروج الرسول ﷺ من الغار ومعه صاحبه وسارا تجاه المدينة، تلقت قريش خبراً عنهما.

قال سراقة بن مالك: «فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزجة الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها؛ فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي - وعصيت الأزلام - تقرب بي حتى إذا سمعت قرءاة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت - وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من

---

(١) رواه الإمام أحمد، وحسن ابن كثير إسناده في البداية والنهاية ج٣، ص ١٧٩.

الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إنّ قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني، ولم يسألاني، إلا أن قال: « أخف عنا » فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب لي في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله (ﷺ)»(١).

ويتضح مما سبق مدى عناية الله (عزوجل) وحفظه لنبيه.

قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

ويروى شيبة بن عثمان بن طلحة عن نفسه فيقول: لما كان عام الفتح (فتح مكة) ودخل النبي (ﷺ) مكة عنوة قلت: أسير مع قريش إلى هوزان بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غره فأثأر منه فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبقَ من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما اتبعته أبداً . . . فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله (ﷺ) عن بغلته وأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه ورفعت سيفي. فرفع لي شواظ من نار كالبرق حتى كاد يمحشني فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه، فالتفت إليّ رسول الله (ﷺ) وناداني: يا شيب ادن مني فدنوت منه فمسح صدري وقال: « اللهم أعذه من الشيطان».

فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إليّ من سمعي وبصري ونفسي

---

(١) رواه البخاري في الهجرة. (٢) سورة التوبة/ ٤٠.

وأذهب الله (عزوجل) ما كان بي [١].

وكذلك كل مؤمن صادق يحفظه الله عز وجل ويرعاه وينصره سواء في حياته أم بعد مماته تحقيقاً لوعد الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [٢].

فهذا أبو مسلم الخولاني يطرحه الأسود العنسي المتنبي باليمن [٣]. في النار، فتحفظه عناية الله ورعايته ولا تضره النار.

عن شرحبيل بن مسلم الخولاني قال: تنبأ الأسود بن قيس العنسي باليمن فأرسل إلى أبي مسلم فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع.. وبعد الثالثة أمر بنار عظيمة فأججت وطرح فيها أبو مسلم فلم تضره. فقال له أهل مملكته. إن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك فأمره بالرحيل فقدم المدينة، وقد قبض رسول الله (ﷺ) واستخلف أبو بكر. فقام إلى سارية من سواري المسجد يصلي فبصر به عمر بن الخطاب، فقال: من أين الرجل؟ قال: من اليمن. قال: فما فعل عدو الله بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب(أبو مسلم الخولاني) قال: نشدتك بالله عزّ وجّل أنت هو؟ قال: اللهم نعم. قال: فقبل ما بين عينيه، ثم جاء حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر وقال: الحمد لله الذي لم يُميتني حتى أراني في أمة محمد (ﷺ) من فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم الخليل عليه السلام [٤].

---

(١) أبو الفرج بن الجوزي، مرجع سابق، حـ١، ص٧٢٨.
(٢) سورة غافر/ ٥١. (٣) أي الذي ادعى النبوة باليمن
(٤) ابن الجوزي، المرجع السابق، جـ٤، ص٢٠٨.

ويدرك العبد المؤمن أن الله عزّ وجلّ رقيبٌ شهيدٌ ومن ثمّ لا يأتي بحركة، ولا يلفظ بكلمة إلا ويعلم أن الله عزّ وجلّ مطلعٌ عليه في كل أحواله.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

وعندما سأل جبريل (عليه السلام) رسول الله (ﷺ) عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٢).

فالعبد المؤمن متيقن باطلاع الحق (سبحانه وتعالى) على ظاهره وباطنه، فهو ناظر إليه، سامع لقوله، مطلع على عمله في كل وقت وكل لحظة وكل نَفَس وكل طرفة عين.

وهناك علامات يعرف بها المؤمن الذي يراقب ربه، ومن أبرزها إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغّر الله، وإخلاص السر والعلن لله، ولا تتأتى كل هذه الأمور إلا إذا امتلأ القلب من عظمة الله (عزّوجلّ).

فمراقبة الله (عزّ وجلّ) توجب صيانة الظاهر والباطن، وصيانة الظاهر تكون بحفظ الحركات الظاهرة، وصيانة الباطن تكون بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفض معارضة أمره وخبره. فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته، ومن كل شبهة تعارض خبره، ومن كل محبة

---

(١) سورة يونس/ ٦١.

(٢) رواه مسلم (حديث رقم ٨) كما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي (٢٦١٣).

تزاحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به [١]. ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].

وقد أنزلق كثير من الناس ممن يدعون الإسلام في هذا المنزلق الخطير وهو معارضة أوامر الله عزّ وجلّ وشرعه بما سوّل لهم الشيطان من أمره. وقد عدد ابن القيم بعضاً من هؤلاء الجائرين فيقول: منهم من يقول:

إذا تعارض العقلُ والنقلُ: قدّمنا العقل، وآخرون يقولون: إذا تعارض الأثر والقياس، قدّمنا القياس، وفريق ثالث يقول: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع، قدّمنا الذوق والوجد والكشف. وفريق رابع يقول: إذا تعارضت السياسة والشرع. قدّمنا السياسة.

فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه. فهؤلاء يقولون: لكم النقل، ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار، وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع، ولنا السياسة. فيالها من بلية، عمت فأعمت، ورزية رمت فأصمت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وعطلت لها معالم الأحكام، وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل [٣].

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، جـ٢، ص٦٨.
(٢) سورة الشعراء/ ٨٨-٨٩.
(٤) ابن القيم الجوزيه، المرجع السابق، ص٧٠-ص٧١.

فأين مراقبة كل هؤلاء لربهم الذين يدعون أنهم له مسلمون وبه مؤمنون ؟!

فمراقبة الله (عزّ وجلّ) ورعاية حدوده لبّ الإيمان، وروحه وكماله. فكأن العبد بهذه المراقبة يرىٰ ربه مطلعاً علىٰ عباده ناظراً إليهم، يسمع كلامهم، ويرىٰ ظواهرهم وبواطنهم.

روىٰ عن علىٰ بن الحسين قال: كتب ملك الروم إلىٰ عبد الملك بن مروان يتهدده ويتوعده ويحلف له ليحملن إليه الجزية، فسُقط في ذرعه فكتب إلىٰ الحجاج أن اكتب إلىٰ ابن الحنفية [1] فتهدده وتواعده ثم أعلمنىٰ ما يرد عليك منه. فكتب الحجاج إلىٰ ابن الحنفية بكتاب شديد يتهدده ويتواعده بالقتل.

قال فكتب إليه ابن الحنفية: إنّ الله عزّوجلّ ينظر ثلثمائة وستين نظرة إلىٰ خلقه وأنا أرجو أن ينظر الله (عزّ وجلّ) إلىّ نظرة يمنعنىٰ بها منك.

قال: فبعث الحجاج بكتابه إلىٰ عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك إلىٰ ملك الروم نسخته، فقال ملك الروم: ما خرج هذا منك، ولا أنت كتبت به، ولا خرج إلا من بيت نبوة [2].

وفهم هذه الأسماء ومراعاتها يجعل العبد يتأدب مع ربه في كل لحظة وفىٰ كل حركة لأنه يسمعه ويبصره ويراقبه ويشاهده.

والأدب مع الله ثلاثة أنواع [3].

---

(١) محمد بن علىٰ أبىٰ طالب، وكانت أمة من بنىٰ حنيفة.

(٢) أبو الفرج بن الجوزىٰ، مرجع سابق، جـ٢، ص٧٨.

(٣) ابن قيم الجوزيه، مرجع سابق، ص٢٧٦.

أحدهما: صيانة معاملته : أن يشوبها بنقيصة .

الثاني: صيانة قلبه : أن يلتفت إلى غيره .

الثالث: صيانة إرادته : أن تتعلق بما يمقتك عليه .

ومن تأمل أحوال الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) مع الله وخطابهم وسؤالهم يجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به ونمضى مع ابن القيم ليصور لنا قبسا من هذا الأدب .

فهذا عيسى (عليه السلام) يبرأ نفسه من كفر النصارى قائلاً : ﴿ **إن كنت قلته فقد علمته**﴾ ولم يقل لم أقله ، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب . ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره ، فقال : ﴿ **تعلم ما فى نفسى**﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب . وما يختص به (سبحانه) ، فقال﴿**ولا أعلم ما فى نفسك**﴾ ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال : ﴿ **إنك أنت علام الغيوب**﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به ـ وهو محض التوحيد ـ فقال ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا لله ربى وربكم**﴾(١) ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأن الله (عزّ وجلّ) هو المنفرد بعد وفاته بالاطلاع عليهم . فقال﴿ **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم**﴾(٢) .

ثم وصفه بأن شهادته (سبحانه) فوق كل شهادة وأعم . فقال ﴿**وأنت على كل شئ شهيد**﴾ ثم قال ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام . أي شأن السيد رحمة عبده

---

(١) سورة المائدة آية ١١٧ .

(٢) سورة المائدة آية ١١٧ .

والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإذا عذبتهم ـ مع كونهم عبيدك ـ فلولا أنهم عبيد سوء من أنجس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم. لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عتوهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقوله ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ أي هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال. ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه (سبحانه) بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب. ثم قال: ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار. فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال« فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم. والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه. ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم.

وهذا إبراهيم (ﷺ)، يقول: ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين. والذى هو يطعمنى ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين**﴾(١) ولم يقل« وإذا أمرضنى» حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول العبد الصالح في السفينة: ﴿ **فأردت أن أعيبها**﴾ ولم يقل «فأراد ربك» وقال في الغلامين ﴿**فأراد ربك أن يبلغا أشدهما**﴾.

وكذلك قول مؤمنى الجن ﴿ **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض**﴾(٢) ولم يقولوا« أراده ربهم» ثم قالوا﴿ **أم أراد بهم ربهم رشداً**﴾(٣).

وألطف منه قول آدم (عليه السلام) ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾(٤) ولم يقل لله رب قدرت علىّ وقضيت عليّ».

وقول أيوب (عليه السلام) ﴿ **مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين**﴾(٥) ولم يقل فعافنى واشفنى.

وكذلك كان محمد (ﷺ) في رحلة المعراج قال تعالى﴿ **مازاغ البصر وما طغى**﴾ فهذا وصف لأدبه (ﷺ) في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانبا ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلاص به. أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره يمنة ولا يسرة ولا يتجاوزه.

وقال تعالى: ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾ أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره فههنا تواطؤ بصره وبصيرته، أي ما كذب قلبه ما رأت عيناه. بل

(١) سورة الشعراء/ ٧٨، ٧٩، ٨٠.
(٢) سورة الجن / آية ١٠.
(٣) سورة الجن / ١٠.
(٤) سورة الأعراف / آية ٢٣.
(٥) سورة الأنبياء / آية ٨٣.

واطأه ووافقه فلموطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر. ولم يتجاوز البصر حده فيطغى ولم يمل من المرئى فيزيغ، بل اعتدل البصر نحو المرئى ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان. وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره. فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه. وهذا غاية الكمال والأدب مع الله.

الذي لا يلحقه فيه سواه، لأنّ عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه أما نبينا محمد (ﷺ) لما أقيم في ذلك المقام، وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه.. فلم يزل في خفارة كمال أدبه مع الله عزّ وجلّ حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق. وجاوز سدرة المنتهى ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين... وأقيم مقاماً غيطه به الأنبياء والمرسلون [1].

فالعبد المؤمن ينبغى أن يتأدب مع ربه باطناً وظاهراً قلباً وقالباً. فإذا كان العبدُ يصلُ بطاعة الله عزّ وجلّ إلى الجنة، فإنه يصل بأدبه في هذه الطاعة إلى الله عز وجل ولذلك قال ابن المبارك (رحمه الله): نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

ومن آداب الباطن التى ينبغى أن يتحلى بها العبد طهارة الداخل، ومراعاة الأسرار وحسن الظن، وعدم الالتفات، وتطهير القلب من الشهوات والشبهات.

ومن آداب الظاهر: حفظ الحدود، وتأديب الجوارح، وترك الشهوات، ورياضة النفوس.

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مرجع سابق، ص٢٧٨ : ٣٨٤ بتصرف.

وخلاصة الأدب مع الله (عزّ وجلّ) حسن الصحبة معه، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء، كحال مجالسة الملوك ومصاحبتهم.

فالأدب هو الدين كلهّ فستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب. والتطهر من الحدث من الأدب حتى يقف العبد بين يدي الله (عزّ وجلّ) طاهراً.

والتجمل في الصلاة من الأدب قال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] والخشوع في الصلاة من الأدب. وعدم رفع البصر في الصلاة من الأدب، إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض، ولا يرفع بصره إليهم فما الظن بملك الملوك (سبحانه)؟ ووضع اليد اليمنى على اليسرى حال القيام في الصلاة من الأدب لأنه من أدب الوقوف بين الملوك والعظماء فعظيم العظماء أحق به.

وحسن استماع القرآن من الأدب ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2] والاستواء في الركوع من الأدب. والإطمئنان في القيام والركوع والسجود من الأدب. . وهذا ديدن الصالحين من أمة محمد (ﷺ) فقد سئل حاتم الأصم عن كيفية صلاته. فقال: أقوم بالأمر وأمشى بالسكينة، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع وأسلم بالسنة، وأسلمها بالإخلاص إلى الله (عزّ وجلّ)، وأخاف أن لا تُقبل مني ومن أقواله المأثورة في حسن الأدب: تعهد نفسك في ثلاثة مواضع: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك.[3]

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣١. (٢) سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.

(٣) أبو الفرج ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ٤، ص١٦٢.

ومراقبة الله (عزّ وجلّ) في الكلام من أشقّ الأمور التي يعانيها من يقبل على الله (عز وجل). لذلك قال أحد الصالحين: عالجت الصمت عما لا يعنيني عشرين سنة قبل أن أقدر منه على ما أريد. وكان هذا الرجل: لا يدع أحداً يغتاب أحداً في مجلسه. ويقول لجلسائه: إن ذكرتم الله أعناكم، وإن ذكرتم الناس تركناكم (١).

فأشد الورع على الإنسان في اللسان.

عن سهل بن عبد الله التستري قال: من أخلاق الصديقين أن لا يحلفوا بالله، وأن لا يغتابوا، ولا يغتاب عندهم، وأن لا يشبعوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، ولا يمزحون أصلاً (٢).

وحتى ينالَ العبدُ رعايةَ الله (عزّ وجلّ) وحفظه، فينبغي عليه أن يحفظ الله أولاً.

عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: كنت خلف النبي (ﷺ) يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسئل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم: أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» (٣).

وحفظُ الله (عزّ وجلّ) يكون بطاعته أي فعل ما أمر، والبعد عما نهى، وحفظ حدوده ورعاية عهوده، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وهناك أدعية مأثورة عن رسول الله (ﷺ) لحفظ الإنسان في يومه وليلته منها:

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٣، ٣٣٢.

(٣) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح (رقم / ٢٥١٨).

١ ـ عن عبد الله خُبيب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): **« أقرأ قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح، ثلاث مرات تكفيك من كل شئ»** (١).

٢ ـ وعن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) **«ما من عبد يقول فى صباح كلّ يوم ومساء كلّ ليلة: بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، إلا لم يضره شئ»** (٢).

٣ ـ وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: جاء إلى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة قال: **« أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك»**(٣).

« اللهم احفظنى بالإسلام قائماً، واحفظنى بالإسلام قاعداً، واحفظنى بالإسلام راقداً، ولا تشمت بى عدواً ولا حاسداً، اللهم إنى أسألك من كلّ خيرٍ خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كلّ شر خزائنه بيدك » (٤).

* * *

---

(١) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

(٢)رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٩).

(٤) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم (١٥٤٠).

المهيمن المحيط

٧٢ ٧٣

المهيمنُ (سبحانه) الرقيبُ الحافظ لكلّ شيء الخاضعُ لسلطانه كل شيء والمهيمن: القائم على خلقه، الشهيد عليهم [(١)].

والحقُّ (سبحانه) مهيمنُ على مخلوقاته أي مطلع وشاهد على كل شيء لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر فهو مطلعٌ على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، أحاط بكل شيء علماً.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ [(٣)].

فهو سبحانه مهيمن على مخلوقاته، فلا يختل شيء منها، ولا يخرج عما رسمه لها، يحفظها ويرعاها بقدرته.

مليكٌ على عرش السماء مهيمن ... لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقال آخر:

فى قبضة الحق هذا الكون أجمعه ... جلّ المهيمن إن أعطى وإن منعا

قد سبّحت باسمه الأشياء عارفة ... بأن ذكر اسمه أمن لمن فزعا

وملكه واسع تطويه قدرته ... من يشاء ينفذ من أقطاره رجعا

جلّ المهيمن رباً لا شريك له ... وجلّ إن لم يهب شيئاً وإن وهبا

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص٢٢٧.

(٢) سورة الرعد/ ٣٣.

(٣) سورة آل عمران / ٥.

ما شاء كان وما فى الكون خافية تخفى على علمه بدءاً ومنقلباً
إنا إليه أنبنا خاشعين له وجاعلين له من ذكره سبباً
فلا شيئ فى ملكه أو عن إرادته بمستطيع خروجاً أينما ذهبا

فالمهيمن اسم لمن كان موصوفاً بمجموع صفات ثلاث: أحدها العلم بأحوال الشيء، والثاني: القدرة التامة على تحصيل مصالح ذلك الشيء، والثالث: المواظبة على تحصيل تلك المصالح، فالجامع لهذه الصفات اسمه المهيمن، ولا تجتمع تلك الصفات إلا لله سبحانه وتعالى.

قال الشاعر:

يا من يرى مدّ البعوض جناحه فى ظلمةِ الليلِ البهيم الآليل
ويرى مَناطَ عروقها في لحمها والُمخّ فى تلك العظامِ النُّحل
آجالها محتومة أرزاقها مقسومة بقضا وإن لم تسأل

ولم يذكر هذا الاسم الجليل في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، قال تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (١).

وقد ورد مرة ثانية صفة للقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ (٢).

---

(١) سورة الحشر / ٢٣.

(٢) سورة المائدة/ ٤٨.

وقد فُسّر المهيمن هنا بالشاهد أي شاهداً عليه، كذلك روى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وروى عنه من وجه آخر أنه قال: المهيمن الأمين فكأنه قال: مصدقاً لما بين يديه من الكتاب وأميناً عليه، والتفسيران متقاربان (١).

أما المحيط، فمن الإحاطة، الإحاطة تقال على وجهين: أحدهما في الأجسام نحو أحطت بمكان كذا، أو تستعمل في الحفظ نحو ﴿ إن الله بكل شئ محيط﴾ أى حافظ له من جميع جهاته. والثانى في العلم نحو قوله ﴿ أحاط بكل شئ علماً﴾ وقوله ﴿ إن ربى بما تعملون محيط﴾ والإحاطة بالشئ علماً هى أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا لله تعالى (٢).

والله (عزّ وجلّ) محيطٌ بكل شئ أى أنه أحاط بكل شئ علماً، وأحصى كل شئ عدداً، قادر على كلّ شئ، لا يغلبه شئ، فهو غالب لا يغلب، قاهر لا يقهر. قال تعالى ﴿ إن ربك أحاط بالناس﴾ أى أنهم في قبضته من قولهم: أحاط به الأمر أى أخذه من جميع جوانبه، فلم يكن له منه مخلص. ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أى لا يعجزه أحد لأن قدرته مشتملة عليهم.

فا (عزّ وجلّ) محيطٌ أى أحاطت قدرته بجميع خلقه، فهو محيط بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيئته. فالإحاطة أقصى صور العلم بالشئ والقدرة عليه.

وقد ورد اسمُ المحيطِ في القرآن الكريم ثمانى مرات.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٣).

---

(١) انظر الزجاجى، مرجع سابق، ص٢٢٨.

(٢) الراغب الأصفهانى، مرجع سابق، ص١٣٧.

(٢) سورة البقرة/ ١٩.

: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١).
: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾(٢).

فالله عزّوجلّ محيطٌ بالكافرين أى مهلكهم، فهم لا يعجزونه، ولا يفوتونه، فهو محيط بهم وإذا كانوا كذلك فإنه توعدهم بالعذاب والعقوبة على كفرهم فهو لا محال مهلكهم إما عاجلاً وإما آجلاً. وهو سبحانه وتعالى أحاط بكل شئ علماً، أى علم كل شئ على حقيقته بجميع صفاته فلم يخرج شئ منها عن علمه. فحقيقة الإحاطة ضم أقطار الشئ ونواحيه وتصييره وسطاً كإحاطة البيت بما فيه (٣).

والكون من حولنا يذخر بآثار المهيمن المحيط (سبحانه وتعالى)، فهو مخلوق بدقة ونظام متناه، ويسير وفق سنن محكمة من المهيمن سبحانه وتعالى:

ـ فمن عالم الذرة المتناهية في الصغر إلى عالم المجرة المتناهية في الكبر نجد سنناً تحكم العالمين، سنناً شاملة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فالكل في هذا الكون يخضع لسنن مطردة من المهيمن (سبحانه وتعالى)، وثبات هذه السنن واطّرادها أثر من آثار المهيمن (سبحانه وتعالى).

وهذا الكون من حولنا يتمدد باستمرار، وحجمه يزداد على الدوام، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤).

يقول «السير جيمس» في كتابه (النجوم في مسالكها): « ولقد

---

(١) سورة هود/ ٩٢.
(٢) سورة النساء/ ١٢٦.
(٣) الزجاجى، مرجع سابق، ص٤٧.
(٤) سورة الذاريات / ٤٧.

اكتشف حديثاً أن الكون شبيه بهذه أي فقاعة الصابون، فهو غير ثابت الاتزان، دائم الحركة.. يتمدد باستمرار وحجمه يزداد على الدوام، وهذا الذي يتمدد لا يزداد حجمه باستمرار فحسب بل تزداد سرعة تمدده على الدوام.. « فمن الذي يمسك هذا الكون الذي يتمدد باستمرار؟ ومن الذي يمسك هذه الأجرام ولا يتركها يقع بعضها على بضع ؟! إنه المهيمن المحيط (سبحانه).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

والكون من حولنا بحر تسبح فيه ملايين النجوم والكواكب والمذنبات وغيرها، وهي تسبح بسرعة هائلة، فلماذا لم يصطدم نجم بنجم أو نجم بكويكب أو كوكب بمذنب؟!

وعلى سبيل المثال: مذنب (هالي) يزور الأرض كل (٧٦) عاماً في توقيت دقيق لا يتقدم ولا يتأخر، وطول ذنبه حوالي (٥٠ مليون ميل) وهو ينطلق في شريط يمثل التوسط بين الشمس والأرض، وقد ظهر سنة ١٩١٠م وظهر سنة ١٩٨٦م في نفس الشهر واليوم والساعة وهذا الزائر المرعب لو اقترب قليلاً من الأرض للفها بذنبه وسار بها في الفضاء حيث يشاء الله، ولو وقع عليها لأحدث بها كارثة لا يعلمها إلا الله... وفي الفضاء حوالي مائة ألف مليون مذنب تجوب الفضاء من أوله إلى آخره كدوريات الشرطة التي تمر في البلاد للاطمئنان على استتباب الأمن وحفظ النظام! فمن الذي يهيمن على هذا كله ويحيط به؟!

---

(١) سورة الحج/ ٦٥.

وإذا انتقلنا إلى عالم الإنسان نجد أن هذا الإنسان له نقطة بداية تتمثل في التقاء نطقة الذكر ببويضة الأنثى، ومن خلال عرس اللقاء هذا تتشكل خلية واحدة هى العروس الملقحة التى لا تلبث أن تبدأ بالانقسام والتكاثر إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان ثم ست عشرة. . . وفى مرحلة لاحقة يبدأ تخصيص كل مجموعة من الخلايا المتكاثرة لتشكل عضواً من أعضاء المخلوق الجديد إلى أن يكتمل نموه، ويبلغ غاية خلقه، فيخرج إلى الحياة كاملاً سوياً ويسرى هذا على أجنة سائر المخلوقات الحية! فمن الذى يشرف على هذا الانقسام والتكاثر والتخلق؟! ومن الذى يمد الجنين بالغذاء ويرعاه؟!

وبعد أن يخرج هذا المخلوق إلى الدنيا يجد العناية والرعاية في تدبير معاشه وغذائه، لقد خلق الله المهيمن (سبحانه) النبات الذى يقوم بوظيفة الإرجاع والتركيب، إذ يأخذ التراب والهواء والماء فيركب منها الثمار ليقدمها يانعة سائغة للإنسان والحيوان إلى جانب ما يقوم به النبات من عمل بالغ الأهمية في تنقية جو الأرض من غاز ثانى أكسيد الكربون الذى ينتج عن تنفس الإنسان والحيوان فينزع منه الأكسجين ويعيده إلى جو الأرض خلال عملية التمثيل الضوئى لكى يقوم الإنسان والحيوان باستخدام هذا الأكسجين من جديد.

والعبد المؤمن يراقب المهيمن المحيط سبحانه وتعالى، ويستحيى من إطلاعه عليه ورؤيته له وهو مقيم على المعاصى والذنوب، فهو سبحانه شاهد مطلع على أفعال مخلوقاته، يشهد الخواطر، ويعلم السرائر، ويبصر الظواهر، ويسمع الشكر والشكوى، ويدفع الضر والبلوى.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (١).

---

(١) سورة الحديد/ ٤

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٢).

فهو سبحانه مهيمن مطلع على عباده. جاء في الأثر: «اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره، واجعل شكرك لمن لا تنقطع عنك نعمه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه. وقال أحد الصالحين: كنا في غزوة في ليلة شديدة مخوفة فإذا رجل نائم فأيقظناه فقلنا: تنام في مثل هذا المكان؟! فرفع رأسه فقال: إني لاستحيي من ذي العرش أن يعلم أني أخاف شيئاً دونه!

ومراقبة المهيمن المحيط عزّ وجلّ واللجوء إليه لا تأتي إلا بالخير والنصر: ففي كتاب «آيات الرحمن في جهاد الأفغان» قال مؤلفه: حدثني أحد القادة واسمه (أرسلان) قال: هاجمتنا الدبابات وكان عددها حوالي (١٢٠) دبابة معهم هاون وسيارات كثيرة، ونفذت ذخيرتنا حتى تأكدنا من الأسر، فلجأنا إلى الله بالدعاء... وبعد قليل إذا بالقذائف الرشاشات تفتح على الشيوعيين من كل مكان، وهزم الشيوعيون، ولم يكن في المنطقة أحد غيرنا ثم قال: إنها الملائكة!

وقال وحدثني «بوردل» قال: قامت معركة بينا وبين الشيوعيين استمرت سبعة أيام نفذت ذخيرتها في اليوم السابع، وفي تلك الليلة دارت معركة على الشيوعيين من ثلاث جبهات، دون أن ندري مصدر النيران فتعجب الكفار من نوع الذخيرة (الرصاص) الذي يطلق عليهم لأنهم لم يروا مثله من قبل... وقتل (٥٠٠) من الكفار منهم (٢٣) ضابطاً، وهرب الباقون ومعهم بعض الأسرى من المسلمين فسألوهم

---

(١) سورة آل عمران/ ٦.

(٢) سورة الفجر/ ١٤.

من أين لكم هذا الرصاص، إننا (الروس) لم نرَ مثله ؟!! فسبحان المهيمن على كل الوجود، الذي تنفذ قدرته في كل موجود!

وقد أحكم المهيمن سبحانه خلق هذا الكون، وجعل لظواهره المادية والمعنوية سنناً مطردة تحكمه، ومعرفة هذه السنن تمكننا من السيطرة على هذه الظواهر، ومن ثمّ الاستفادة منها في حياتنا انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية كثيراً من السنن التي تحكم الحياة والأحياء، وحثّ القرآنُ الكريمُ كثيراً على المسير في الأرض وذلك للاستدلال والتأكد من فاعلية السنن التي قدرها، واكتشاف سنن أخرى بالاستقراء والملاحظة.

قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (٣).

والمسلمون - اليوم - في أمس الحاجة إلى فهم سنن الله التي تحكم الحياة والأحياء، لينهضوا من جديد.

ومن أمثلة هذه السنن التي ينبغي الإلتفات إليها والعمل بها:

أ- سنة النصر: فقد جعل الله عزوجل سنةً للنصر لا تتخلف إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٤). فعندما ننصر الله عز وجل ينصرنا.

---

(١) سورة الجاثية/ ١٣.
(٢) سورة يونس / ١٠١.
(٣) سورة آل عمران / ١٣٧.
(٤) سورة محمد / ٧.

ب ـ سنة البركة وسعة الرزق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (١).

جـ ـ سنة التغيير، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢).

د ـ سنة الإعراض عن ذكر الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾(٣).

وكما أنّ هناك سنناً تحكم المعنويات في الحياة، فهناك أيضاً سنن تحكم الماديات كالذرة والحرارة والكهرباء، وعلى المؤمن البحث عنها، ومعرفتها واستغلالها في ترقية حياته وتحقيق خلافته في الأرض.

ففي ضوء اسم الله (عزّ وجلّ) المهيمن ينبغي على المؤمن أن يسارع إلى اكتشاف هذه السنن، وفهمها، والتعامل مع الظواهر الكونية على أساسها، لأن هذه السنن أثر من آثار اسم الله المهيمن الذي نؤمن به.

« اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى، والفقر، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد

---

(١) سورة الأعراف/ ٩٦.

(٢) سورة الرعد/ ١١. (٣) سورة طه/ ١٢٤، ١٢٦.

العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بالإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» [١].

* * *

(١) رواه النسائي ٣/ ٥٤/ ٥٥ وأحمد ٤/ ٣٦٤ اسناده جيد، وانظر صحيح النسائي ١/ ٢٨٠، ٢٨١.

الربُّ ـ الرفيقُ ـ اللطيفُ

٧٤ ٧٥ ٧٦

الربُّ: المصلح للشيء، يقال: « ربيت الشيء أربّه ربّاً وربابه»: إذا أصلحته، وقمت عليه، ورب الشيء مالكه، فالله (عز وجل) مالك العباد ومصلحهم، ومصلح شؤونهم، ومصدر الرّبّ الربوبية، وكلّ من ملك شيئاً فهو ربه، يقال: هذا ربّ الدار، وهذا ربّ الضيعة، ولا يقال الربّ معرفاً بالألف واللام مطلقاً إلا لله عز وجل؛ لأنه مالك كل شيء[1].

وقال الراغب الأصفهاني: « الربّ في الأصل التربيه، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام... فالرب مصدر مستعار للفاعل ولا يقال الربّ مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات... والمتولى لمصالح العباد... »[2].

فالله عزّ وجلّ هو رب العالمين لأنه هو مالكهم وسيدهم ومصلح شؤونهم، والمتكفل بمصالحهم، والمنعم عليهم بأصناف النعم.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مئات المرات قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [3].

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [4].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [5].

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص٣٣.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٨٤.

(٣) سورة الفاتحة آية ٢.

(٤) سورة الشعراء آية ٨٣.

(٥) سورة الأنعام آية ١٦٥.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (١).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٣).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٤).

أما اسم الرفيق فمشتق من الرفق، والرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف (٥) والعنف هو الشدة والمشقة في الأمور.

وقد جاء هذا الاسم في الحديث الصحيح، قال رسول الله (ﷺ): «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف ومالا يعطى على ما سواه»(٦).

قال ابن القيم:

وهو الرفيقُ يحبُ أهلَ الرفقِ بل   يعطيهم بالرفقِ فوقَ أمانِ

فالله عزّ وجلّ رفيقٌ في أفعاله، خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئاً فشيئاً بحسب حكمته ورفقه، مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتى بها شيئاً بعد شئ شاهد من ذلك العجب العجيب (٧) فالرفق في خلق الأشياء

---

(١) سورة آل عمران آية ٥١. (٢) سورة البقره آية ١٢٧

(٣) سورة الكهف آية ١١٠ (٤) سورة القيامة آية ٢٢ , ٢٣.

(٥) الحافظ ابن حجر، فتح البارى، ج١ , ٤٤٩.

(٦) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وأحمد وأبو داود وغيرهم وقد صححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢/ ١١٣) رقم (١٧٦٧).

(٧) عبد الرحمن آل سعدى، مرجع سابق، ص٦٣

سنة من سنن الله الكونيه . . ولذلك سمى الرفيق سبحانه وتعالى .

أما اللطيف : فهو ما لا تدركه الحواس ، أو الذى يعرف دقائق الأمور[١] .

واللطيف هو الذى يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، ومادق منها ومالطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف . فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في العلم تم معنى اللطف ، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى .

فهو سبحانه وتعالى يلطف بعباده من حيث لا يعلمون ، ويسوق إليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون .

قال ابن القيم :

وهو اللطيفُ بعبدهِ ولعبدهِ — واللطفُ فى أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بخبرة — واللطفُ عند مواقعِ الإحسانِ

فيريك عزّته ويبدى لطفَه — والعبدُ فى الغفلاتِ عن ذا الشأنِ

يعنى أن اللطيف هو الذى يلطف بعبده في أموره الداخليه المتعلقة بنفسه ، ويلطف بعبده في الأمور الخارجية عنه ، فيسوقه ، ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر ، وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته ، فلهذا كان للطيف معنيان المعنى الأول أنه الخبير الذى أحاط علمه بالأسرار وما لطف ودقّ من كلّ شئ . والمعنى الثانى : لطفه بعبده ووليه الذى يريد أن يتمَ عليه إحسانه ، ويشملَه بكرمه ويرقَيه إلى المنازل العاليه فييسره لليسرى ويجنبه العسرى ، ويجرى عليه ، من أصناف المحن التى

(١) الراغب الأصفهانى ، مرجع سابق ، ص٤٥٠ .

يكرهها وتشق عليه وهى عين صلاحه والطريق إلى سعادته . . فيمتحن عبده بما يكره لينيله ما يحب بلطفه، وكرمه [١].

وقد ورد اسمُ اللطيف في القرآنِ الكريمِ سبع مرات :

قال تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٢].

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [٣].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٤].

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٥].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [٦].

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [٧].

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيراً﴾[٨]. ونلاحظ أن اسم اللطيف اقترن في خمس آيات باسم آخر وهو الخبير . ويبدو أن ذلك من التقاء الاسمين الكريمين في المعنى، ولذلك قيل في تفسير قوله اللطيف الخبير : اللطيفُ باستخراج الأشياء الخبير بمكانها، اللطيفُ الذى لا يخفى عليه شيء، الخبيرُ الذى أحاط علمه بكلّ شيء.

---

(١) عبد الرحمن آل سعدى، مرجع سابق، ص٦٢ .
(٢) سورة الأنعام آية ١٠٣ .
(٣) سورة يوسف آية ١٠٠ .
(٤) سورة الحج آية ٦٣ .
(٥) سورة لقمان آية ١٦ .
(٦) سورة الشورى آية ١٩ .
(٧) سورة الملك آية ١٤ .
(٨) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

أما آثار ربوبيته ورفقه ولطفه بمخلوقاته فلا تدخل تحت حصر. وعلى سبيل المثال: فلينظر الإنسان إلى طعامه بل وطعام كل المخلوقات كيف ينبت النبات وكيف يصنع طعام سائر الحيوانات. وكيف يساق هذا الطعام إلى هذه المخلوقات وكيف تنمو به، وتسعى، وتتحرك لله لا أحد يفعل ذلك غير الربّ الرفيق اللطيف.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

ومن خضرة النبات يصنع غذاء سائر الحيوانات على ظهر الأرض فالخلية الواحدة تقوم ببناء عشرين مركباً عضوياً في دقيقة واحدة إذا عرضت الشمس، وتلك المركبات مختلفة الأنواع منها السكرية، والأحماض الأمينيه التي عجز العلم الحديث عن تحضيرها صناعياً بنفس الصفة أو الصورة، فما الذي يدفع النبات للقيام بهذه المهمة الشاقة غير الرب المتكفل بمصالح مخلوقاته، والذي يوصلها إليهم في رفق من حيث لا يشعرون.

لقد وصف العالم البيولوجي الروسي (تميز باريف) الورقة الخضراء بالعبارات التالية «الورقة الخضراء وعلى الأخص الخليه الخضراء أو الكلورفيل، هي بمثاة البؤرة التي تتجه نحو الطاقة الشمسية، والتي تنشأ فيها من جهة ثانية كل فعاليات الحياة على ظهر الأرض، هي التي سرقت نار السماء، وشعاع الشمس المسروق يحترق في المشعل المتأجج، وفي الشرارة الكهربائية المتوهجة وهو الذي يحرك الدولاب المعد للأدلة البخارية، وريشة الرسام، وقلم الشاعر: »(٢).

---

(١) سورة الحج آية ٦٣.

(٢) انظر/ مارسيل داغر، الطاقة الشمسية، ص١١.

وقد أشار إلى ذلك الربّ اللطيف في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

فحق لنباتات الأرض أن يرتفع صوتها قائلة: (نحن نباتات الأرض.. مخضرة ألواننا.. موزونة مركباتنا... مستوية ماهياتنا ... جميلة أشكالنا... بهيجة صورنا.. عطرة أزاهرنا.. شهية ثمارنا.. في أى ميزان وزنا.. وفي أى قوالب صُببنا... فمن الذي صورنا ورسم أشكالنا.. ومن الذي صبغ ألوان أزاهيرنا... ومن الذي عطَر أورادنا.. لا قدرة سوى قدرة ا، ولا ميزان سوى ميزانه... ولا مصور غيره... ولا بارئ عداه... ولا قالب غير قوالب صنعته... (٢).

فماذا يصنع الغذاء المصنوع في هذه الورقة الخضراء في جسم الإنسان؟

إن الإنسان ينمو ويربى بهذا الغذاء. فأصل الإنسان حيوان منوى وبويضة أنثويه. وكلاهما لا يتجاوز حجمهما رأس الدبوس، ثم ينمو الجنين وماأن يصل المرء إلى سن الشباب، إلا ويبلغ وزنه بليون مرة تقريباً قدر وزن البويضة المخصبة، فمن أين جاءت هذه الزيادة الضخمة؟ ومن الذي ساقها إليه لينمو بها وهو لا يشعر؟

إن هذه الزيادة جاءت من الغذاء، ولكنّ هذا الغذاء لن يصبح جسماً حيا إلا بعد عمليات من الهضم معقدة.

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٩.

(٢) سعيد النورسى، النوافذ، ص٢٦. (بتصرف).

يقول لله فنيلون» عن جسم الإنسان وكيف يستفيد من الغذاء : « أى الأشياء أعجب وأجمل من مكينة تعمر وترم نفسها بنفسها بلا انقطاع، فالحيوان يضعف بالعمل والكد، ولكنه على قدر ما يشتغل يحس بضرورة تعويض قواه المفقودة بالأكل الغزير، فالأكل يرد إليه كل يوم ما فقده بالشغل، فإنه يدخل إلى بطنه شيئاً غريباً عن جسمه، فلا يلبث أن يستحيل إلى جسمه؛ لأنه ينسحق أولاً، ثم يستحيل إلى سائل، ثم يتصفى حتى يصير كأنه مرّمن منخل ليترك عنه الأشياء الغليظة، ثم يصعد إلى مركز العقل (أى القلب) وهناك يرق ويصير دماً، ومنه يسيل ويسرى إلى الأعضاء ويسقيها بواسطه فروع لاعداد لها فيصفى منها ويصير لحماً، وكل هذه الأغذية المختلفة في الهيئة والتركيب ليست إلا لحماً للإنسان. . . فالغذاء الذي كان جسماً غير حى نراه يقيم أود حياة الإنسان، ويصير هو الحيوان نفسه [(١)].

وتظهر آثار الربّ الرفيق اللطيف في تخليق الصوص أو الكتكوت في بيضة الدجاجه. إن هذا الكتكوت يتكون داخلها ثم يثقبها ويولى هارباً!

بعد أن تلقح البيضة، وتمر في قناة البيض. . وبسبب حرارة الأنثى التي أوجدها المولى جلّ جلاله تنقسم الخلية الأولى فيتكون بذلك البلاستودرم، وبعد ذلك يقف نشاطها بسبب برودة الجو، وما أن تحضن الأم بيضها إلا وتبدأ أعضاء الجنين بالنمو شيئا فشيئاً حتى يخرج الجنين من البيضة. . . ولكن كيف يتنفس هذا الجنين مدة نموه داخل البيض؟

لكل بيضة قطب مدبب وآخر كليل، وعند هذا ينفرج غشاء في

---

(١) انظر: عبد العزيز عبد الرحمن جاب الله، الدليل الصادق على وجود الخالق ج١، ص٤٧.

قشرة البيض ليكون ابتداءً وقبل خلق الجنين حجرة هواء ليتنفس منها الجنين الهواء مدة نموه داخل البيضة! ولو أخذنا بيضة تحمل جنيناً وفتحناها برفق لرأينا رأس الجنين متجهة إلى القطب الذي توجد فيه تلك الحجرة الهوائية !

ولكن كيف يحطم هذا السجين البيضة ويخرج منها؟

في اليوم الثامن من حضانة الجنين تنمو الطبقة القرنية التي ستكون المنقار. وفي اليوم التاسع ترى المخالب واضحة، وابتداء من اليوم الثالث عشر تتكون العظام جميعها، ويبدأ جميع الجسم في النمو... وفي اليوم العشرين أي قبل خروجه بيوم (تقريباً) تظهر نتوءات على رأس المنقار تسمى الشاكوش وهي آلة مدببة يثقب بها الجنين القشرة في اليوم الحادي والعشرين ثم يحطمها بجسمه ثم يولي هارباً إلى الحياة يكد فيها ويسعى ويكابد مشاقها ! [1].

فمن الذي رباه ونماه داخل البيضه، ومن الذي لطف به وأخرجه منها ليملأ الدنيا صياحاً ؟!

إن عناية الربّ سبحانه وتعالى ولطفه حتى في أضعف الحيونات... فهناك نوع من النحل الأفريقي لا يتغذى صغاره إلا بغذاء حي. فإذا لم تضع النحلة صغارها في وسط حي ماتوا... ولكن هذه النحله مخططه وموجهة من قبل خالقها اللطيف الخبير، بحيث تستطيع التغلب على هذه المشكلة... فتذهب وتهجم على جرادة وتلسعها لسعة بين جناحيها.. ولكنها في هذه اللسعة لا تفرز المقدار الاعتيادي من السم كما في اللسعات الأخرى (مثلاً عندما تلسع إنساناً) مخافة أن تؤي تلك إلى موت الجرادة، لذا فإنها تعطي في هذه اللسعة

---

(١) انظر ابن خليفه عليوي، مرجع سابق، ص(٣٩٠-٣٩٣).

سماً يكفي لإحداث غيبوبة في الجرادة لمدة (١٥) يوماً، وبعد ذلك تضع النحله بيضها تحت جناحي الجرادة ثم تطير، فهي تعلم أن صغارها ستتغذي طيلة (١٥) يوماً من الغذاء الحي تحت جناحي الجرادة، وفي اليوم الخامس عشر عندما يكون الصغار على أهبة الطيران، إما أن تموت الجرادة أو تفيق وهي جريحة» (١).

إن هذه النحله لكي تستطيع معرفة تركيز سمها والمقدار اللازم للعملية أعلاه يجب أن تكون على الأقل متخصصة في الكيمياء الحيوية، ولكي تعرف أن صغارها يحتاجون إلى بيئة حية يلزم أن تكون مخصصة في علم الأحياء. . . وهي لا تعرف هذا ولا ذاك والأمر توجيه وإلهام من الخالق سبحانه وتعالى، وما هذا إلا أثر من آثار ربوبيته ولطفه ورحمته بخلقه.

وهناك مثال واضح يبين لنا لطف الله (عزّ وجلّ) بخلقه، فهذا يوسف (عليه السلام) يلطف به الله عز وجل من حيث لا يعلم، ويسوق إليه نعمة وهي التمكين في الأرض من حيث لا يحتسب، ومن كان يفكر ويوسف (عليه السلام) يعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات أن ذلك سيكون سبباً في التمكين في الأرض والتحكم في أقوات الناس ؟! لقد تواترت عليه محن شتى: من محنة كيد إخوته. ، ومحنة الجب والخوف والترويع فيه، ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله، ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، وقبلها محنة الإغراء والفتنة والشهوة، ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز، ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات.

---

(١) خلوق نورباقي، مرجع سابق، ص٤٠.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

فالله عزّ وجلّ يحقق مشيئته بلطف ودقة خفيه لا يحسها الناس ولا يشعرون بها.

وإذا أراد سبحانه وتعالىٰ أمراً قيض له أسباباً وقدره، وييسره. وهوالعليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده (٢).

وتبدو آثار ربوبية الله (عزّ وجلّ) ولطفه ورفقه بعباده في التدرج في التشريعات التي جاء بها الإسلام. فقد كان المجتمع العربىٰ مجتمعاً أمياً تشيع فيه الأميه وكثير من العادات السيئة، ولم يكن من السهل الانتقال بهذا المجتمع فجأة إلىٰ المثالية؛ ولذلك مكث رسول الله (ﷺ) ثلاثاً وعشرين سنة يبنىٰ هذا المجتمع لبنة لبنة.

فقد قام (ﷺ) بإعداد وتهيئة المجتمع الإسلامىٰ بغرس عقيدة التوحيد وتربيتها في النفوس.

وتمّ تطبيق الأحكام الإسلامية علىٰ مراحل بدأت بقانون الوراثة سنة ثلاث من الهجرة، ووضعت قوانين النكاح والطلاق في صورتها النهائية سنة سبع، والقوانين الجنائيه نفذت مادة بعد أخرىٰ حتىٰ اكتمل

---

(١) سورة يوسف آية (٩٩ ـ ١٠٠).

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٤٩١.

الأخذ بها سنة ثمان. وحرمت الخمر بشكل نهائي في تلك السنة. وألغي الربا سنة تسع.

وقد روعي أيضاً هذا المبدأ في الأوامر والنواهي:

فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين، ثم أقرت في السفر على هذا وزيدت في الحضر إلى أربع (الظهر، العصر، والعشاء).

والصيام فرض أولاً على التخيير، من شاء صام، ومن شاء أفطر وفدى، أي أطعم مسكيناً عن كل يوم يفطره.

والزكاة فرضت أولاً بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب، ثم حددت بأنصبة ومقادير في المدينه.

وفي النواهي والمحرمات كذلك لم يأتِ تحريمها دفعة واحدة وإنما أعد الناس أولاً إعداداً نفسياً وذهنياً لتقبل تحريمها، ثم جاء تحريمها على مراحل ومن أوضح الأمثلة على ذلك تحريم الخمر والربا والزنا [١].

وتقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن هذا المبدأ: « إنما أنزل أول ما أنزل - أي القرآن - سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً» [٢].

ولين الجانب والرفق في المعاملة من شمائل المسلم، فالله (عزّ وجلّ) رفيق يحب الرفق في الأمر كله. ولذلك أمرنا سبحانه وتعالى بالعفو والحلم وحسن المعاملة.

---

(١) زين شحاته، المرشد في تعليم التربية الإسلامية، من مبادئ التعليم في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص٩٣.

(٢) رواه البخاري.

قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [(٢)].

والرفق في الأمور جماع الخير كلّه، ومن يحرمه يحرم الخير كلّه. قال رسول الله ﷺ: «**من يحرم الرفق يحرم الخير كلّه**»[(٣)].

والنار تحرم على كلّ هين لين سهل رفيق. ففي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال» قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار۔ أو بمن تحرمُ عليه النار؟ تحرّم على كل قريبٍ هين لينٍ سهلٍ، وفى رواية: «قريب من الناس»**[(٤)].

فالأصل في التعامل الاجتماعي اللين والرفق والرقه مالم يقم ما يقتضي خلاف ذلك.

ويضرب لنا رسولُ الله ﷺ مثلاً علمياً في الرفق واللين. وقد تعجبت منه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عندما استأذن رجل بالدخول عليه، فنعته بقوله: «بئس أخو العشيرة» فلما دخل ألان له الكلام...)[(٥)].

والرفيق الرحيم أحق الناس برحمة الله (عزّ وجلّ) كما في

---

(١) سورة آل عمران اية ١٣٤.　　(٢) سورة فصلت آية (٣٤۔٣٥)

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٢) ولفظ كله لم ترد عنده وإنما وردت عند أبي داود(٤٨٠٩).

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، ورواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣١٣٥)

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب.

الحديث : «**الراحمون يرحمهم الرحمنُ تبارك وتعالى: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[١] .

وأحقُ الناس بالرفق واللين الأهل وذوو الرحم فينبغي أن تصطبغ العلاقات داخل الأسر باللين والرفق حتى يتماسك البنيان وتصفو الأجواء وفي الحديث النبوي : قال رسول الله ﷺ : «**إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق**»[٢] .

ومما يجب الرفق به ولين الجانب معهم المتعلمين وقد أثنى الله (عزّوجلّ) علي نبيه في رفقه ولين جانبه ورحمته بمن حوله .

قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[٤] .

ويروي أبو هريرة (رضي الله عنه) مثالاً حياً لهذه الرحمة والرفق فيقول : «بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ «**دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء ـ أو ذنوباً من ماء ـ فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»[٥] .

وقريب من هذا ما رواه معاوية بن الحكم السلمي (رضي الله عنه)

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٢٢).

(٢) رواه أحمد وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (٣٠٣).

(٣) سورة التوبة آية ١٢٨ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

(٥) رواه البخاري في الطهاره.

قال : بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذا عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله .

فرماني الناس بأبصارهم ، فقلت : وأثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخادهم ، فلما رأيتهم يصمتوني . لكني صمت ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني . قال : إن هذه الصلاة لا يصلح شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير ، فقلت يا رسول الله . . الخ»[١] .

وقسوة القلوب وغلظتها قد يكون سببها مرور الأيام والغفلة وكثرة النعمة .

ولذلك عاتب اللهُ (عزّ وجلّ) أصحابَ رسول الله ﷺ حين رأى تغيراً في قلوبهم فقال تعالى : ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾[٢] .

وحدث ابن مسعود (رضي الله عنه) فقال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية . . إلا أربع سنين»[٣] .

ويعلق محمد بن كعب علي هذه الآية فيقول : «كان الصحابه بمكة مجدبين ، فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة ففتروا عما كانوا فيه فقست قلوبهم ، فوعظهم الله فأفاقوا»[٤] .

---

(١) متفق عليه.　　　(٢) سورة الحديد آية ١٦ .

(٣) روه مسلم، كتاب التفسير، باب(١) .

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٧، ص١٦٢ عند تفسير الآية ١٦ من سورة الحديد.

وقد يكون سبب قسوة القلوب الانشغال بلغو الكلام ونسيان ذكر الله (عز وجل)، وجاء في موطأ الامام مالك قال : بلغني أن عيسىٰ عليه السلام قال لقومه : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالىٰ، فتقسو قلوبكم، فإنَّ القلبَ القاسيٰ بعيدٌ من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: معافىٰ ومبتلىٰ، فارحموا أهل البلاد، واحمدوا الله علىٰ العافية»[١].

فالمسلم يتعهد نفسه دائماً، ويجلو قلبه حتىٰ لا تعلوه غفلة تتبعها قسوة . فإذا ما شعر بقسوة في قلبه وخشونه في خلقه. تكلف بعض السلوكات اللينه حتىٰ يلين قلبه، فقد شكا إلىٰ رسول الله ﷺ رجل قسوة قلبه، فقال له : « **إن أردت أن يلين قلبك؛ فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»[٢].

فصورة الشديد الغليظ، الغاضب العنيف، صورة فظة مشينه معيبه تنفر منها الطباع، بينما صورة السهل الرفيق، اللين اللطيف صورة تزين صاحبها، ترتاح إليها النفوس، وتأنس إليها القلوب، وتنشرح لها الصدور[٣]. قال رسول الله :«**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه**»[٤].

ولا يقتصر سلوك المؤمن تجاه إخوانه علي الرفق بهم واللين معهم، وإنما يتجاوز ذلك إلىٰ رعاية مصالحهم وقضاء حوائجهم، فهو مع إخوانه بنيان واحد، وجسد واحد.

---

(١) موطأ مالك، كتاب الكلام، باب (٥)، حديث رقم(٨).
(٢)رواه أحمد، وحسنه الألبانىٰ فىٰ صحيح الجامع برقم (١٤١٠).
(٣) محمود محمد الخزندار، هذه أخلاقنا، ص ٤٦٥ .
(٤) صحيح الجامع برقم(٥٦٥٤).

قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا**»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»[٢].

فالأخوة ورعاية مصالح الإخوان هي روح الإيمان الحي ولبابه، فالمسلم يحيا لإخوانه، ويحرص على منفعتهم. قال رسول الله ﷺ: «**من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس اللهُ عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر علي مسلمٍ ستر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عونِ أخيه**»[٣].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٤].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[٥].

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[٦].

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[٧].

﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنه وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**﴾[٨].

---

(١) رواه البخاري في الصلاة والأدب ومسلم في الأدب.
(٢) رواه البخاري ومسلم انظر مع الأصول برقم ٤٧٧١.
(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي» داود، برقم ٤١٣٧.
(٤) سورة البقرة آية ١٤٠.
(٥) سورة إبراهيم آية ٤٠.
(٦) سورة النمل آية ١٩.
(٧) سورة الكهف آية ٢٠
(٨) سورة البقرة آية ٢٠١.

«رب أعني ولا تعن علىّ. وانصرني على من بغي علىّ. رب اجعلني لك شكاراً، لك ذكاراً، لك رهابا، لك مطواعا، إليك مخبتاً أواها منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي»(١) .

* * *

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ١/ ٥١٩ وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٧٨ .

الرحمن ـ الرحيم ـ الرءوف

٧٧ـ ٧٨ـ ٧٩

الرحمنُ الرحيم اسمان من أسماء الله الحسنى، والاسمان يتضمنان صفة الرحمة، وقد ذكر اسم الرحمن في القرآن الكريم(٥٧) مرة، مثل قوله تعالى:

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(١).

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾(٢).

أما اسم الرحيم فذكر(١١٤) مرة، أي ضعف عدد تكرار اسم الرحمن، وذلك مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(٤).

وهذا التكرار بدون الرحمن الرحيم في البسملة التي تفتتح بها السور القرآنية.

والاسمان ـ كما سبق ـ مشتقان من الرحمة، ومحال أن يكونا مترادفين من جميع الوجوه، فوجب أن تكون بينهما فروق، فما هذه الفروق؟

قال العلماء : إنّ هذه الفروق تتمثل في التالي :

---

(١) سورة طه آية ٥. (٢) سورة الفرقان آية ٢٦.

(٣) سورة البقرة آية ١٧٣.

(٤) تكررت هذه الآيه في سورة الشعراء.

١ـ إنّ الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم هو ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين يوم القيامة، واستدلوا علي ذلك بقوله تعالى:

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾.

﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾.

فذكر الاستواء باسم«الرحمن» ليعم جميع خلقه برحمته، لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعه لهم ورحمتى وسعت كلّ شىء، فاستوىٰ علي أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كلّ شىء»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾.

فخص المؤمنين باسمه الرحيم.

والمشهور أنهم كانوا يقولون يا رحمن الدنيا، ورحيم الآخره فرحمته في الدنيا شامله للمؤمن، والكافر، والصالح، والطالح، أما رحمته في الآخرة فخاصة بالمؤمنين.

فالرحمة الناشئة من اسم الرحمن عامه، والرحمة الناشئة من اسم الرحيم خاصه ولذلك جاءت الرحمن علىٰ وزن فعلان، وفعلان تفيد التكثير، فالرحمن هو ذو النهاية في الرحمة الذي وسعت رحمته كل شىء.

أما الرحيم فوزن فعيل، وهو خاص بالمؤمنين.

٢ـ وقيل: الرحمن هو واسع الرحمة، والرحيم دائم الرحمة وسعة الرحمة أمر تتطلبه الدنيا لما تستوجبه كثره (الذنوب) واستمرار الرحمة

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مدراج السالكين، ح١، ص ٣٣.

أمر يناسب الحياتين الدنيا والآخرة، ويؤيد ذلك ورود اسم الرحيم ضعف عدد اسم الرحمن في القرآن الكريم.

والرحمن اسم خاص بالله (عزّ وجلّ) فلا يجوز إطلاقه على أحد من البشر، أما الرحيم فيجوز إطلاقه على العبد[1]، ولذلك وصف الله عزّ وجلّ به نبيه فقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ولذلك جاء في ترتيب البسمله باسم الله أولاً، ثم ذكر الرحمن؛ لأن الاسمين لا يطلقان على غير الله (عزّ وجلّ) ثم الرحيم وهو عام قد يطلق على الخلق كما سبق.

*أما الرءوف: فهو شديد الرحمه، والرأفة: أشد الرحمة، أو هي نهاية الرحمة وقد ورد في القرآن الكريم (١٠) مرات كاسم من أسماء الله الحسنى، ومرة واحدة صفة لرسول الله ﷺ وقد اقترن في ثمان منها بالرحيم مقدماً عليه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

وهذا يدل على عظم رحمته وكمالها (سبحانه وتعالى).

والله عزّ وجلّ ذو رحمة، والمخلوقات تتراحم فيما بينها، فهل رحمة الله عز وجل كرحمة مخلوقاته؟

رحمة الله عزّ وجلّ ليست كرحمة المخلوقين. والاتفاق في الاسم لا يقتضي الاتفاق، في المسمى. فللخالق صفات تليق به، وللمخلوقين صفات تليق بهم، وتختص بهم.

وإذا كانت الرحمة في أصل مادتها تعني رقة في القلب على المرحوم، فذلك جائز في حق العباد ولكنه محال في حق الله (عزّ

(١) سورة التوبة آية ١٢٨.
(٢) اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن الكريم، ح١، ص(٢٠-٢١)(بتصرف).
(٣) سورة الحج آية ٦٥.
(٤) سورة الحشر آية ١٠.

وجلّ) لأنه جل وعلا لا يشبه الحوادث. فهو سبحانه وتعالىٰ ذو رحمة علي ما يليق بجلاله كسائر الصفات.

ومن آثار رحمته سبحانه، إنعامه وإفضاله وإحسانه علىٰ مخلوقاته.

وإنعام الله عزّ وجلّ وإفضاله وإحسانه علىٰ مخلوقاته يشمل إيجادهم أولاً، ثم هدايتهم ثانياً، ثم إسعادهم ثالثاً. إيجادهم في الدنيا ثم هدايتهم إلىٰ ما يصلحهم، ثم إسعادهم في الآخرة إن آمنوا واتقوا.

وآثار رحمة الله (عزّ وجلّ) في الكون والحياة لا تعد ولا تحصي، قال ابن القيم (رحمه الله): إن ظهور آثار هذه الصفه (الرحمة) في الوجود كظهور أثر الربوبيه والملك والقدره، فإن ما لله علىٰ خلقه من الإحسان والإنعام شاهد برحمة تامة وسعت كل شيء.

فبرحمته أرسل إلينا رسوله، وأنزل علينا كتابه، وعلمنا من الجهاله، وهدانا من الضلالة، وبصّرنا من العمىٰ، وأرشدنا من الغىٰ، وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا.. وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار[1].

فلا حدود لرحمة الله (عزّ وجلّ)، وكلُّ صور الرحمة التي نراها في الكون من حولنا إنما هي جزء من مائة جزء خلقها الله (عزّ وجلّ).

عن أبىٰ هريره (رضىٰ الله عنه) قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة. وفىٰ رواية: كلُّ رحمة طباق ما بين السماء والأرض. فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلّهم رحمة واحدة.

---

(١) مختصر الصواعق المرسله للموصلىٰ(٢/ ٣١٧).

وفى رواية «إنّ لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس، والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش علي ولدها، وفى رواية حتي ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه وآخرّ الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامه»(١).

فبحار الرحمة الإلهيه بلا شاطىء ولا حدود، ولا تقاس رحمة البشر، برحمة الخالق، فرحمة الإنسان سجينة في حدود طاقته المحدودة، وهي مقيدة على قدر عطائه المحدود الذي ينفد، وهى لا تسع إلا ما يسعه عقله وقلبه.. وما أسرع ملل الرحمة الإنسانية!

أما الخالق (سبحانه وتعالى) فرحمته وسعت كل شئ، وهو سبحانه أرحم بعباده من الأم بولدها.

عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبى، فإذا امرأة من السبى تبتغى - وفى رواية البخارى - تسعى إذ وجدت صبياً في السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: **أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قلنا: لا والله: وهي تقدر علي أن لا تطرحه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، الله أرحم بعباده من هذه بولدها)**.

ومظاهر وآثار رحمة الله عزّ وجلّ من حولنا لا تعد ولا تحصى، ومنها علي سبيل المثال:

---

(١)متفق عليه(البخارى فى الأدب، ومسلم فى التوبة).

إرسال الرسل لهداية البشر، فالرسل رحمة من عند الله (عزّ وجلّ)، قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾(١)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢).

وقال (سبحانه) عن عيسى (عليه السلام):

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾(٣).

وقال تعالى عن كتبه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٤).

فبرحمته سبحانه أرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتب لهداية البشر، ولتعريفهم بأسمائه وصفاته، وكيفية عبادته سبحانه، لينقلهم - برحمته - من الجهالة إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدي، ومن الغى إلى الرشد.

ومن آثار رحمته (عزّ وجلّ) إعداد الأرض لسكنى البشر، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾(٥).

فقد خلق الله (سبحانه وتعالى) الأرض في مكان مناسب لسُكنى البشر، ولفها بغلاف مائى يغطى حوالى أربعة أخماسها، وغلاف هوائى يعلوها بسمك(١٠٠٠) كيلو متر.

ومن آثار رحمة الله عزّ وجلّ في إعداد الأرض وتمهيدها لسكنى المخلوقات ما يلى:

١- لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضعة أقدام

---

(١) سورة التوبة آية ١٦. (٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧.
(٣) سورة مريم آية ٢١. (٤) سورة النحل آية ٨٩. (٥)سورة الذاريات آية ٤٨.

لامُتص ثاني أكسيد الكربون الأُكسجين، ولما أمكن وجود حياه.

٢ ولو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه، فإن بعض الشهب التي تخترق بالملايين كلّ يوم في الهواء الخارجي، كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

٣ـ ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي، لكنّا تجمدنا، ولو أنها زادت بمقدار النصف، لكنّا رماداً منذ زمن بعيد.

٤ـ ولو أن قمرنا يبعد عنا عشرين ألف ميل بدلاً من بعده الحالي، ولما لا وقمر المريخ يبعد عنه ستين ألف ميل، لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأرض تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها.

٥ـ ولو كان الليل أطول مما عليه الآن عشر مرات، لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار، وفي الليل يتجمد كلّ نبات على وجه الأرض.

٦ـ ولو كان الأوكسجين بنسبة (٥٠٪) أو أكثر في الهواء بدلاً من النسبة الحاليه وهي (٢١٪) فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابه كلها، وما استطاع الإنسان أن يطفيء حريقاً، ولو نقصت نسبة الأكسجين إلى (١٠٪) لتعذرت الحياة على سطح الأرض.

٧ـ ولو أن الله جعل الماء لا يتبخر لانعدم المطر، ولو انعدم المطر لاستحالت الحياة وصارت الأرض قاحلة جرداء.

٨ ـ ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض، حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد، ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم، لما كان الملح، وبالتالي ما كانت حياة.

٩ ـ ولو جعل الله محور الأرض معتدلاً بدل الميل الحالي الذي مقداره (٢٣ْ) مع سكون الأرض، لتجمدت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب، ولهلك الناس وانعدمت الحياة.

١٠ ـ ولو كانت الأرض كعطارد لا يدير إلا وجهاً واحداً منه نحو الشمس، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس، أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلاً دائماً، والآخر نهاراً دائماً، لما عاش أحد حيث الليل الدائم أو النهار الدائم، ولا كانت حياة.

١١ ـ ولولا أن الله خلق قانون الجاذبية لما التقت الذرات، ولما تكونت المجرات، ولما دارات الأرض حول الشمس بانتظام ـ ولترتب على هذا انهيار العمارة الكونية كلها.

١٢ ـ ولو خلق الله الأرض صغيرة في حجم القمر لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الهوائي والمائي اللذين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت.

١٣ ـ ولو خلق الله الإلكترونيات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة، والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات، لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضه، وحينئذ كيف يعيش الإنسان؟!

١٤ ـ ولو خلق الله العناصر لا تتحد مع بعضها، لما أمكن وجود

تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات .

١٥ ـ ولو أن الله لم يخلق الجبال لتناثرت الأرض، وتبعثرت في الفضاء .

١٦ ـ ولولا أنه (سبحانه) أودع في الأرض أرزاقها، لما استطاعت الحياة أن تبقى (١) .

فأيُّ رحمة هذه التي أعدت ومهدت ورتبت الدار لساكنيها من المخلوقات :

ألا ما أوسع رحمة الله عزّ وجلّ، وما أعظمها!

وآثار رحمة الله (عزّ وجلّ) ليست مقصورة على إعداد الأرض للإنسان وإنما هي معه طيلة حياته، وكلّ عضو من أعضاء جسمه ينطق برحمة ربه، فالجهاز الهضمي (مثلاً) وكيف يحّول ما يأكله الإنسان من مواد معقدة صلبة إلى مواد ذائبة قابلة للامتصاص معجزة ورحمة من الخالق الرحمن الرحيم (سبحانه) .

وهذا التنوع في صفوف الغذاء، مع أن الأصل واحد، فعناصر الغذاء هي عناصر القشرة الأرضية، ولكن رحمة الرحمن الرحيم أخرجت لنا أشكالاً شتى، وصنوفاً متعددة من الطعام والثمار، فهذا حلو، وذاك أشد حلاوة، وهذا لاذع، وذلك حار، ومن كلّ صنف عدة أنواع، وهناك تنوع في الأشكال والألوان والروائح حتى يقبل الإنسان على طعامه بنفس تواقه، ورغبة جياشه .

ولا تقتصر آثار رحمة الله (عزّ وجلّ) على الإنسان في طعامه وشرابه، وإنما أيضاً الجوع رحمة من الله (عزّ وجلّ)، وهو إحساس

(١) سعيد حوى، الله (عزّ وجلّ)، ص٣٧ : ص٣٩ .

عجيب حار العلماء فيه إحساس يدفع الإنسان إلى الطعام، فماذا لو فقد الإنسان هذا الإحساس؟! إنه الهزال ثم الموت.

إن الطفلَ الرضيعَ قد تنشغل عنه أمه، فتتأخر عليه بالرضاعة، فماذا يحدث؟ إنه يحس بالجوع ثم يصرخ فماذا يعني صراخه؟ إنها رسالة موجهة إلى أمه مضمونها: إني جائع فأسرعي بإرضاعي!

والإحساس بالألم أيضاً أثر من آثار رحمة الله (عزّ وجلّ) إذ عن طريقه تتم في الجسم أمور غريبه تتكاتف كلها لحماية الإنسان، وحفظ حياته ودفع الأذى عنه.

فمن أول نتائج الألم السريعة، الابتعاد عن مصدر الأذى بطريقة سريعه، فعندما يشعر الإنسان بلسعة النار يبتعد تلقائياً عنها وبسرعة، فماذا لو لم يشعر الإنسان بلسعة النار؟!

والنسيان أيضاً أثر من آثار رحمة الرحمن الرحيم، فماذا لو لم ينس الإنسان ما يلم به في حياته من فقد لعزيز أو نقص في مال أو إساءة من عدو أو صديق؟!

ومن آثار رحمة الرحمن الرحيم على الإنسان أن أخفي عنه موعد أجله ولو عرف الإنسان يوم موته سواء أكان هذا اليوم بعيداً أم قريباً لتغيرت نفسه، وانقطع أمله، وتنغصت حياته وتحولت إلى شقاء.

وأعظم آثار رحمة الله (عزّ وجلّ) الجنة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١).

وقد أعد الله (سبحانه) فيها لعباده المؤمنين من أسباب السعاده ووسائل التنعم مالا يخطر علي قلب بشر، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٧.

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

وقد جمعت الآية السابقة بين نعيم البدن في الأرزاق الماديه، ونعيم النفس في الأزواج المطهرة، ونعيم القلب في الخلود.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٢).

وأعظم من كلّ هذا النعيم رضوان الله (عزّ وجلّ) عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: **إنّ اللهَ (عزّ وجلّ) يقول لأهل الجنه: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: وأى شيء أفضل من ذلك؟**

فيقول: أُحلَ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً(٣).

ولو ذهبنا نستقصي آثار رحمة الله (عزّ وجلّ) بالإنسان ما وسعت ذلك مجلدات.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥.

(٢) سورة الزخرف آية ٢٥.

(٣) متفق عليه البخاري ١١/ ٣٦٣، ٣٦٤، ومسلم برقم (٢٨٢٩).

(٤) سورة النحل آية ١٨.

ولا تقتصر آثار رحمة الله (عزّ وجلّ) على الإنسان وحده، وإنما تبدو آثارها في كثير من أجناس الحياة من غير الإنسان، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1].

ونعرض في إيجاز لشيء من آثار رحمة الله (عزّ وجلّ) في عالم الحيوان:

* ترعى القردة أولادها الصغار فترضع صغيرها، وتحمله علي كتفها وتحميه وتدافع عنه، وتصيح وتتألم إذا اعتل أو جرح أحد صغارها.

*تنتف الأرانب شعر بطنها؛ لتجعله فراشاً لأولادها، وبعض الحيوانات أكثر منها شفقة ورحمة لأنها تنتف شعرها كلّه ولا تكتفى بجزء منه، ومتى باضت لفت بيضها في شعرها فجعلته أثواباً تصنعها لوقايتها من الحرّ والبرد والعوارض الجوية، ثم تموت!

* يصعد القنفد إلى العنب، فيرمي بالعنقود، ثم ينزل فيأكل منه ما يكفيه، وإن كان لها أولاد تمرغ علي الباقي فيتعلق بشوكة فيذهب به إلى أولاده.

* وفي عالم الطيور تحتضن الأم البيض لأنه يحتاج إلى حرارة ودفء حتى يفقس، ولا تتركه إلا إذا اشتد بها الجوع. ولكنها تعود إليه مسرعة، وتقوم الإناث بتغذية الصغار وذلك بأكل مهضوم كما في الحمام إذ يفرز جدار الحويصلة سائلاً خاصاً يسمي بالعصير الحويصلي تأخذه الصغار مع الغذاء المحفوظ في الحويصله، وتقوم الأم بإعطاء الصغار البذور تدريجياً حتي يتم اكتمال جهازها الهضمي.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٦.

* وفي الزنانير تقوم الأنثى في البداية بوضع البيض الذي يفقس عن يرقات، وسرعان ما تعطى الأم كل اهتمامها لتغذيتها، فتحضر لها مواداً سكرية تجمعها من الأزهار، أو تغذيها بحشرات حين تصطادها، ثم تقطعها بفكوكها القوية، وتقدمها بعد ذلك لصغارها.

* بعض أنواع الذباب يحفر لبيضه جحراً في الأرض يضعه فيه، ثم يذهب إلى عنكبوت أو دودة يمج فيها جزءاً من السّم فتسكن حركتها، ثم يحملها إلى جحره ويلقيها عند البيض ويسد عليها، فإذا خرجت الأولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها. . وسبب ذلك أن هذه الحشرات لا تأكل ميته قط، وأمها لا ترعى أولادها قط، فتحضر لها هذه الحشرات التي خدرتها بسُمها حتى إذا خرجت من البيض أكلتها!![1].

فمن الذي علّم الحيونات والحشرات السابقة وألهمها؟!

ألا ما أعظم آثار رحمه الله (عزّ وجلّ).

بيد أن هناك شبهة يثيرها الكافرون والغافلون ألا وهي إذا كان الله (عزّ وجلّ) رحماناً ورحيماً بعباده، فلماذا نشاهد في الكون كثيراً من القسوة والآلام والكوارث التي تجتاح البلاد والعباد؟

والجواب عن ذلك واضح بين لأولى الألباب: فعندما يُهلك الحق(سبحانه) الظالمين كقوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وغيرهم فإنما ذلك بعد أن أرسل إليهم رسله، وأقام عليهم حججه فجاءتهم الرسل يدعونهم، ويقولون لهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[1]. فجاء

---

(١) حسن أيوب، مع الله في أسمائه وصفاته، ص ٥٨.

(٢) سورة إبراهيم آية ١٣.

ردهم يحمل معاني الكبر والتمرد علي أمر الله (عزّ وجلّ)، واحتقار الرسل وازدرائهم، مثل: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١]، ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٢]، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[٣]، ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[٤]، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[٥].

فكان إهلاكهم عدلاً من الله (عزّ وجلّ)، ورحمة منه بعباده المؤمنين بل ونعمه على الكون كله.

فإهلاك الظالمين بعد الإعذار إليهم هو عين الرحمة للوجود كلّه: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾[٦]، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[٧]. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[٨].

فقد أهلك الحق (سبحانه وتعالى) كلّ هؤلاء بظلمهم وإفسادهم في الأرض. أما ما يحدث في الكون من كوارث كالزلازل والبراكين وغيرها، فإنما هو تذكير للغافلين.

وهذه سنة من سنن الله الكونيه، قال تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٩]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[١٠].

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٩.
(٢) سورة الأعراف آية ٦٦.
(٣) سورة الفرقان آية ٨.
(٤) سورة الشعراء آية ٢٩.
(٥) سورة هود اية ٩١.
(٦) سورة الأنعام آية ٤٧.
(٧) سورة النحل آية ١١٣.
(٨) سورة القصص آية ٥٩.
(٩) سورة الرم آية ٤١.
(١٠) سورة الأنعام آية ٤٢.

فعند ما يذكر الحق (سبحانه) الغافلين ليرجعوا إليه، فإنما ذلك عين الرحمة بهم، فليست الرحمة حناناً أو شفقه تتنكر للعدل والنظام ولله المثل الأعلىٰ، الطبيب عندما يجري عمليه جراحيه لمريض، ويبتر عضواً من أعضائه، فإن ذلك في ظاهره قسوة، بيد أنه في حقيقته عين الرحمة بالنسبة للمريض، فقد بتر عضواً لو ترك لكان في تركه هلاك البدن كلّه.

وعندما نري القاتل يقتص منه، فقد نشفق عليه، ولو أجيبت هذه الشفقه وأطلق سراحه لامتلأت الأرض فوضىٰ وعين الرحمة في القصاص، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١).

أما المصائب والالآم التىٰ تنزل علىٰ المؤمنين، فإنما هي تكفير لخطاياهم وتمحيص لإيمانهم، ورفع لدرجاتهم، وهذا عين الرحمة بهم، قال تعالي: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٢).

وعن أبىٰ هريرة (رضىٰ الله عنه) عن النبىٰ ﷺ قال: « **ما يصيب المسلمُ من نصبٍ ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذي ولا غم ـ حتى الشوكه يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»(٣).

فالمصائب بالنسبة للمؤمنين رحمة من الله (عزّ وجلّ) بهم، فليس

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٩.

(٢) سورة البقرة آية (١٥٥ ـ ١٥٧).

(٣) متفق عليه (انظر صحيح البخاري، كتاب المرض، ما جاء فى كفارة المرض).

في الوجود مظهر من مظاهر الشر إلا وهو يحمل في طياته الخير والرحمة، ولو رفع هذا الشر الظاهرى لبطل ما فيه من الخير والرحمة ولكان الشر أعظم.

والآن، كيف ننال رحمة الله عزّ وجلّ؟

١ـ رحمة الناس عامه؛ فالمؤمن الكامل يلقى الناس، وفي قلبه لهم عطف مذخور، وبر مكنون، فيوسع عليهم، ويخفف عنهم جهد ما يستطيع، قال رسول الله ﷺ: **«من لا يَرْحَمُ الناسَ لا يرحمه الله»**[(١)].

فالمؤمن يرحم الغافلين من عباد الله فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى طريق الله (عزّ وجلّ) بالنصح الرقيق اقتداء بنبى الرحمة محمد ﷺ.

فالنظر إلى العصاة ينبغى أن يكون بعين الرحمة لا بعين الإيذاء، فالمؤمن ينبوع من الرحمة يفيض على الآخرين. وإذا جفّ هذا الينبوع صارت الحياة شقاء.

فما أحوجنا حتى ننال رحمة الله عزّ وجلّ أن نقتدى برسول الرحمة محمد ﷺ الذي لازمه هذا الخلق العظيم حتى في أحلك اللحظات وأشدها. فقيل له بعد انتهاء معركة أحد، وبعد أن شُقّ خده، وسقط سنّه، ادع على المشركين، فماذا قال؟ وبأى شيء دعا؟

إنه دعا لهم لا عليهم قائلاً: « **اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**».

٢ـ الرحمة الخاصة : وهى التي تخص أقواماً بعينهم نبه الإسلام إليهم، ونوه الشرع إلى رحمتهم، ومن هؤلاء:

ذوي الأرحام: **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الراحمون يرحمهم الله تعالي، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء،**

---

(١) رواه البخارى ومسلم. وقال الترمذى حسن صحيح.

الرحمه شجنة من الرحمن، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله(١).

وأولى الناس بالرحمة في هذه الطائفة الولدان، ولذلك نجد الحقّ (سبحانه وتعالى) قد جمع بين الإخلاص له في العبودية والإحسان إلي الوالدين ورحمتهما، قال تعالى: ﴿**واعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾(٢)، ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾(٣)، ﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾(٤).

فعقوق الوالدين عنوان على قساوة القلوب، ونضوب الرحمة فيها.

فالمؤمن لا ينبغي أن يوصد قلبه وبيته دون أهله وذوي رحمة، فلا يواسيهم في مرض، ولا يعينهم على نائبة ﷺ لأن هذه القطيعة لها ثمرات مرة فهي تقتر المعيشه وتستنزل الشقاء، وتستوجب اللعن: قال تعالى: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ**﴾(٥).

وممن تجب رحمتهم والرأفة بهم الأبناء، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: **قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسنَ والحسينَ ابنى على، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إنّ لى عشرة من الولد ما**

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود في كتاب البر والصله باب ما جاء في رحمته المسلمين، وقال: حديث حسن صحيح،

(٢) سورة النساء آية ٣٦.

(٣) سورة الإسراء آية ٢٣.

(٤) سورة الإسراء آية ٢٤.

(٥) سورة محمد آية (٢٢-٢٣).

قَبلتُ منهم أحداً قط. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «من لا يرحم لا يُرحم» ،وفي رواية :أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك»[١] .

وإذا كانت الرحمة واجبة في حق البنين فهى في حق البنات أوجب عن أنس(رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال : «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامه أنا وهو كهاتين»وضمّ أصابعه**[٢] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئاً غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبى ﷺ علينا ، فأخبرته فقال : «**من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار**»[٣] .

والرحمة أيضاً بالزوجة واجبة ، وقد اهتم الحق(سبحانه وتعالى) بإبراز هذه الرحمة في العلاقة بين الرجل وامرأته .

قال تعالي : ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٤] .

وقد اهتم الرسول ﷺ بالنساء كثيراً في وصاياه، فقال : «**استوصوا بالنساء خيراً. فإن المرأة خلقت من ضلع إن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء**»[٥] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم فى فضائل الأنبياء .

(٢) رواه مسلم وأحمد .

(٣) متفق عليه ورواه البخاري ومسلم والترمذي فى (البر والصله) .

(٤) سورة الروم آية ٢١ .

(٥) رواه الشيخان والنسائى فى عشرة النساء وابن أبى شيبة .

ومما تجب الرحمة بهم اليتامى: فالرحمة بهم من أذكى القربات، وقد جعلها رسول الله ﷺ دواءً لقساوة القلوب وجفوتها.

عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة في قلبه فقال له: «**امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين**»(١).

وفي رواية: أن رجلاً جاءه يشكو قسوة قلبه فقال له: أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلين قلبك، وتدرك حاجتك.

وممن تجدر الرحمة بهم المرضى وأصحاب العاهات، ذلك أن الله (عزّ وجلّ) ابتلاهم وعذرهم: قال تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾(٢).

فرحمة المرضى وأصحاب العاهات بتخفيف آلامهم، والعمل على راحتهم وخدمتهم من الخصال النبيلة التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم لينال رحمة الله عزّ وجلّ.

وممن تجب رحمتهم أيضاً الخدم، فينبغي الإحسان إليهم، والتجاوز عن هفواتهم.

عن أبي مسعود البدري قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي يقول: اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «**اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى.**

(١) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) سورة الفتح آية ١٧.

فقال : لو لم تفعل للفحتك النار(١).

وجاءه رجل يسأله : كم أعفو عن الخادم؟ قال ﷺ «**كل يوم سبعين مرة**» فإيذاء الخدم لا يصدر إلا عن جاف غليظ القلب سيء الخلق، جاهل للعواقب فربما سلبه الله خدمه، وجعله خادماً لا مخدوماً، وكم من عبر في هذا الأمر.

قال تعالى : ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾(٢).

وربما كان الخادم أكرم عند الله من مخدومه، عن ابن عمر (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ، قال : « **إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله، فله أجره مرتين**»(٣).

ومن الرحمة التي ينبغي الحرص عليها الرحمة بالحيونات والرفق بها. والقسوة علي هذه المخلوقات ليست من شيم المؤمنين.

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال : «**عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»(٤).

وقد مر ابن عمر (رضي الله عنهما) بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر : من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إنّ رسولَ الله ﷺ قال : لعن الله من اتخذ شيئا فيه الروح غرضاً»(٥).

---

(١) رواه مسلم رقم (١٦٥٩).

(٢) سورة آل عمران آية ١٤.

(٣) متفق عليه(البخاري في الفتن ومسلم في الإيمان).

(٤) متفق عليه انظر (مسلم في باب تعذيب الهرة ونحوها) رقم (٢٢٤٢).

(٥)متفق عليه البخاري ٩/ ٥٥٤، ومسلم برقم (١٩٥٨).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ : مر عليه حمار قد وسم في وجهه، فقال: «**لعن الله من وسمه**»(١).

فالرحمة بالحيوان واجبة في الإسلام، ولو كان هذا الحيوان كلباً: قال رسول الله ﷺ: «**بينما رجلُ يمشى في الطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا بكلب يلهث يأكل الثري من العطش، فقال الرجل. لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتي رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً قال «في كل كبد رطبة أجراً»**.

وفي رواية : أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد ادلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها فغفر لها به»(٢).

فإذا كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا، فما بالك برحمة البشر عامة ورحمة المؤمنين خاصة؟!

٣ـ طاعة الله عزّ وجلّ، فرحمة الله عزّ وجلّ في الآخرة يظفر بها الطائعون المخلصون الذين يطيعون الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾(٣).

﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾(٤).

﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(٥).

---

(١) رواه مسلم برقم(٢١١٧).
(٢) رواه البخاري ومسلم، وابن حبان في صحيحه.
(٣) سورة ال عمران آية ١٣٢.
(٤) سورة النور آية ٥٦.
(٥) سورة الأعراف آية ٥٦.

٤ـ العزم عند سؤال الله (عزّ وجلّ) الرحمة:

ففي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول اله ﷺ قال: «**لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم في المسأله فإنه لا مُستكره له**».

وفي رواية فليعزم مسألته إنه يفعل ما يشاء لا مكره له»(١).

﴿ ربَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب﴾(٢).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾(٤).

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾(٥).

«**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»(٦).

«**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك الغفور الرحيم**»(٧).

«**اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك، فإنه لا يملكها إلا أنت**»(٨).

---

(١) رواه البخاري (برقم ٦٣٣٨، ومسلم برقم ٢٦٧٨).
(٢) سورة آل عمران آية ٨. (٣) سورة الحشر آية ١٠.
(٤) سورة المؤمنون آية ١٠٩.
(٥) سورة المؤمنون آية ١١٨.
(٦) البخاري ٧/ ١٥٤ ومسلم ٤/ ٢٠٩٢.
(٧) البخاري ١/ ٣٠٢، ومسلم ٤/ ٢٠٧٨.
(٨) أخرجه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد ابن زياد وهو ثقه.

الشافي الطبيب

٨٠ ٨١

الشفاء في اللغة هو البرء من المرض. يقال : شفاه الله يشفيه، واشتفي افتعل منه، فنقله من شفاء الأجسام إلى شفاء القلوب والنفوس[١].

والله سبحانه وتعالى هو الشافي، وقد ورد هذا الاسم في الحديث الصحيح عن عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ كان يعوّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: **اللهم ربّ الناس اذهب البأس واشفه وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً**[٢].

الطبيب : الطَّبُّ في اللغة الماهر الحاذق بعلمه، وهو طب بهذا الأمر عالم به والطِّب بالكسر والضم والفتح لغتان: علاج الجسم والنفس والرفق والسحر.

الطبيب صاحب علم الطب، والعالم به، وكل ماهر حاذق بعلمه طبيب عند العرب.

والله عزّ وجلّ هو الطبيب العالم بجميع أنواع الطبّ، الخبير بها لأنه سبحانه وتعالى خالق كل شيء عالم بكل شئ خبير بكل شيء.

وقد ورد اسم الطبيب في الحديث النبوى الصحيح عن أبى رمثه قال: انطلقت مع أبى نحو النبي ﷺ: «**قال له أبى: أرنى هذا الذى**

---

(١) صلاح الدين حنفى، مختصر النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير، ص ٧٨، وانظر مختار الصحاح ص ١٤٤.

(٢) رواه البخاري فى آخر كتاب المرض، ورواه مسلم ٤/ ١٧٢١، وغيرهما.

بظهرك، فإني رجل طبيب، قال: الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق، طبيبها الذي خلقها»[١].

وقد أنزل الله(عزّ وجلّ) القرآن وجعله الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، والنفسيه، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[٢]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء بالقرآن، وإذا أحسن العليل التداوي به وعالج به مرضه بصدق وإيمان. وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء لشروطه لم يقاومه الداء أبداً وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها أو على الأرض لقطعها فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على علاجه، وسببه، والحميه منه لمن رزقه الله فهماً لكتابه. والله (عزّ وجلّ) قد ذكر في القرآن أمراض القلوب والأبدان، وطب القلوب والأبدان. .

فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله ومن لم يكفه فلا كفاه الله[٥].

ونعرض الآن لبعض الأدواء التي تصيب الإنسان وسبل شفائها من

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد وابن منده، وصححه الألباني في السلسله برقم ١٥٣٧، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) سورة فصلت آية ٤٤.

(٣) سورة الإسراء آية ٨٢.

(٤) سورة يونس آية ٥٧.

(٥) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد ج٤، ص٣٥٢.

القرآن الكريم والسنة النبوية ، فما أنزل الله (عزّ وجلّ) داء إلا وأنزل له دواءً.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاءً**»(١).

وعن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله عزّ وجلّ**»(٢).

وعن أسامه بن شريك، قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله! أنتداوى؟ فقال: «**نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عزّ وجلّ لم يضع داءً إلا وضع شفاءً غير داءٍ واحدٍ، قالوا ما هو؟ قال:**«**الهرم!**»(٣).

والأمراض التي تصيب الإنسان يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام وكلها أنزل الله(عزّ وجلّ) لها شفاء وهذه الأمراض هي:

١ـ الأمراض القلبية.

٢ـ الأمراض البدنية.

٣ـ الأمراض النفسيه والروحيه.

١ـ أمراض القلوب، ومن أبرزها: مرض الشبهة والشك، قال تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾(٤). وقال تعالى: ﴿ وَلِيَقُولَ

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه في الطب باب، ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء. كما أخرجه غيره.

(٢) أخرجه مسلم في السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، وهو رقم (٢٢٠٤).

(٣) أخرجه أحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي في الطب وإسناده صحيح، وفي الترمذي. هذا حديث حسن صحيح.

(٤) سورة البقرة آية ١٠.

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾(١) . وقال تعالي في حق من دعى إلى تحكيم القرآن والسنة، فأبى وأعرض: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢) .

فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وعلاج هذا المرض يكون باليقين، ويكون ذلك عن طريق سؤال العلماء الراسخين فهم الذين يزيلون هذه الشبهة والشك. وسؤال هؤلاء العلماء ومجالستهم تنقل من الشك إلى اليقين.

والمرض الثاني من أمراض القلوب: مرض الشهوات، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾(٣) . فهذا مرض شهوة.

وعلاج هذا المرض يكون بغض البصر فإن النظرة رائدة الشهوه ورسولها وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلاك قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾(٤) .

فالنظرة أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطره ثم تولد الخطره فكره، ثم تولد الفكره شهوه، ثم تولد الشهوة

(١) سورة المدثر آية ٣١.
(٢) سورة النور آية (٤٨-٥٠).
(٣) سورة الأحزاب آية ٣٢.
(٤) سورة النور آية (٣٠-٣١).

إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمةً جازمةً فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: «الصبر على غضّ البصرِ أيسرُ من الصبرِ على ألم ما بعده»(١).

ومما يعين على علاج هذا المرض قضاء الوطر في الحلال. ففي الحديث عن جابر عن النبي ﷺ: «**أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها، وقال: إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان. فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه**(٢).

أما غير المتزوج فعليه بالصيام، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(٣).

وعلاج هذا الأمراض من شبهة وشك وشهوة، جاء ذكره في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٤). فالصبر واليقين خير علاج لهذه الأمراض.

ومن أمراض القلوب أيضاً الغفلة، ويندفع هذا المرض بالتذكر والتفكر ومجالسة الصالحين فإنهم خير من يعين على التذكير.

ومن أمراض القلوب أيضاً الرياء والكبر والضلال والجهل، وهذه الأمراض تندفع بسورة الفاتحة: فإياك نعبد تدفع الرياء، وإياك نستعين تدفع الكبرياء، واهدنا الصراط المستقيم تدفع مرض الضلال والجهل، فإذا اندفعت هذه الأمراض عوفي القلب منها ورفل في أثواب العافية،

---

(١) ابن القيم الجوزيه، الداء والدواء، ص ٢٢٨.
(٢) رواه مسلم في النكاح، باب (٢) ورواه أبو داود والبيهقي والعراقي في التخريج.
(٣) أخرجه البخاري في النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم.
(٤) سورة السجدة آية ٢٤.

وتمت عليه النعمة كان من المنعم عليهم «غير المغضوب عليهم وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه «ولا الضالين» وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه [١].

٢ ـ أما أمراض البدن فكثيرة، قال تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾**[٢].

وقواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذى، والتداوى.

وقد اعتنى الإسلام بحفظ الصحة بما يوفره من أسباب الوقاية وما شرع من قواعد النظافة الدائمة، وما رسمه من حياة يسير عليها المسلم. فالمسلم يستيقظ مع الفجر، ويبتعد عن السهر ويقتصد في أطعمتة.

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: « **ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه** »[٣].

يقول ابن القيم «ومراتب الغذاء ثلاثة أحدهما: مرتبة الحاجة، والثانية: مرتبة الكفاية، والثالثة: مرتبة الفضلة. فأخبر النبي (ﷺ) أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه، فلا تسقط قوته، ولا تضعف معها، فإن تجاوزها، فليأكل في ثلث بطنه، ويدع الثلث الآخر للماء، والثلث الثالث للنفس وهذا أنفع للبدن والقلب، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس، وعرض له الكرب والتعب بحمله بمنزلة حامل الحمل الثقيل، هذا إلى ما يلزم

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، ج١، ص٥٤.

(٢) سورة النور آيه ٦١.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٣٢ والترمذى (١٣٨١) وابن ماجه (٣٣٤٩) وإسناده صحيح.

ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع، فامتلأ البطن من الطعام مضر للقلب والبدن (١).

والبعد عن المعاصي يحفظ صحة المسلم، فكثير من الأمراض الخبيثة يكون سببها المعاصي والذنوب مثل أمراض الزنا واللواط وشرب الخمور وأكل لحم الخنزير.

وقد وضع الإسلام قواعد الحجر الصحي للحماية من الأمراض المعدية فإذا ظهر مرض معد في بلد ما، ضرب حوله حصاراً شديداً، فمنع الدخول إليها والخروج منها وذلك حتى ينكمش الداء ويسهل القضاء عليه.

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**إذا سمعتم بالطاعون ظهر بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها**»(٢).

وإذا وقع المرض أمر الإسلام بالتداوي، فقد أمر رسول الله ﷺ، بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، فإذا كان المرض قدر الله (عز وجل) فالأدوية هي أيضًا من قدر الله (عز وجل) فندفع القدر بالقدر.

وفي التداوي من أمراض البدن قال رسول الله ﷺ: «**الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى عن الكي**»(٣).

وفي العسل فوائد كثيرة. وقد ورد في أثر: «**عليكم بالشفاءين:**

---

(١) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، ج٤، ص١٨.

(٢) رواه البخاري في الطب: باب ما يذكر في الطاعون. ومسلم في السلام: باب الطاعون برقم (٢٢١٩).

(٣) رواه البخاري في الطب، باب الشفاء في ثلاث.

العسل والقرآن»(١).

وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: «إن أخي يشكي بطنه، وفي رواية استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً»، فذهب ثم رجع، فقال: قد سقيته، فلم يغن عنه شيئًا. وفي لفظ: فلم يزده إلا استطلاقًا مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول له: «اسقه عسلاً»، فقال له في الثالثة أو الرابعة: صدق الله وكذب بطن أخيك»(٢).

يعلق ابن القيم (رحمه الله) على هذا الحديث فيقول: «وفي تكرار سقيه العسل معنى طلبي بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار، وكمية بحسب حال الدعاء، إن قصر عنه، لم يزله بالكلية، وإن جاوزه، أو هي القوى، فأحدث ضرراً آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل سقاه مقداراً لا فيفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره، علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة، فلما تكرر ترداده إلى النبي (ﷺ) أكد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقام للداء فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء، برأ بإذن الله واعتبار مقادير الأدوية، وكيفياتها، ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب(٣).

وقد ثبت أيضًا شفاء أمراض البدن بالفاتحة وغيرها من الرقى. ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، قال: انطلق نفر من زصحاب النبي (ﷺ) في سفره سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب،

---

(٤) أخرجه ابن ماجه والحاكم عن عبدالله ابن مسعود، وصححه ووافقه الذهبي، ووقفه غير واحد من الثقات على ابن مسعود، وصححه وقفه عليه البيهقي في «دلائل النبوة».

(٢) رواه البخاري في الطب «باب الدواء بالعسل» ومسلم في السلام باب التداوي بالعسل برقم (٢٢١٧).

(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ح٤، ص٣٥.

فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له نزلوا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيء. فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط! إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ حتىٰ تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم علىٰ قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: الحمد لله رب العالمين، فكأنما أنشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبه، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقىٰ: لا تفعلوا حتىٰ نأتي رسول الله (ﷺ)، فتذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا علىٰ رسول الله (ﷺ)، فذكروا له ذلك، فقال: «**وما يدريك أنها رقية؟**» ثم قال: «**قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا**»(١).

قال ابن القيم: «وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء علىٰ الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانه به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافيه الكافية. . . وقد قيل: إن موضع الرقيه منها «إياك نعبد وإياك نستعين» ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوىٰ أجزاء هذا الدواء. فإن فيهما عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانه والافتقار والطلب، والجمع بين أعلىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في الطب: باب النفث في الرقية، ومسلم في الإسلام: باب جواز أخذ الأجر علىٰ الرقية (٢٢٠١).

الغايات، وهي عبادة الربّ وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانه به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مرّ بي وقت بمكة سقمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت اتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليها مراراً، ثم اشربه، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت اعتمد ذلك في كثير من الأوجاع فانتفع به غاية الانتفاع [(١)].

وفي الصحيح أنّ عثمان بن أبي العاص شكا إلى رسول الله (ﷺ) **«وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»** [(٢)].

وقد مَرَّ أنَّ رسول الله (ﷺ) كان يعوّذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: « **اللهم رب الناس، أذهب البأس واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سَقَماً** » [(٣)].

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال: « **من عاد مريضاً لم يحضره أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك: إلا عافاه الله من ذلك المرض** » [(٤)].

٣ـ أما الأمراض الروحية والنفسية: فمن أبرزها السحر والحسد، والقلق والهم والكروب.

ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية، بل هي أدويته النافعة

---

(١) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، ج٤، ص١٧٨.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) في السلام: باب استحباب وضع يده على موضع الآلم.

(٣) أخرجه البخاري في الطب: باب النفث في الرقيه، ومسلم (٢١٩١) في السلام: باب استحباب رقية المريض.

(٤) رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط البخاري.

بالذات، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار، والآيات، والدعوات التي تبطل فعلها وتأثيرها، وكلما كانت أقوى وأشد كانت أبلغ في كشف الضر؛ وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عدته وسلاحه، فإيهما غلب الآخر قهره، وكان الحكم له، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يخل به يطابق فيه قلبه لسانه، كان من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه [١].

وهناك رقى شرعية للعلاج من السحر والحسد من أراد معرفتها وليراجعها في مظانها [٢].

أما الأمراض النفسية، فقد وردت أدعيه مخصوصه لعلاج بعضها مثل: علاج الهم والحزن: في الحديث النبوي عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب عبداً همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً» [٣].

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: كان النبي (ﷺ) يقول: «**اللهم إني**

---

(١) ابن قيم الجوزيه، زاد المعاد، ج٤، ص١٢٧.

(٢) الصارم البتار في التصدي للسحرة والأشرار لوحيد عبد السلام، والعلاج بالرقى من الكتاب والسنة: لسعيد القحطاني، ومؤلفات أخرى كثيرة.

(٣) رواه أحمد ١/ ٣٩١ وصححه الألباني.

أعوذ بك من الهم، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال» (١).

وعند الكرب: عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنّ رسول الله (ﷺ) كان يقول عند الكرب: **«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم »** (٢).

وعن سعد بن أبي وقاص (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): **«دعوة ذى النون إذا دعا ربه وهو فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لم يدعُ بها رجل مسلم فى شئ قط إلا استجيب له»** (٣)وفى رواية أخرى إنى لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه: كلمة أخى يونس.

وعن أبي بكرة، أن رسول الله (ﷺ) قال: « **دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، وأصلح لى شأن كلّه، لا إله إلا أنت»** (٤).

وفى القلق والفزع في النوم: عن عمرو بن شعيب عن أمه عن جده أن رسول الله (ﷺ) كان يعلمهم من الفزع: « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشرّ عباده، ومن همزات الشياطين، وأعوذ بك أن يحضرون» وكان عبد الله بن عمرو يعلمهم من عقل من بنية، ومن

---

(١) رواه البخارى فى الدعوات: باب الاستعاذه من الجبن والكسل.

(٢) رواه البخارى فى الدعوات: باب الدعاء عند الكرب.

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات، وأحمد ١/ ١٧٠ وصححه الحاكم ووافقه الذهبى، وانظر صحيح الترمذى ٣/ ١٦٨.

(٤) أخرجه أبو داود وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد وسنده حسن وصححه ابن حبان (٢٣٧٠)، وحسنه الألبانى.

لم يعقل كتبه، فعلقه عليه(١).

ويعدد ابن القيم أسباب شرح الصدور فيقول: وشرح الصدور إنما يكون بالتوحيد الخالص. فالتوحيد أعظم أسباب شرح الصدر، وعلى حسب كماله، وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٢) فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

والعلم النافع يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فأهل العلم النافع الموروث عن الرسول (ﷺ) أشرح الناس صدوراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسنهم أخلاقاً، وأطيبهم عيشاً.

ولا شئ أشرح لصدر العبد من الإنابة إلى الله (سبحانه وتعالى) ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته. وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكن من المال، والجاه، والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدراً وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً. والبخيل أضيق الناس صدراً وأنكدهم عيشاً، وأعظمهم هماً وغماً.

ومنها الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، متسع القلب،

(١) أخرجه أبو داود في الطب، والترمذي وأحمد والحاكم ورجاله ثقات، وانظر صحيح الترمذي ٣/ ١٧١.

(٢) سورة الزمر آية ٢٢.

والجبان: أضيق الناس صدراً، وأحصرهم قلباً.

ومنها بل ومن أعظمها: إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه وتحول بينه وبين حصول البرء.

ومنها ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً، وهموماً في القلب تحصره، وتحبسه، وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها [١].

فهذه جملة مختصرة عن الأمراض التي تصيب الإنسان في قلبه وبدنه ونفسه وبعض الإرشادات إلى شفائها، فسبحان الشافي الذي ما أنزل داءً إلا وأنزل له دواء. على أنه ينبغي معرفة أنّ الدعاء من أمضى الأسلحة وأنفعها في دفع الأمراض والبليات، فالدعاء سلاح المؤمن، وهو من أنفع الأدوية وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا أنزل.

وللدعاء مع البلاء ثلاثة مقامات: [٢]

أحدهما: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفاً.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

عن ابن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «الدعاءُ

---

(١) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، ج١، ص٢٣: ص ٢٧.
(٢) ابن القيم الجوزيه، الداء والدواء، ص١٦.

ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء »[١].

وعن سلمان (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) « **لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر**»[٢].

ويفسر ابن القيم كيفية رد الدعاء للبلاء بقوله: والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة فيه، والساعد ساعد قوى، والمانع مفقوداً - حصلت النكاية في العدو. ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثمّ مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر[٣].

وكل ما سبق أسباب جعلها الله (عزّوجلّ) للشفاء فعلى العبد أن يعتمد أولاً على الشافى (ولا شفاء إلا شفاؤك)، وقد كان النبي (ﷺ) يدعو ربه بالشفاء لأنه هو الذي يملك الشفاء والشفاء بيده، ثم يأخذ (ﷺ) في الأسباب التى شرعها الله (عزّ وجلّ) للشفاء. فدعاء الشافى (سبحانه وتعالى) والأخذ بالأسباب هما طريق الشفاء بإذن الله تعالى.

قال ابن كثير (رحمه الله) في تفسير قوله تعالى: ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ أى إذا رقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه[٤].

---

(١) رواه الحاكم وأحمد وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع ٣/ ١٥١ برقم ٣٤٠٢.

(٢) رواه الترمذى والحاكم بنحوه من حديث ثوبان وصححه ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى فى السلسة للأحاديث الصحيحه ١/ ٧٦ برقم ١٥٤.

(٣) ابن القيم الجوزيه، الداء والدواء، ص٢٥، وانظر شروط الدعاء وموانع الاجابه فى شرح اسماء الولى المولى الناصر القريب المجيب من هذا الكتاب.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ح٣، ص٣٣٨.

فسبحان الشافي الذي يشفي من يشاء، ويطوي علم الشفاء عن الأطباء إذا لم يرد الشفاء.

اللهم اشفني وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً(١).

اللهم إني أسألك العفو والعافية(٢).

اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة(٣).

اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن امتك ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك عدل في قضائك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي(٤).

اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن وضلع الدين، وغلبة الرجال(٥).

اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت»(٦).

أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق(٧).

---

(١) سبق تخريجه في شرح هذا الاسم (الشافي).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٨٠ وصحيح ابن ماجه برقم ٣٨٤٩.

(٣) أخرجه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٧٠.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) رواه مسلم ٤/ ١٧٢٨.

أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون [١] .

أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برّ ولا فاجر من شر ما خلق، وبرأ وذرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ فى الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن [٢] .

* * *

(١) رواه أبو داود والترمذى، وأنظر صحيح الترمذى ٣/ ١٧١ .

(٢) رواه أحمد ٣/ ١١٩ بإسناد صحيح، وابن السنى برقم ٦٣٧ ، وأنظر مجمع الزوائد ١٠/ ١٢٧ .

الحليمُ ـ الحيُّ ـ الستيرُ

٨٢ ٨٣ ٨٤

الحليم في اللغة اسم الفاعل من حَلُمَ فهو حليم، كما يقال: شرف فهو شريف، وكرم فهو كريم. والله (عزّ وجلّ) حليم، عن عباده لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم ويمهلهم بعد المعصية ولا يعاجلهم بالعقوبة والانتقام، ويقبل توبتهم بعد ذلك [١].

فالحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وجمعه أحلام، قال تعالى: ﴿أم تأمرهم أحلامهم﴾ قيل: معناه عقولهم، وليس الحلم في الحقيقة هو العقل لكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل [٢].

فالله (عزّ وجلّ) حليمٌ عن عباده أي يؤخر العقوبة عن مستحقها، ثم قد يعذبهم أو يتجاوز عنهم ويصفح. فهو (سبحانه وتعالى) يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفتهم لأمره فلا يعجل الانتقام مع غاية الاقتدار.

قال ابن القيم (رحمه الله)

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

فهو سبحانه وتعالى له الحلم الكامل، والعفو الشامل وحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معالجتهم ليتوبوا، وحلمه وسع السموات والأرض، فلولا حلمه وعفوه ما ترك على ظهرها من دابة. فهو

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص٩٦. ويقال حلُمت عن فلان بضم اللام فأنا حليم ويقال حلَمت في النوم بفتح اللام فأنا حالم.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٢٩.

سبحانه وتعالى حليم عفو يحب العفو عن عباده، ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالوا بها عفوه من السعي في مرضاته والإحسان إلى خلقه [١].

فحلم الله (عزوجل) عن المذنبين عظيم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [٢]، فهو سبحانه وتعالى صفاح عن الذنوب ستير للعيوب، يسبل ستره على المذنبين، ثم يغفر بعدما يستر.

فهو سبحانه وتعالى يحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم، ويستر حتى يتوهم صاحب العمى أنه ليس يبصر. يمهل العاصين ليتوبوا، ولا يمهلهم إذا أصروا واستمروا ولم ينيبوا.

وقد ورد اسم الحليم في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، فهو سبحانه عفو حليم، وحليم غفور، وهو عليم حليم، وغني حليم، وشكور حليم.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [٣].

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [٤].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [٥].

أما الحييّ: فمأخوذ من الحياء، والحياء في حق البشر رؤية اللآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خلق يبعث

---

(١) عبد الرحمن آل سعدي، مرجع سابق، ص٥٦.

(٢) سورة النحل آية ٦١.

(٣) سورة البقرة آية ٢٣٥.

(٤) سورة البقرة آيه ٢٦٣.

(٥) سورة الحج آية ٥٩.

على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق، أما حياء الرب تعالى فنوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال، فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً، ويستحي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام، وكان يحيى بن معاذ يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحيي هو» وفي أثر لله من استحى من الله استحى الله منه» (١).

وأما اسم السِّتِّير: فمأخوذ من الستر وهو تغطية الشيء، والستر والسُترة ما يستتر به (٢).

والحييُّ والسِّتير وردا في حديث رسول الله (ﷺ): « **إن الله حييٌّ يستحي من عبده إذا مدّ يديه أن يردهما صفرا** » (٣) ومن قوله (ﷺ): « **إن الله عزّ وجلّ حليم حييٌّ ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر** »(٤).

وهذا من رحمته (سبحانه وتعالى) وكرمه، وكماله، وحلمه فالعبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه، حتى إنه لا يمكنه أن يعصى إلا أنه يتقوى عليها بنعم ربه. والربّ مع كمال غناه عن الخلق كلّهم من كرمه يستحي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به فيستره بما يفيض له من أسباب السِّتر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات نازل وشرهم

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٢، ص(٢٥٩-٢٦١).

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٢٢٣.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٢٣١ وصحيح الترمذي ٣/ ١٧٩.

(٤) أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي وأحمد وصححه الألباني في صحيح النسائي ١٨٧.

إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصى وكل قبيح، ويستحى تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه، وممن يمد يديه إليه أن يردهما صفرا، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالإجابة وهو الحيى الستير يحب أهل الحياء والستر، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس. . وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصياً والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه. وهذا كله من معنى اسم الحليم الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان فيمهلهم ليتوبوا ولا يهملهم إذا أصروا ولم ينيبوا [١].

قال ابن القيم (رحمه الله):

وهو الحييُّ فليس يفضح عبده — عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقى عليه ستره — فهو الستِّير وصاحب الغفران

والكافرون يجحدون آيات الله (عزّ وجلّ) ويكذبون رسله، ويستكبرون عن عبادته واتباع رسله، ويعرضون عن سماع الحق الذي نزل من عند الله (عزّ وجلّ) ومع ذلك يحلم الله (عزّ وجلّ) عليهم. ولا يعاجلهم بعقوبته. بل يرزقهم ويقوتهم حتى يبلغوا أجلاً مسمى وقد ورد في الحديث النبوى لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى: «إنهم يجعلون له نداً، ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم» [٢].

---

(١) عبد الرحمن آل سعدى، مرجع سابق، ص(٥٥-٥٦).
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب المنافقين، باب (٩).

ودعوات الأنبياء لأقوامهم تعطينا صورة حيه لحلم الله عزّ وجلّ على هؤلاء المعاندين الجاحدين المكذبين للرسل. فنوح عليه السلام ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وتكون الحصيلة النهائية فما آمن معه إلا قليل ولا يأتي الطوفان إلا بعد هذه السنوات الطوال.

وهود (عليه السلام) يدعو قومه إلى عبادة الله وحده: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(١) فيأتي ردهم في وقاحة: «قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنطنك من الكاذبين» فيرد عليهم بأدب جم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢) ويبين لهم دعوته ناصحاً مذكراً. ولكنهم يستعجلون العذاب: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٣).. ولكن الذي يأتي بما تستعجلون هو الله ربي وربكم: فانتظروا إني معكم من المنتظرين ولكن النصيحة معهم لا تجدي والحلم مع هؤلاء. لا ثمرة من ورائه ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

وفرعون جحد آيات الله (عزّ وجلّ)، واستكبر أن يؤمن بعد أن بعث الله عزّ وجلّ إليه موسى وهارون (عليهما السلام) وأمرهما أن يقولا له قولاً لينا قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(٥) وامتثلا الرسولان للأمر فعرضا عليه الدعوة عرضاً رقيقاً لينا كما يحكي القرآن: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ

---

(١) سورة الأعراف آية: ٦٥
(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦, ٦٧.
(٣) سورة الأعراف آية ٧٠.
(٤) سورة الأعراف آية ٧٢.
(٥) سورة طه آية (٤٣ ـ ٤٤).

رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (١) وتواترت الآيات التي تدل على صحة نبوة موسى (عليه السلام) حتى بلغت تسع آيات إلى فرعون قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (٢) ولم يعاجله الله عزّ وجلّ بالعقوبة إلا بعد أن بيت الأمر للقضاء على موسى ومن معه وإزالتهم من الأرض. قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ (٣).

ويظهر أثرُ حلمِ الله (عزّ وجلّ) جلياً في قصة أصحاب الأخدود (٤) وقد جاءت الإشارة إلى هذه القصة في سورة البروج. قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (٥).

ومجمل القصة أن فئةً من المؤمنين الموحدين ـ قبل الإسلام ـ ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشق الطغاة لهم شقاً في الأرض.

---

(١) سورة النازعات آية (١٨ ـ ١٩).

(٢) سورة الإسراء آية (١٠١ ـ ١٠٢).

(٣) سورة الإسراء آية ١٠٣.

(٤) جاءت هذه القصة مفصله في صحيح مسلم حديث رقم ٣٠٠٥.

(٥) سورة البروج آية (٤ ـ ١٢).

وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنون فماتوا حرقاً على مشهد من الجموع التى حشدها المتسلطون لترى مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة. . . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. . . ومع أن هؤلاء العتاة الأشرار المتسلطين فعلوا ما فعلوا من شق الأخدود، وإبقاء النار وإلقاء المؤمنين والمؤمنات فيها، ثم جلسوا يتلذذون بالتعذيب البشع للمؤمنين، ومشاهدة فعل النار في أجسام المؤمنين فإن الله عزّ وجلّ فتح لهم بحلمه باب التوبة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ...﴾(١) فإذا لم يندموا على ما فعلوا ويتوبوا من فعلهم البشع الشنيع ـ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق. . . ولعل التهديد بعذاب الآخرة يجعلهم يثوبون إلى رشدهم ويتوبون فإن عذاب الحريق ينتظرهم في الآخرة. . وما أبعد البون والفرق بين الحريقين: حريق الدنيا بنار يوقدها البشر، وحريق الآخرة بنار يوقدها رب البشر، وحريق الدنيا لحظات، وحريق الآخرة آباد وآماد!

فما أعظم حلم الحليم سبحانه وتعالى!

وقد لاقى رسول الله (ﷺ) وأصحابه كثيراً من صنوف الأذى والتعذيب.

عن مجاهد قال: إن أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله (ﷺ)، وأبو بكر، وبلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وسمية أم عمار، فأما رسول الله (ﷺ) فمنعه عمه، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذ الآخرون فألبسوهم أدراع الحديد ثم صهروهم في الشمس حتى

(١) سورة البروج آية ١٠.

بلغ الجهد منهم ما بلغ فأعطوهم ما سألوا فجاء إلى رجل منهم قومه بأنطاع الأدم فيها الماء وألقوه فيه وحملوا بجوانبه إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله حتى ملُّوه وجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبى مكة فجعل بلال يقول : أحد أحد . (وقد روى هذا عن ابن مسعود إلا إنه جعل مكان خباب المقداد) [١] .

قال محمد بن إسحق : كان أمية يخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء أحد أحد .

وعن عثمان بن عفان قال : أقبلت أنا ورسول الله (ﷺ) آخذ بيدى نتماشى في البطحاء حتى أتينا على أبى عمار وعمار وأمه وهم يعذبون . فقال ياسر : الدهر هكذا . فقال له النبي (ﷺ) : « **اصبر اللهم اغفر لآل ياسر. قال: وقد فعلت**» [٢] .

قال خباب بن الأرت : شكونا إلى رسول الله (ﷺ) وهو متوسد برداً له في ظل الكعبة فقلنا : يا رسول الله ألا تستنصر الله لنا؟ فجلس محمراً وجهه فقال : والله لقد كان من قبلكم يؤخذ فتجعل المناشير على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت لا يخاف إلا الله تبارك وتعالى والذئب على غنمه [٣] .

---

(١) رواه أحمد، وانظر صفة الصفوة ج١ ، ص٤٣٦ .
(٢) أخرجه الطبرانى ، وصححه محمد رواسى قلعة جى فى صفة الصفوة .
(٣) أخرجه البخارى فى الباب الثانى من كتاب الإكراه .

وعن الشعبي قال: سأل عمر خباباً عما لَقِيَ من المشركين، فقال خباب: يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري. فقال عمر: ما رأيت كاليوم، قال: لقد أوقدت لي نار وسحبت عليها فما أطفأها إلا ودك ظهري(١).

والأمثلة كثيرة... فما أحلمك يا ربي!

والله (عزّ وجلّ) حليم يحب الحَليم، حييٌّ يحب كل حيي، سِتير يحب من يستر عباده.

وقد ضرب لنا رسول الله (ﷺ) المثل الأعلى في الحلم والصفح: عن أنس بن مالك (رضي الله عنه)، قال: كنت أمشي مع رسول الله (ﷺ) وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله (ﷺ) قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قالَ يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله (ﷺ) ثم ضحك. ثم أمر له بعطاء(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لما كان يوم حنين آثر النبي (ﷺ) أناساً في القسمة فأعطى «الأقرع بن حابس» مائة من الإبل وأعطى عيينه مثل ذلك وأعطى إناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها أو ما أريد بها وجه الله. فقلت: والله لأخبرن رسول الله (ﷺ)، فأتيته فأخبرته، فقال: من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله! رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر(٣).

---

(١) انظر: صفة الصفوه لابن الجوزي، ح١، ٤٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس والأدب باب «التبسم والضحك».

(٣) أخرجه البخاري في باب غزوة الطائف باختلاف يسير في ألفاظ القصة.

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى النبي (ﷺ)، فقال: إن دوساً قد عصت وأبت فادع الله عليهم، فاستقبل القبلة رسول الله (ﷺ) ورفع يديه فقال: اللهم أهدِ دوساً وأئتِ بهم، اللهم أهدِ دوساً وائت بهم اللهم أهدِ دوساً وائت بهم[(١)].

ومن قصص الحلم والعفو التي لا مثيل لها، عفو رسول الله (ﷺ) عن زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي. فقد كان عدواً لدوداً للمسلمين يتربص بهم الدوائر، ويحالف عليهم الشياطين، ويحيك لهم المؤمرات، وهو الذي أشاع قالة السوء عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، وقد نزلت الآيات تبرئ ساحتها من هذا المقال الخبيث.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(٢)].

وانتصر الإسلام واكتسح الباطل، وانحصر أعداؤه ـ ومنهم هذا المنافق ـ في حدود أنفسهم، وانكمش ابن أبي ثم مرض ومات، وجاء ولده إلى رسول الله (ﷺ) يطلب الصفح عن أبيه فصفح عنه، ثم يطلب منه أن يكفن في قميصه فمنحه إياه، ثم طلب منه أن يصلي عليه ويستغفر له فلم يرد الرسول (ﷺ) (الرحيم الرقيق الحليم) هذا السؤال، ووقف أمام جثمان الطاعن في عرضه بالأمس يستدر له المغفرة!

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في الفضائل.

(٢) سورة النور آية ١١.

عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) أن عبد الله بن أُبى لما توفى جاء ابنه إلى النبى (ﷺ) فقال: أعطنى قميصك أكفنه فيه، وصلّ عليه واستغفر له، فأعطاه قميصه وقال: آذنى أصلى عليه فآذنه. فلما أراد أن يصلى جذبه عمر فقال: أليس الله نهاك أن تصلى على المنافقين؟ فقال أنا بين خَيرتين، قال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم: فصلى عليه فنزلت هذه الآية ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾[١].

فقد كان (ﷺ) حليماً متسع الصدر، يفيض من أناته وحلمه على السفهاء وذوى النزق والطيش حتى يلجئهم إلى الخير إلجاءً.

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: ما ضرب رسول الله (ﷺ) خادماً له قط، ولا امرأة له قط، وما ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منه شئ فانتقمه من صاحبه إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله (عزّ وجلّ) وما عرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا أخذ بأيسرهما، إلا أن يكون مأثماً كان أبعد الناس منه»[٢].

ويعدد ابن القيم (رحمه الله) الأسباب التي تجعل العبد يصبر ويحلم عمن يؤذونه فيقول« وههنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه:

أحدهما: مشهد «القدر» وهو أن ما جرى عليه كان بمشيئة الله وقضائه وقدره. فيراه كالتأذى بالحر والبرد والمرض والألم. فإن الكلّ أوجبته مشيئة الله . فما شاء الله كان. ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا: استراح وعلم أنه كائن لا

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة التوبة.

(٢) أخرجه مسلم فى باب قرية من الناس.

محالة، فما للجزع منه وجه.

المشهد الثاني: مشهدُ «الصبرِ» فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام. فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ندامة.

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشىً في بصيرته. فإنه لله ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» كما صحّ ذلك عن النبي (ﷺ)... وما انتقم أحد لنفسه إلا ذل... وفى الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

المشهد الرابع: مشهد «الرضى» وهو فوق مشهد لله العفو والصفح» وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سِيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله. فإذا كان ما أصيبت به في الله، وفى مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله، وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره. ومتى تسخط به وتشكى منه، كان دليلاً على كذبه في محبته والواقع شاهد بذلك. والمحب الصادق كما قيل: من أجلك جعلت خدى أرضاً للشامت والحسود حتى ترضى.

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله، وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان. فيحسن إليه كلما أساء هو إليه. ويهون هذا عليه علمه بأن قد ربح منه وقد أهديت إليه حسنات محيت من صحيفة المسيء وأثبتت في صحيفة من أساء إليه. فهذا المسيء المسكين قد وهبك حسناته فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها لتثبت الهبة،

وتأمن رجوع الواهب فيها. ويهون ذلك أيضاً علم العبد بأن الجزاء من جنس العمل. فإذا عفا عمن أساء إليه وأحسن إليه مع حاجته وضعفه وفقره وذله فإن الله (عزّ وجلّ) وهو المحسن القادر العزيز الغنى سيفعل به مثلما فعل مع عبده. وسيقابل إساءته بالإحسان إليه.

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته. وهو أن لا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذى، وطلب الوصول إلى درك ثأره وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب. وأعون على مصالحه. فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه.

المشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك. وإذا انتقم واقعه الخوف ولابد. فإن ذلك يزرع العداوة. والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيراً، فكم من حقير أردى عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل: أمن من تولد العدواة، أو زيادتها، ولابد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه بعكس الانتقام. والواقع شاهد بذلك.

المشهد الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. وإقامة دين الله وإعلاء كلماته وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن... فلا حق له على من آذاه. ولا شيء له قبله إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع. فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة (رضي الله عنهم). ولهذا منع

النبي (ﷺ) المهاجرين من سُكنى مكة - أعزّها الله - ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار. ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصديق (رضى الله عنه) على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم قال له عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) بمشهد من الصحابة (رضى الله عنهم) تلك دماء وأموال ذهبت في الله. وأجورها على الله، ولا دية لشهيد، فوافق الصحابة على قول عمر ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذى في الله: حرّم الله عليه الانتقام، كما قال لقمان لابنه ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (١).

المشهدُ التاسع: مشهدُ «النعمة» وذلك من وجوه أحدهما: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر. ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ فلو خُيِّر العقل بين الحالتين - ولابد من إحداهما - لاختار أن يكون مظلوماً ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه: فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك. فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه، وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك على يدى من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها. فإن ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمرّ. فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده. وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة. فالمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة. وفي بعض الآثار: أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض. لما يرون من ثواب أهل البلاء.

هذا وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بماله قبل الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض. فالعاقل يعد ذلك ذخراً ليوم الفقر والفاقة. ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً.

المشهد العاشر: مشهد «الأسوة» وهو مشهد شريف لطيف جداً. فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسل الله وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه، فإنهم أشد الخلق امتحاناً بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور. ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم. وشأن نبينا (ﷺ) وأذى أعدائه له، وقد قال له ورقة بن نوفل: لتُكذّبن، ولتُخرجَنّ، ولتؤذَينَّ وقال له« ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم (ﷺ).

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد» وهو أجمل المشاهد وأرفعها. فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والإنس به، واطمأن إليه. وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه واتخذه ولياً دون سواه بحيث فوض إليه أموره كلها، فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبته فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بتطلب الانتقام والمقابلة. وهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه. فهو قلب جائع غير شبعان. فإذا رئ أيَّ طعام هفت إليه نوازعه. وانبعثت إليه دواعيه، وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية. وأشرفها: فإنه لا يلتفت إلى

مادونها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم [١].

فالحلم والصفح من أفضل الأخلاق وأعظمها، فالخليل إبراهيم (عليه السلام) دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢] فأجاب الله دعاءه بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [٣] وهذا يدل على أن الحلم سيدُ الأخلاق، وشارة الصالحين، وعلامة حب الله عزّ وجلّ للعبد، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ) لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحِلم والأناة» [٤].

والحلم والصبر ابتغاء مرضاة الله (عزّ وجلّ)، ومقابلة السيئة بالحسنة يرشح صاحبه للمقام العالي والخلود في جنات عدن مع الصالحين من الأهل والأحباب حيث تحتفي وتحتفل بهم الملائكة في مشاهد حافلة باللقاء والسلام والحركة والإكرام:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [٥]. ومقابلة السيئة بالحسنة تدل على رفعة المقام؛ لأنها استعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر، ومن ثمّ فهي تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسامح مع قدرته على الإساءة والرد. قلب يستعلي على دفعات الغيظ والغضب لينال درجة عظيمة عند الله (عزّ وجلّ). قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ

---

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٢، ص(٣١٨ـ٣٢٤)(بتصرف يسير)

(٢) سورة الصفات آية ١٠٠ (٣) سورة الصافات آية ١٠١.

(٤) رواه مسلم في أوائل كتاب الإيمان.

(٥) سورة الرعد آية (٢٢ـ٢٤).

وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١).

أما الحياءُ فهو قرينُ الإيمانِ. وهو من أبرز فضائل الإسلام؛ ففي الحديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**» (٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه): أن رسول الله (ﷺ) قال: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» (٣).

فالحياء أمارة صادقة تكشف عن الإيمان. وهو الذي يعصم صاحبه عن اقتراف الذنوب والآثام. وإذا فقد الإنسان حياءه أصبح وحشاً كاسراً معربداً وراء شهواته، فهو لا يعرف إلا ما يغويه ويغريه فيتدرج من سيئ إلى أسوأ، ويهبط من رذيلة إلى أرذل، فالحياء هو القشرة الخضراء التي تقي العود الغض، فإذا سقطت هذه القشرة تهيأ الحطام الباقي أن يكون حطباً للنار.

قال الشاعر:

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ... ولم تستح فاصنعْ ما تشاءُ
فلا والله ما في العيشِ خيرٌ ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخير ... ويبقى العودُ ما بقي اللحاء

---

(١) سورة فصلت آية (٣٤-٣٥).
(٢) رواه الحاكم، وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب الإيمان ومسلم في كتاب الإيمان باب عدد شعب الإيمان وفضلها.

وقد ضرب رسول الله (ﷺ) المثل الأعلى في الحياء، فقد كان (ﷺ) أرق الناس طبعاً، وأنبلهم سيرة، وأعمقهم شعوراً بالواجب، ونفوراً من الحرام وأشدهم حياءً:

عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: كان رسول الله (ﷺ) أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه(١).

والحياء في أسمى منازله وأكرمها يكون من الله (عزّ وجلّ)، فهو الذي خلقنا وهو الذي يرزقنا، فنطعم من خيره، وتتنفس في جوه، ونعيش على أرضه، ونستظل بسمائه، وآلاؤه تغمرنا من المهد إلى اللحد وإلى ما بعد ذلك من خلود طويل في الجنة إن شاء تعالى. فكيف لا نستحي منه؟، وكيف نقابل كل هذه النعم بالخسة والإساءة فكيف بمن يفيض علينا بالنعم في كل لحظة من لحظات حياتنا؟! والإنسان عندما تقدم له نعمة صغيرة من مثله يخزى أن يقابلها بالإساءة؟! فما بالك إذا كانت حياتنا كلها نعمة من نعمه لله وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ) ـ : «**الله أحق أن يستحيا منه من الناس**» (٢).

وقد قسم ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ الحياء إلى عشرة أوجه:

١ ـ حياء جناية: ومنه حياء آدم (عليه السلام) لما فر هارباً في الجنة. قال تعالى: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا يارب. بل حياء منك.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ومسلم في باب كثرة حيائه.

(٢) من معلقات البخاري في كتاب الغسل قال عنه ابن حجر في الفتح حسنه الترمذي، وصححه الحاكم.

٢ ـ حياء تقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

٣ ـ حياء إجلال: وهو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

٤ ـ حياء كرم: كحياء النبي (ﷺ) من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطوّلوا الجلوس عنده. فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.

٥ ـ حياء حشمة: كحياء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن يسأل رسول الله (ﷺ) عن المذي لمكان ابنته منه.

٦ ـ حياء استحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه (عزّ وجلّ) حين يسأل حوائجه، احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها. وفي أثر اسرائيلي« إن موسى (عليه السلام) قال: يارب إنه لتعرض لي الحاجة من الدنيا، فأستحيي أن أسألك هي يارب. فقال تعالى (**سلني حتى ملح عجينتك. وعلف دابتك**).

وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسؤوله

٧ـ حياء محبة: وهو حياء المحب من محبوبه حتي أنه إذا خطر علي قلبه في غيبته هاج الحياءُ من قلبه، وأحس به في وجهه، ولا يدري ما سببه. وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة.

٨ـ حياء عبودية : وهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها. فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

٩ـ حياء شرف وعزة: وهو حياء النفس العظيمة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان.

١٠ـ حياء المرء من نفسه: وهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه، فهو بأن يستحيي من غيره أجدر[١].

على أن هناك فرقاً بين الحياء والخجل وإن كان الخجل هو العنصر البارز في الحياء، فالخجل قد يجر صاحبه إلى الخير والشر، وقد يوقعه في ورطات سيئة. أما الحياء فلا يكون إلا في الحدود المشروعة، فالحياء لا يكون تجاه الباطل. ومن ثم فلا مكان له مع الناس إذا ضلوا وشردوا عن الحق، ولا موضع له عند مناصرة الحق والدفاع عنه أمام لجج الباطل. ففي سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحداً ولا يخشى بأساً﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾[٢].

فخُلُقُ الحياءِ لا يمنع من قول الحق ومناصرته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلم. فلم يمنع الحياء أم سليم الأنصاريه أن تقول يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق فهل على المرأة غسل إذا

(١) ابن القيم الجوزيه، مدراج السالكين، ح٢، ص (٢٦١ـ٢٦٣).
(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣.

احتلمت؟ فقال لها الرسول (ﷺ) : «**نعم إذا رأت الماء**»[١] .

فالله (عزّوجلّ) حليم، حيي، ستير، يحب الحياء والستر . . واقتران الحياء والستر إشارة إلى أنه حيث وجد الحياء وجد الستر والعفاف، وحيث تحل الجرأة على القبائح، يحل معها التكشف والفضائح. فلا يستر إلا كل مؤمن حيي، ولا يفضح ويكشف إلا كل فاحش بذيء .

ومن حب الله (عزّ وجلّ) للستر بشّر من يسترون عيوب إخوانهم بالستر عليهم في الدنيا والآخرة .

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال : «**من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نّفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على مسلم يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر علي مسلمٍ في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة. والله في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عون أخيه**»[٢] .

وعن عبد الله بن عمرو(رضي الله عنهما) : «أن النبي ﷺ قال : «**المسلم أخو المسلمِ لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلمٍ كربة فرّج اللهُ عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة**»[٣] .

فستر المعاصي والذنوب يقي المجتمع من شيوع الفواحش،

---

(١) رواه البخاري ، مسلم انظر صحيح البخاري كتاب الغسل، باب إذا احتلمت المرأه .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء، باب الاجتماع على تلاوة القرآن .
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في شفقه المسلم وقال : حديث حسن غريب .

والتجاسر عليها. وقد استهجن رسول الله ﷺ سلوك العاصي الفاضح لنفسه، فقال:

(كلّ أمتى معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان! عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربّه، ويصبح يكشف ستر الله عنه)[١].

ومن أولى الستر ستر المرء لعيوب نفسه، التي سترها الله عليه فلا يفضح العبد نفسه بل يجعل معصيته بينه وبين ربه، والله عزّ وجلّ يكرمه لقاء تحرجه من هذه المعصية، واستتاره بها، واستحياؤه منه بأن يغفر له. ففي الحديث «**إن الله يدنى المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف كذا؟ فيقول: نعم أى رب، حتي إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه هلك ، قال: سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته...**»[٢].

إن من كرامة المسلم على الله أنه (سبحانه وتعالى) يتولى حمايته، والانتقام من المسيء إليه، ففي الحديث قال رسول الله (ﷺ): »«**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم، يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته، يفضحه فى بيته**»[٣].

ولذلك استنكر عقبه بن عامر (رضي الله عنه) علي كاتب ابنه عندما قال له: إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع الشرط ليأخذوهم قال: «لا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب(٢).
(٣) رواه أحمد وهو فى صحيح الجامع برقم (٣٠٢١)(صحيح).

تفعل وعظهم وهددهم قال: إني نهيتهم فلم ينتهوا وأنا داع الشرط ليأخذوهم. فقال عقبة: ويحك لا تفعل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ستر عورة فكأنما استحيا موؤدة في قبرها**»(١).

على أنّ هناك فرقاً بين الستر والإنكار، فالستر يكون في معصية قد انقضت أما الإنكار فيكون في معصية متلبس بها، فيجب الإنكار عليه، وإلا رفعه إلى الحاكم.

أما الذي يداوم على ارتكاب الحرمات ويجسر علي فعل الموبقات ويوطىء الطريق لغيره ليقتدي به ويسير في درب الرزيلة علي منواله فلا معنى للستر عليه، بل يستحب ألا يستر عليه بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر. بشرط أن لا يخشى من ذلك مفسدة.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في شرح حديث: « ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. . »: (وأما الستر المندوب إليه هنا، فالمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم، ممن ليس هو معروفاً بالأذي والفساد، فأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستر عليه، بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر ـ إن لم يخف من ذلك مفسدة ـ لأن الستر على هذا يطمعه في الإيذاء والفساد، وانتهاك الحرمات، وجسارة غيره على مثل فعله. . وأما جرح الرواة والشهود والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم، فيجب جرحهم عند الحاجة، ولا يحل الستر عليهم، وإذا رأى منهم ما يقدح في أهليتهم، وليس ذلك من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة الواجبه)(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود و والنسائي ابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
(٢) أبو زكريا يحيى النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة، باب ١٥، من شرح الحديث/ ٢٥٨٠.

لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربّ العرشِ العظيم، لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرضِ وربّ العرشِ الكريم[١] .

اللهم أكرمنا بالعلم وزينا بالحلم.

اللهم اجعلنا ممن يستحيون منك حق الحياء فيحفظون الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ويذكرون الموت والبلى، ويتركون زينة الحياة الدنيا، ويؤثرون الآخرة علي الأولى .

اللهم استرنا بسترك الجميل ولا تفضحنا يومَ العرضِ عليك يا رب العالمين.

اللهم استرنا فوق الأرضِ وارحمنا تحتَ الأرضِ واغفر لنا يوم العرض.

* * *

(١) رواه البخاري ٧/ ١٥٤، ومسلم ٤/ ٢٠٩٢.

الحميدُ ـ الشاكرُ ـ الشكورُ ـ الودودُ

٨٥ ـ ٨٦ ـ ٨٧ ـ ٨٨

الحميدُ مشتق من الحمد والحمدُ لله تعالى أي الثناء بالفضيله[١] والحميدُ المستحق للحمد والثناء بفعاله. وفعيل تكون بمعنى فاعل أي أنه سبحانه وتعالى حامد لم يزل في نفسه، وهو قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٢] وبثنائه علي المؤمنين الذين سيوجدون، وتكون بمعنى مفعول. أي محمود نفسه أزلاً، وبحمد عباده أبداً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾[٣].

فهو وحده سبحانه المستحقُ للحمدِ والثناءِ الذي يحمد على كل حال في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء لأنَ أفعاله كلّها فضل وحكمة وعدل وإحسان.

فالحمدُ يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، ولهذا كان الحمد كلّه لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه.

---

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٣١.
(٢) سورة الفاتحة آية ٢.
(٣) سورة البقرة آية ٣٠.

قال ابن القيم(رحمه الله):

وهو الحميدُ فكلُّ حمدٍ واقعٍ أو كان مفروضاً مدي الأزمان
ملأ الوجودَ جميعهَ ونظيره من غير ما عدّ ولا حسبان
هو أهله سبحانه وبحمده كلّ المحامد وصف ذى الإحسان

فالله عزّ وجلّ (حميدٌ) من وجهين:

أحدهما: أن جميعَ المخلوقاتِ ناطقةٌ بحمده، فكلّ حمدٍ وقع من أهل السموات والأرض الأولين منهم والآخرين، وكلّ حمدٍ يقع منهم في الدنيا والآخرة، وكلَ حمدٍ لم يقع منهم بل كان مفروضاً ومقدراً حيثما تسلسلت الأزمان واتصلت الأوقات، حمداً يملأ الوجودَ كلّه العالم العلوىٰ والسفلىٰ، ويملأ نظير الوجودِ من غير عدّ ولا إحصاء، فإن الله تعالىٰ مستحقه من وجوه كثيره: منها أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم وأسدىٰ عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

وثانيهما: أنه يحمد علىٰ ماله من الأسماء الحسني والصفات الكاملة العلا والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة. فله كلّ صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها. فكلّ صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين

(١) عبد الرحمن آل سعدىٰ، الحق الواضح المبين، ص ٤٠.

أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد على خلقه وعلي شرعه وعلى أحكامه القدريه وأحكامه الشرعية وأحكام الجزاء في الأولي والآخرة، وتفاصيل حمده وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار ولا تحصيها الأقلام[1].

قال الشاعر:

كلّ شيء يسبحُ اللهَ حمداً ... كي يؤدى فرائض الشكرانِ
نعمُ ساقها المهيمنُ للنا ... س فحمداً للمنعم المنانِ
أعجزَ الخلقَ عدّها فتعالى ... باسَطُ الرزق دائمُ الإحسانِ

وقال آخر:

أنت كما تثنى على نفسكِ يا ... الله يا عليّ يا حميدُ
تحركُ الفلكَ إلى غاياتها ... وتمسكُ الأرضَ فلا تميدُ
والكائناتُ كلّها تَمْضي إلى ... حيث تشاءُ فهي لا تحيدُ
شُمُوسُها نُجُومُها نِظَامُها ... ما بعد هذا كلّه مزيد
يا خَالِقي يا من إليه المَشتكى ... من ذا يريدُ عندما تريدُ
أنت كما تثنى على نفسكِ يا ... الله يا عليّ يا حميد

وقد ورد اسم (الحميدِ) في القرآن الكريم سبع عشرة مرة؛ اقترن في عشر منها بالغنى.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ

(١) عبدالرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص٤٠.

لَغَنِيٌّ حَمِيد﴾(١) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(٢) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٣) .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(٤) .

أما ؛ الشاكرُ الشكورُ فأصلُ مادته (الشكر)، والشكر تصور النعمة وإظهارها، ويضاده الكفر وهو نسيانُ النعمةِ وسترها، ودابة شكور مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه. وهو على ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على المنِعم، وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستطاعة (اعملوا آل داود شكرا). . وقوله تعالى: ﴿ **وقليل من عبادى الشكور**﴾، فيه تنبيه علي أن توفية شكر الله صعب ولذلك لم يُثنِ بالشكر على أوليائه إلا على اثنين، قال في إبراهيم (عليه السلام): (شاكراً لأنعمه)، وقال في نوح ﴿**إنه كان عبدا شكور**﴾(٥) .

فالشكر : مقابلة المنعِم على فعله بثناء عليه، وقبول لنعمته، واعتراف بها، ولما كان الله عزّ وجلّ يجازي عباده على أفعالهم ويثيبهم على أقل القليل منها ولا يضيع لديه تبارك وتعالي لهم عمل عامل كان شاكراً لذلك لهم أى مقابلاً له بالجزاء والثواب. .

---

(١) سورة إبراهيم آية ٨. (٢) سورة فاطر آية ١٥ .
(٣) سورة الشورى آية ٢٨ . (٤) سورة البروج الآية : ٨ .
(٥) الراغب الأصفهانى، مرجع سابق، ص ٢٦٥ .

فالله عزّ وجلّ تتضاعف لديه الحسنات، ولا يضيع عنده أجر العاملين.. ومعني شكرَ العباد لله (عزّ وجلّ) اعترافهم بطوله(عزّ وجلّ) وإنعامه ومقابلة ذلك بالإقرار والخضوع والطاعة له[1].

قال ابن القيم (رحمه الله):

وهو الشكورُ فلن يضيعَ سعيهم لكنّ يضاعفه بلا حسبان
ما للعبادِ عليه حقٌ واجبٌ هو أوجب الأجر العظيم الشأن
كلا ولا عَمل لدَيه ضائعٌ إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نُعموا فبفضله والحمد للمنان

فهو (سبحانه)(الشاكر الشكور) الذي لا يضيع سعىٰ العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافاً مضاعفةً، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه بمضاعفة الحسنات الواحده بعشر إلىٰ سبعمائة إلىٰ أضعاف كثيره، وذلك من شكره لعباده.. ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئاً لأجله عوضه خيراً منه، وهو الذي وفق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم علي ذلك وأعطاهم من كراماته مالاً عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وكل هذا ليس حقاً واجباً عليه، وإنما هو الذي أوجبه علي نفسه جوداً منه وكرماً[2].

قال الشاعر:

إنك تثنى على عبادكِ ... يا رباه إن أحسنوا وإن عملوُا
والحسناتُ التى تضاعفها منك ثناء علي الذي فعلوُا
إن يشكروا فالشكور أنت بما تعطى وفيض العطاء متصلُ
وجنةُ الخلدِ أنت جاعلها لمن بأعمالهم لها وصلوا

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٢) عبد الرحمن آل سعدىٰ، الحق الواضح المبين، ص(٧٠-٧١).

وقد ورد اسمُ الشاكرِ مرتين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[١]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٢].

أما اسمُ الشكورِ فقد ورد أربع مرات:

قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٣].

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٤].

أما اسم (الودود) ففيه قولان أحدهما: أنه «فعول» بمعنى «فاعل» كقولك غفور بمعنى غافر. وشكور بمعنى شاكر فيكون الودود سبحانه هو الذي يود عباده الصالحين ويحبهم والود والمحبة في المعنى سواء.

فالله عزّ وجلّ، ودود لأوليائه والصالحين من عباده وهو محبّ لهم، والقول الآخر أنه «فعول» بمعنى «مفعول» كما يقال: «رجل هيوب» أي «مهيب» فتقديره: أنه (عزّ وجلّ) مودود أي يوده عباده ويحبونه وهما وجهان جيدان[٥].

وقد تأتي الصفة بالفعل (عزّ وجلّ) ولعبده فيقال: «العبد شكور» أي يشكر نعمته، والله شكورٌ للعبد أي يشكر له عمله أي يجازيه على عمله، والعبد تواب إلى الله من ذنبه، والله تواب عليه أي يقبل توبته ويعفو عنه[٦].

وهناك معنى ثالث للودود وهو الذي يودد أحبابه إلى خلقه بما

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٨.

(٢) سورة النساء آية ١٤٧. (٣) سورة فاطر آية ٣٠.

(٤) سورة الشوري آية ٢٣.

(٥) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٥٢.

(٦) المرجع السابق، ص ١٥٢.

يجعله من ود في قلوب الخلق لهم. قال تعالي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾[1].

فالله (عزّ وجلّ) ودود أي محب محبوب فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، وهو المحبوب لهم فلا شيء أحب إليهم منه، وهو الذي يوددهم إلي خلقه بما يجعل لهم من ود وحب في قلوبهم.

قال ابنُ القيمِ (رحمه اللهُ):

وهو الودودُ يحبهّم ويحبّه	أحبابه والفضلُ للمنانِ
وهو الذى جعل المحبّه فى قلـ	ـوبهم وجازهم بحب ثان
هذا هو الإحسانُ حقاً لا معا	وضةً ولا لتوقع الشكران
لكن يحب شكورهم وشُكورهم	لا لاحتياج منه للشكران

فالودود هو المحبّ المحبوب بمعني واد مودود، فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، وهو المحبوب لهم بل لا شيء أحبّ إليهم منه، ولا تعادل محبة الله من أصفيائه محبة أخري، لا في أصلها ولا في كيفيتها ولا في متعلقاتها، وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة كل محبة وبقية المحاب تبعاً لها. ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبوديه الظاهرة والباطنه ناشئة عن محبة الله. ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته فهو تعالى الذي أحبّ عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض علي الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسببّ،

---

(١) سورة مريم آية ٩٦.

ليس المقصود منها المعاوضه وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم لله فالمصلحة كلهاعائدة إلى العبد فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل يُنميها ويُقويها حتي وصلت في قلوب الأصفياء إلي حالة تتضاءل عندها جميع المحاب.. فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربّه: محبة قبلها صار بها محباً لربه، ومحبة بعدها شكراً من الله علي محبة صار بها من أصفيائه المخلصين(١).

فالودود من الود، وهو خالص الحبّ، فهو سبحانه (ودود) بمعني أنه يحب أهل طاعته. ومودته ومحبته سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وليستا كمودة ومحبة المخلوق(٢).

وقد ورد اسم الودود في القرآن الكريم مرتين:

قال تعالي: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(٣).

قال تعالي: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾(٤).

ونعمُ اللهِ (عزّ وجلّ) وآلائه علي عباده لا تعد ولا تحصي فهى أجلّ وأعظم وأوسع من أن تحيط عقول البشر بأدنى جزء منها، ولكن قد رضى سبحانه من عباده بالثناء عليه، وذكر آلائه ونعمائه بقدر الطاقة، مع أنه لا يحصى ثناء عليه أبدا بل هو كما أثنى علي نفسه فلا يحصي مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى.

---

(١) عبد الرحمن السعدي، الحق الواضح المبين، ص(٦٩-٧٠).

(٢) صالح الفوزان، شرح العقيدة الواسطيه، ص ٤٥.

(٣) سورة هود آية ٩٠.

(٤) سورة البروج آية (١٣-١٤).

فالدنيا التي نعيش فيها قرية، والمؤمن رئيسها، والكلّ مشغولُ به، ساع في مصلحته، والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه، فالملائكةُ الذين هم حملةُ العرشِ ومن حوله يستغفرون له، والملائكة، الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه، والأفلاُك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته، والعالم الجوي مسخر له برياحه، وهوائه، وسحابه، وطيره، وما أودع فيه، والعالم السفلي كله مسخر له، مخلوق لمصالحه أرضه وجباله، وبحاره وأنهاره، وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه(١).

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(٢).

ولو تأملت أيها الإنسان في خلقك وكيف صنعك أحسن الخالقين من ماء مهين، ودبرك بألطف التدبير وأنت جنين في بطن أمك، في موضع لايد تناله، ولا بصر يدركه، ولا حيلة لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضرر، فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك، ولم يزك يغذوك في أضيق المواضع وأبعدها عن حيله التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى أديمك على مباشرة الهواء، وبصرك علي ملاقاة الضياء، وصلبت عظامك علي مباشرة الأيدي

(١) ابن قيم الجوزيه، مفتاح دار السعاده، ص ٣٢٨.
(٢) سورة إبراهيم آية (٣٢-٣٤).

والتقلب علىٰ الغبراء. هاج الطلق بأمك فخرجت إلىٰ عالم الابتلاء. فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يشتمل عليك قط.. فبعد أن كان مبتهجاً بحملك صار يستغيث من ثقلك.

فمن الذي فتح لك الباب حتي ولجت، ثم ضمه عليك حتي حفظت وكملت، ثم فتح لك ذلك الباب حتي خرجت منه كلمح البصر.. لم يخنقك ضيقه، ولم تحبسك صعوبة! فخرجت فريداً وحيداً ضعيفاً لا قشرة ولا لباس، ولا متاع ،ولا مال، أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم! فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذىٰ به في بطن أمه إلىٰ خزانتين معلقتين علي صدرها، تحمل غذاءك علي صدرها كما حملتك في بطنها، ثم ساقه إلىٰ تينك الخزانتين ألطف سوق علي مجار وطرق قد تهيأت له، فلا يزال واقفاً في طرقه ومجاريه حتي يستوفي ما في الخزانه، فيجرىٰ وينساق إليك، فهو بئر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها، يسوقها إليك لا يهتدي إليها الطواف ولا يسلكها الرجال، فمن رققه لك وصفاه وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخة أعدل إحكام؟ لا بالحار المؤذىٰ ولا بالبارد الردىٰء ، ولا المر ولا المالح، ولا الكرية الرائحة، بل قلبه إلىٰ ضرب آخر من التغذيةوالمنفعة خلاف ما كان في البطن، فوقاك في أشد أوقات الحاجة إليه علي حين ظمأ شديدٍ وجوعٍ مفرط، جمع لك بين الشراب والغذاء..

فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدىٰ المعلق كالإداوة قد تدلي إليك، وأقبل بدره عليك، ثم جعل رأسه تلك الحلمه التي هىٰ بمقدار صغر فمك، فلا يضيق عنها، ولا تتعب بالتقامها ثم نقب لك في رأسها نقباً لطيفاً بحسب إحتمالك.

ولم يوسعه فتختنق باللبن، ولم يضيقه فتمص بكلفة، بل جعله

بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك.

فمن عطّف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتي تكون أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها، فإذا أحست منك بأدنىٰ صوت أو بكاء قامت إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان فمن الذي وضع ذلك في قلبها؟

حتىٰ إذا قوىٰ بدنك واتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك واحتجت إلىٰ غذاء صلب ليشد به عظمك ويقوي به لحمك، وضع في فيك آلة القطع والطحن، فنصب لك أسناناً تقطع بها الطعام وطواحين تطحن بها، فمن الذي حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفاً بك؟ فلو أنت خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس، كيف يكون حال أمك بك؟ ولو أنك منعتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لا تسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها؟ثم إنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئاً، بل غبياً لا عقل ولا فهم ولا علم، وذلك من رحمته بك، فإنك علىٰ ضعفك لا تحتمل العقل والفهم، بل كنت تتمزق وتتصدع. بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئاً فشيئاً فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة، بل يصادفك يسيراً يسيراً حتي يتكامل فيك..

ثم لو ولدت عاقلاً فهيماً كحالك في كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص، وتنكدت أعظم تنكيد، لأنك ترىٰ نفسك محمولاً رضيعاً معصباً بالخرق، مربطاً بالقمط، مسجوناً في المهد؟ ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك ما يوجد للمولود الطفل، بل تكون أنكد الخلق، وأثقلهم، وأعنتهم، وأكثرهم فضولاً، فكان دخولك هذا العالم وأنت غبىٰ لا تعقل شيئاً ولا تعلم ما

فيه رحمة وحكمة من ربك . .

فمن هذا الذي هو قيم عليك بالمرصاد، يرصدك حتي يوافيك بكل شيء من المنافع والآراب والآلات في وقت الحاجة لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه(١)؟

هذه غيض من فيض من نعم الله (عزّ وجلّ) عليك، وأنت لا تري شيئاً ولا تملك لنفسك نفعاً ولا ضراً .

﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من سُلالَة مّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ علقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(٢) .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٣) .

والإنسان يحمدُ اللهَ عزّ وجلّ أن خلق السموات وسخر ما فيها له .

﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾(٤) .

ويحمدُ اللهَ عزّ وجلّ لانفرادِه بالملكِ .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ للَّه الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾(٥) .

---

(١) ابن القيم الجوزيه، المرجع السابق، ص ٣١٨: ص٣٢١ .
(٢) سورة المؤمنون / ١٢ : ١٤ .
(٣) سورة النحل آية ٧٨ .
(٤) سورة الأنعام آية ١ .
(٥) سورة الإسراء آية ١١١ .

ويحمدُ اللهَ عزّ وجلّ أن أنزل القرآن الكريم هداية ورحمة :

﴿الحمدُ للَّه الَّذي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْده الْكتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذرَ بَأْسًا شَديدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾(١) .

ويحمدُ اللهَ عزّ وجلّ أن سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأمده بكل النعم التي تصلحه وتسعده في الدنيا وهداه إلىٰ ما يسعده في الآخره في جنات النعيم .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ للَّه الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(٢) .

ويشكرُ الإنسانُ ربّه علي النعم التي أمده ويمده بها في كل لحظة من لحظات حياته ، فهو الذي جعل له السمع والبصر والفؤاد بل ركب له سائر الأعضاء أحسن تركيب وأتمه .

وهو الذي سخر له الليل والنهار والفلك والدواب ، وجعل له الماء الذي يشربه عذاباً فراتاً والطعام الذي يأكله طيباً نضيجاً .

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٣) .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤) .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ

(١) سورة الكهف آية (١-٣) .
(٢) سورة الزمرآية ٧٤ .
(٣) سورة النحل اية ٧٨ .
(٤) سورة القصص آية ٧٣ .

تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾(١).

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾(٢).

وشكر العبد لربه يقابل بشكر من الشكور سبحانه وتعالىٰ فهو سبحانه وتعالىٰ يجازي العمل القليل بالثواب العظيم، فهو يعطىٰ بالعمل في أيام معدودة في الدنيا نعيماً في الآخرة غير محدود.

فنوح (عليه السلام) يصبر علىٰ أذىٰ قومه، ويتفنن في دعوتهم إلىٰ توحيد الله (عزّوجلّ) فيقر الحق عينه، ويجعل العالم من بعده من ذريته، ويجعله من أولىٰ العزم الذين هم أفضل الرسل. ويأمر نبيه محمداً ﷺ أن يصبر كصبره ويثنىٰ عليه بكمال الشكر: «إنه كان عبداً شكوراً».

وإبراهيم (عليه السلام) بذل نفسه لله لنصرة دينه فاتخذه الله خليلاً، وأمر رسوله وخليله محمداً أن يتبع ملته، وجازاه علي تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك في نسله وكثره حتىٰ ملأ السهل والجبل، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمداً ﷺ.

ويوسف (عليه السلام) تحمل ضيق السجن وتوالت عليه المحن محنة وراء إخرىٰ، ولكنه ظل موصولاً بربه داعياً إلىٰ توحيده.

﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾(٤).

---

(١) سورة فاطر آية ١٢.

(٢) سورة البقرة آية ١٧٢.

(٣) سورة يوسف آية ٣٩.

فمكنّ اللهُ عزّ وجلّ في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾(١) .

ومحمد ﷺ احتمل مالم يحتمله نبي قبله وأذاه الكفار بصنوف الأذىٰ من القول والفعل، وهو مع ذلك كله صابر علي أمر الله يدعو إلىٰ توحيده فأعطاه الله عزّ وجلّ مالم يُعْطِ نبياً قبله فرفع ذكره ، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلّهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم عنده شفاعة . . .

فالله عزّ وجلّ لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين وهو الشاكر الشكور فمن ترك لوجهه أمراً أو فعلاً بذل له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر، وجازاه أحسن الجزاء أضعافاً مضاعفة .

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٢) .

قال نافع : خرجت مع ابن عمر (رضىٰ الله عنهما) في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له فوضعوا سفرة فمرّ بهم راع فقال له : عبد الله : هلم يا راعي فأصب من هذه السفرة، فقال: إني صائم . فقال له عبد الله : في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت في هذه الشعاب في آثار هذه الغنم وبين الجبال ترعي هذه الغنم وأنت صائم؟فقال الراعىٰ : أبادر أيامىٰ الخاليه . فعجب ابن عمر وقال : هل

(١) سورة يوسف آية (٥٤ ـ ٥٧) .

(٢) سورة يوسف آية ٥٧ .

لك أن تبيعنا شاة من غنمك نجتزرها ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لي إنها لمولاي. قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت أكلها الذئب؟ فمضى الراعي وهو رافع إصبعه إلى السماء وهو يقول فأين الله؟

قال: فلم يزل ابن عمر يقول: قال الراعي: فأين الله فما عدا أن قدم المدينة فبعث إلى سيده فاشتري منه الراعي والغنم فأعتق الراعي ووهب له الغنم (رحمه الله) (١).

فانظر هذا الراعي الذي اتقى الله عزّ وجلّ في« غنم سيده كيف كافأه الشكور (سبحانه وتعالى) فصار حراً وصارت الغنم كلها ملكاً له.

وعن عباية بن رفاعة، عن أم سليم قالت: توفي ابن لي وزوجي غائب فقمت فسجيته في ناحية من البيت، فقدم زوجي فقمت فتطيبت له فوقع علي. ثم أتيته بطعام فجعل يأكل فقلت: ألا أعجبك من جيراننا؟ قال: وما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طُلبت منهم جزعوا فقال: بئس ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك. فقال: لا جرم لا تغلبيني على الصبر الليلة.

فلما أصبح غدا على رسول الله (ﷺ) فأخبره، فقال: اللهم بارك لهم في ليلتهم. فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأ القرآن (٢).

فهذه المرأة وزوجها تركا الجزع وصبرا ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ، فعوضهم الشكور وجازاهم بدلاً من الولد سبعة أولاد كلهم قد قرأ

---

(١) أبو الفرج ابن الجوزي، صفة الصفوة، ح٢، ص ١٨٨.
(٢) أخرجه مسلم في فضائل أم سليم.

القرآن. فياله من تعويض ومكافأة وشكر من شكور حميد!

وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: كان معاذ بن عفراء لا يدع شيئاً إلا تصدق به، فلما ولد له استشفعت إليه امرأته بأخواله فكلموه وقالوا له: إنك قد أُعلت، فلو جمعت لولدك. قال: أبت نفسى إلا أن أستتر بكل شىء أجده من النار... فلما مات ترك أرضاً إلى جنب أرض لرجل. قال عبد الرحمن وعليه ملاءة صفراء ما تساوى ثلاثة دراهم: ما يسرنى الأرض بملاءتى هذه. فامتنع والى الصبيان عن بيعها. فاحتاج إليها جار الأرض فباعها بثلاثمائة ألف [1].

فانظر كيف شكر الله عزّ وجلّ له صدقته، وصنيعه فبارك لأولاده من بعده فباعوا قطعة الأرض بثلاثمائة ألف وهى لا تساوى ثلاثة دراهم.

فالعبد هو الذي ينتفع بالشكر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾[2].

فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى وليس مكافأة لنعم الربّ. فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافىء نعمه أبداً، ولا أقلها ولا أدنى نعمة من نعمه، فإنه تعالى هو المنعم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يشكر عليه. فلا يستطيع أحد أن يحصى ثناء عليه. فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها. فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه، تحتاج إلى شكر آخر وهكذا... فمهما شكر العبد فإنه لا يفى شكر نعمة الربّ. والربّ (سبحانه وتعالى)

---

(١) أبو الفرج بن الجوزى، مرجع سابق، ج١، ص٤٧٣.
(٢) سورة لقمان آية ١٢.

يعطي مع استغنائه عن العبد، والعبد يشكر مع افتقاره إلى الربّ. فهل يكافئ شكر المحتاج الفقير عطاء الغني الكريم!

قال ابن القيم:

ومن تمام نعمة الله (عزّ وجلّ) وعظيم برّه وجوده وكرمه وشكره، محبته للعبد على هذا الشكر، ورضاه منه به. وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد، لا تعود منفعته على الله. وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه. ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمه، ويرضى عنك، ثم يعيد عليك منفعة شكرك. ويجعله سبباً لتوالي نعمه واتصالها إليك. والزيادة على ذلك منها [(١)].

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى قد استثنى في الإغناء فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ [(٢)].

واستثنى في الإجابة فقال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [(٣)].

واستثنى في الرزق فقال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [(٤)].

واستثنى في المغفرة فقال تعالى. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [(٥)].

واستثنى في التوبة فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ [(٦)].

---

(١) ابن القيم الجوزية/ مدارج السالكين، ج٢، ص٢٥٣.
(٢) سورة التوبة آية ٢٨. (٣) سورة الأنعام آية ٤١.
(٤) سورة البقرة آية ٢١٢. (٥) سورة النساء آية ٤٨.
(٦) سورة التوبة آية ٢٧.

واستثنى في العلم فقال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾[١].

واستثنى في الملك فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[٢].

واستثنى في الرحمة فقال تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾[٣].

أما الشكر فقطع الله تعالى فيه بتحقيق المزيد من النعمة مع الشكر ولم يستثن في ذلك، فقال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٤].

والشكر مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته. وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره[٥].

والمتأمل في القواعد الخمس السابقة يجدها تتعلق باللسان والقلب والجوارح.

فاللسان يشكر وشكره اعتراف وثناء، والقلب يشكر وشكره حب وخضوع للمشكور، والجوارح تشكر وشكرها أن لا تستعمل النعمة فيما يكره المشكور، فلا يكفى أن يشكر اللسان فقط، ولا أن يشكر القلب مع اللسان فقط، وإنما لابد من تضافر هذه الثلاثة. اللسان يعترف ويثنى، والقلب يخضع ويحب، والجوارح تنقاد وتطيع.

وقد فرق العلماء بين الحمد والشكر: فقالوا إنّ الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه فهو يكون باللسان والقلب والجوارح، وأخص من جهة متعلقاته فيكون على أشياء كلّها نعم قريبة تتعلق بالعبد كالسمع والبصر والفؤاد، والطعام والشراب... أما الحمدُ فهو أعم من جهة المتعلقات

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٣) سورة يوسف آية ٥٦.

(٤) سورة إبراهيم آية ٧.

(٥) ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، ص٢٤٤.

فهو يتناول النعم السابقة وغيرها من صفات الله عزّ وجلّ الذاتية كحياته وسمعه وبصره وعلمه وإحسانه وعدله. كما أنه أخص من جهة أسبابه وأنواعه فهو يقع بالقلب واللسان. فكلّ ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكلّ ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس[(١)].

والعبدُ يحمدُ الله (عزّ وجلّ) في السّراء والضّراء؛ لأن فعله كلّه حكمة وخير للعبد.

عن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه)، أن رسول الله (ﷺ) قال: «**إذا مات ولدُ العبدِ قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد**»[(٢)].

وعندما يمتحن العبد بنقصٍ في ماله أو أهله أو صحته فعليه أن يحمد الله (عزّ وجلّ) لأن ما أخذ أقل بكثير مما أبقى.

عن هشام بن عروة قال: خرج أبي (عروة بن الزبير) إلى الوليد بن عبد الملك فوقعت في رجله الأكلة (داء في العضو يأتكل منه) فقال الوليد: يا أبا عبد الله أرى لك قطعها. قال: فقطعت وإنه لصائم فما تضور وجهه. قال: ودخل ابن له أكبر ولده اصطبله فرفسته دابة فقتلته فما سُمع من أبي في ذلك شيء، حتى قدم المدينة فقال: «اللهم إنه كان

---

(١) ابن القيم الجوزيه، المرجع السابق، ص٢٤٦ (بتصرف).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن (في الجنائز) باب فضل المصيبة إذا احتسبت.

لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد. وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وأيم الله لئن أخذت فلقد أبقيت ولئن ابتليت طالما عافيت» (١).

وكلمةُ «الحمد لله» لها فضلُ عظيمُ وثوابُ جزيلُ عند الله (عزّ وجلّ) ولذلك كان يحرصُ عليها رسولُ الله (ﷺ).

عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: كان نبي الله(ﷺ) **إذا أمسى قال: أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له»... وإذا أصبح قال ذلك أيضاً:« أصبحنا وأصبح الملك لله»** (٢).

وعن أنس (رضي الله عنه)، أن النبي (ﷺ)، كان إذا أوى إلى فراشه **قال:« الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوى»**(٣).

فكلمةُ الحمدِ لله كلمةُ عظيمةُ جليلة القدرِ، كثيرةُ النفعِ، عن محمد بن مسعر، قال: قال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: فقد أبي بغلة له فقال: قال لئن ردها الله (عزّ وجلّ) لأحمدنّه محامد يرضاها. فما لبث أن أُتِيَ بها بسرجها ولجامها. فركبها. فلما استوى عليها وضم ثيابه رفع رأسه إلى السماء، وقال: الحمد لله. لم يزد عليها. فقيل له في ذلك فقال: وهل تركت أو أبقيت شيئاً؟ جعلت الحمد لله عزّ وجلّ (٤).

---

(١) أبو الفرج بن الجوزي، صفة الصفوة، ح٢، ص٨٦.
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨) وأبو داود والترمذي والنسائي.
(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٤) وأحمد وأصحاب السنة الأربعة.
(٤) أبو الفرج بن الجوزي، مرجع سابق، ص١١١.

والتحميدُ مع التسبيح أحبّ الكلام إلى الله (عزّ وجلّ) ولذلك جاء الأمر من الله عزّ وجلّ بذلك. قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (١).

وقال تعالي: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (٢).

وعن أبى ذر (رضى الله عنه) قال: قال لي رسول الله (ﷺ): **ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله «قلت: يا رسول الله أخبرنى بأحب الكلام إلى الله تعالى، فقال:«إنّ أحبَ الكلامِ إلي الله سبحان الله وبحمده»** وفى روايه: إن رسول الله (ﷺ) سئل أي الكلام أفضل وفى روايه: إن رسول الله (ﷺ) سئل أي الكلام أفضل قال: **«ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده»** (٣).

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه): أن رسول الله (ﷺ) قال: **«ومن قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»**(٤).

وشكر الناس من شكر الله (عزّ وجلّ)، وفى الحديث النبوي الشريف: **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»** (٥).

فلابد من مكافأة المحسن وشكره على صنيعه. قال رسول الله (ﷺ): «. . . ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه» (٦)، وحين اقترض رسول الله ﷺ

---

(١) سورة طه آية ١٣٠. (٢) سورة غافر آية ٥٥.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده.
(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح.
(٥) رواه أبو داود وصححه الألبانى برقم ٤٠٢٦.
(٦) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود وصحيح سنن النسائى.

من عبد الله بن أبي ربيعه المخزومي قبل حنين رد إليه القرض بعد الغزوة وقال له: «بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الوفاء والحمد» [١].

ومحبة الربّ لعبده والعبد لربّه ثابتة. قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ فهو سبحانه وتعالى يحب ويود بعض الأشخاص والأعمال والأخلاق، فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه حكمته البالغة فهو يحب المحسنين ويحب المقسطين ويحب المتقين ويحب المتبعين لرسوله (ﷺ) ويحب المجاهدين في سبيله ويحب التوابين والمتطهرين [٢] ومحّبة الربّ لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب [٣].

ومحبةُ الله عزّ وجلّ للعبد تكون باتباع الرسول (ﷺ) قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [٤].

فالاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن في أن تحب الله بل الشأن في أن يحبك الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبراً وأطعته أمراً، وأجبته دعوة وآثرته طوعاً [٥].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن السني وسنده جيد.

(٢) صالح الفوزان، شرح العقيدة الواسطية، ص٤٥.

(٣) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين ج٣، ص١٨.

(٤) سورة آل عمران آية ٣١.

(٥) ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص٣٨.

بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ﴾ (١).

فعلاماتُ الحبِ في الآية السابقة أربع علامات: (٢).

أحدهما: أنهم (أذلة على المؤمنين)أى رحماء مشفقين عليهم، فهم للمؤمنين كالوالد لوالده، والعبد لسيده.

ثانيها: (أعزة على الكافرين) أي أشداء عليهم كالأسد علي فريسته.

ثالثها: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال.

رابعها: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة.

ويعدد ابن القيم (رحمه الله) الأسباب الجالبه لمحبة الله (عزّ وجلّ)لعبده والموجبة لها: (٣).

أولها: قراءة القرآن بالتدبر والفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليتفهم مراد صاحبه منه.

وقد كان السلف يستشعرون هذا المعنى وهم يقرءون القرآن، حتى إنهم كانوا يتلقونه تلقى الغائب لرسالة جاءت علي شوق من الحبيب: قال الحسن بن على (رضى الله عنه): «إنّ من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار»(٤).

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤.
(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٣، ص٢٢.
(٣) المرجع السابق، ص ١٧، (بشرح يسير).
(٤) النووى، التبيان فى آداب جملة القرآن، ص ٢٨.

وقد استجلب صحابى من أصحاب رسول الله ﷺ محبة الله (عزّ وجلّ) بتلاوة سورة واحدة وتدبرها ومحبتها، وهي سورة الإخلاص التي فيها صفة الرحمن جلّ وعلا فظل يرددها في صلاته، فلما سئل عن ذلك قال: «لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها» فقال النبي (ﷺ) : « أخبروه أن الله يحبه»(١) .

الثانى: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة .

فمؤدي الفرائض كاملة محب لله ومؤديها وبعدها النوافل محبوب من الله؛ يدل علي ذلك الحديث الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربّ العزة سبحانه وتعالى وفيه» . . . وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتي أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(٢) .

الثالث: دوامُ ذكره علي كل حال باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر .

فذكرُ اللهِ عزّ وجلّ هو شعار المحبين لله، المحبوبين من الله قال رسول الله : **«إن الله عزّ وجلّ يقول: أنا مع عبدى ما ذكرني وتحركت بى شفتاه»**(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري (فى التوحيد) ومسلم فى صلاة المسافرين فضل قراءة قل هو الله أحد.
(٢) رزواه البخاري فى صحيحه (٦٥٠٢) .
(٣) رواه أحمد وابن ماجه فى سنته (كتاب الأدب فضل الذكر) وصححه الألباني فى صحيح ابن ماجه .

فالذاكر لله (تعالىٰ) مذكور عند الله بالثناء والمحمده والمحبة، وموعود بالمغفرة والأجر العظيم. قال تعالىٰ: ﴿فاذكروني أذكركم﴾(١).

﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾(٢).

والذكر أنواع منها: تلاوة القرآن الكريم وهو أفضلها، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار، والصلاة علي النبي (ﷺ)، والأذكار المأثورة المقسمة علىٰ اليوم والليلة.

وسئل ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، فقال: «إذا واظب علي الأذكار المأثورة المثبته صباحاً ومساءً، وفىٰ الأوقات والأحوال المختلفة في ليل العبد ونهاره كان من الذاكرين الله تبارك وتعالي كثيراً»(٣).

الرابع: إيثار محابه علي محابك عند غلبات الهوىٰ، والتسنم إلىٰ محابه وإن صعب المرتقىٰ.

وإيثار محاب الله علي محاب غيره تتجلي آثاره في أمور ثلاثة من خلالها يتسنم العبد إلىٰ محاب الله وإن صعب المرتقىٰ، وهي: قهر هوي النفس، ومخالفة هوىٰ الناس، ومجاهدة الشيطان وأوليائه(٤).

والهوىٰ المذموم هو الميل إلىٰ كل باطل ومحرم، وإليه ينصرف (الهوىٰ) عند الإطلاق، وإنما سمىٰ بذلك لأنه يهوىٰ بصاحبه في الدنيا إلىٰ كل داهية وفىٰ الآخرة إلىٰ الهاوية(٥).

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٢. (٢) سورة الأحزاب آية ٣٥.

(٣) فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح، ج١ ص ١٥٠.

(٤) عبد العزيز مصطفىٰ، شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله، ص ٧٢.

(٥) الراغب الأصفهانىٰ، مرجع سابق، ص ٥٤٨.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه ـ رحمه الله ـ: «يحتاج المسلم إلىٰ أن يخاف الله، وينهىٰ النفس عن الهوىٰ. ونفس الهوي والشهوة لا يعاقب عليه، بل علىٰ اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوىٰ وهو ينهاها، كان نهيه عبادة، وعملاً صالحاً. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (**المجاهدُ من جاهدَ نفسهُ في الله عزّ وجلّ**)[١]. فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصىٰ ويدعو إليها، وهو إلىٰ جهاد نفسه أحوج، فإن هذا فرض عين، وذاك فرض كفاية. والصبر في هذا من أفضل الأعمال فإنّ الجهاد حقيقة ذلك الجهاد. . »[٢].

ومخالفة هوىٰ النفس بعدم الانحراف أو الانحراف وراء رغائبهم فيما لا يوافق الحق.

ومدافعة الشيطان ومجاهدة أوليائه؛ لأن الشيطان وأولياءه لا يدعون المؤمن في طريق الخير والفلاح قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾[٣].

فمحبة الله(عزّ وجلّ) محققه وواقعه للمجاهدين من أجل رفع كلمته وإعلاء دينه قال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[٤].

فالمحبة مستلزمة للجهاد، لأن المحبّ يحب ما يحبه محبوبه،

---

(١) أخرجه الترمذىٰ وقال: حديث حسن صحيح(١٦٢١) وأخرجه أحمد(٦/ ٢٠، ٢٢).
(٢) ابن تيميه، مجموع الفتاوىٰ، م١٠ ص(٦٣٥-٦٣٦).
(٣) سورة فاطر آية ٦.
(٤) سورة المائدة آية ٥٤.

ويبغض ما يبغضه محبوبه ، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضىٰ لرضاه ويغضبه لغضبه. فالمحبوبات لا تنال إلا باحتمال المكروهات.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحّبه الله لا محالة.

ويكون ذلك بالوقوف عند ما جاء في نصوص الوحيٰ من صفات الله وأسمائه فيثبتها كما جاءت في الكتاب والسنة من غير تحريف لألفاظها ولا تعطيل لمعانيها ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، وأن يعتمد في إثباتها علىٰ الكتاب والسنة فقط لا يتجاوز الكتاب والسنه لأنها توقيفية.

والتحريف هو التغيير وإمالة الشيء عن وجهه وهو يشمل تحريف اللفظ أي العدول به عن جهته كقول المحرفين في قوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(١) أي استولىٰ فزادوا في الآية حرفاً، أو قولهم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾(٢) أيْ أمر ربك فزادوا كلمة. وكقولهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٣) بنصب لفظ الجلاله فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلىٰ النصب ، وتحريف المعنىٰ وهو العدول به عن وجهه وحقيقته إعطاء اللفظ معني لفظ آخر كقولهم : إن معنىٰ الرحمة: إرادة الإنعام . وإن معنىٰ الغضب إرادة الانتقام.

والتعطيل: لغة الإخلاء - يقال: عطلة أي أخلاه والمراد هنا نفىٰ الصفات عن الله سبحانه وتعالىٰ.

والتكييف: هو تعيين كيفية الصفة يقال: كيف الشيء إذا جعل له

---

(١) سورة طه، آية: ٥.
(٢) سورة الفجر، آية: ٢٢.
(٣) سورة النساء، آية: ١٦٤.

كيفية معلومة فتكييف صفات الله هو تعيين كيفيتها والهيئة التي تكون عليها وهذا لا يمكن للبشر لأنه مما استأثر الله تعالى بعلمه فلا سبيل إلى الوصول إليه؛ لأن الصفة تابعة للذات، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها ـ فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيتها ولهذا لما سئل الإمام مالك (رحمه الله) فقيل له: (الرحمن على العرش استوى) كيف استوي؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه.

والتمثيل: هو التشبيه بأن يقال: إن صفات الله مثل صفات المخلوقين كأن يقال له: يد كأيدينا وسمع كسمعنا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[(١)].

ثم ينظر إلى آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلا في الوجود والكون من حوله ففي المخلوقات ما يدل على وجود خالقها وعلى حياته وعلى قدرته وعلي علمه وحكمته ومشيئته. ففي عالم الشهادة شهود على أسماء الله وصفاته، فنفس المخلوق شاهد لاسم (الخالق) والمرزوق شاهد لاسم(الرازق) وتعرض الخلق للرحمة يشهد لاسمه (الرحمن) واسمه(الرحيم) وهكذا ولعل هذه الدراسه خطوة في هذا المنحنى إن شاء الله تعالى.

قال الشاعر:

تأمل سطور الكائنات فإنها	**من الملك الأعلى إليك رسائل**
وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها	**ألا كل شيء ما خلا الله باطل**
تشير بإثبات الصفات لربها	**فصامتها يهدي ومن هو قائل**

---

(١) سورة الشورى آية ١١. انظر: صالح الفوزان، مرجع سابق، ص(١٣ـ١٤).

السادس: مشاهدة برّه وإحسانه، وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلىٰ محبته.

فمشاهدة نعم الله عزّ وجلّ ومطالعتها والتفكر فيها تجعل العبد أسير إحسان الله(عزّ وجلّ)، فالإنسان يحب بقاءه وكماله ودوام وجوده، فإذا عرف أن وجوده ودوامه وكماله من الله وحده اقتضىٰ ذلك أن يحب الله وحده، ولا يحب غيره، لأنه سبحانه هو المحسن إلىٰ الكلّ كافة بإيجادهم وتكميلهم ومدهم بالأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيههم، إلىٰ غير ذلك من النعم التي لا تحصىٰ.

فنعم الله عزّ وجلّ تتري علي الإنسان في كل لحظه من لحظات حياته، وما الإنسان إلا أثر من آثار إحسانه (سبحانه وتعالىٰ) فكيف لا يحب الإنسان ربه الذي أوجده وأعده وأمده وهداه وأسعده؟!

السابع: انكسار القلب بكليته بين يدىٰ الله تعالي، وليس في التعبير عن هذا المعني غير الأسماء:

فيتذلل القلب ويخشع أمام ربه. ثم ينعكس ذلك علىٰ الجوارح، ويظهر ذلك جلياً في الصلاة﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(١).

فالخشوع محله القلب، وثمرته علي الجوارح. وهىٰ تظهره. فالأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائماً بعبوديته، فالأعضاء أولي أن لا يعتد بعبوديتها، فإذا فسدت عبوديته ـ بالغفلة والوسواس ـ فأنىٰ تصح عبوديته رعيته وجنده ومادتهم

(١) سورة المؤمنون آية ١.

منه، وعن أمره يصدرون، وبه يأتمرون؟[١].

فتذلل القلب وخضوعه وخشوعه بين يدى الربّ، يورث محبة الله (عزّ وجلّ).

الثامن: الخلوة به في وقت النزول الإلهى، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

وقد أثنى اللهُ عزّ وجلّ علي أهل الليل بقوله: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾[٢].

وصلاة الليل هي أفضل نوافل الصلاة، ففى الحديث قال رسول الله ›(**أفضلُ الصلاةِ بعد الفريضة، صلاة الليل**)[٣].

وعن أبى أمامة الباهلى (رضى الله عنه) عن رسول الله قال: (**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم**)[٤].

فأصحابُ الليلِ هم بلا شكّ من أهل المحبة، بل هم من أشرف أهل المحبة؛ لأن قيامهم بين يدي الله يجمع لهم جل أسباب المحبة.

عن أبى الدرداء(رضى الله عنه) عن النبي ﷺ: «**قال ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم، الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها**

---

(١) ابن القيم الجوزية، مرجع سابق، ج٢، ص ٥٢٧.

(٢) سورة السجدة آية ١٦.

(٣) جزء من حديث رواه مسلم (١١٦٣) كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم.

(٤) رواه الترمذى فى كتاب الدعوات، واخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخارى ووافقه الذهبى.

بنفسه لله عزّ وجلّ، فإما أن يقتل، وإما أن بنصره الله ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه. والذى له امرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول يذر شهوته ويذكرنى ولو شاء رقد. والذى إذا كان فى سفره وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر في ضرّاء وسرّاء»(١).

ثم يختم قيام الليل بالاستغفار والتوبة إلى الله عزّ وجلّ. والاستغفار في هذا الوقت مشهود لأنه عقب طاعة من الطاعات وهي صلاة الليل وما أعظمها من طاعة. قال رسول الله ﷺ :**(يتنزل ربنا تبارك وتعالي كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعونى فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرنى فأغفر له)**(٢).

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجمت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعةً لغيرك.

فمحبةُ المحبين الصادقين ومجالستهم من موجبات محبة الله، ولا عجب فإن البشرى بذلك قد زفت إليهم. قال رسول الله ﷺ: قال الله (عزّ وجلّ): **وجبت محبتى للمتحابين فىّ، ووجبت محبتى للمتجالسين فىّ، ووجبت محبتي للمتزاورين فىّ)**(٣).

وروي أبو هريرة (رضى الله عنه) عن رسول الله ﷺ :**(أن رجلاً زار أخا له فى قرية أخري. فأرصد اللهُ تعالي علي مدرجته ملكاً، فلما أتي عليه**

---

(١) رواه الطبرانى بإسناد حسن، وقال عنه الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٥٥ رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه (٧٤٩٤)، ومسلم (١٦٨).

(٣) أخرجه أحمد فى سنده، ومالك فى الموطأ، وصححه الألبانى: مشكاة المصابيح(٥٠١١).

قال :أين تريد؟ قال: أريد أخالي. قال هل لك من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى. قال: إني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)(١) .

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تحاب رجلان في الله إلا كان أحبهما إلى الله (عز وجل) أشدهما حباً لصاحبه**»(٢) .

ومن أسباب محبة الله عزّ وجلّ أيضاً الصمت، ففي الحديث: «**من صمت نجا**»(٣) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه): أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»(٤) .

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله (عزّ وجلّ): فلابد أن يظل القلب سليماً معافى. فلا يتعلق بغير الله (عزّ وجلّ) فلا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يخاف إلا من الله، ولا يرجو إلا الله. ويحذر الأبواب والأسباب التي تحول بين القلب وبين الله (عزّ وجلّ) وهي:

*باب شبهة أورثت شكاً في دين الله.

* باب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ورضاه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٨٨ كتاب البرّ والصلة، باب في فضل الحبّ في الله.

(٢) رواه الطبراني وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الاسناد، ووافقه الذهبي.

(٣) اخرجه الترمذي وأحمد والدارمي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٥٣٦).

(٤) رواه البخاري في صحيحه ١١/ ٣٠٨ كتاب الرقائق باب حفظ اللسان.

* باب غضب يورث العدوان علي خلق الله(١) .

فمن هذه الأبواب الثلاثة، تلج كل الذنوب والمعاصى المفسده للقلوب، وهى ترجع في أصولها إلى ثلاثة :

* تعلق القلب بغير الله، وغايته الشرك ودعاء غير الله .

* طاعة النفس في الغضب، وغايته القتل .

* طاعة النفس في الشهوة، وغايته الزنا .

وقد جمع الله سبحانه تلك الثلاثة في سلك واحد، ونزه عباده أصحاب القلوب السليمة عنها، فقال في صفة عباد الرحمن : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾(٢) .

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتحاشون هذه المفسدات من الذنوب ويسألون عن كبارها وأصولها؛ ليجعلوا بينهم وبينها حاجزاً من التقوي . عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : سألت رسولَ الله ﷺ : أىّ الذنب أعظم؟ فقال : « **أن تجعل لله نداً وقد خلقك. قلت: إن ذلك لعظيمَ، قلت: ثم أى؟قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك. قلت: ثم أى قال: أن تزاني حليلة جارك**»(٣) .

فالقلب السليم هو القلب الخالى من الأمراض والعلل والآفات، ومن ثمّ فصاحبه محب محبوب .

---

(١) ابن القيم الجوزية، الفوائد، ص٥٨ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦٨ .

(٣) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ورواه مسلم(١٤١-١٤٢) .

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[١] .

«رب أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ. وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني علي من بغى عليّ. رب اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهّاباً، لك مطواعاً، إليك مخبتاً أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهدِ قلبي. وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي»[٢] .

«اللهم ارزقني حبّك، وحبّ من ينفعني حبّه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحبّ، اللهم ما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحبّ»[٣] .

«اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبّ المساكين وأن تغفر لي، وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون. ، وأسألك حبّك، وحبّ من يحبّك، وحبّ عمل يقربني إلى حبّك»[٤] .

* * *

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٥ .

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٧٨ .

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه ، وقال االشيخ عبد القادر الأرناؤوطي وهو كما قال .

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٣٧٩ وحسنه .

الوليُّ المولي النصيرُ

٨٩ ٩٠ ٩١

القريبُ المجيبُ

٩٢ ٩٣

قال الزجاجي: الوليّ في كلام العرب علي ضروب عشرة مخرجها كلّها من قولهم: «هذا الشيء يلي هذا الشيء» وأوليت الشيء الشيء: إذ جعلته يليه لا حاجز بينهما.. تقول العرب «فلان ولى فلان» أي هو متولي أمره والقيام بشؤونه كأنه يلي إصلاح أمره بنفسه لا يكله إلى غيره.. وفلان وليُّ فلان أي ناصره كأنه يوليه نصره فلا يحول بينه وبينه.. وفلان ولي فلان أي يوليه وده وموالاته، ويثني عليه بالجميل، ولا يتبرأ منه في حال(١).

فالله (عزّ وجلّ) وليُّ المؤمنين أي ناصرهم ومصلح شؤونهم والمثني عليهم، كما قال الله عزّ وجلّ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾(٢). فهو سبحانه وتعالى ولي المؤمنين أي يتولي أمرهم، ويتكفل بحاجاتهم، يتولاهم بعنايته، ويحفظهم برعايته، ويختصهم برحمته.

وولاية الله (عزّ وجلّ) ليست كغيرها﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٣).

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص١١٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.

(٣) سورة الشورى آية ١١.

فهو سبحانه الوليّ الذي تولى أمورَ العالمِ والخلائق، وهو مالكُ التدبير، وهو الولي الذي صرف لخلقه ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وإذا كان اللهُ (عزّ وجلّ) قد أنعم على الكافرين كما أنعم على المؤمنين أفيجوز أن تقول: الله ولي الكافرين؟

يجيب عن هذا السؤال الزجاجي بقوله: إن اللهَ (عزّ وجلّ) لما أنعم علي المؤمنين قابلوا إنعامه بالشكر والإقرار والطاعة والتوحيد فجاز أن يقال الله ولي الذين آمنوا بإنعامه عليهم وقبولهم وشكرهم، أما الكافرون فقد أنعم عليهم فقابلوا إنعامه بجحودهم وكفرهم وعدم إقرارهم فلذا لا يقال هو مولاهم.. كما أن الولي من معانيه النصرة والثناء ولذا فلا يقال: الله ولي الكافرين حتى لا يسبق إلى ذهن السامع أنه ينصرهم ويثني عليهم.. فللكافرين أولياء غير الله وهي طواغيتهم وأصنامهم ومعبوداتهم[1].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[2].

أما المولي في كلام العرب فعلى وجوه: المولي: الناصر، والمنعم، والمنعم عليه.. والمولى: الحليف، والولي والوارث، والمالك، والسيد، والمعتق، والمحب[3].. والله (عزّ وجلّ) هو المولي، والرب، والمالك، والسيد، وهو المأمول منه النصر والمعونه، لأنه هو المالك لكل

---

(١) الزجاجي، المرجع السابق، ص١١٤ بتصرف.
(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧.
(٣) الزجاجي، المرجع السابق، ص ١٤٥.

شيء، وهو الذي سمى نفسه(عزّ وجلّ) بهذا لاسم فقال(سبحانه): ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(١).

فالله عزّ وجلّ هو مولي الذين آمنوا وهو سيدهم وناصرهم على أعدائهم، وهو الذي يتولاهم بإيصال مصالحهم، وتيسير منافعهم. فهو نعم المولى لمن تولاه في تدبير شئونه، وتحصيل مطلوبه. ولذلك فمن دعاء المؤمنين: ﴿أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

وقد أرشد رسول الله ﷺ الصحابة حينما قال لهم أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم فقال: «قولوا الله مولانا ولا مولي لكم».

فالولي والمولي يستعملان في القرب والنصر والمعونة والودّ والثناء والحبّ، وتولى الأمر. ويستعملان في معنى الفاعل، أي الموالي، وفي معني المفعول أي المُوالىَ، ولذلك يقال للمؤمن: هو وليّ الله (عزّ وجلّ)، والله وليّ المؤمنين ومولاهم.

ولا يقال المؤمن: مولي الله.

والنصير: فعيل بمعنى فاعل أو مفعول لأن كل واحد من المتناصرين ناصر ومنصوروقد نصره سينصره نصراً إذا أعانه علي عدوه وشد منه(٣).

قال الراغب الأصفهاني: «النصر والنصرة العون. . ونصرة الله العبد ظاهرة، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده

(١) سورة الحج آية ٧٨.
(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦.
(٣) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٥ ص ٦٤.

ورعاية عهوده واعتناق أحكامه، واجتناب نهيه، قال تعالي: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾(١)، ﴿ كُونُوا أَنصَارَ اللَّه ﴾(٢)، والانتصار رالاستنصار طلب النصرة. قال تعالي: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾(٣)، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾(٤)، وقال تعالي: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾(٥)، وإنما قال فانتصر ولم يقل انصر تنبيهاً أن ما يلحقني يلحقك من حيث إنىٰ جئتهم بأمرك، فإذا نصرتني فقد انتصرت لنفسك»(٦).

أما القريب فهو الذي ليس ببعيد فالله (عزّ وجلّ) قريبٌ من عباده كما قال(عزّ وجلّ): ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٧). أىْ أنا قريب الإجابة، وهو مثل قوله (عزّ وجلّ) ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٨). وكما قال (عزّ وجلّ): ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾(٩).

وكما قال(عزّ وجلّ): ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(١٠).

قال ابن القيم:

وهو القريب وقربه المختص بـــ ـــالداعى وعباده على الإيمان

فقربه سبحانه وتعالي نوعان:

ـ قرب عام: وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلىٰ

---

(١) سورة محمد، آية: ٧.
(٢) سورة الصف، آية: ١٤.
(٣) سورة الشورىٰ، آية: ٣٩.
(٤) سورة الأنفال، آية: ٧٢.
(٥) سورة القمر، آية: ١٠.
(٦) الراغب الأصفهانىٰ، مرجع سابق، ص ٤٩٥.
(٧) سورة البقرة آية ١٨٦.
(٨) سورة الحديد آية ٤.
(٩) سورة المجادلة آية ٧.
(١٠) سورة ق اية ١٦.

الإنسان من حبل الوريد، وهو بمعني المعيه العامة.

٢ـ قرب خاص بالداعين والعابدين، وهو قرب يقتضى المحبة والنصرة، والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإنابة للعابدين(١).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٢).

وإذا فهم القرب بهذا المعنى في العموم والخصوص لم يكن هناك تعارض أصلاً بينه وبين ما هو معلوم من وجوده تعالى فوق عرشه فسبحان من هو عليٌّ في دنوه قريب في علوه(٣).

فالله عزّ وجلّ قريب ممن دعاه بإجابته، عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال: «**يا أيها الناس أربعوا علي أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(٤).

وكذلك قول صالح(عليه السلام)لقومه، في القرآن الكريم، ﴿**وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب**﴾. فقوله قريب مجيب مقرون بالتوبة والاستغفار، أراد قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه.

أما المجيب فاسم فاعل من أجاب يجيب فهو مجيب. فالله(عزّ

---

(١) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص٦٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٨٦.

(٣) أحمد عيسى، توضيح المقاصد، ج٢ ص ٢٢٩.

(٤) متفق عليه، انظر مسلم(٢٧٠٤).

وجلّ) مجيب دعاء عباده إذا دعوه كما قال(عزّ وجلّ) : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(١) .

فهو سبحانه وتعالى : المجيب الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويغيث الملهوف إذا ناداه ، ويقابل مسألة السائلين بالإسعاف ، ودعاء الداعين بالإجابة ، وضرورة المضطرين بالكفاية ، بل ينعم قبل النداء ، ويتفضل قبل الدعاء .

قال ابن القيم :

وهو المجيب يقول من يدعو أجيبـــــه أنا المجـــيب لكل من نـاداني
وهو المجـــيب لدعـــوة المضـطر إذ يدعـــوه في ســـر وفـي إعــلان

وإجابُة اللهِ (عزّ وجلّ) لعباده نوعان :

١ـ إجابة عامة لكل من دعاه دعاء عبادة أو دعاء مسألة ، قال تعالي : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٢)فدعاء المسألة أن يقول العبد اللهم أعطني كذا أو اللهم ادفع عني كذا ، وهذا يقع من البرّ والفاجر ، ويستجيب الله فيه لكلّ من دعاه بحسب الحال المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته ، وهذا يستدل به على كرم المولى وشمول إحسانه للبرّ والفاجر ، ولا يدل بمجرده على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه وعلي صدقه وتعين الحق معه ، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلي قومهم فيجيبهم الله ، فإنه يدل على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربهم ، ولهذا كان النبي ﷺ كثيراً

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٦ .
(٢) سورة غافر آية ٦٠ .

ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوته وآيات صدقه، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات، فإنه من أدلة كراماتهم على الله.

٢ـ إجابة خاصة ولها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإنّ الله يجيب دعوته، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[1].

وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ومن أسباب الإجابة طول السفر، والتوسل إلى الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد على ولده أو له وفي الأوقات والأحوال الشريفة[2].

قال الشاعر:

مجيبُ السائلين ..حملت ذنبي ... وسرت على الطريق إلى حماكا
ورحت أدق بابك مستجيراً ... ومعتذرا.. ومنتظراً رضاكا
دعوتك يا مفرّج كلّ كربٍ ... ولست ترد مكروباً دعاكا
وتبت إليك.. توبة من تراه ... غريقاً في الدموع.. ولا يراكا

وقد وردت هذه الأسماء كلّها(الوليّ المولى النصيرُ القريبُ المجيب) في القرآن الكريم:

---

(١) سورة النمل آية ٦٢.

(٢) عبد الرحمن آل سعدي، المرجع السابق، ص٦٦.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾(١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً﴾(٢).

﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾(٣).

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾(٤).

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(٧).

﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾(٨).

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾(٩).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾(١٠).

وآثار نصر الله عزّ وجلّ لأوليائه، وإجابته لدعائهم لا يحصيها العد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١١).

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

---

(١) سورة الجاثيه آية ١٦ . (٢) سورة النساء آية ٤٥ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٦ . (٤) سورة محمد آية ١١ .
(٥) سورة الحج آية ٧٨. (٦) سورة الفرقان آية ٣١ .
(٧) سورة البقرة آية ١٨٦ . (٨) سورة سبأ/ ٥٠ .
(٩) سورة هود/ ٦١ . (١٠) سورة الصافات/ ٧٥ .
(١١) سورة غافر/ ٥١ .

في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (١) .

قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٢) .

فنصرُ الله عزّ وجلّ لدينه ولعباده المؤمنين آتٍ لا محالةَ ، والتمكين للإسلام يتمّ بعز عزيز أو بذل ذليل .

يقول الإمامُ بن كثير رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿**كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز**﴾ أيْ : قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة (٣) .

وقد أورد أبو جعفر بن جرير الطبريٰ ـ رحمه الله ـ سؤالاً عند تفسير قوله تعالىٰ ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا**﴾ فقال : «قد علم أن بعض الأنبياء عليهم السلام قتله قومه كيحيىٰ وزكريا واشعياء ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلىٰ السماء كعيسىٰ ، فأين النصرة في الدنيا؟

ثم أجاب عن ذلك بجوابين ، أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض فإن هذا سائغ في اللغة ، والثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذوهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أم في غيبتهم ، أم بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيىٰ وزكريا واشعياء ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم .

---

(١) سورة النور/ ٥٥ .

(٢) سورة الصافات/ ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٣) ابن كثير ، مرجع سابق ، ص٣٣٩ .

وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، وأما الذين راموا صلب عيسىٰ (عليه السلام) من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم، وأظهرهم الله تعالىٰ عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحاكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله تعالىٰ في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذوهم. ففي صحيح البخارىٰ عن أبىٰ هريرة (رضىٰ الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: « **يقول الله تبارك وتعالى: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب**» وفي الحديث الآخر: « **إنى لأثار لأوليائى كما يثأر الليث الحرب**».

ولهذا أهلك الله (عزوجل) قوم نوحٍ وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقومَ لوطٍ وأهلَ مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذّب بالرسل وخالف الحق، وأنجىٰ الله تعالىٰ من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً. وعذّب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً. قال السدىٰ: لم يبعث الله (عزوجل) رسولاً قط إلىٰ قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلىٰ الحق يُقتلون، فيذهب ذلك القرن حتىٰ يبعث الله تبارك وتعالىٰ لهم من ينصرهم يطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها. وهكذا نصر الله نبيه محمداً (ﷺ) وأصحابه علىٰ من خالفه وناوأه وكذّبه وعاداه فجعل كلمته هىٰ العليا ودينه هو الظاهر علىٰ سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهرانىٰ قومه إلىٰ المدينة وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم فساقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم

بأخذ الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرم المشرف المعظم، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح به اليمن ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله (عزّ وجلّ)، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا..﴾ الآية. أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأجل وأكبر».

على أن نصر الله (عزّ وجلّ) لأوليائه قد يبطيء، وما ذاك إلا لِحِكَمٍ كثيرة قد تخفى على كثير من الناس فيضعف إيمانهم وتتزعزع إرادتهم لأنهم يستعجلون.

وقد ذكر سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الأمور التي قد يتأخر نصر الله عزّ وجلّ بسببها فقال: والنصر قد يبطيء لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقتها، ولم تتحفز كلّ خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً.

وقد يبطيء النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً إلا وتبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله.

وقد يبطيء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر، إنما يتنزل النصر

من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلىٰ الله .

وقد يبطىء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتىٰ تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستقباله من أجل ذلك كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله قد يبطىء النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية ، وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفائه أسبابه ، وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه .

وقد يبطىء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهىٰ تعانىٰ وتتألم وتبذل ، ولا تجد لها سنداً إلا الله ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء . . وهذه الصلة هىٰ الضمانة الأولىٰ لاستقامتها علىٰ النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله . . فلا تطغىٰ ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به .

وقد يبطىء النصر لأنّ الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهىٰ تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفىٰ سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرىٰ التىٰ تلابسه . . وقد سئل رسول الله (ﷺ) عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أىٰ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله(ﷺ) : «**من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**»[١] .

كما قد يبطىء النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية

(١) متفق عليه (البخارىٰ ١/ ١٩٧ ، ٦/ ٢١ , ٢١/٦ , ٢٢) ومسلم (١٩٠٤)،(١٥٠).

من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحص خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تلتبس به ذرة من خير تذهب في الغمار.

وقد يبطىء النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفة للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى ينكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذى بقية (١).

وقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بالصبر عندما شكو له تأخر النصر. عن أبى عبد الله خباب بن الأرت (رضى الله عنه) قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤذى الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون(٢).

وقد أورد القرآن الكريم كثيراً من دعوات الأنبياء وأعقبها باستجابة الله (عزّ وجلّ) لهم. وإجابة هذه الدعوات أثر من آثار الولى المولى النصير القريب المجيب، وفيه لمسات تعليمية يقتدى بها المؤمنون عندما

---

(١) سيد قطب، مرجع سابق ص٢٤٢٦، ص٢٤٢٧.
(٢) رواه البخارى (٧/ ١٢٦) والنسائى وأبو داود.

يدعون ربهم القريب المجيب (١).

من أمثلة هذه الدعوات:

١ـ فآدم (عليه السلام) يحكى القرآن عنه أنه دعا قائلاً:

﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢).

فجاءت الإجابة:

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

ثم أكرمه الله (عزّ وجلّ) بالاصطفاء فقال (سبحانه): ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤).

ثم خصه بالاجتباء فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (٥).

---

(١) ينقسم الدعاء إلى نوعين: النوع الأول: دعاء العبادة وهو طلب الثواب بالأعمال الصالحة كالنطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما، والصلاة والصيام والزكاة والحج.. إلخ النوع الثاني: دعاء المسألة، وهو دعاء الطلب: أي طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، وهذا النوع من الدعاء إذا صدر من عبد لمثله من المخلوقين وهو قادر حي حاضر فليس بشرك.

كقولك: اسقني ماءً، أو يا فلان إعطني طعاماً. وفي الحديث من سأل با فأعطوه، ومن استعاذ با فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه.. إلخ». أما إذا صدر هذا النوع من الدعاء من مخلوق لمخلوق مثله ويطلب منه ما لا يقدر عليه إلا ا وحده فهو شرك سواء كان المدعو حياً أم ميتاً حاضراً أم غائباً كمن يقول: يا سيدي فلان اشف مرضي، رد غائبي، اعطني ولداً. وكل من استغاث بغير ا أو دعا غير ا دعاء عبادة أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا ا فهو مشرك. ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، ويراد بالدعاء في القرآن دعاء العبادة تارة، ودعاء المسألة تارة، ويراد به تارة مجموعهما. (انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص١٢٨).

(٢) سورة الأعراف/ ٢٣. (٣) سورة البقرة/ ٣٧.

(٤) سورة آل عمران/ ٣٣. (٥) سورة طه/ ١٢٢.

٢ - ونوح (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

٣ - وإبراهيم (عليه السلام)، قال الله تعالى عن دعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٢).

فاستجاب الله له في طلبه الأول: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ (٣).

واستجابه لدعوته: ﴿وألحقنى بالصالحين﴾ فقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤).

وفى دعوته: ﴿واجعل لى لسان صدق فى الآخرين﴾ قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥).

٤ - وأيوب (عليه السلام): قال تعالى عنه: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ (٦).

٥ - ويونس (عليه السلام): قال عنه الله عزّ وجلّ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(٧).

---

(١) سورة الصافات/ ٧٥ - ٧٦.
(٢) سورة الشعراء/ ٨٢.
(٣) سورة النساء/ ٥٤.
(٤) سورة العنكبوت/ ٢٧.
(٥) سورة الصافات/ ١٠٨ - ١١١.
(٦) سورة الأنبياء/ ٨٣ - ٨٤.
(٧) سورة الأنبياء/ ٨٧ - ٨٨.

٦ ـ وزكريا (عليه السلام): قال الله تعالى عنه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٢).

٧ ـ وموسى (عليه السلام): قال الله تعالى عن دعائه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (٣).

وقال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤).

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٥).

٨ ـ ومحمد (ﷺ) وأصحابه، قال تعالى عنهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ

(١) سورة آل عمران/ ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) سورة الأنبياء/ ٨٩ ـ ٩٠.
(٣) سورة طه/ ٢٥ ـ ٣٦.
(٤) سورة القصص/ ١٦.
(٥) سورة يونس/ ٨٨, ٨٩.

وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

وقال تعالىٰ عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٢).

وقد دعا رسول الله ﷺ بأدعية كثيرة، وشوهدت إجاباتها كفلق الصبح. ومن هذه الدعوات:

١ ـ دعاؤه ﷺ لأنس بن مالك رضي الله عنه قال ﷺ: **اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له فيما أعطيته** (٣)، **(وأطل حياته، واغفر له)** (٤).

قال أنس: فو الله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون نحو المائة اليوم (٥). وحدثتني ابنتي أمينة أنه دفن لصلبي مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة (٦). وطالت حياتي حتى استحييت من الناس وأرجو المغفرة (٧).

وكان له رضي الله عنه بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين، وكان فيها ريحان يجيء منها ريح المسك (٨).

٢ ـ دعاؤه ﷺ لأم أبي هريرة فأسلمت فوراً، قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي. قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي فدعوتها

---

(١) سورة الأنفال/ ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة آل عمران/ ١٧٣ ـ ١٧٤. (٣) رواه البخاري ومسلم ٤/ ١٩٢٨.
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم/ ٦٥٣ وصححه الألباني.
(٥) رواه مسلم/ ٤/ ١٩٢٩. (٦) رواه البخاري مع الفتح ٤/ ٢٢٨.
(٧) رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني.
(٨) رواه الترمذي، وصححه الألباني انظر صحيح الترمذي، ٣/ ٢٣٤.

اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادعوا الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله : «**اللهم اهد أم أبي هريرة**» فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف [1] فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً، قال: قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبّب إليهم المؤمنين فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني**» [2].

٣ ـ دعاؤه ﷺ لعروة بن أبي الجعد البارقي، فقد أعطاه النبي ﷺ ديناراً يشتري له به شاة فاشترى له به شاتين فباع إحداهما بدينار، فجاء بدينار وشاة، فدعا له النبي(ﷺ) بالبركة في بيعه، وكان لو اشترى التراب لربح فيه [3].

٤ ـ دعاؤه ﷺ على بعض أعدائه فلم تتخلف الإجابة، ومن ذلك أن المشركين آذوه في مكة وأمر أبو جهل بعض القوم أن يضع سلا الجذور بين كتفي النبي ﷺ وهو ساجد ففعل ذلك عقبة بن أبي معيط فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ثم

---

(١) أي مغلق.
(٢) رواه مسلم/ ٤/ ١٩٣٩.
(٣) البخاري مع الفتح ٦/ ٦٣٢.

قال: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط» قال ابن مسعود: فو الذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر(١).

ودعا ﷺ عليهم يوم الأحزاب، فقال ﷺ: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»(٢).

وأرسل الله على الأحزاب جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأته، ولا طنباً إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف(٣).

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** ﴾(٤).

وقد دعا ﷺ يوم حنين على المشركين، عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله (عزّ وجلّ)، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين»(٥).

---

(١) رواه مسلم ٣/ ١٤١٨.
(٢) البخاري مع الفتح ٧/ ٤٠٦.
(٣) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، جـ٣، ص٢٧٤.
(٤) سورة الأحزاب آية ٩ - ١١.
(٥) رواه مسلم ٣/ ١٤٠٢.

والدعاء من أقوىٰ الأسباب في دفع المكروه، ونيل المطلوب، وهو من أنفع الأدوية، وعدو للبلاء، يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وللدعاء مع البلاء ثلاثة مقامات:

١ ـ أن يكون الدعاء أقوىٰ من البلاء فيدفعه.

٢ ـ أن يكون أضعف من البلاء فيقوىٰ عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً.

٣ ـ أن يتقاوما ويمنع كلّ واحد منهما صاحبه (١).

وقد كثرت الأحاديث النبوية التي تحث علىٰ الدعاء وتحض عليه.

عن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال «**الدعاءُ هو العبادة**» ثم قرأ ﴿**وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين**﴾ (٢).

وعن ثوبان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله: «**لا يرد القدرَ إلا الدعاءُ ولا يزيد في العمرِ إلا البِرّ وإنْ الرجَل ليحَرم الرزقَ بالذنب يذنبه**»(٣).

وعن سلمان (رضىٰ الله عنه): أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البِرّ**» (٤).

---

(١) ابن القيم الجوزيه، الجواب الكافىٰ، ص٢٢ ـ ٢٤.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذىٰ وقال عنه: حديث حسن صحيح، والنسائىٰ، وابن ماجه، وابن حبان فىٰ صحيحه. وانظر صحيح الترمذىٰ ١/١٣٨.

(٣) أخرجه بن حبان فىٰ صحيحه، والحاكم فىٰ المستدرك، وقال: هذا حديث حسن صحيح الإسناد، ووافقه الذهبىٰ.

(٤) رواه الترمذىٰ، وقال: حديث حسن غريب، وحسّنه الألبانىٰ فىٰ سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٥٤.

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ **«من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئاً يعنى أحب إليه من أن يسأل العافية وإنّ الدعاءَ ينفعُ مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد لله بالدعاء»**[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله: **«من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسدّ فاقته ومن نزلت به فاقة فأنزلهاَ بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل»** [(٢)].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وهناك شروط لابد من توافرها ليتحقق المطلوب ويستجاب الدعاء، لأنّ الأدعيةَ والتعوذاتِ ـ كما يقول ابن القيم ـ بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعداً قوياً، والمانع مفقوداً، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير.

فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه، أو كان ثمّ مانع من الإجابة، لم يحصل التأثير [(٢)].

ومن أهم شروط قبول الدّعاء ما يأتى [(٣)].

الشرط الأول: الإخلاص: وهو تصفية الدّعاء والعمل من كل شائبة، فلا يرجو إلا الله، ولا يطمع إلا فيما عنده.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ

---

(١) رواه الترمذى، وقال: حديث غريب، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) ابن القيم، المرجع السابق، ص٣٦.

(٤) سعيد القحطانى، شروط الدعاء وموانع الإجابة فى ضوء الكتاب والسنة، ص٢٤ ـ ٤٤ بتصرف.

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢) .

وفى الحديث عن عبد الله بن عباس(رضى الله عنهما) قال : كنت خلف النبى ﷺ فقال : « **يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ... إلخ** » (٣) .

الشرط الثاني: المتابعة ، وهي شرط في جميع العبادات ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٤) .

والعمل الصالح هو ما كان موافقاً لشرع الله تعالى ويراد به وجه الله (سبحانه) فلابد أن يكون الدعاء والعمل خالصاً لله صوابا على شريعة رسول الله ﷺ . وكما قال الفضيل بن عياض : إنّ العملَ إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتي يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكونَ لله ، والصواب أن يكون على السنة (٥) .

الشرط الثالث: الثقة بالله تعالى واليقين بالإجابة : وهذا شرط من أعظم الشروط لأنّ الله (عزّ وجلّ) على كل شىء قدير ، ويقول للشىء كن فيكون . وجميع خزائن الخيرات والبركات ، ومقاليد كلّ الأمور بيده سبحانه .

---

(١) سورة الأعراف/ ٢٩ . (٢) سورة غافر/ ١٤ .

(٣) أخرجه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح . ورواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى ٢/ ٣٠٩ .

(٤) سورة الكهف/ ١١٠ .

(٥) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين جـ٢ ، ص٨٩ .

وفي الحديث القدسي الذي رواه الرسول (ﷺ) عن ربّه تبارك وتعالى: «... **يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كلّ إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**» (١).

فالمسلم عندما يدعو عليه أن يوقن بالإجابة، ويثق في أنّ الله (عزّ وجلّ) قريب مجيب. وفي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**» (٢).

وقريب من هذا الشرط العزم والجد والجزم في الدعاء، ولهذا نهى رسولُ الله ﷺ عن الاستثناء في الدعاء.

عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء ولا يقل اللهمّ إن شئت فأعطنى فإنّ ا‹ لا مُستكره له**»(٣).

وفى رواية: « فإن الله لا مُكره له»

وفي حديث آخر عن أبي هريرة (رضى الله عنه) قال: قال النبي ﷺ: «**لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت، ولكن ليعزم المسألة وليُعظم الرغبة فإنّ ا‹ لا يتعاظمه شيء أعطاه**»(٤).

الشرط الرابع: حضور القلب والتضرع والخفية والرغبة والرهبة،

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٧٧).

(٢) رواه الترمذى وأحمد والحاكم، وحسنه الألبانى فى الأحاديث الصحيحة، برقم (٥٩٤).

(٣) رواه البخارى برقم (٦٣٣٨) ومسلم (٢٦٧٨).

(٤) رواه البخاري برقم ٦٣٣٩، ومسلم برقم (٢٦٧٩).

فالمسلم في دعائه لابد من حضور قلبه، وهذا من أعظم شروط قبول الدعاء. وفي الحديث عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»** (١).

والتضرعُ روُح الدعاء كما أنه روُح الذكر. وفى الذّكر الحكيم ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (٢) وفي آية أخرىٰ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (٣).

فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل والتمسكن والانكسار.

وإخفاء الدعاء له فوائد عديدة (٤):

١ ـ أنّه أعظم إيماناً لأنّ صاحبه يعلم أنّ الله يسمعُ دعاءه الخفي.

٢ ـ أنه أعظم في الأدب والتعظيم ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات.

٣ ـ أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذى هو روحُ الدّعاء ولبّه ومقصوده فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسئل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته فلسانه لشدة ضراعته وذله لا يكاد يطاوعه.

٤ ـ أنّه أبلغُ في الإخلاص.

٥ ـ أنّه أبلغُ في جمعية القلب على الله في الدّعاء فإنّ رفعَ الصوتِ

---

(١) رواه الترمذي وأحمد، والحديث حسنه الألبانى فى الأحاديث الصحيحة برقم ٥٩٤.
(٢) سورة الأعراف/ ٢٠٥.
(٣) سورة الأعراف/ ٥٥.
(٤) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، جـ٣، ص٦ : ص٩.

يفرقه ويشتته فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده.

٦ ـ أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسئلة أقرب شيء إليه فيسأله مناجاة القريب للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد ولهذا أثنى الله عزّ وجلّ على عبده زكريا بقوله **﴿إذ نادى ربه نداءً خفيا﴾**، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر: « **اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١).

٧ ـ أنه ادعى إلى دوام الطلب والسؤال فإنّ اللسانَ لا يملُ والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه.

٨ ـ إنّ إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات لأنه لا يدري به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره.

٩ ـ إنّ الإقبال على الله عزّ وجلّ والتضرع إليه من أعظم النعم، ولكلّ نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة فإخفاء هذه النعمة أسلم لها من الحاسدين.

والرغبة فيما عند الله من الثواب، والرهبة مما عنده من العقاب من شروط قبول الدعاء أيضاً. فقد أثنى الله تعالى على زكريا وأهل بيته فقال: **﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا**

---

(١) متفق عليه (البخاري برقم ٤٢٠٥ ومسلم برقم ٢٧٠٤).

رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (١) .

أما موانع إجابة الدعاء فهى كالتالى :

المانع الأول: التوسّع في أكل الحرام.

ففي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : «**إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين** فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢) وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (٣) **ثم ذكر الرجلَ يطيلُ السفر أشعث أغبر يمد يديه إلي السماء:يارب! يارب! ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذى بالحرام فأنى يستجابُ لذلك**» (٤) .

ففي هذا الحديث نجد الرجل قد أتى بأربعة أسباب من أسباب إجابة الدعاء وهي :

١ـ إطالة السفر .

٢ ـ حصول التبذل في اللباس والهيئة ، وهذا من أسباب قبول الدعاء لقول رسول الله ﷺ : « **كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره**» (٥) .

٣ ـ يمد يديه إلى السماء ، وهذا أيضاً من أسباب قبول الدعاء ففي الحديث قال رسول الله ﷺ «**إنّ الله حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين**» (٦) .

---

(١) سورة الأنبياء/ ٨٩ـ ٩٠ .   (٢) سورة المؤمنون/ ٥١ .
(٣) سورة البقرة/ ١٧٢ .   (٤) رواه مسلم برقم (١٠١٥) .
(٥) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الترمذي ٣/ ٢٣٩ .
(٦) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٧٩ .

٤ ـ الإلحاحُ على الله بتكرير ذكر ربوبيته وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء.

ومع ذلك كله قال ﷺ: «**فأنى يستجاب لذلك**» وهذا استفهام وقع على سبيل التعجب والاستبعاد(١). فأكل الحرام يمنع إجابة الدعاء حتى مع توافر شروط أخرى لإجابته كما تبين من الحديث السابق.

المانع الثاني: الاستعجال: وهو من الموانع التي تمنع إجابة الدّعاء، ففي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسولَ الله ﷺ قال «**يُستَجابُ لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي**»(٢).

فالعبد لا يستعجل في عدم إجابة الدّعاء، لأنّ الله قد يؤخر الإجابة لأسباب: إما لعدم القيام بالشروط، أو الوقوع في الموانع، أو لأسباب أخرى تكون في صالح العبد وهو لا يدري، فعلى العبد إذا لم يستجب له أن يراجع نفسه ويتوب إلى الله (عزّ وجلّ) من جميع المعاصي، ويبشر بالخير العاجل والآجل، والله تعالى يقول:

﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٣). فما دام العبدُ يُلِحُ في الدّعاء ويطمعُ في الإجابة من غير قطع فهو قريب من الإجابة، ومن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له»(٤).

وقد تؤخر الإجابة لمدة طويلة كما أخّرَ سبحانه وتعالى إجابة يعقوب في ردّ ابنه يوسف إليه، وهو نبي كريم، وكما أخّرَ إجابة نبيه أيوب

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، جـ١، ص٢٦٩ ـ ص٢٧٥.

(٢) متفق عليه (البخاري برقم/ ٦٣٤٠، ومسلم برقم ٢٧٣٥).

(٣) سورة الأعراف/ ٥٦.

(٤) ابن رجب، المرجع السابق، جـ٢، ص٤٠٤.

(عليه السلام) في كشف الضر عنه، وقد يعطي السائل ـ بتأخير الإجابة ـ خيراً مما سأل، وقد يصرف عنه من الشر أفضل مما سأل [١]. والله يعلم والناس لا يعلمون.

المانع الثالث: ترك الواجبات وارتكاب المحرمات: فإذا كان فعل الطاعات سبباً من أسباب إجابة الدعاء فكذلك ترك الواجبات يكون مانعاً من موانع استجابة الدعاء، ففي الحديث عن حذيفة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**» [٢].

كما أنّ ارتكاب المحرمات يعتبر مانعاً من إجابة الدّعاء، ولهذا قال بعض السلف: لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طريقها بالمعاصي، ولذلك يقول بعض الشعراء:

نحن ندعو الإله في كلّ كرب ... ثم ننساه عند كشف الكروب

كيف نرجو إجابة لدعاء ... قد سددنا طريقها بالذنوب

ومن المعاصي والمحرمات أيضاً الدعاء بإثم أو قطيعة رحم. ففي الحديث عن أبي سعيد (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: «**ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم: إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يُعجّلَ له دعوته، وإما أن يَدّخرها له في الآخرة، وإما أن يَصْرِف عنه من السوء مثلها «قالوا: إذاً نكثر. قال: «الله أكثر**» [٣].

المانعُ الرابعِ: الحكمةُ الربانية: فقد يؤخر الله إجابة دعاء عبده بل لا

---

(١) انظر مجموع فتاوى العلامة ابن باز جـ١، ص٢٦١، جمع الطيار.
(٢) رواه الترمذي وحسنه، وهو في صحيح الجامع برقم ٦٩٤٧.
(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٤٠، ١٨١.

يستجيب له ولا يعطيه ما يرجوه لحكمة يعلمها الله (عزّوجلّ)، كما تبين من الحديث السابق وأنّ الله عزّ وجلّ قد يصرف عنه من المصائب والأمراض أفضل مما سأل، أو يدخر له الدعوة إلى يوم القيامة فيعطيه خيراً كثيراً في الآخرة.

وهناك آداب للدعاء ينبغي أن يراعيها المؤمن عندما يسأل القريب المجيب.

ومن هذه الآداب:

١ـ أن يبدأ بحمد ا، ويصلي على النبي ﷺ ويختم بذلك. عن فضالة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**عجل هذا**» **ثم دعاه فقال له ولغيره:** «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثّناء عليه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يدعو بعد بما شاء**» (١).

وقد ذكر ابنُ القيمِ (رحمه الله) أنْ للصلاةِ على النبي (ﷺ) عند الدعاء ثلاث مراتب (٢).

المرتبةُ الأولى: أن يصلّي عليه ﷺ قبلَ الدعاءِ وبعدَ حمدِ الله تعالى.

المرتبةُ الثانية: أن يصلي عليه ﷺ في أوّل الدّعاء وفي أوسطه وفي آخره.

المرتبة الثالثة: أن يصلي عليه ﷺ «في أوله وآخره ويجعل حاجته متوسطة بينهما.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني: صحيح الترمذي برقم ٢٧٦٧.

(٢) ابن القيم الجوزيه، جلاء الأفهام، ص٣٧٥.

٢- الدعاءُ في الرخاء كما يدعو في الشدة: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسولُ الله ﷺ: « **من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر في الدعاء في الرخاء**»[١].

فمن أحب أن يستجيب الله له عند الشدائد والكربات فليكثرْ من الدعاء في حال الرخاء والصحة والعافية. قال الله تعالى عن يونس (عليه السلام) حين نجاه ﴿ **فلولا أنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[٢].

٣ ـ التوسلُ إلى الله (عزّ وجلّ) بأنواع التوسل المشروعة:

وأنواع التوسل المشروعة ثلاثة: النوع الأول، التوسل باسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته، كأن يقول الداعي اللهمّ إني أسألك يا شافي أن تشفيني، أو أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء أن ترحمني وتغفر لي. قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾[٣].

والنّوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي، كأن يقول المسلم، اللهمّ بإيماني بك، أو محبتي لك، أو اتباعي لرسولك أن ترحمني وتغفر لي.

أو يقول اللهمّ إني أسألك بمحبتي لمحمد (ﷺ) وإيماني به واتباعي لسنته أن تفرج عني.

---

(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسّنه الألباني في صحيح الترمذي وهو في الأحاديث الصحيحة برقم ٥٩٣.

(٢) سورة الصافات / ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣) سورة الأعراف/ ١٨٠.

ومن ذلك أن يذكر الداعي عملاً صالحاً ذا بال، عمله خالصاً لله عزّ وجلّ ثم يتوسل به. كقصة أصحاب الغار الذين توسل كلّ منهم بعمل صالح فاستجاب الله لهم.

ويدل على مشروعية هذا النوع من التوسل قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [(١)].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[(٢)].

النّوعُ الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الحي الحاضر: كأن يقع المسلم في ضيق أو كرب، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تبارك وتعالى، فيجب أن يأخذ بسبب قوي إلى الله تعالى، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة فيطلب منه أن يدعو له ربه، ليفرج عنه كربه، ومن ذلك سؤال أبي هريرة (رضي الله عنه) للنبي أن يدعو لأمه بالهداية إلى الإسلام - كما سبق - فدعا له (ﷺ) فهداها الله تعالى. ومن ذلك أنّ عمر (رضي الله عنه) كان يطلب من العباس عم النبي (ﷺ) أن يدعو لهم الله (عزّ وجلّ) أن يغيثهم فيغيثهم (سبحانه وتعالى)[(٣)].

ومن ذلك قول النبي (ﷺ) لعمر (رضي الله عنه): « **يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برّ، لو أقسم على الله لأبرّه. فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل** »[(٤)].

---

(١) سورة آل عمران / ١٦.

(٢) سورة آل عمران/ ٥٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب الاستغفار.

(٤) رواه مسلم برقم (٢٥٤٢).

٤ ـ الدعاء ثلاثاً مع استقبال القبلة ورفع الأيدى مع الإلحاح فى الدّعاء فقد كان رسول الله (ﷺ) يدعو ثلاثاً . ويستقبل القبلة .

عن عبد الله بن زيد قال : خرج النبي (ﷺ) إلى المصلى يستسقي فدعا واستسقى، ثم استقبل القبلة وقلب رداءه (١) .

وقال أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه): دعا النبي (ﷺ) ثم رفع يديه، ورأيت بياض إبطيه (٢) .

أما الإلحاح في الدّعاء فهو المواظبة عليه ولزومه، فالعبد يكثر من الدّعاء، ويكرره، ويُلِحُ على الله بتكرير ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته. فالإلحاح على الله عزّ وجلّ بتكرير ذكر ربوبيته وألوهيته من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء .

٥ ـ إظهار الافتقار في الدّعاء والبكاء من خشية الله تعالى : قال تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٣) .

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي (ﷺ) تلا قولَ الله (عزّ وجلّ) في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (٤) وقول عيسى : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥) . فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى وبكى» فقال الله عزّ وجلّ يا جبريلُ اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فسأله، فأخبره رسولُ الله (ﷺ) بما قال، وهو أعلم فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات برقم ٦٣٤٣ .
(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات برقم ٦٣٤١ .
(٣) سورة الأنبياء / ٨٣ .
(٤) سورة إبراهيم / ٣٦
(٥) سورة المائدة / ١١٨

أمتك ولا نسوءك»(١).

٦ ـ لا يدعو علىٰ أهله، أو ماله، أو ولده، أو نفسه: عن جابر (رضىٰ الله عنه) في الرّجلِ الذىٰ لعن بعيره، فقال رسول الله (ﷺ): **«من هذا اللاعن بعيره؟» قال: أنا يا رسول الله! قال: «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعو على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعو على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة، يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»** (٢).

بقىٰ أن يعرف المؤمن أن هناك أوقاتاً مخصوصة، وأماكن مخصوصة، ودعوات مخصوصة، إذا وفق العبد إليها استجاب الله له.

أولاً: الأوقات المخصوصة:

من هذه الأوقات ما يتعلق بمواسم معينة كليلة القدر، وشهر رمضان، ويوم عرفة، ومنها ما يتعلق بساعات معينة في الليل والنهار كجوف الليل الآخر، وساعة من ساعات يوم الجمعة. ومنها ما يتعلق بالصلاة وعند النداء للصلاة، وبين الآذان والإقامة، وعند إقامة الصلاة وعند قراءة الفاتحة في الصلاة بالتدبر، وفي السجود، وبعد الصلاة علىٰ النبي فىٰ التشهد الأخير. ومنها ما يتعلق بأحداث معينة كعند زحف الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند شرب ماء زمزم، وبعد وفاة الميت، وفي مجالس الذكر.

والأدلة علىٰ ذلك في النصوص التالية:

١ ـ ليلة القدر: قال تعالىٰ: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾** (٣).

---

(١) رواه مسلم فىٰ كتاب الإيمان باب دعاء النبي ﷺ لأمته.

(٢) رواه مسلم برقم (٣٠٠٩). (٣) سورة القدر.

٢ ـ **في رمضان:** عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): « **إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين**» وفي رواية:« **فتحت أبواب الرحمة**»(١).

٣ ـ **يوم عرفة:** عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي (ﷺ) قال: « خيرُ الدّعاءِ دعاءُ يومِ عرفة، وخيرُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شئ قدير» (٢).

٤ ـ **ثلثُ الليلِ الآخر:** عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسولَ الله (ﷺ) قال: « **ينزل ربّنا تبارك وتعالى كلّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا، حين يبقى ثلث الليلِ الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفرَ له**» (٣).

٥ ـ **ساعةُ يوم الجمعة:** وعنه أيضاً قال إنّ رسولَ الله (ﷺ) ذكر يوم الجمعة فقال: « **فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ، وهو قائمٌ يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه**» (٤). وعن جابر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: « **يوم الجمعة اثنا عشر ساعة، فيها ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر**» (٥).

وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: قال عبدُ الله بنُ عمرَ: أسمعت أباك يحدّث عن رسول الله (ﷺ) في ساعة الجمعة؟ قال:

---

(١) متفق عليه، والرواية الثانية لمسلم ٢/ ٧٥٨.
(٢) أخرجه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٨٤ .
(٣) متفق عليه (البخاري برقم ١١٤٥ ومسلم برقم ٧٥٨).
(٤) متفق عليه (البخاري برقم ٩٣٥ ومسلم برقم ٨٥٢).
(٥) رواه أبو داود والنسائي وإسناده (جيد) وصححه الحاكم ١/ ٢٧٩) ووافقه الذهبي.

قلت: نعم سمعته يقول: سمعت رسولَ الله (ﷺ) يقول « **هي ما بين أن يجلسَ الإمامُ إلى أن تقضىَ الصلاةُ**» (١).

وقد رجّحَ ابنُ القيمِ (رحمه الله تعالى) وغيرهُ من أهلِ العلمِ أنّ الساعةَ في يوم الجمعةِ هي بعدَ العصرِ، وهو قولُ أحمدَ، وجمهور الصحابةِ والتابعين.

قال ابنُ القيم: « وعندي أنّ ساعةَ الصلاة ساعةٌ ترجي فيها الإجابةُ أيضاً، فكلاهما ساعة إجابة، وإن كانت الساعةُ المخصوصةُ هي آخر ساعةٍ بعدَ العصرِ، لأنّ لاجتماع المسلمين وصلاتهم وتضرّعهم وابتهالهم إلى الله تعالى تأثيراً في الإجابة.

وعلى هذا تتفق الأحاديثُ، ويكونُ النبيّ (ﷺ) قد حضَ أمته على الدعاءِ والابتهالِ إلى الله تعالى في هاتين الساعتين (٢).

بقي إشكالٌ يسيرٌ، وهو أنّ النبيّ (ﷺ) قال: « لا يصادفها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلي» وتلك الساعة - آخرُ ساعة بعدَ العصرِ - لا يصلي فيها؟ وقد ردّ على ذلك الصحابي عبدُ الله بنُ سلام قائلاً: إنّ رسول الله (ﷺ) قال: « **من جلس مجلساً ينتظر الصلاة، فهو في صلاةٍ حتى يصلي**»(٣).

وفي الصلاة وردت النصوص والأدلة التالية:

١ - عند النداء: عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: « **ثنتان لا تردان، أو قلما تردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس**

(١) رواه مسلم برقم ٨٥٣.
(٢) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، جـ١ ص٣٩٤.
(٣) المرجع السابق، ص٣٩٢.

حين يلحم بعضهم بعضاً» (١) . وفي رواية : « ووقت المطر » .

٢ ـ بين الأذان والإقامة: عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : « **الدعاء لا يُرد بين الأذان والإقامة فادعوا»** (٢) .

٣ ـ عند إقامة الصلاة: عن سهلٍ بن سعد (رضي الله عنه)قال : قال رسول الله (ﷺ) : « **ساعتان لا تردُ على داعٍ دعوته: حين تُقام الصلاة، وفي الصف في سبيل الله»** (٣) .

٤ ـ عند قراءة الفاتحة بالتدبر: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : « **من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأمّ القرآنِ فهي خداجٌ. ثلاثاً «غير تامة»** فقيل لأبي هريرة : إنا نكونُ وراء الإمامِ . فقال : إقرأ بها في نفسك ، فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول :

قال الله تعالى: قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: الحمدُ لله ربّ العالمين، قال الله تعالى حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يومِ الدينِ، قال مجّدني عبدي،فإذا قال: إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» (٤) .

٥ ـ وفي السجود: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول

---

(١) رواه أبو داود ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٤٦٩ .

(٢) رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٨٥ .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٥٦ ، ورقم ٢٦٢ .

(٤)رواه مسلم ١/ ٢٩٦١ .

الله (ﷺ) : « **اقربُ ما يكونُ العبدُ من ربّه وهو ساجدٌ فأكثروا الدعاء**»[١] .

٦ ـ وبعدَ الصلاةِ على النبيّ (ﷺ) في التشهد الأخير: عن عبدِ الله بنِ مسعود (رضي الله عنه) قال : كنت أصلى والنبي (ﷺ) وأبو بكر وعمر معه، فلما جلست بدأت بالثناء على ا، ثم الصلاة على النبي (ﷺ) ، ثم دعوت لنفسى فقال النبي (ﷺ) : « **سَلْ تعطه سل تعطه**» [٢] .

قال ابنُ القيم (رحمه الله) : « وأما المواضع التى كان يدعو فيها في الصلاة، فسبعة مواطن :

أحدها: بعدَ تكبيرةِ الإحرامِ في محلّ الاستفتاح .

الثانى: قبلَ الركوعِ وبعدَ الفراغ من القراءة في الوتر .

الثالث: بعد الإعتدال من الركوع، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى : كان رسول الله (ﷺ) إذا رفع من الركوع قال «**سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهمّ طهرنى بالثلج والبرد، والماء البارد، اللهمّ طهرني من الذنوب والخطايا كما يُنقى الثوبُ الأبيضُ من الوسخ**» .

الرابع: في ركوعه كان يقول« سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لى[٣] .

---

(١) رواه مسلم ١/ ٣٥٠ .

(٢) أخرجه الترمذي، وقال : حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح الترمذى برقم ٢٧٦٥ .

(٣) رواه البخارى ومسلم (٤٨٤) .

الخامس: في سجوده، وكان فيه غالب دعائه.

السادس: بين السجدتين.

السابع: بعدَ التشهد وقبلَ السلام.

وأما الدّعاء بعد السلام من الصلاة مستقبل القبلة أو المأمومين فلم يكن ذلك من هديه (ﷺ) أصلاً، ولا روىٰ عنه بإسناد صحيح، ولا حسن [١].

وفيما يتعلق بالأحداث:

١ ـ عند زحف الصفوف أو تلاحمها في الجهاد، وعند نزول المطر سبق الحديث.

٢ ـ عند شرب ماء زمزم: عن جابر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «**ماء زمزم لما شرب له**» [٢].

٣ ـ عندَ دعاءِ النّاس بعد وفاة الميت: عن أم سلمه (رضي الله عنها) قالت دخل رسولَ الله (ﷺ) علىٰ أبي سلمة وقد شقّ بصره فأغمضه، ثم قال: « **إنّ الروحَ إذا قبض تبعه البصر» فضج ناس من أهله. فقال:« لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإنّ الملائكةَ يؤمنون على ما تقولون» ثم قال:« اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين وأخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين، وأفسح له في قبره ونور له فيه»** [٣].

٤ ـ في مجالس الذكر: عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، عن النبي

---

(١) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، جـ١، ص٢٥٧.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني وهو في الأحاديث الصحيحة برقم/ ٨٨٣.

(٣) رواه مسلم ٢/ ٤٢٠.

(ﷺ) قال: « إنّ لله ملائكةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم (عزّ وجلّ)-وهو أعلم منهم-

ما يقول عبادي لله قالوا: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك. . »الحديث فيقول: فأشهدكم إني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» (١).

أما الأماكن المخصوصة التي يقبل فيها الدّعاء، فداخل الكعبة أو داخل الحجر: ففي الحديث عن أسامة بن زيد أن النبي (ﷺ) لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها (٢).

وعن عائشة (رضي الله عنه) قالت: سألت رسول الله (ﷺ) عن الجدر أي (الحجر) أمن البيت هو؟ **قال:« نعم». قلت: فلم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة»** (٣).

وكذلك الدّعاء في عرفة يوم عرفة للحديث الذي سبق، «**خيرُ الدّعاءِ دعاءُ يوم عرفة، وخير ما قلت: أنا والنبيون من قبلي» لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شئ قدير»** (٤).

وهناك دعوات مستجابات يجب على المسلم أن يحرص عليهن لورود الأخبار بذلك. كدعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب. ففي الحديث

---

(١) متفق عليه(البخاري في كتاب الدعوات ومسلم في الذّكر والدعاء ٤/ ٢٠٦٩).
(٢) أخرجه مسلم برقم / ١٣٢٠.
(٣) متفق عليه (البخاري برقم / ١٥٨٤، ومسلم برقم / ١٣٣٣).
(٤) سبق تخريجه

عن أم الدرداء (رضي الله عنها) أنها قالت لصفوان: أتريد الحج العام؟ قال: فقلت: نعم، قالت: فادع الله لنا بخير فإنّ النبيّ (ﷺ) كان يقول: « **دعوةُ المرءِ لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل**» [١]. وكذلك دعوة الوالد لولده، ودعوة المسافر، ودعوة الصائم، ودعوة الإمام العادل، ودعوة المظلوم.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «**ثلاث دعوات يستجاب لهن ولاشك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر ،ودعوة الوالد لولده، وفي رواية: على ولده**» [٢].

وعنه (رضي الله عنه) قال: عن النبي (ﷺ) «**... ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الربّ عزّ وجلّ: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين** »[٣].

فليحذر المسلم من دعوة هؤلاء، ويطلب منهم الدعاء له لا عليه، فإنّ دعوتهم مستجابة.

ودعوة الولد الصالح مستجابة لحديث رسول الله (ﷺ) : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» [٤].

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٧٣٣.
(٢) رواه الترمذي وأبو داود، وابن ماجه وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٥٦.
(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢/ ٣١١.
(٤) رواه مسلم، رقم ١٦٣١.

ومن ذلك إخبار النبي (ﷺ) عن أفضل التابعين، وأنه لو أقسم على الله لأبره، والسبب أنّ له والدة هو بها برٌ. عن عمرَ بنِ الخطاب (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: « **يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هوبها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**»(١).

ومن ذلك أيضاً دعوة الحاج والمعتمر والغازي في سبيل ا، لحديث ابن عمر عن النبي (ﷺ) قال: « **الغازي في سبيل الله، والحاج، والمعتمر وفد الله دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم**» (٢).

ويستجاب الدعاء عندما يدعو المسلم بالاسم الأعظم: عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي (ﷺ) رجلاً يدعو وهو يقول: « **اللهمّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال فقال:« والذى نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»(٣).

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: كنت جالساً مع النبي (ﷺ) في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهمّ إني أسألك بأنّ لك الحمد. لا إله أنت المنان، بديع السموات والأرض. ياذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيوم، فقال النبي (ﷺ): «**لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعي به**

(١) رواه مسلم، رقم ٢٥٤٢.
(٢) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٨٢.
(٣) أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجة والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٦٣.

أجاب، وإذا سئل به أعطى» (١) . ومن أحبه الله (عزّ وجلّ) استجاب لدعائه، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسولُ الله (ﷺ): « إن الله تعالىٰ قال: من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدىٰ يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذىٰ يسمع به، وبصره الذىٰ يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشىٰ بها وإن سألنىٰ لأعطينه، ولئن استعاذنىٰ لأعيذنّه، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددىٰ عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » (٢) .

* * *

خيرُ الدّعاءِ

الخلق جميعاً مفتقرون إلىٰ الله (عزّ وجلّ) في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، قال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ (٣) .

والله (عزّ وجلّ) يحبُ أن يسأله العبادُ جميعَ مصالحهم، ففي الحديث عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسولُ الله (ﷺ): « **ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع**» (٤) .

بيد أن هناك أموراً عظيمة فيها سعادة الإنسان فىٰ الدنيا والآخرة، ولذا ينبغىٰ أن يسأل العبد ربّه هذه الأشياء، كالهداية والثبات والمغفرة والعفو والعافية والجنة والاستعاذة بالله من النار ومن درك الشقاء ومن شماتة الأعداء، وجهد البلاء.

---

(١) أخرجه النسائىٰ وأبو داود وأحمد والحاكم، وصححه ووافقه الذهبىٰ، وصححه الألباني في صحيح النسائي ١/ ٢٧٩ .

(٢) أخرجه البخارىٰ برقم / ٦٥٠٢ (باب التواضع).

(٣) سورة فاطر/ ١٥ .

(٤) أخرجه الترمذىٰ وحسنه برقم (٣٦٠٧) (٣٦٠٨) في الدعوات .

فقد كان النبيُ (ﷺ) يستفتح صلاته بالليل داعياً: «... **اهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

وأمر عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن يسأل الله الهدى والسداد: «اللهم إني أسألك الهدى والسداد»(٢).

وعلّم الحسن بن علي (رضي الله عنهما) أن يقول في قنوت الوتر: «اللهمّ اهدني فيمن هديت»(٣).

ومن خير من يسأل العبد ربّه الثبات على الهداية، فعن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: كان أكثر دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قالت: قلت: يا رسول الله مال أكثر دعائك «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»؟ قال: « **يا أمّ سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ**»(٤). ومن أهمّ ما يسأل العبد ربّه مغفرة الذنوب، عن عبد الله ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: إن كنا لنعد لرسول الله (ﷺ) في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «**ربّ اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم**»(٥).

وقال (ﷺ): « **من قال استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فرّ من الزحف**»(٦).

---

(١) رواه مسلم برقم ٧٧٠.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٧٢٥.

(٣) أخرجه أصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ١/ ١٤٤.

(٤) رواه الترمذي، وأحمد، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٧١.

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وصحيح ابن ماجة ٢/ ٣٢١.

(٦) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٨٢.

وخير ما يعطى العبد بعد اليقين العافية. عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله؟ قال: « سل الله العافية» فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: يا رسول الله علّمني شيئاً أسأله الله؟ فقال لي: « **يا عباس، يا عم رسول الله: سل الله العافية في الدنيا والآخرة**» (١).

وعن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أن النبي(ﷺ) قال على المنبر: «**سلوا الله العفو والعافية، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية**»(٢).

وكان رسولُ الله (ﷺ) يستعيذُ بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي(ﷺ) «**كان يتعوذُ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء** » (٣).

ومن أفضل ما يسأل ربّه للآخرة أن يدخله الجنة، وأن يجيره من النار.

عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال: رسول الله (ﷺ): « **من سأل الله الجنة ثلاثَ مرات قالت الجنة: اللهم ادخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاثَ مراتٍ قالتِ النارُ: اللهم أجره من النار**» (٤).

فالجنةّ أعلى المطالب لبقائها وخلودها. ولما فيها من نعيم مقيم بجوار الرحمن وفي رضوانه. وهناك أدعية جامعة شاملة لا ينبغي أن

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٧٠.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٨٠، وصحيح ابن ماجة (٣٨٤٩).

(٣) رواه مسلم برقم / ٢٧٠٧.

(٤) رواه الترمذي وابن ماجة، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢/ ٣١٩.

يحرم المسلم خيرها وفيوضاتها:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: كان رسول الله (ﷺ) يقول: **«اللهم أصلح لي ديني الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتى التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كلّ شر»** (١).

وعن بسر بن أرطأة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يدعو: **«اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة»**(٢).

ومن خير الدعاء دعوة ذى النون: عن سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) قال قال رسول الله (ﷺ): « **دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. لم يدعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيء قط إلا استجاب الله له** » (٣).

يقولُ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية معلقاً على هذا الحديث: لفظ الدعاء والدعوة فى القرآن الكريم يتناول معنيين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة. . . وقد سمّاها رسولُ الله (ﷺ) فى الحديث السابق دعوة، لأنها تتضمن نوعى الدعاء. فقوله لا إله إلا أنت اعتراف بتوحيد الإلهية، وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعى الدعاء فإنّ الإله هو المستحق لأنّ يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة. وهو الله لا إله إلا هو. . وقوله: ﴿إني كنت من الظالمين﴾ اعتراف بالذنب. وهو يتضمن طلب المغفرة، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب، وتارة يسأل بصيغة الخبر، إما

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٧٢٠.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٨١ وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات.

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى، وحسنه ابن حجر، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى ٣/ ١٦٨.

بوصف حاله وإما بوصف حال المسؤول، وإما بوصف الحالين. كقول نوح (عليه السلام) رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين» ومن هذا الباب قول أيوب (عليه السلام) « إني مسني الضر وأنت أرحمُ الراحمين» . . وهذا من باب حسن الأدب في السؤال والدعاء . . فقوله (لا إله إلا أنت) فيه إثبات انفراده بالإلهية . والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته وحكمته ، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد ، وقوله(سبحانك) : يتضمن تعظيم الربّ وتنزيهه ، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب ، فهو يقول : أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب ، بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي ﴿إني كنت من الظالمين﴾ وهذا اعتراف بالذنب ، وهو استغفار [١] .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ [٢] .

« **اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**» [٣] .

« **اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**» [٤] .

« **اللهم إنى أسألك يا الله بأنّك الواحدُ الأحد، الصمدُ، الذي لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكن له كفواً أحد، أن تغفر لى ذنوبى، إنك أنت الغفور الرحيم**»[٥] .

« **اللهمّ أغفر لى، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني**» [٦] .

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، المجلد العاشر ، ص٢٣٧ ، ص٢٥٥ بتصرف .
(٢) سورة إبراهيم / ٤٠ . (٣) رواه مسلم ٤/ ٢٠٨٧ .
(٤) رواه مسلم ٤/ ٢٠٤٥ .
(٥) سبق تخريجه .
(٦) رواه مسلم ٤/ ٢٠٧٢ .

« اللهمّ إنك عفوٌ كريمُ تحبُ العفوَ فاعف عنى» (١).

« اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة» (٢).

« اللهمّ إني أسألك من الخير كلّه عاجله وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشّر كلّه عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم. اللهمّ إني أسألك من خير ما سألك عبدُك ونبيكَ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما عاذ منه عبُدك ونبُيك. اللهم إني أسألك الجنة، وما قرّب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأعوذُ بك من النار، وما قرّب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأسألك أن تجعل كل قضاءٍ قضيته لي خيراً » (٣).

« اللهمّ إني أسألُكَ بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت وحدك لا شريكَ لكَ. المنان يا بديعَ السموات والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار» (٤).

* * *

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٧٠.

(٢) انظر صحيح الترمذي ٣/ ١٧٠, ١٨, ١٨٥.

(٣) رواه ابن ماجه وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٧٧.

(٤) سبق تخريجه.

الحاسب الحسيب الوكيل

٩٤ ٩٥ ٩٦

الحسيب في اللغة على أوجه ثلاثة، الحسيب: المحاسب على الشيء، الموافق عليه. فالله (عزّ وجلّ) حسيب عباده أي محاسبهم على أعمالهم، ومجازيهم عليها والحسيب: الكفي، يقال: «هذا حسيب فلان» أي كفيه، ويقال: «حسبك كذا» أى يكفيك، ومنه قوله (عزّ وجلّ): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١). أي يكفيك الله ومن اتبعك من المؤمنين. والحسيب في غير هذا: الرجل: الشريف الكريم الذي يعد لنفسه آباء كراماً، ومآثر حسنة كأنه من الحساب (٢).

فاللهُ (عزّ وجلّ) هو الحاسب الحسيب الذى يحاسب خلقه يوم لقائه، على أعمالهم فيثيب الطائعين، ويعاقب العاصين والمجرمين. قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣).

وهو سبحانه وتعالى الحسيب الكافي لعباده، وهو الحسيب الذى عليه الاعتماد وليس في الوجود حسيب سواه. فهو الذي يكفي عباده بفضله، ويصرف الآفات بطوله، وإذا رفعت إليه الحوائج قضاها، وإذا حكم في قضية أبرمها وأمضاها.

وهو سبحانه الحسيب الذى انتهى إليه كلّ شرف فى الوجود له صفات الكمال والجلال والجمال. قال ابن القيم (رحمه الله):

وهو الحسيبُ حماية وكفاية ... والحسب كا في العبد كلّ أوانِ

---

(١) سورة الأنفال/ ٦٤.

(٢) الزجاجى، مرجع سابق، ص١٢٩.

(٣) سورة النساء/ ٦.

(فالحسيبُ) هو الكافي للعباد جميع ما أهمهم في أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضار. والحسيب بالمعنى الأخص هو الكافي لعبده المتقي المتوكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه. والحسيب أيضاً هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١). أي كافيك وكافي أتباعك فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهراً وباطناً وقيامه بعبودية الله تعالى (٢).

وقد ورد اسما الحاسب والحسيب في القرآن الكريم خمس مرات:

قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٣).

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤).

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٥).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٦).

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٧).

فهو سبحانه وتعالى الحسيب المحاسب الشاهد الرقيب الكافي الناصر المعين (٨).

والوكيل: فعيل من قولك وكّلت أمري إلى فلان وتوكل به أي

---

(١) سورة الأنفال/ ٦٤.
(٢) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص٧٨.
(٣) سورة الأنعام/ ٦٢.
(٤) سورة الأنبياء/ ٤٧.
(٥) سورة النساء/ ٦.
(٦) سورة النساء/ ٨٦.
(٧) سورة الأحزاب/ ٣٩.
(٨) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. جـ٣، ص٤٩٢.

جعلته يليه دونى وينظر فيه. فالله (عزّ وجلّ) وكيل عباده أي كافيهم أمورهم وأسبابهم (١).

فهو سبحانه وتعالى الوكيل أي الكفيل بأرزاق العباد، والقائم عليهم بمصالحهم.

وهو سبحانه الوكيل الذى يتولى بإحسانه أمور عباده المتقين، الذين يلجأون إليه ويعتمدون عليه، فيكفيهم ويغنيهم ويرضيهم.

والمتوكلونَ يكِلُون كلَّ أمورهِم إلى الوكيل سبحانه وتعالى، وهو سبحانه وتعالى يكفيهم ويدبر أمورهم ويحفظهم ويرعاهم وينصرهم ويسددهم. فهو القادر على كلّ شئ، ولا يعجزه شئ، وهو الحى القيوم الذى لا يموت.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ (٢).

وفرّق الراغبُ الأصفهاني بين الوكيل والكفيل فقال: وربما فُسّر الوكيل بالكفيل والوكيل أعمّ من الكفيل لأن كل كفيل وكيل وليس كل وكيل كفيلاً (٣).

وقد ورد اسم الوكيل فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة:

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٤).

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٥).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (٦).

---

(١) الزجاجى، مرجع سابق، ص١٣٦.

(٢) سورة الفرقان/ ٥٨.

(٣) الراغب الأصفهانى، مرجع سابق، ص ٥٣٢.

(٤) سورة آل عمران/ ١٧٣.

(٥) سورة هود/ ١٢.

(٦) سورة النساء/ ٨١.

﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ (١).

وآثار الحسيب الوكيل في الحياة والوجود لا تعد ولا تحصى. فهو سبحانه المتكفل بأرزاق مخلوقاته فهو الذي يرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار. وهو الذي ينصر عباده الطائعين ويؤيدهم ويحفظهم. فما على الأرض من رزق شامل لجميع الأحياء، وإعاشة كريمة لطيفة إنما هو أثر من آثار الحسيب الوكيل سبحانه وتعالى. فإخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة متتابعة متنوعة متوافقة مع مصالح وحاجة المقتاتين تدل دلالة قاطعة على عظم آثار الحسيب الوكيل (سبحانه وتعالى).

ثم إنّ هذه الأقوات تأتي مصحوبة بمنافع أخرى للأحياء من العصف، والخشب والورق والعسب وغيرها، وهذه تستخدم، كعلف للبهائم، وأدوات للبناء والترحال وأواني للاستخدام، ثم هذه الأقوات وتلك المنافع تساق في منظر بهيج يشوق الناظرين، فالثمار مثلاً مختلفة الأنواع والأشكال والمقادير والألوان والروائح والمنافع:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (٢).

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣).

فمن الذي سخر هذه الأشجار والنباتات الشمس والرياح وأنزل

---

(١) سورة المزمل/ ٩.
(٢) سورة النمل / ٦٠ .
(٣) سورة الرعد/ ٤ .

عليها المطر ودفع عنها الآفات؟

ثم تأمل البركة والنماء في الزرع حتى صارت الحبة تنبت سبعمائة حبة، ولو أنبتت الحبة حبة واحدة لماتت المخلوقات جوعاً. ولما وجدت القوت.

ويصحبنا ابنُ القيمِ (رحمه الله) في رحلة ممتعة مع النخلة وما أودعه الله (عزّ وجلّ) فيها من منافع. فهي شجرة أصلها ثابت في الأرض مستقر فيها، وثمرتها طيبة حلوة، ولباسها دائم وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاءً. وثمرتها من أنفع ثمار العالم فإنه تؤكل رطبة فاكهة، وحلاوة يابسة، يكون قوتاً وأدماً وفاكهة، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى. ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به فوق كلّ الثمار، وهي سهلة التناول فقصيرها لا يحوج المتناول أن يرقاها، وباسقها سهل الصعود لما هيئت من مراقي ودرج. . وهي كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة فثمرتها منفعة، وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك. وسعفها تسقف به البيوت، مكان القصب، ويستر به الفرج والخلل، وخواصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها، وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس [1].

فأساسيات حياة المخلوقات تكفل بها الحسيب الكفيل وفي سورة الواقعة إشارة واضحة إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ

---

(١) ابن القيم الجوزيه، مفتاح دار السعادة جـ١، ص٢٨٨: ص٢٩٠ (بتصرف).

﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

فالآيات السابقة تضمنت أساسيات الحياة من غذاء وهواء وكساء يأتي من الزرع وماء ينزل من السحاب، ونار توقد من الأشجار، فمن الذي تكفل بكلّ هذه الأساسيات؟

وفي الحديث الصحيح، قال رسول الله (ﷺ) فيما يرويه عن ربّ العزة (سبحانه وتعالى): «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم. يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم» (٢).

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣).

فما من دابة تدب فى الأرض تكمن فى باطنها أو تتخفى فى دروبها ومساربها إلا ويعلمها الله (عزّ وجلّ)، وعليه رزقها، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن، من أين تجيء وأين تذهب.. فكل هذا الحشد الهائل من المخلوقات التي تدب في الأرض لا متكفل برزقه إلا الله (عزّ وجلّ).

قال سيد قطب (رحمه الله):

---

(١) سورة الواقعة/ ٦٣: ٧٤.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) سورة هود/ ٦.

وقد أوجب الله سبحانه على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض . فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً . وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صوره . شاذجاً خامه ، أو منتجاً بالزرع ، أو مصنوعاً أو مركباً إلى آخر هذه الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده حتى إن بعضها ليتناول رزقه دماً حياً مهضوماً ممثلاً كالبعوض والبرغوث » [1] .

فلكل مخلوق رزق مذخور ومقدر في هذا الكون ، فمن الذي تكفل بأرزاق هذه المخلوقات ، وجعل فيها الكفاية لهم؟

وما توكل أحدُ على الله (عزّ وجّل) إلا حفظه وكفاه وأعانه وقوّاه ، لأنه (سبحانه وتعالى) لا يعجزه شيء ، وهو على كل شيء قدير .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [2] .

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم (ﷺ) حين ألقي في النار ، وقالها محمد (ﷺ) حين قالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » [3] .

فإبراهيم (عليه السلام) جابه قومه بالتوحيد : ﴿ **قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [4] .

---

(١) سيد قطب ، مرجع سابق ، ص١٨٥٦ .
(٢) سورة الطلاق/ ٣ .
(٣) رواه البخاري ٨/ ١٧٢ .
(٤) سورة الأنبياء/ ٦٦ , ٦٧ .

فأخذتهم العزة بالإثم حين فقدوا الحجة فلجأوا إلى القوة الغاشمة والعذاب الشديد﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١). فإلى من يلجأ إبراهيم (عليه السلام) ليس له إلا خالقه ورازقه ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ فجاءت الكلمة العليا فأبطلت كل كلمة، وأحبطت كلّ كيد : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٢).

وبعد غزوة أحد والمسلمون مثخنون بجراحاتهم ترامت إلى أسماعهم مقالة أن أبا سفيان وقريشًا قد جمعوا جموعهم ليكروا على المسلمين كرة أخرى وهم في شدتهم والمسلمون في ضعفهم بعد هزيمة أحد فدعا الرسول (ﷺ) المسلمين إلى الخروج معه مرة أخرى فاستجابوا لله والرسول غير مبالين بمقالة الناس لأنهم متوكلون على الله وحده. فهم لا يعرفون غيره وكيلاً ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٣).

حسبنا الله أي كافينا وحافظنا وهو نعم الوكيل الذي توكل إليه الأمور، لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فهو الذي ينصرنا على عدونا مع قلتنا وكثرتهم فجاءت النتيجة المتوقعة الواقعة وهي سنة من سنن الله (عزّ وجلّ) لا تتخلف ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ جاءت النتيجة : ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٤). لقد أصابوا النجاة ـ لم يمسهم سوء ـ ونالوا رضوان الله، وعادوا بالفضل العظيم من الحسيب الوكيل.

---

(١) سورة الأنبياء/ ٦٨.

(٢) سورة الأنبياء / ٦٩ , ٧٠.

(٣) سورة آل عمران / ١٧٣.

(٤) سورة آل عمران / ١٧٤.

عن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: « **ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما** » (١).

قال تعالى: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (٢).

لقد هدّئ الرسولُ (ﷺ) روعَ أبي بكر بكلمة ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ معنا بنصره وعونه وتأييده. فكانت النتيجة نزول السكينة، وتأييده بجنود لم يرها الناس، والهزيمة والذل والصغار للكفار ﴿**وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ**﴾ وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية ﴿**وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا**﴾.

ويعقوب (عليه السلام) لم يجد بداً من إرسال ابنه (شقيق يوسف) مع إخوته وأخذ عليهم الموثق فلما آتوه موثقهم جعل الله وكيلاً على كلامهم: ﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ (٣). فجمع الله عز وجل بينه وبين ابنيه يوسف وأخيه ﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ**

---

(١) رواه البخاري (١٠) ومسلم (٢٣٨١).

(٢) سورة التوبة / ٤٠.

(٣) سورة يوسف/ ٦٦.

السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(١) .

فالتوكل على الله (عزّ وجلّ) نصف الدين، والنصف الآخر «الإنابة» فإنّ الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة . . ومنزلته من أوسع المنازل وأجمعها، وهي معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، وإنّ تباين متعلق توكلهم. فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد عدوه، وفي محابه وتنقيذ أوامره. ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس. ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية، أونصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك، ودون ذلك من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش. فإنّ أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم وتوكلهم عليه. بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات. ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم . . ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله فإن كان محبوباً كانت عاقبته إلى خير وإن كان مبغوضاً كان وبال ذلك عليه (١) .

والتوكل اعتماد على الوكيل (سبحانه)، وهو تسليم وتفويض إليه، فالعبد يفوض ربّه في أموره ومصالحه مع قيامه بعبوديته. وقد أمر الله عزّ وجلّ رسوله به ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾(٣) .

---

(١) سورة يوسف/ ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، جـ٢، ص١١٢، ص١١٤ .

(٣) سورة المزمل/ ٩ .

ونفى سبحانه وتعالى الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكل له لا إيمان له قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٢).

وكان رسول الله (ﷺ) متوكلاً على ربه أعظم التوكل، ومن أسمائه (ﷺ) المتوكل. وقد قال الله له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾(٣).

قال ابن القيم رحمه الله: «وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعة في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسول الله ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ (٤). فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل، فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كلّه (٥).

ومن ثمرات التوكل الحق دخول الجنة بغير حساب، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير

---

(١) سورة المائدة/ ٢٣.
(٢) سورة إبراهيم / ١٣.
(٣) سورة النمل / ٧٩.
(٤) سورة إبراهيم/ ١٢.
(٥) ابن قيم الجوزيه، مدارج السالكين، جـ٢، ص١٢٧.

حساب ولا عذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله (ﷺ)، وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله (ﷺ) فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه فقال: «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم ثم قام رجل آخر، فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «سبقك بها عكاشة»[1].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «**يدخل الجنةَ أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»[2]. قيل معناه: المتوكلون أصحاب القلوب الرقيقة.

وقد علّمنا رسولُ الله (ﷺ) أن نتوكل على الله في كلِّ أمورنا في الحركة والسكون وفي جميع الأمور: عن أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) أن النبي (ﷺ) كان إذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل عليّ»[3].

وعن أبي عمارة البراء بن عازب (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت**

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وقد أورده البخاري في (١٠/ ١٣٠)، ومسلم برقم (٢٢٠).
(٢) أخرجه مسلم برقم ٢٨٤.
(٣) رواه أبو داود برقم (٥٠٩٤) والترمذي برقم (٣٤٢٣) وقال: حديث حسن صحيح.

نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، فإنّك إن مت من ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً » (١).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) كان يقول: **«اللهمّ لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهمّ إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»**(٢).

والتوكل الحق له أسس وقواعد لابد من توافرها حتى يؤتي ثماره ومن هذه الأسس(٣):

أولاً: معرفة الرّب الوكيل معرفة صحيحة: صفاته، قدرته، كفايته، وقيوميته، انتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة في مقام التوكل.

ثانياً: إثبات الأسباب والمسببات. فنفي الأسباب يقدح في التوكل، بل لا يستقيم معه توكل. لأنّ التوكلَ من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به. فمن ترك الأسباب فالبهائم أفقه منه لأنها تسعى في السبب بالهداية العامة من الله لها. فمن أنكر الأسباب لم يستقم له توكل. وقد كان رسول الله ﷺ أعظمَ المتوكلين ويأخذ بالأسباب فقد استأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدله على طريق الهجرة وقد هدى الله به العالمين

---

(١) رواه البخاري ١/ ٩٣، ومسلم برقم (٢٧١٠).
(٢) رواه البخاري (١٠١)، ومسلم برقم (٢٧١٧).
(٣) ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص١١٧: ص١٢٣ بتصرف.

وعصمه من الناس أجمعين. وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه. فالمتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الإجتهاد.

ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلىٰ الأسباب، وقطع علاقة القلب بها.

فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها فالقلوب تتوكل والجوارح تعمل.

ثالثاً: تجريد التوحيد: فلا يستقيم توكل العبد حتىٰ يصلح له توحيده، بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول، وعلىٰ قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متىٰ التفت إلىٰ غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله علىٰ الله بقدر ذهاب تلك الشعبة.

رابعاً: اعتماد القلب علىٰ الله، واستناده إليه، وسكونه إليه، واستسلامه بين يديه: بحيث لا يبقىٰ فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها. بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلىٰ مسببها. لأن اعتماده علىٰ الله وسكونه إليه قد حصنه من خوفها ورجائها، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به فرأىٰ حصناً مفتوحاً فأدخله ربّه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنىٰ له. وقد قيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلىٰ ربّه. ويستسلم القلب للرب كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له.

خامساً: حسن الظن بالله (عزّ وجلّ): فعلى قدر حسن ظنك بربك، ورجائك له، يكون توكلك عليه. ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. وحسن الظن هو الذي يدعوك إلى التوكل عليه إذ لا يتصور أن تتوكل على من ساء ظنك به، أو انقطع رجاؤك فيه.

سادساً: التفويض والرضى: والتفويض هو روح التوكل ولبّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره، كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها. فهو يعلم كمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته. ثم ينتقل من التفويض إلى الرضى، وهو ثمرة التوكل فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله..

وفى دعاء الإستخارة «اللهم إنى أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم «فهذا توكل وتفويض. ثم «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب»فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحبّ ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم يسأل ربّه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، أو آجلاً، وأن يصرف عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً، أو آجلاً. فهذا هو حاجته التي سألها. فلم يبقَ عليه إلا الرضى بما يقضيه له فيقول «واقدر لى الخير حيث كان ثم رضّنى به»

فقد اشتمل هذا الدعاء على توكل وتفويض قبل وقوع المقدور، ورضى بعده وهو ثمرة التوكل فإن لم يرض بما قضى له فتفويضه معلول فاسد.

والله (عزّ وجلّ) حسيبٌ سيحاسبُ الخلائق في يوم القيامة . فلابدّ أن يحاسبَ المسلمُ نفسه قبل أن يحسابه ربه . قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١) . فقوله تعالى ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ هو أمر بالمحاسبة للنفس على ما قدمت لغدها المنتظر . وروى عن عمر (رضي الله عنه) قوله : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا(٢) .

فينظر المسلم في أعماله كلّ يوم ويحاسب نفسه في هذه الأعمال ، هل أدى الفرائض كاملة؟ أم منقوصة؟ وماذا يجب عليه ليسد خللها؟ أي المعاصي ارتكبها؟

هل استغفر منها أم لا؟ هل أدى عمله بإتقان أم أهمل في أداء واجبه؟ وماذا يجب عليه لرأب الصدع وسد الخلل فيه؟ هل أعان على فعل الخيرات أم كان عضداً لارتكاب المنكرات؟ كم ربح اليوم من عمل صالح بيض صحيفته أمام الله (عزّ وجلّ) به؟

وكم خسر من الأعمال؟ ثم يتوب ويستغفر الله (عزّ وجلّ)على تفريطه وقد كان رسولنا ﷺ يحاسب نفسه ويستغفر الله عز وجل إذا فتر عن ذكر(الله عزّ وجلّ) .

عن الأغر المزنى (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : «**إنه ليغان على قلبى، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة**» (٣) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (ﷺ)

---

(١) سورة الحشر ١٨ .

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٥٧٧ موقوفًا على عمر .

(٣) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائى ، والمقصود بالغين الفتور عن الذكر أحياناً .

يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(١).

ومن كلام الصالحين: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كلّ وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره، فلا تعده في ديوان الصالحين»(٢).

وكان عمر (رضي الله عنه) يضرب قدميه بالدّرة إذا جنّه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟ وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل(٣).

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ وماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

عن معاذ بن عون الضرير قال: كنت أكون قريباً من الجبان فكان يمر بي رياح القيسي بعد المغرب إذا خلت الطريق فكنت أسمعه وهو يتشنج بالبكاء ويقول: إلى كم يا ليل يا نهار تحطان من أجلي وأنا غافل عما يراد بي؟ إنا لله إنا لله فهو كذلك حتى يغيب عني وجهه.

وعن علي بن الحسين بن أبي مريم قال: قال رياح القيسي: لي نيف وأربعون ذنباً قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة.

وعن مالك بن ضيغم قال: جاء رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا هو نائم. فقال: أنومٌ في هذه الساعة؟ أهذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً فقلنا: قل له ألا نوقظه لك؟ قال: فأبطأ

---

(١) رواه البخاري والنسائي والترمذي.

(٢) أبو الفرج بن الجوزي، مرجع سابق، ج٤، ص١٢.

(٣) رواه الترمذي في كتاب القيامة من قول ميمون بن مهران.

علينا الرسول . ثم جاء وقد غربت الشمس فقلنا : أبطأت جداً . فهل قلت له؟ قال : هو كان أشغل من أن يفهم عنى شيئاً ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : قلت : نوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليك؟ينام الرجل متى شاء . وقلت : هذا وقت نوم؟ وما يدريك أن هذا ليس بوقت نوم؟ تسألين عما لا يعنيك وتتكلمين بما لا يعنيك ، أما إن لله علي عهداً لا أنقضه أبداً ألا أوسدك التراب لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لذهاب عقل زائل ، سوءةً لك سوءةً لك ، أما تستحين؟ كم تُوبخين وعن غيك لا تنتهين؟ قال وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته (١) .

وقال أحدُ الصالحين لو أن الإنسان إذا وقع في الحرام وقصر في الطاعات ، رمى بكل وقيعة وتقصير حجراً في داره لامتلأت في وقت قصير ، ليرى كم هو متمادي في الخطأ والتقصير ، والإنسان لم يخلق عبثاً ولن يترك سدى وإنما هو حساب وثواب وعقاب ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٢) .

فهناك حفظة يدونون مثقال الذر ، ويعدون صحائف الحساب التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة :

قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٣) .

فالسعيدُ من حاسبَ نفسهَ قبلَ أن يحاسبه الحسيبُ ، والشقىُ من

---

(١) أبو الفرج بن الجوزى ، مرجع سابق ، جـ٤ ، ص٣٦٧ ، ص٣٦٨ .
(٢) سورة الزلزلة/ ٧ ,٨ .
(٣) سورة الكهف/ ٤٩ .

تعامى عن أخطائه وزلاته وهام في الحياة دون رقيب .

«اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت»

اللهم إني أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون» (١) .

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢) .

«اللهم حاسبني حساباً يسيراً » (٣) .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٢٧١٧) .

(٢) سورة التوبة/ ١٢٩ .

(٣) رواه أحمد ٦/٤٨ والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ١/ ٢٥٥ .

الهادي المبين

٩٧ ٩٨

الله عزّ وجلّ هو الهادي يهدي ويرشد عباده إليه ويدلهم عليه وعلى سبيل الخير والأعمال المقربة إليه (١).

فهو سبحانه وتعالى الذي يهدي ويرشد خلقه إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويوفق الصالحين ويسددهم، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم إليه منيبة، ولأوامره منقادة. فهو الهادي (سبحانه) الهادي الذي يهدي القلوب إلى معرفته، ويهدي النفوس إلى طاعته. والهداية دلالة بلطف، وهي أربعة أنواع:

الهداية الأولى: هداية عامة تشترك فيها المخلوقات، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٢). أي أعطى كلّ شيءٍ صورته التي لا يشتبه فيها بغيره وأعطى كلّ عضو شكله وهيأته، وأعطى كلّ موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال.

ومن أمثلة هذه الهداية: هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره. وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها.

وكذلك كل عضو له هداية تليق به فهدى الرجلين للمشي واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص١٨٧.
(٢) سورة طه/ ٥٠.

المرئيات وكلّ عضو لما خلق له. وهدىٰ الزوجين من كلّ حيوان إلىٰ الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدىٰ الولد التقام الثدىٰ وهدىٰ النحل إلىٰ أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية.. ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم وانتقل من معرفة هذه الهداية إلىٰ إثبات النبوة بأيسر نظر.. فإن من لم يهمل هذه الحيوانات ولم يتركها سدىٰ بل هداها هذه الهداية التي تعجر عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنسانىٰ الذي هو خلاصة الوجود الذي كرّمه وفضّله علىٰ كثير من خلقه مهملاً وسدىٰ لا يهديه إلىٰ أقصىٰ كمالاته وأفضل غاياته؟.

الهداية الثانية: هداية البيان والدلالة والتعريف بطريقىٰ الخير والشر، طريقىٰ النجاة والهلاك. وهذه الهداية لا تستلزم الهدىٰ التام فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا ينبغي الهدىٰ معها كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (١). أىٰ بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلمْ يهتدوا. ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢)، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(٣).

الهداية الثالثة: هداية التوفيق والإلهام، وهىٰ الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٤).

---

(١) سورة فصلت/ ١٧.

(٢) سورة الشورىٰ/ ٥٢.

(٣) سورة السجدة/ ٢٤.

(٤) سورة النحل/ ٩٣.

وفي قوله ﴿إن تحرص علىٰ هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾ (١). وفي قوله ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (٢)، ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ (٣)، ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ (٤)، ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾(٥).

الهداية الرابعة: الهداية إلىٰ الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما: قال تعالىٰ: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ (٦). وقال أهل الجنة فيها: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾(٧).

وقال تعالىٰ عن أهل النار: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون (٢٢) من دون الله فاهدوهم إلىٰ صراط الجحيم﴾ (٨) (٩).

وكل هداية أثبتها الله عز وجل للنبي ﷺ والبشر فمقصود بها النوع الثاني الخاص بهداية البيان والدلالة. وكل هداية نفاها الله (عز وجل) عن النبي (ﷺ) فهي تدخل تحت الأنواع الثلاثة الأخرىٰ الخاصة بالهداية العامة، وهداية التوفيق والإلهام، والهداية في الدار الآخرة. إذ لا يقدر أحد علىٰ هذه الأنواع إلا الله (عز وجل).

وقد ورد اسم الهادي مرتين في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلىٰ صراط مستقيم﴾ (١٠).

﴿وكفىٰ بربك هاديًا ونصيرًا﴾ (١١).

---

(١) سورة النحل/ ٣٧. (٢) سورة القصص/ ٥٦.
(٣) سورة محمد/ ١٧. (٤) سورة التغابن/ ١١
(٥) سورة العنكبوت/ ٦٩. (٦) سورة يونس/ ٩.
(٧) سورة الأعراف/ ٤٣. (٨) سورة الصافات / ٢٣.
(٩) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، جـ٢، ص٣٥: ص٣٩.
(١٠) سورة الحج/ ٥٤.
(١١) سورة الفرقان/ ٣١.

أما المبين فهو اسم فاعل من أبان يبين فهو مبين إذا أظهر وبين إما قولاً وإما فعلاً فالله سبحانه وتعالى المبين لعباده سبيل الرشاد، والموضح لهم الأعمال الموجبة لثوابه والأعمال الموجبة لعقابه، والمبين لهم ما يأتونه وما يذرونه (١).

فالبيان هو الكشف عن الشيء، والبينة هي الدلالة الواضحة عقلية كانت أم محسوسة. فالله عزّ وجلّ بين لعباده طرق الهداية، وحذّرهم من طرق الغواية.

وأرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب ليبين لهم.

قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢).

وقد ورد اسم المبين مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٣).

وهداية الله عزّ وجلّ العامة واضحة ظاهرة في الكون والحياة، فهو سبحانه وتعالى الهادي الذي أعطى كل شيء خلقه ثمّ هدى.

فمن الذي يهدي الخلية الآتية من الأب (الحيوان المنوي) لتقطع طريقاً يبلغ طوله مائة ألف ضعف طولها تلتقي بخلية الأم (البويضة) وهي تعبر في طريقها نظاماً معقداً مؤلفاً من قنوات عديدة ملتف بعضها

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص١٨١.
(٢) سورة المائدة/ ١٥، ١٦.
(٣) سورة النور/ ٢٥.

حول بعض كما أسلفنا، وهي لا تمشى مشياً، وإنما تعدوا عدواً نحو هذا الإلتقاء؟

ومن الذي سوى الجنين في بطن أمه فنمى أعضاءه الباطنة والظاهرة وجميع أجزائه في مكان لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدى، فيخرج بشراً سوياً مستوفياً لكل ما فيه مصلحته وقوامه، وأعضاؤه متكاملة موجهة نحو وظائفها، اليدان للأخذ والعطاء والدفع . . ، والرجلان للمشى وحمل البدن . . ، والعينان للرؤية . . والأنف للشم والتنفس . . واللسان للبيان وتحريك الطعام والذوق . . ، والأذنان للسمع . . ، والقلب لضخ الدم إلى جميع أجزاء الجسم . . ، والكليتان لتخليص الجسم من نفايا التمثيل الغذائى وامتصاص الماء وعناصر الجسم البناءة . . إلى آخر أعضاء الجسم المختلفة . فمن الذي سّوى هذه الأعضاء وهداها إلي وظائفها المختلفة؟

«فالجسم مجهزُ بجهاز للهضم تشمل وظيفته تهشيم المواد الغذائية الخشنة وإذابتها لتحويلها إلى مركبات كيماوية أولية مختلفة يمكن امتصاصها وإضافتها إلى الدم، ويشكل القلب بالاشتراك مع الأوعية الدموية جهاز النقل الرئيسي داخل الجسم فيوزع بدوره العناصر الغذائية الممتصة إلى أجزاء الجسم لإصلاح أنسجته القديمة، وإلباسها بأنسجة جديدة . . والعضلات الصدرية، والحجاب الحاجز قد شقّ بشكل يمكّنه من ضخ تيار من الهواء من الرئتين وإليهما، ويتكون هذان العضوان من مجامع من أكياس صغيرة تحاط كل منها بشبكة من الأوعية الدموية حتى يتسنى للأوكسجين عن طريقها أن ينتشر في الدم ويطرد ثاني أكسيد الكربون» [1] .

---

(١) مجموعة من المؤلفين، موسوعة معارف الإنسان عن العالم الحديث، ص٥١ .

فالإنسان يلتهم الطعام، والهادي (سبحانه) قد وجّه الأعضاءَ نحو وظائفها المقدرة ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١).

ويعرض كريس موريسون ألواناً من الهداية الربانية للحيوانات فيقول: «إنّ الطيور لها غريزة في العودة إلىٰ الوطن، فعصفور الهزار الذي عشش ببابك يهاجر جنوباً في الخريف ولكنه يعود إلىٰ عشه في الربيع التالي، وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيور أمريكا إلىٰ الجنوب وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار، ولكنها لا تضل طريقها، وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلة يحوم برهة ثم يقصد قدماً إلىٰ موطنه دون أن يضل، والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح في هبوبها علىٰ الأعشاب والأشجار.. وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده، فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل وهو يقدر أن يرىٰ ولو في غير وضوح، ولكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة في الطريق وجانبيه، بعينين تأثرتا قليلاً بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق.. ،والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافيء اللطيف وهو يجرىٰ علىٰ العشب البارد مهما تكن ظلمة الليل.. والعاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام في المشط الذي يستخدم في التربية، وتعد الحجرات الصغيرات للعمال، والأكبر منها للذكور، وتعد غرفة خاصة للملكات الحوامل، والنحلة الملكية تضع بيضاً غير مخصب في الخلايا المخصصة للذكور، وبيضاً مخصباً في الحجرات الصحيحة المعدّة للعاملات الإناث والملكات المنتظرات. والعاملات اللاتى هن إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلاً مجيء الجيل الجديد، تهيأن أيضاً لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل واللقح ومقدمات هضمه. ثم ينقطعن عن عملية

---

(١) سورة النمل/ ٨٨.

المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث، ولا يغذين سوىٰ العسل واللقح، والإناث اللاتي يعالجن علىٰ هذا الشكل يصبحن عاملات. أما الإناث اللاتي في حجرات الملكة، فإنّ التغذية بالمضغ ومقدمات الهضم تستمر بالنسبة لهنّ. وهؤلاء اللاتي يعاملن هذه المعاملة الخاصة يتطورن إلىٰ ملكات للنحل. وسمك السلمون الصغير يمضي سنوات في البحر، ثم يعود إلىٰ نهره الخاص به، والأكثر من ذلك أنه يصعد إلىٰ جانب النهر الذي يصب عنده النهر الذي ولد فيه، فما الذي يجعل السمك يرجع إلىٰ مكان مولده بهذا التحديد الدقيق؟ إن سمكة السلمون التي تصعد في النهر صعداً إذا انتقلت إلىٰ نهير آخر أدركت تواً أنه ليس جدولها، فهي لذلك تشق طريقها خلال النهر ثم تحيد ضد التيار قاصدة إلىٰ مصيرها.. وإذا حمل الريح فراشة أنثىٰ من خلال نافذة إلىٰ علية بيتك فهي لا تلبث حتىٰ ترسل إشارة خفية وقد يكون الذكر علىٰ مسافة بعيدة، ولكنه يتلقىٰ هذه الإشارة ويجاوبها مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلهما. ترىٰ هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة؟ وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلي. فضلاً عن السلك اللاقط للصوت (إيريال)؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقىٰ الاهتزاز؟ إنّ التلفون والراديو من العجائب الآلية، وهما يتيحان لنا الاتصال السريع، ولكنا مرتبطون في شأنهما بسلك ومكان، وعلىٰ ذلك لا تزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة»[١].
فمن الذي هدىٰ كل هذه المخلوقات؟

وتأتي ثعابين الماء من أنهار القارتين الأوربية والأمريكية لتضع بيوضها فوق الحشائش في بحر (سرجاسو). وبعد الوضع تقوم الأم بعملية حياكة الحشائش حولها. وبعد ذلك تموت، وبعد أن يفقس

---

(١) كريس موريسون «العلم يدعو إلى الإيمان» ص ١١٣ : ص١٢٣ (بتصرف).

البيض وتكبر ديدان ثعابين الماء تعود إلىٰ نفس الأنهار التي جاءت منها أمهاتها بالضبط. وتجتاز في طريقها المخاطر الكثيرة، والمشاق الجسام، إذ تقطع آلاف الأميال بعكس التيارات المائية القوية حتىٰ تصل إلىٰ أماكن عيشها بعد جهد مرير. أما سمك (حوت سليمان) فيقوم بعملية عكسية فهو يقطع أيضاً آلاف الأميال لكي يصل إلىٰ مصاب الأنهار، ثمّ يصعد فيها، ويصعد ضد التيار حتىٰ يصل بعد جهد جهيد إلىٰ منابع الأنهار، وهناك وعلىٰ رؤوس الينابيع بالذات يضع بيوضه. ثم تعود صغاره إلىٰ موطنها الأصلي. وقد أجريت تجارب مماثلة علىٰ سرطان البحر، بعد أن وضع عليها علامات، ونقلت إلىٰ مسافات تصل أحياناً إلىٰ أكثر من ثلاثة أميال وبعد فترة قصيرة وجدت في أماكنها التي نقلت منها.

فمن الذي هدىٰ هذه الأسماك الأمهات إلىٰ المجيء من آلاف الأميال لتضع بيوضها، ومن الذي هدىٰ ذريتها إلىٰ السفر الشاق الطويل لتصل إلىٰ حيث كانت تعيش الأمهات؟

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (١).

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (٢).

يقول (فانس باكار): «يوجد في أفريقيا الوسطىٰ طائر يسمىٰ الكشاف للعسل، يتعاون مع الحيوانات الأرضية للحصول علىٰ الطعام، فحيثما يعثر علىٰ خلية عسل في الغابة، فإنه يشق الفضاء مرسلاً صوتاً خشناً مميزاً يردد المقاطع «نيتيه.. نيتيه.. نيتيه» فترىٰ

(١) سورة طه/ ٥٠.
(٢) سورة الأعلىٰ / ١ ـ ٣.

جميع الحيوانات التي في البقعة التي يحوم فوقها تهرع نحو الخلية التي اكتشفها، وسرعان ما تلتهم العسل، ويكتفي هو بالبقية المتخلفة من الشمع.. وإنّ الطائر المسمى (النورس) له طريقة فنية عجيبة يستخدمها في فتح محارات حيوانات البحر التي تعيش على الشاطىء من نوع البطليموس ليتغذى بها، ومؤداها أنه يلتقط الحيوان المحارى، ويرتفع به عالياً في الجو ثم يلقي به على الصخور فتتحطم محارته، ويلتهم النورس جسم الحيوان الطرى من داخل المحارة!»

وتقول إريناكا روزينا: «يقوم الطائر الاسترالى باليلى أى (ميزان الحرارة) بعمل حفرة في الأرض، ويضع فيها الأوراق الرطبة، ويغطيها بالرمل، وفى الوقت الحار من السنة تتعفن الأوراق مما يؤدى إلى رفع درجة الحرارة في الحفرة، وتسخين الرمال، وبعد انتهاء الفترة الحارة، وانخفاض درجة حرارة الوسط المحيط تقوم الأنثى بوضع البيض على الرمال، وبلا هوادة يقوم الذكر بتقليل الأوراق عاملاً على رفع، أو خفض درجة حرارة عشّه المدهش ليحافظ بذلك على درجة حرارة ثابتة تقريباً.. وقد حاول العلماء الاستراليون تغيير درجة حرارة عش باليلي، وذلك باستبعاد الأوراق، أو على العكس بتسخين الرمال بوساطة الكهرباء، فلوحظ أن الذكر يقوم في الحال بمحاولة إرجاع درجة الحرارة إلى ما كانت عليه، وفي حالة فشله فإنه يهجر العش.

وهناك محاكمات للمجرمين في عالم الطير وتصل العقوبات إلى حد القتل وتخريب العش. بعد أن يدافع المجرم عن نفسه أمام القضاء. يذكر يعقوب صروف: أن (أدمند فسكى) كان راكباً جواده فسمع نعيباً شديداً ملأ الآفاق، فالتفت فإذا غدفان (الغربان في بلاد الإنجليز) كثيرة في حقل، فدنا منها، ووقف حيث يراها ولا تراه، وجعل يراقبها، فإذا هي منتظمة في حقلين حول غداف في الوسط، وكلها تصيح وتصفق

بأجنحتها شديداً كأنها تتميز غيظاً، وتهيج انتقاماً، والغداف في الوسط ينعق ويصفّق مثلها، ويقاومها ويخاصمها، والحرس تطير هنا وهناك. . وبعد هنيهة تغيرت أحوال الغداف الذي في الوسط بغتة فنكس رأسه وخفض جناحيه، وأقل من النعيب كأنه أقر بذنبه فجعل يطلب الصفح عنه، وحينئذ وثبت عليه غدفان من الحلقة الداخلية، ومزقته بمناقيرها تمزيقاً، ونعبت الغدفان نعيباً شديداً، وطار بعضها بعيداً وبعضها قريباً، وربما يرجع ذلك إلى أن الغداف مشهور بالسرقة والاختلاس، فتسطو صغاره على عشاش كباره، وتسرق ما فيها من دقائق الحطب، وتبني عشاشها بها تخفيفاً لمشقة جمعها، ولكنها لا تفعل ذلك إلا إذا كانت الكبار غائبة عن أعشاشها، فلا تراها، ثم متى عادت ووجدت أعشاشها مسروقة لا تزال تبحث عن السارق حتى تعرفه، فتشكو أمرها (ولا تنتقم لنفسها) إلى جماعة الغدفان، فتبعث ثمانية أو عشرة منها إلى عش السارق فتخربه ولا تبقي له أثراً.

ويذكر أيضاً أن بعض الصاعدين في جبال ألبا قال: كنت يوماً أصعد في جبل من جبال سويسرا فإذا بي أرى غراباً قد أحدق به ستون أو سبعون غراباً، وأكثرت من النعيق والتصفيق كأنها تتشاور في أمره، وكانت تصمت أحياناً، فيبتدىء هو بالنعيق والتصفيق كأنه يدافع عن نفسه دفاع المتهمين أمام المحاكمين، ولا يزال يفعل ذلك حتى تعود جماعة الغربان إلى الصياح والغوغاء، ويضيع صوته بين أصواتها فيصمت، واستمر على تلك الحالة مدة، وكأنها أثبتت التهمة عليه، فأعملت فيه مناقيرها، حتى قتلته ومزقته إرباً إرباً ثم طارت وتفرقت عن الأبصار!

ترى ما هي جريمة هذا الغراب؟ التي أوجبت قتله لابد أن تكون جريمة كبرى (خيانة عظمى، أو قتل طائر آخر، أو انتهاك عرضه!).

ولعلنا نفهم شيئاً من ذلك من القصة التالية التي يذكرها يعقوب صروف أيضاً فيقول: إن جراحاً فرنساوياً مقيماً في أزمير رغب في الحصول على لقلق (طائر) رغبة شديدة، فلم يحصل عليه واتفق أنه عثر على عش للقاليق فاختلس بيضها وأبدله ببيض الدجاج، ولما أفرخ البيض إذ الفراخ كلها دجاج لا لقالق، فغاب الذكر ثلاثة أيام (إنه ذهب ليشكو زوجته على تدنيسها فراشه) ثم عاد ومعه لقالق كثيرة، فنزلت وأحاطت بالأنثى، وجعلت تلقلق وتلغط شديداً ثم وثبت على الأنثى ومزقتها تمزيقاً وطارت!

وهكذا تسبب ذلك الجراح بفعلته تلك باتهام أنثى اللقلاق بالخيانة لزوجها بالزنا، وأقيم عليها الحد المقرر في شريعة اللقالق، وهو موافق لحد الزاني المحصن في الشريعة الإسلامية. ومما يؤكد هذا الحكم ما حدث أن لقلاقين بنيا عشهما في مدخنة بيت في جوار مدينة برلين، فطلع صاحب البيت يوماً ووجد فيه بيضة فأخذها ووضع بيضة أوز مكانها، ولم يشعرا بها، ثم أفرخت البيضة عن أوزة، فلما رآها الذكر طار وحلق فوق العش، وهو يلقلق شديداً (يعلن ثورته وغضبه على زوجته) ثم غاب عن الأبصار (ذهب ليشكوها) وبعد أيام سمع أصحاب البيت لغطاً شديداً في حقل بجانبهم فنظروا فإذا جماعة من اللقالق، قد اجتمعت معاً، وأخذت تلقلق شديداً حتى سدت أصواتها الفضاء، ثم صمتت، ووقف لقلاق على عشرين ذراعاً منها، وجعل يصوت كأنه يخاطبها، ثم عاد ووقف آخر مكانه ولقلق لرفاقه كالأول، وما زالت تفعل ذلك حتى قارب الزوال (وانتهت المرافعة لصالح الذكر) فطارت اللقالق كلها معاً طالبة العش، وأمامها الدليل الذكر، وكانت أنثاه ملازمة عشها، وهي خائفة خوفاً شديداً ولا تبدي حراكاً (من هول المحاكمة) فلما دنا منها الذكر دفعها دفعاً شديداً حتى أخرجها

من العش (فلا مكان لمن تدنس عشّ الزوجية في هذا العش) ثم انقضت اللقالق عليها، ومزقتها ومزقت فرخ الأوز معها (فلا يريدون أولاد سفاح) ثم طارت [١].

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [٢].

يقول(أرثر تومسون): «أخذ خبير نحلة ووضعها في جيبه داخل علبة، وانتقل بها إلى مسافة ميل، ثم أطلق سراجها، فدارت فوقه في الهواء عدة مرات، ثم اتجهت نحو خليتها، ويقول: إن سرباً من النحل نقل عن طريق رحلة بالباخرة

استغرقت ثلاثة أيام إلى بيئة جديدة، فانهمك بالبحث أولاً عن الطعام، وما أن مضى على وصوله سوى خمس وأربعين دقيقة، إلا ويممت مواضع خلاياها. . وقد قام أحد الباحثين بتجربة دقيقة، فنقل ثلاث عشرة نحلة ميزّها بعلامات لمسافة نصف ميل تقريباً خارج المدينة، ثم أطلق سراحها في الخلاء المكشوف، وقد عادت جميعها إلى خليتها، بل إنّ إحدى عشرة نحلة منها وصلت قبل الباحث نفسه [٣].

والنمل يقوم بفلق الحبوب قبل تخزينها حتى لا تنبت، ويفلق حبة الكزبرة إلى ثلاثة أقسام لأنها تنبت إذا فلقت إلى فلقتين فقط. أما الحبوب التي لا يستطيع فلقها، فإنه يعمد إلى نشرها في الشمس بصفة دورية منتظمة حتى لا يصيبها البلل أو الرطوبة فتنبت.

---

(١) انظر ابن خليفة عليوى، مرجع سابق، ص٢٧٥، ص٤٠١ : ٤٠٤، وانظر يعقوب صروف، فصول في التاريخ الطبيعي ص١٤٩.

(٢) سورة الأنعام/ ٣٨.

(٣) أرثر تومسون، مشكلات تحير العلم، ترجمة زكريا فهمي، ص١٣٩.

ومن العلماء المشاهير في شؤون النمل العالم (شنيرلا) فيقول: «إنّ النملة التي تجد الطعام لا تفعل سوىٰ نقل إحساسها بأن تندفع متبادلة اللمسات مع كل نملة أخرىٰ تصادفها، ولكن كيف يعرف النمل الموجود في العش طريقه إلىٰ الطعام؟

توصل بعض الباحثين إلىٰ معرفة سر ذلك إذ تبينوا أن أفراداً من فصائل النمل التي تكشف الطعام تفرز من غددها الشرجية مادة نفاذة الرائحة في صورة خيوط تمتد مباشرة من المكان الذي يوجد فيه الطعام حتىٰ العش، وإن الجموع من النمل تتبع تلك الآثار.

ومن التجارب الطريفة في هذا المجال ما قام به «ألن ديفو» فقد قام بتجربة مثيرة فقام بوضع طست غسيل علىٰ أرض المطبخ، وصبّ فيه الماء حتىٰ بلغ نصفه، ووضع في وسط الماء مصباحاً قديماً ووضع عليه فطيرة حلوة موضوعة في طبق عسل وانتظر كيف يصل النمل إلىٰ الطعام.. وبعد أسبوع وجد الطعام يعج بالنمل. فقد استطاع النمل أن يبنىٰ جسراً علىٰ الماء ليعبر عليه، وهذا الجسر بنىٰ من القش فقد استطاع أن يجمع قشاً ويلصق بعضه ببعض بواسطة مادة خاصة يفرزها، وأقام بذلك جسراً عظيماً يمتد من حافة الماء إلىٰ المصباح. بل إنّ هناك أعداداً من النمل اتجهت اتجاهاً آخر فكانت تسبح في حوائط المطبخ حتىٰ تصل إلىٰ السقف ثم تسير علىٰ السقف مقلوبة حتىٰ تقف فوق طبق الطعام تحديداً ثم تلقىٰ بنفسها علىٰ الطعام واحدة بعد أخرىٰ بدقة لا مثيل لها. إنها عملية إسقاط جوي يعجز عنها كثير من بني البشر [١].

فسبحان الذي خلق فسوىٰ والذىٰ قدر فهدىٰ!

والإنسان عندما يمسك بحبة من الفول أو الشعير يعجز عن فلقها

---

(١) انظر ابن خليفة عليوىٰ، مرجع سابق، ص٤٠٨.

بيده، فإذا ما وضعها في التربة وصبّ عليها الماء تنفلق ويخرج النبت منها. ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ (١). وبعد فلق الحبة يتجه الجذر إلى أسفل، وتنمو الساق إلى أعلى أي أن الجذر يتجه عكس الساق. وظن العلماء أن ذلك بفعل الجاذبية التي تجذب الجذر إلى أسفل، والشمس التي يتجه الساق إليها. بيد أن علماء الفضاء تمكنوا في رحلات الفضاء من إنبات بعض البذور في مناطق انعدام الجاذبية فوجدوا أنّ الجذر يتجه إلى أسفل والساق إلى أعلى!

ويلاحظ أنّ عناصر تغذية النبات واحدة، ولكننا نرى كل شجرة بل كل نبتة تأخذ من هذه العناصر ما يناسبها، فنرى الزرع في مكان واحد، ويسقى بماء واحد، ولكن كلّ ثمرة لها طعم وشكل ولون ورائحة وحجم تختلف عن غيرها، فهذه حلوة وتلك لاذعة، وهذه كبيرة وتلك صغيرة، وهذه حمراء اللون وتلك صفراء، وهذه لها رائحة نفاذه وتلك لا رائحة لها... ففي حفنات قليلة من التراب تكمن قدرة لاستنبات هذه النباتات التي تحمل ثماراً مختلفة النوع واللون والمذاق والرائحة، فهذه شجرة تفاح وبجوارها شجرة برتقال، وتجاورهما شجرة رمان، وبينهم زهرة القرنفل، ومن حولهم عيدان قصب السكر!

فمن الذي ألهم وهدى كلّ شجرة أن تأخذ ما يناسبها من الغذاء وتدع ما لا يناسبها!

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

---

(١) سورة الأنعام/ ٩٥.
(٢) سورة الرعد/ ٤.

أما الهداية الثانية فهي التي بعث الله (عزّ وجلّ) بها رسله وهي هداية البيان والدلالة والتعريف بطريقي الخير والشر.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا منْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (٢).

فهدىٰ الله (عزّ وجلّ) هو ما أنزله علىٰ رسله، وبعث به أنبياءه، فقد اقتضت رحمة الله (عزّ وجلّ) أنْ يرسل الرسل، وينزل معهم الكتب حتىٰ لا تضل البشرية ولا تشقىٰ، وأيدّ كلّ رسول بمعجزة من جنس ما نبغ فيه قومه. فقوم موسىٰ (عليه السلام) نبغوا في السحر فجاءت معجزته في هذا المضمار ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (٣).

ونبغ اليهود في زمن عيسىٰ (عليه السلام) في الطبّ فجاءت معجزته من جنس ما نبغوا فيه: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤).

---

(١) سورة البقرة / ٣٨. (٢) سورة طه/ ١٢٣ ـ ١٢٦.
(٣) سورة الأعراف/ ١١٧ : ١٢٢. (٤) سورة آل عمران/ ٤٩.

أما العرب فقد نبغوا في الفصاحة والبلاغة والبيان، فأرسل الله (عزّ وجلّ) محمداً (ﷺ) وجعل معجزته الكبرىٰ القرآن الكريم وتحدىٰ به العرب أن يأتوا بمثله. وقد أفسح لهم زمن التحدىٰ، حتىٰ بلغ ثلاثاً وعشرين سنة ثم هو ممتد إلىٰ قيام الساعة. وقد نزل معهم في التحدىٰ فتحداهم أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة مثله، ثم بسورة من مثله.

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (١).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (٢).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ (٣).

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (٤).

وجاء البيان القاطع: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٥).

فمن اتبع هدىٰ الله (عزّ وجلّ) سعدَ في الدنيا والآخرة. قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٦).

ويشرح ابن القيم (رحمه الله) هذه الحياة الطيبة قائلاً: « ولابد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمىٰ الحياة، حيث يظنونها التنعم في أنواع

(١) سورة الطور / ٣٤.
(٢) سورة هود / ١٣.
(٣) سورة يونس / ٣٨.
(٤) سورة البقرة/ ٢٣.
(٥) سورة الإسراء/ ٨٨.
(٦) سورة النحل/ ٩٧.

المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادىٰ عليه من مكان بعيد. ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلا عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضىٰ بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو منشرح الصدر يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتىٰ إنّ أحدهم ليتلقىٰ الرمح بصدره ويقول: فزت وربّ الكعبة، ويستطيل الآخر حياته حتىٰ يلقىٰ قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتىٰ آكلها، ثم يتقدم إلىٰ الموت فرحاً مسروراً. ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف. ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً. وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفىٰ عيش طيب»[1].

ومن أعرض عن هدىٰ الله (عزّ وجلّ) ولم يتبع الذكر الذي أنزله (سبحانه وتعالىٰ) هداية للناس ﴿**فإنَ له معيشة ضنكا**﴾ وقد فسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ﴿**ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ فذكر سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية عذاب البرزخ وعذاب الآخرة جزاء من أعرض عن هداية الله (عزّوجلّ) التي أرسل بها رسله.

والناس في استقبالهم لهذا الهدىٰ علىٰ ثلاثة أقسام[2].

---

(١) ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص٤٨.

(٢) ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص٣٧٦.

أحدهما : من عدم بصيرة الإيمان جملة ، فهو لا يرىٰ إلا الظلمات والرعد والبرق ، ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة والحياة الأبدية . فهذا القسم هو الذي لم يرفع بالدين رأساً ، ولم يقبل هدىٰ الله الذي هدىٰ به عباده ولو جاءته كل آية ، ففائدة إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه .

القسم الثاني: أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية ، الذين نسبة أبصارهم إلىٰ هذا النور كنسبة أبصار الخفاش إلىٰ جرم الشمس فهم تبع لآبائهم وأسلافهم ، دينهم دين العادة والمنشأ . وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علىٰ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أو منقاداً للحق لا بصيرة له في إصابة ، وهؤلاء أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلىٰ ركن وثيق .

القسم الثالث : وهم خلاصة الوجود ، ولباب بنىٰ آدم ، وهم أولو البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين ، فكانوا منه علىٰ بصيرة ويقين ، ومشاهدة لحسنه وكماله ، بحيث لو عرض علىٰ عقولهم ضده لرأوه كالليل البهم الأسود . وهم أولو الألباب الذين يخصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد وهم المرادون علىٰ الحقيقة بالتذكرة قال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (١) .

أما الهداية الثالثة فهي هداية التوفيق والإلهام وتكون لمن سلك مسلك الهدىٰ أو استقام في طريق الرشاد . قال تعالىٰ : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ (٢) .

﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الرعد/ ١٩ (٢) سورة محمد/ ١٧ .

(٣) سورة العنكبوت/ ٦٩ .

يقول ابن كثير (رحمه الله) في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها [١]. وفي قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي لنبصرنهم طرقنا في الدنيا والآخرة [٢].

فمن سلك طريق الرشاد أعانه الله (عزّ وجلّ) وثبته ووفقه وزاده من الخير والهدى. فالصحابي الجليل سلمان الفارسي (رضي الله عنه) يقصد الهدى ويبحث عنه ويظل يبحث عنه أياماً طوالاً متعرضاً للعبودية إلى أن وصل إلى رسول الله ﷺ في المدينة عبداً لأحد اليهود ودخل الإسلام وأعانه رسول الله ﷺ وأصحابه على العتق.

يقول أحد الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً (فيصل كيانن): لم يخطر ببالي يوماً أنني سأعتنق الإسلام بسبب الدعايات المغرضة، ولكن حدث شيء غريب فقد مرض أحد أصدقائي مرضاً شديداً وكان في حالة سيئة جداً فرق له قلبي وذهبت إلى غرفة مجاورة وجلست وحدي ودعوتُ الله عزّ وجلّ أن يشفي صاحبي، ودعوت دعاءً كثيراً وبكيت ومع كثرة البكاء والدعاء أحسست ساعتها أن قلبي منشرح لنور الإسلام، فأخذت أبحث عن الهداية في كل مكان ولا أدري أين أجدها، ومشيت على غير هدى. ومن وسط المدينة بدأت أسير في الطرقات أسأل عن مكتب توعية الجاليات . . فلم أجد من يدلني عليه من المارة ولكني وجدتني أسير إليه دون أن يدلني أحد عليه وأحسست عند دخولي الإسلام أني ولدت من جديد [٣].

---

(١) إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، جـ٤، ص١٧٧.
(٢) المرجع السابق، جـ٣، ص٤٢٢.
(٣) محمد ناصر الطويل، لا إكراه في الدين، ص٢٠٠.

والذين اهتدوا يزيدهم هدىً، ويوفقهم إلىٰ كثرة الطاعات؛ لينالوا أعلىٰ الدرجات.

فقد كان السلف الصالح يختمون القرآن الكريم كلّ يوم وليلة، ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم في كل ثلاث ختمة، ومنهم من كان يختم في كل شهر اشتغالاً بالتدبر أو بنشر العلم أو تعليمه أو بنوع من التعبد غير القراءة أو بغيره من اكتساب الدنيا [١].

وكان الأسود بن يزيد وهو من خيار التابعين يختم في رمضان في كل ليلتين، وكان ينام بين المغرب والعشاء، وكان يختم في غير رمضان في كل ست ليال. وقد حجّ ثمانين ما بين حج وعمرة [٢].

وكان الربيع بن خثيم الثورىٰ لا ينام فتقول له ابنته: يا أبتاه مالي أرىٰ الناس ينامون ولا تنام؟ قال: إنّ جهنم لا تدعنىٰ أنام. وبات ليلة يصلىٰ فمرّ بقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [٣]، فمكث ليلته حتىٰ أصبح ما يجاوز هذه الآية إلىٰ غيرها. وقد قال له عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): «لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك» [٤].

وكان صفوان بن سليم أعطىٰ لله عهداً لا يضع جنبه علىٰ فراش حتىٰ يلحق ربّه، فلما نزل به الموت قيل له: رحمك الله ألا تضطجع، قال: ما وفيت لله بالعهد إذاً. فاسند حتىٰ خرجت روحه. قال عنه أنس بن عياض رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غداً القيامة، ما كان عنده

---

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين، ص٤٥.
(٢) ابن الجوزىٰ، صفة الصفوة، جـ٣، ص٢٣.
(٣) سورة الجاثية/ ٢١.
(٤) ابن الجوزىٰ، المرجع السابق، ص٥٩، ص٦١.

مزيد على ما هو عليه من العبادة (١).

فهؤلاء جدوا واجتهدوا فيسر الله لهم الخير، ووفقهم إلى حسن طاعته. قال محمد بن المنكدر: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت (٢).

وهؤلاء يقذف الله عزّ وجلّ في قلوبهم نوراً وإلهاماً يفرقون به بين الحق والباطل قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (٣).

كان ميتاً بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم. وجعل له القرآن والإيمان نوراً يستضيء به في الناس على قصد السبيل، ويمشي به في الظلم (٤).

فهذه هي الهداية الثالثة وهي معونة من الله عزّ وجلّ وتوفيق وإلهام لمن سلك الطريق وآثر الحق على الباطل.

أما الهداية الرابعة: فتكون في الآخرة إلى الجنة حيث يهدي الله عباده المتقين إليها قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥).

يقول ابن كثير (رحمه الله) هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه

---

(١) أبو الفرج بن الجوزي، مرجع سابق، جـ٢، ص١٥٣.
(٢) المرجع السابق، ص١٤١.
(٣) سورة الأنعام / ١٢٢.
(٤) ابن القيم الجوزيه، مدراج السالكين، ج٢ ص ٤٨٦.
(٥) سورة يونس آية ٩-١٠.

سيهديهم بإيمانهم.

ويحتمل أن تكون الباء هنا سببية فتقديره أي بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله تعالى ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال يكون لهم نور يمشون به، وقال ابن جريج في الآية: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكلّ خير فيقول له من أنت؟ فيقول أنا عملك فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخل الجنة[1].

وتكون ـ أيضاً ـ هداية إلى النار، قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[2]. أي أرشدوهم إلى طريق جهنم[3]. ويعلق الراغب الأصفهاني على الآية السابقة قائلاً الهداية دلالة بلطف فلم استعملت﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[4] فيقول: استعمل ذلك على التهكم مبالغة في المعنى كقوله ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[5] وقول الشاعر: تحية بينهم ضرب وجيع[6].

والعبد يسأل ربّه دائماً الهداية هداية التعريف والبيان والتوفيق والإلهام ويسأله (عزّ وجلّ) أن يهديه طريق الجنة. ولكن كيف يسأل ربّه هداية التعريف والبيان وهي حاصلة له وكذلك التوفيق والإلهام؟

يجيب عن هذا السؤال ابن القيم(رحمه الله) فيقول: قد أجاب من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية، وقدأجاب وما أجاب وذكر

---

(١) إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٠٨.

(٢) سورة الصافات آية ٢٢، ٢٣.

(٣) إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، ص ٥٣٨.

(٤) سورة الحج، آية: ٤.

(٥) آل عمران، آية: ٢١.

(٦) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص٥٣٨.

فرعاً لا قوام له بدون أصله وثمرة لا وجود لها بدون حاملها . ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله فاعلم أنّ العبد لا يحصل له الهدىٰ التام المطلوب إلا بعد ستة أمور وهو محتاج إليها حاجة لا غني له عنها : الأمر الأول معرفته في جميع مايأتيه ويذره بكونه محبوباً للربّ تعالىٰ مرضياً له فيؤثره ، وكونه مبغوضا له مسخوطاً عليه فيجتنبه فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه .

الأمر الثاني: أن يكون مريداً لجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازماً عليه مريداً لترك جميع ما نهىٰ الله عنه عازما علىٰ تركه بعد خطوره بالبال . . فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقصٍ من الهدي التام بحسب ما نقص من إرادته .

الأمر الثالث: أن يكون قائما به فعلاً وتركاً فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه .

فهذه ثلاثة أصول هىٰ أصول الهداية ويتبعها ثلاثة هىٰ من تمامها وكمالها :

أحدهما: أمور هدىٰ إليها جملة ولم يهتدِ إلىٰ تفاصيلها فهو محتاج إلىٰ هداية التفصيل فيها .

الثاني:أمور هُدِىٰ إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلىٰ تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها .

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها فهو محتاج إلىٰ الاستمرار في الهداية والدوام عليها .

فالمسئول هو أصل الهداية علىٰ الدوام تعليماً ، وتوفيقاً ، وخلقاً ،

للإرادة فيه، وإقداراً له، وخلقاً للفاعلية، وتثبيتا له على ذلك. فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية، أصلها وتفصيلها علماً وعملاً، والتثبيت عليها والدوام إلى الممات. وسر ذلك أن العبد مفتقر إلي الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً ومفتقر إلى مزيد علم بالهدي على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه[١].

اللهم اهدنى فيمن هديت، وعافنى فيمن عافيت، وتولنى فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضي عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، وصلى الله علي النبى محمد[٢].

«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»[٣].

«اللهم اغفر لى، وارحمنى، واهدني، وعافني، وارزقني»[٤].

«اللهم إني أسألك الهدى والسداد»[٥].

«اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»[٦].

---

(١) ابن القيم الجوزيه، بدائع الفوائد، ج٢، ص٣٧، ص٣٨.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، ولا يعرف عن النبي ﷺ في القنوت شيء أحسن من هذا. وقال النووي: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٧/ ١٤٤.

(٣) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٨٧.

(٤) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٧٢ وفي رواية لمسلم «فإنّ هؤلاء الكلمات تجمع لك دنياك وآخرتك».

(٥) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٩ برقم ٢٧٢٥.

(٦) أخرجه مسلم ١/ ٥٣٤ برقم ٧٧١.

المؤمن (جلّ جلاله)

٩٩

المؤمن اسم من أسماء الله الحسنى، وقد ورد مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

والمؤمن في صفات الله عزّ وجلّ على وجهين: أحدهما أن يكون من الأمان أي يؤمن عباده المؤمنين من بأسه وعذابه فيأمنون ذلك فهو يؤمنهم من الفزع الأكبر، إما يخلق الطمأنينة في قلوبهم أو بإخبارهم أن لا خوف عليهم.

وهو الذي يؤمن خلقه من ظلمه، قال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٢).

فالأمان هنا ضد الخوف، قال تعالى: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾(٣) والأمان منه سبحانه وتعالى لا يقتصر على الآخرة فقط، وإنما يؤمن سبحانه في الدنيا من يتوكلون عليه، ويثقون فيه، ويستجيرون به، ويخلصون في توحيده: قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٤).

وقال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الحشر/ ٢٣.
(٢) سورة فصلت/ ٤٦.
(٣) سورة قريش/ ٤.
(٤) سورة الأنعام/ ٨٢.
(٥) سورة القصص/ ٣١.

ومن هذا الاسم اشتق الأمن والأمان، واسم العبد المؤمن فالله سبحانه هو المؤمن، وقد يطلق هذا الاسم على العبد فيقال: فلان مؤمن، بيد أن الموافقة في الأسماء لا تقتضي المشابهة في الذوات كما أسلفنا في المقدمة. فالله عزّ وجلّ مؤمن والعبد مؤمن بيد أن ذلك لا يقتضي مشابهة العبد الرب.

والملوك يأبون أن يجسر أحد من رعيتهم ويسمي نفسه ملكاً والله سبحانه سمى نفسه المؤمن، وسمى العبد مؤمناً، وسمى عباده مؤمنين وهذا لطف منه سبحانه.

والوجه الآخر: أن يكون المؤمن من الإيمان وهو التصديق فيكون ذلك على ضربين: أحدهما أن يقال: «الله المؤمن» أي مصدق عباده المؤمنين أي يصدقهم على إيمانهم فيكون تصديقه إياهم قبول صدقهم وإيمانهم وإثباتهم عليه. والآخر أن يكون الله المؤمن أي: مصدق ما وعده عباده. فالله عزّ وجلّ مصدق ما وعده عباده ومحققه[1].

والله عزّ وجلّ هو المؤمن أي المصدق لرسله وأوليائه بإظهار المعجزات والكرامات الدالة على صدقهم.. وهو سبحانه المصدق لنفسه أنه صادق في وعده حيث قال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ وهو سبحانه مؤمن أي خالق أسباب الأمن والأمان، فالخلق ضعفاء معرضون لأسباب التلف والهلاك من داخلهم بالأمراض والآفات، ومن خارجهم بالأعداء والأدواء، والله تبارك وتعالى هو الذي رزقهم أسباب الأمن من حواس وأدوية وحصون وجوارح وأسلحة وألهمهم استعمالها.. والمحروم من كل ذلك رزقه وسائل الهرب: كالأجنحة

---

(١) أبو القاسم الزجاجي، اشتقاق أسماء الله، ص٢٢١، ص٢٢٣.

للطيور، والتخفي عن طريق التشكل والتلون[١].

ومن آثار هذا الاسم ما شرعه المؤمن سبحانه وتعالىٰ من حدود وقصاص لحفظ الدين، وحفظ النفوس، وحفظ العقول، وحفظ المال، وحفظ الأنساب، وحفظ الأعراض.

وبإقامة هذه الحدود يأمن الناس علىٰ دينهم وأنفسهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم وأعراضهم. فالناس يشعرون بالأمن علىٰ دينهم عندما يقتل المرتد الذي انسلخ من المجتمع، وصار جرثومة ضارة وعضواً أشل فيه يسعىٰ لنقض بنائه وتنكيس لوائه.

ولذلك قال رسول الله (ﷺ): «من بدّل دينه فاقتلوه»[٢].

وحرم الله (عزّ وجلُ) القتل وسفك الدماء ليشعر الناس بالأمن علىٰ أنفسهم ولذلك أوجب الله القصاص من القاتل، وجعل فيه حياة الناس قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

فإعدام القاتل استبقاء لحياة الناس الآخرين، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل انزجر ولم يقدم علىٰ قتل غيره، وبذلك يحدث الأمن في المجتمع كله.

وأمنّ الله عزّ وجلّ الناس علىٰ عقولهم فحرم كل ما يغطيها أو يلغي وظيفتها من خمر ومخدرات، لأنها تشل تفكير الإنسان وتهبط بقيمته وكرامته مما يجعله يصير حيواناً تتحكم فيه غرائزه. قال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

---

(١) ياسين رشدي، هو الله، ص٢٣.

(٢) رواه البخاري، وغيره.

(٣) سورة البقرة/ ١٧٩.

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

وحرم الله عز وجل السرقة، وغلظ العقوبة ليرتدع الناس. قال تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

فيأمن بذلك الناس على أموالهم، ويشيع الأمن في المجتمع كلّه. وإذا ما تعاون اللصوص وكونوا عصابات لقطع الطريق، وسلب ونهب الأموال، والسطو المسلح على ممتلكات الآخرين تضاعفت العقوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

وحرّم الله (عزّ وجلّ) الزنا ووسائله ليأمن الناس على أنسابهم وحرماتهم. وجعل عقوبة الزاني البكر مائة جلدة مع تغريبه عن بلده الذي وقعت فيه الفاحشة.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

أما الزاني المحصن (المتزوج) فحده الرجم بالحجارة حتى يموت.

---

(١) سورة المائدة/ ٩٠. (٢) سورة المائدة/ ٣٨.
(٣) سورة المائدة/ ٣٣، ٣٤. (٤) سورة النور/ ٢.

وكما أهتم اللهُ سبحانه وتعالىٰ بحفظ الحرمات عاقب علىٰ تجريحها والتعرض لها. فجعل عقوبة القذف ثمانين جلدة لمن يقعون في أعراض الناس وينسبون الإفك إلىٰ الآخرين ويشيعون عنهم الخنا. وقد طولب هؤلاء بأن يأتوا علىٰ ما يقولون بأربعة شهداء وإلا جلدوا ثمانين جلدة قال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١). وإقامة هذا الحد تجعل الإنسان محاطاً بما يحفظ عرضه، فيعيش بذلك آمناً هادئاً.

وكما أمّن الله عزّ وجلّ حياة الإنسان ليعيشَ سعيداً آمناً أمّن أيضاً بقاء نوعه عن طريق الإنجاب بعد التقاء الزوجين الذكر والأنثىٰ.

والتكاثر والبقاء ليست في الإنسان فقط بل هي وظيفة مشتركة بين الكائنات الحية. فعندما تبلغ الكائنات الحية في نموها مرحلة البلوغ تصبح قادرة علىٰ إنجاب أجيال جديدة من الفصيلة نفسها، أي إنها تصبح قادرة علىٰ التناسل أو التكاثر، ولولا أن الله (عزّ وجلّ) وهبها ذلك لانقرضت.

ومن عجيب صنع الخالق المؤمن (سبحانه) أنه كلما ضعف الكائن الحي زادت أعداده في التكاثر وما ذاك إلا ليبقىٰ ويستمر وجوده والمثال علىٰ ذلك الحشرات.

وقد ألهم المؤمن سبحانه الحيوان كيف يحمي نفسه، فجعلها تعيش في مجتمعات وتسير في جماعات منتظمة فسرب الفيلة يسير وفي مقدمته أقوىٰ الذكور لحمايتها. بينما الظباء يسير أقواها خلفها لأن

---

(١) سورة النور/ ٤ ـ ٥.

الذئاب لا تهاجمها إلا من الخلف. والحرباء تتلون بعدة ألوان لتهرب من أعدائها، فهي صفراء في الصحراء، فإذا ما صادفت شجرة أخذت لون ساقها البني الغامق، وفي العشب الأخضر هي خضراء وتأخذ زرقة الماء على شاطيء الماء.

ومن آثار المؤمن (سبحانه) إظهاره الآيات والمعجزات الباهرات على أيدي رسله تصديقاً لهم. فقد عطّل الله سبحانه وتعالى نواميس الكون بهذه المعجزات لتكون دليلاً على صدق أنبيائه ورسله. وما المعجزة إلا رسالة من الحق (سبحانه) إلى الناس مضمونها (أنا أصدق ما جاء به عبدي فآمنوا به واتبعوه).

ومن آثار هذا الاسم أيضاً ما نراه من طمأنينة وأمن عند الموحدين المخلصين، فهم - دائماً - يثقون في ربهم وفي أنه - أبداً - لن يضيعهم وسينصرهم في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾(١).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾(٢).

والأمن كل الأمن في دار السلام حيث لا خوف ولا فزع بعد ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ . لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾(٣).

---

(١) سورة غافر/ ٥١.
(٢) سورة فصلت/ ٣٠، ٣١.
(٣) سورة الحجر/ ٤٥-٤٨.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ . كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ . لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(١).

فالله (سبحانه) هو المؤمن، وهو الذي يعطي الأمن والأمان لعباده الصالحين. وكل أمن وأمان من غير الله (عزّ وجلّ) ما يلبث أن ينقلب إلى فزعٍ وجزعٍ. ولذلك قيل: «يؤتى الحذر من مأمنه».

فالأمن الحقيقي لا يكون إلا من الله عزّ وجلّ.

وقيل لأحد الصالحين: من أين تأكل؟

قال: من عرف خالقه لم يشك في رزقه.

فقيل له: ألا تخاف الفقر؟

قال: خوف الفقر قرينة الكفر.

وقال تلميذ لأستاذه: إني أخاف من فلان.

فأجابه أستاذه: صحح عقيدتك.

فقال التلميذ: كيف؟

قال الأستاذ بإخلاص التوكل على الله فإنّ قلب من تخاف بيد من ترجو.

وكم رأينا في الحياة من بشر توكلوا على بشر ووثقوا فيهم وأسلموا

---

(١) سورة الدخان/ ٥١ـ٥٧.

إليهم زمامهم فما لبثوا أن سلّط الله بعضهم على بعض فأفنى بعضهم بعضاً!

وحتى ينالَ العبدُ الأمنَ من المؤمن (سبحانه) عليه أن يخلص عبوديته لله عزّ وجلّ ولا يشرك بربه أحداً، وقد ورد ذلك نصاً في قول الله عزّ وجلّ في سورة الأنعام ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾(١) .

والظلم الوارد في الآية هو الشرك، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾(٢) .

فالأمن مترتب على الإخلاص لله تعالى، والصدق في توحيده، وهذا الأمن يشمل الدنيا والآخرة، فالتوحيد الخالص له أشعة نورانية في القلوب، ويختلف هذا النور، ويتفاوت من عبد لآخر حسب توحيده قوة وضعفاً.

وهذا النور هو الذي يضيء للمؤمن طريقه يوم القيامة، قال تعالى ﴿ **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(٣) .

وهناك أعمال جعلها الحق سبحانه مع التوحيد الخالص سبباً للأمن يوم الفزع الأكبر، مثل الحب في الله عزّ وجلّ، وفعل الخيرات، ففي الحديث قال رسول الله (ﷺ): «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»(٤) .

---

(١) سورة الأنعام/ ٨٢. (٢) سورة لقمان/ ١٣ .

(٣) سورة الحديد/ ١٢ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في ا ِ.

وعن معاذ (رضي الله عنه) قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «قال الله (عزّ وجلّ): المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»(١).

وهناك حديث جامع في هذا المقام عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله (عزّ وجلّ) ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ دعته امرأة ذات حسنٍ وجمال، فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»(٢).

وقضاء حوائج المسلمين والتنفيس عنهم يشفع للعبد يوم القيامة، فيأمن من خوف ويغفل كثير من الناس عن هذا الأمر مع أنه من خير الأبواب وأنفعها في الدنيا والآخرة ففي الحديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه بها كربةً من كربِ يومِ القيامة، ومن ستر مسلماً ستره اللهُ يوم القيامة»(٣).

والإيثار وإطعام الطعام يقي شر ذلك اليوم، ويبدل الخوف أمناً،

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح (في كتاب الزهد في ما جاء في الحب في ا) وأخرجه ابن حبان في صحيحه في الإحسان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ١٤٣ كتاب الإيمان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ومسلم في صحيحه ٢/ ٧١٥، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

(٣) رواه أبو داود في سننه ٤/ ٢٧٣، والترمذي في سننه ٤/ ٣٢٥، كتاب البر والصلة باب ما جاء في ستر المسلم على المسلم وقال حسن غريب.

قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (١).

فلنحمد الله عزّ وجلُ على نعمة الأمن التي هي هبة ومنحة من المؤمن سبحانه فلا أمنَ إلا من عنده، ولا سعادةَ إلا في ظلالِ أمنه.

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، اللهم إنا نسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، الركع السجود، إنك رحيم ودود.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الإنسان آية: ٨: ١٢.

الغفّارُ ـ الغفورُ ـ العفوُّ ـ التوابُ
١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣

الغفر والغفران في اللغة: الستر، وكلّ شيء سترته فقد غفرته، والمغفرة من الله (عزّوجلّ) ستره للذنوب، وعفوه عنها بفضله ورحمته، والغفار هو الذي أظهر الجميل وستر القبيح في الدنيا، وتجاوز عن عقوبته في الآخرة، وهو الذي يغفر الذنوب وإن كانت كبيرة، ويسترها وإن كانت كثيرة، والغفور الستور يقال غفرت الشيء اغفره غفراً إذا سترته، والله عزّ وجلّ غفار غفور لذنوب عباده أي يسترها ويتجاوز عنها لأنه إذا سترها فقد صفح عنها وعفا وتجاوز، وغفار وغفور من أبنية المبالغة فالله عزّ وجلّ غفار غفور لأنه يفعل بعباده ذلك مرة بعد مرة إلى ما لا يحصى فهو من أوصاف المبالغة في الفعل، وليس من أوصاف المبالغة في الذات [(١)].

فالغفّار والغفور من أسماء الله عزّ وجلّ وهما من أبنية المبالغة ومعناهما الساتر لذنوب عباده وعيوبهم، والمتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم. وأصل الغفر الستر والتغطية. فالله عزّ وجلّ يغفر ذنوب عباده مرة بعد مرة فهو غفور سبحانه.

قال ابن القيم:

وهو الغفورُ فلو أتى بقربها	من غير شركٍ بل من العصيانِ
لاقاه بالغفران ملء قربها	سبحانه هو واسع الإحسانِ

---

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص٩٣، ص٩٤.

وقد ورد اسم الغفار في القرآن الكريم خمس مرات منها :

قوله تعالى : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ (١) .

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾(٢) .

أما اسم الغفور فقد ورد في القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة، منها :

قال تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(٥) .

والعفو اسم من أسماء الله الحسنى، ومعنى العفو الذي يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من اسم الغفور ولكنه أبلغ منه، لأن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر.

فالعفو في حق الله عزّ وجلّ عبارة عن إزالة آثار الذنوب بالكلية، فيمحوها من ديوان الكرام الكاتبين، ولا يطالبه بها يوم القيامة، وينسيها من قلوبهم، . كيلا يخجلوا عند تذكرها، ويثبت مكان كلّ سيئة حسنة، قال تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (٦) .

وقد جاء ذكر العفو في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله

---

(١) سورة نوح/ ١٠ .
(٢) سورة ص/ ٦٦ .
(٣) سورة آل عمران/ ١٢٩ .
(٤) سورة الأنعام/ ١٦٥ .
(٥) سورة فاطر/ ٢٨ .
(٦) سورة الفرقان/ ٧٠

تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(١).

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(٢).

أما التواب فهو من التوبة، وهى تفيد معنى الرجوع، يقال: تاب إذا رجع، والتواب فعال من تاب يتوب أى يقبل توبة عباده، وفعال من أبنية المبالغة مثل ضراب للكثير الضرب. وجاء تواب على أبنية المبالغة لقبوله توبة عباده وتكرير الفعل منهم دفعة، وواحداً بعد واحد طول الزمان، وقبوله عزّ وجلّ ممن يشاء أن يقبل منه، فلذلك جاء على أبنية المبالغة، فالعبد يتوب إلى الله عز وجل، ويقلع عن ذنوبه، والله يتوب عليه أي يقبل توبته. فالعبد تائب والله تواب(٣).

فالتّواب في حق الله تعالى هو الذي يتوب على عبده، أى يعود عليه بألطافه، ويوفقه إلي التوبة، وييسرها له، ثم يقبلها منه.

فهو التّواب الذي ييسر أسباب التوبة لعباده مرة بعد مرة بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته، ويطلعهم عليه من تخويفاته، وتحذيراته، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه، فرجعوا إلى التوبة فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول. فهو (سبحانه) التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم. قال تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾.

---

(١) سورة النساء/ ١٤٩.　　(٢) سورة الحج/ ٦٠.

(٣) أبو القاسم الزجاجى، مرجع سابق، ص ٦٣.

قال ابن القيم :

وكذلك التوابُ من أوصافهِ والتوابُ في أوصافه نوعانِ

إذن بتوبة عبده وقبولها بعد المتابِ بمنةِ المنانِ

وعلى هذا تكون توبته على عبده نوعان :

الأول: يوقع في قلب عبده التوبة إليه، والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع والندم والعزم على ألا يعود إلى الذنب، واستبدال الذنب بالعمل الصالح .

الثاني : توبته على عبده بقبولها، وإجابتها ومحو الذنوب بها، فإنّ التوبة النصوح تجب ما قبلها .

وإذا كانت التوبة معناها الرجوع والعودة، فإنّ الله تعالى كثير العودة بأصناف الإحسان على عباده، فهو يوفقهم بعد الخذلان، ويعطيهم بعد الحرمان، ويخفف عنهم أنواع الآلاء، ومن توبته يقابل الدّعاء بالعطاء، والاعتذار بالغفران، والإنابة بالإجابة، والتوبة بمحو الحوبة .

أما التوبة من قبل العبد فهى ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهى أبلغ وجوه الاعتذار، لأن الاعتذار على ثلاثة أوجه :

إما أن يقول المعتذر لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا، أو يقول فعلت وأسأت وقد أقلعت، وهذا الأخير هو التوبة. والتائب يقال : لباذل التوبة، ولقابل التوبة. فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده .

والعبد التواب هو العبد كثير التوبة، وذلك بتركه كل وقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركاً لجميعها. والله عزّ وجلّ تواب

لكثرة قبوله توبة العباد حالاً بعد حال وقوله تعالىٰ: ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ . أيْ التوبة التامة التي تجمع بين ترك القبيح وتحرىٰ الجميل(١).

وقد ورد اسم التّواب في القرآن الكريم إحدىٰ عشرة مرة. اقترن في تسع منها بالرحيم، مما يدل علىٰ أن توبته (سبحانه وتعالىٰ) من رحمته.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (٢).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾(٤).

وقال تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٥).

وقال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ (٦).

فما هىٰ التوبة النصوح؟

اختلف العلماء في معنىٰ التوبة النصوح، ولهم في ذلك أقوال متعددة منها(٧):

١ ـ التوبة النصوح هىٰ توبة من يقلع عن الذنب، ويجتنب

(١) الراغب الأصفهانىٰ، مرجع سابق، ص٧٦.
(٢) سورة النساء/ ٦٤.
(٣) سورة التوبة/ ١٠٤.
(٤) سورة النور/ ١٠.
(٥) سورة النصر/ ٣.
(٦) سورة التحريم/ ٨.
(٧) عبد العزيز عبد الشهيد محمود، التوبة إلىٰ ا، ص٩٣، ص٩٤.

المعاصي، ولا يعود إلى ذنب آخر، ويندم على ما فعل.

٢ ـ وقال عمر (رضي الله عنه) هي أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

٣ ـ وقال قتادة: النصوح الصادقة الناصحة.

٤ ـ وقال الغزالي: النصوح: الخالص لله تعالى خالياً من الشوائب مأخوذ من النصح.

٥ ـ وقال الحسن: النصوح: أن يبغض الذنب الذي أحبّه، ويستغفر منه إذا ذكره.

٦ ـ وقال الدقّاق: التوبةُ النصوح: هي ردّ المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات.

٧ ـ وقال سعيد بن جبير: هي التوبةُ المقبولة ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط: خوف ألا تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعات.

٨ ـ وقال القرطبي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان و، مهاجرة سيء الخلان.

ويبدو من الأقوال السابقة أنّ التوبة النصوح لها خمسة شروط هي:

١ ـ الإخلاص لله عزّ وجلّ، فلا يتوب من الذنوب لعجز أو لملامة من أحد، وإنما خوفاً من الله عزّ وجلّ.

٢ ـ الندمُ على ما سلف من المعاصي والذنوب وبغضها، والنية على عدم العودة إليها.

٣ ـ الإقلاع عن المعاصي كلّها واجتنابها، والبعد عن قرناء السوء الذين يزينونها.

٤ ـ ردُّ المظالم إلىٰ من ظلمهم، واستحلال الخصوم(١).

٥ ـ المداومة علىٰ الطاعات، والمسارعة في فعل الخيرات.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ (٢).

قال ابن القيم: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميمُ جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماعُ العزمَ والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقىٰ عنده تردد، ولا تلوم ولا انتظار.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، أو لحفظ حاله أو قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من مذمتهم.. أو لإفلاسه وعجزه... (٣).

ويفرق ابن القيم بين التوبة والاستغفار: فيقول عن التوبة: التوبة هىٰ الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلىٰ ما يحبه ظاهراً وباطناً.

أما الإستغفار فهو نوعان: مفرد ومقرون بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ (٤).

---

(١) وسيأتىٰ تفصيل ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ.

(٢) سورة طه/ ٨٢.

(٣) ابن القيم الجوزيه، مدارج السالكين، جـ١، ص٣١٠.

(٤) سورة نوح/ ١٠, ١١.

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

والمقرون كقوله تعالىٰ: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (٢).

وقوله تعالىٰ علىٰ لسان شعيب: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٣).

فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره.

وأما عند اقتران إحدىٰ اللفظتين بالأخرىٰ. فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضىٰ والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهنا ذنبان: ذنب قد مضىٰ، فالاستغفار منه طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم علىٰ أن لا يفعله والرجوع إلىٰ الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضىٰ (استغفار) ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

فهنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلىٰ غيره فخصت التوبة، بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء - والله أعلم - الأمر بهما مرتباً بقول: ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ فإنه الرجوع إلىٰ طريق الحق بعد مفارقة الباطل. . وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب

---

(١) سورة البقرة/ ١٩٩ . (٢) سورة هود/ ٣.
(٣) سورة هود/ ٩٠.

المنفعة . فالمغفرة أن يقيه شرّ الذنب ، والتوبة : أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه . وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده [١] .

وقد أمر الله تعالى عباده بالتوبة إليه واستغفاره في كثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية :

قال تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٧٦٧ [٢] .

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [٣] .

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٤] .

وقال رسول الله (ﷺ) : « **والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله تعالى بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم**»[٥] .

ورسل الله عزّ وجلّ ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مع سمو أقدارهم ورفعة مراتبهم ، وعصمتهم من المعاصي كانوا يستغفرون لأنفسهم ولأممهم :

قال الله تعالى في آدم (عليه السلام) وحواء :

﴿ **قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكون من الخاسرين**﴾[٦] .

وقال تعالى عن نوح (عليه السلام) حين سأل ربه تعالى عن ابنه ، فنهاه ربه عن ذلك لأن ابنه كان كافراً ، فاستغفر نوح من ذلك .

---

(١) ابن القيم ، المرجع السابق ، ص٣٠٦ : ٣٠٩ .

(٢) سورة المزمل / ٢٠ . (٣) سورة النساء/ ١١٠ .

(٤) سورة النور/ ٣١ .

(٥) رواه مسلم في صحيحه في كتاب التوبة ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة .

(٦) سورة الأعراف/ ٢٣ .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

ومن دعاء نوح (عليه السلام) أيضاً : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ..﴾ (٢).

ومن دعاء ابراهيم(عليه السلام) : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾(٣).

وقال تعالى على لسان موسى (عليه السلام) : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٤).

وقال أيضاً بعد قتل القبطي المعتدى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥).

وقال تعالى عن داود عليه السلام : ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٦).

وقال تعالى عن سليمان (عليه السلام) : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (٧).

وقال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (٨).

قال المفسرون في قوله تعالى : واستغفر لذنبك هذا تهييج للأمه على الاستغفار.

---

(١) سورة هود/ ٤٧.
(٢) سورة نوح/ ٢٨.
(٣) سورة إبراهيم/ ٤١.
(٤) سورة الأعراف/ ١٥١.
(٥) القصص/ ١٦.
(٦) سورة ص/ ٢٤, ٢٥.
(٧) سورة ص/ ٣٥.
(٨) سورة غافر / ٥٥.

وفي الحديث الشريف أن رسول الله (ﷺ) كان يقول: اللهمّ اغفرلي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ وما أنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت (١).

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا بقول: سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي (٢).

وعن الأغر المزني (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: « **إنه ليغان (٣) على قلبي، وإني لا ستغفر الله في اليوم مائة مرة**» (٤).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**والله إني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٥).

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال إن كنا نعد لرسول الله (ﷺ) في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفرلي، وتب عليّ إنك أنت التوابُ الرحيمُ(٦).

فإذا كان رسولُ الله (ﷺ) وهو معصومٌ، يؤمر بالاستغفارِ، ويكثر

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١٦٦, ١٦٧) ومسلم (٢٧١٩). (٢) البخاري.
(٣) المقصود بالغين الفتور عن الذكر أحياناً.
(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢) وغيره
(٥) رواه البخاري (١١/ ٨٥) والنسائي والترمذي.
(٦) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح وصححه الألباني في صحيح أبي داود ١/ ٢٨٣.

من الاستغفار فما الظنُ بغيره؟!

فإن قيل: فماذا يُغْفَرُ للنبي (ﷺ) حتى يؤمر بالاستغفار ويكثر منه؟ قيل: كان رسول الله (ﷺ) يكثر من الاستغفار، لأنه كان يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوباً يستغفر منها (١).

والمؤمنون مطالبون بالاستغفار والتوبة إلى الله عزّ وجلّ: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٣).

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: **«قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقربها مغفرة»**(٤).

وقد علّمنا رسول الله ﷺ سيد الاستغفار:

عن شداد بن أوس (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: **«سيدُ الاستغفارِ أن يقولَ العبدُ اللهمّ أنت ربي،لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك**

---

(١) أحمد البيانوني، التوبه، ج٢، ص١٩.
(٢) سورة آل عمران/ ١٣٥.   (٣) سورة النساء/ ١١٠.
(٤) رواه الترمذي. وقال حديث غريب وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥/ ٥٤٨.

بنعمتك على، وأبوء بذنبي فاغفرلي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»(١).

وللتوبه والاستغفار ثمرات وبركات لعل من أبرزها:

أولاً - البركة في الرزق والقوه وحسن المتاع:

قال تعالى على لسان نوح (عليه السلام):

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (٢).

وقال تعالى على لسان هود (عليه السلام)

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ (٣).

وفي الحديث الشريف: **«من لزمَ الاستغفارُ جعلَ اللهُ له من كلِ ضيقٍ مخرجاً، ومن كلِ همٍ فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»**(٤).

ولهذا روى أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) صعد المنبر يوماً ليستسقى، فلم يزد على الاستغفار، وقراءة آيات الاستغفار ثم قال لقد طلبت الغيث بمخارج السماء، التي يستنزل بها المطر.

وقد جاء في الآثر أن الحسن البصري شكا إليه رجل الجدب فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر فقال له: استغفر الله، وشكا إليه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١١/ ٩٧) في الدعوات.

(٢) سورة نوح/ ١٠ - ١٢. (٣) سورة هود/ ٥٢.

(٤) رواه أبو داود والنسائي والحاكم وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

ثالث جفاف بستانه فقال له : استغفر الله وشكا إليه رابع عدم الولد فقال له : استغفر الله ثم تلا هذه الآية :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ (١) .

فالعيش الطيب الهنيء مقرون بالاستغفار .

قال تعالى : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (٢) .

ثانياً: ـ مغفرة الذنوب: قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) .

وقد مضى الحديثُ القدسي الجليلُ الذي يقول فيه اللهُ عزّ وجلّ. . . « يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي» .

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فرّ من الزحف (٤) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول إن عبداً أصاب ذنباً، فقال : يارب إني أذنبت ذنباً فاغفره فقال له ربه علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ثم

---

(١) سورة نوح/ ١٠ـ١٢ . (٢) سورة هود/ ٣ .
(٣) سورة النساء/ ١١٠
(٤) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وقال حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٨٢ .

أصاب ذنباً آخر وربما قال: ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: يارب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي قال ربه علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً آخر، وربما قال: ثم أذنب ذنباً آخر فقال: يارب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي، فقال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فقال ربّه غفرت لعبدي فليعمل ما شاء [١].

وقوله: (فليعمل ما شاء) معناه والله أعلم أنه كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ثم لم يعد إليه وإنما أصاب ذنباً آخر. فإذا كان هذا دأبه كلما أذنب ذنباً استغفر فإنّ الله عزّ وجلّ يغفر له ويدل هذا الحديث على عظم فائدة الاستغفار، وكثرة فضل الله عزّ وجلّ وسعة رحمته.

وعن عمران بن الحصين (رضي الله عنه) أن امرأة من جهينه أتت رسول الله (ﷺ) وهي حبلى من الزنا. فقالت: يا رسول الله أصبت حداً فأقمه عليّ فدعا نبي الله (ﷺ) وليها فقال: أحسن إليه، فإذا وضعت فأتي بها ففعل، فامر نبي الله (ﷺ) فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله، وقد زنت؟ قال لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عزّ وجلّ [٢].

وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن نبي الله (ﷺ) قال: **«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب. فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم (١٦٩٦).

من توبة؟ فقال :لا: فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم من يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا. فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق، فأتاه ملك السموات فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يفعل خيراً قط، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» .

وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها.

وفي رواية: فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى، وإلى هذه أن تقربى، وقال: قيسوا بينهما فوجده إلى هذه أقرب بشبر فغفر له.

وفي رواية : قال قتادة قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره نحوها» (١) .

من الأحاديث السابقة يتبين أن توبة الله عزّ وجلّ لا تحجب عن عاصٍ، وأنه سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً للمستغفرين التائبين .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) .

---

(١) رواه البخارى (٦/ ٣٧٣ , ٣٧٤) ومسلم (٢٧٦٦) وابن ماجة بنحوه.

(٢) سورة الزمر/ ٥٣ .

وقد روى عن ابن عباس (رضي الله عنه): أن وحشياً لما قتل حمزة (رضي الله عنه) ذهب إلى الطائف، وندم على فعله، فكتب إلى النبي (ﷺ) هل لي من توبة؟

فنزل قول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(١).

فقال وحشي: لعلي لا أدخل تحت هذه المشيئة.

فنزل قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾(٢). إلى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ﴾(٣).

فقال وحشي: لعلي لا يكون لي عمل صالح.

فنزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِم...﴾(٤) الآية.

وفي هذه الآية نلحظ ما يلي:

١ ـ لم يقل الله سبحانه وتعالى الذين فسقوا أو شربوا الخمر أو زنوا بل ستر ذلك عليهم. فقال: ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾ فإذا اقتضى كرمه صيانة العبد عن الخجل في الدنيا فهل يليق به إن تاب العبد أن يعذبه في الآخرة؟!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِي﴾ فأضافهم إلى نفسه، فعيبهم ظهر منهم بإسرافهم في الذنوب، وزينتهم ظهرت من مولاهم بإضافتهم إليه ﴿يَا عِبَادِي﴾ وما يظهر من المولى أقوى مما يظهر منهم، فالإضافة أقوى من الإسراف وفيها ستر وكرم من المولى يوجب الحياء والتوبة من العبد.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾ يعني أنهم قصروا في حق أنفسهم

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٨.
(٣) سورة الفرقان، اية: ٧٠.
(٤) سورة الزمر، آية: ٥٣.

لا في حقي فكفاهم ضرراً أن قصروا في حق أنفسهم ، فإسرافهم على أنفسهم مصيبة أصابتهم ، فمن كرم الكريم ألا يلحق بهم مصيبة أخرى بتعذيبهم ، ولذلك فتح لهم باب المغفرة والتوبة ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (١) .

٤ ـ قوله في آخر الآية : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا ينبغي أن تظنوا أنه سبحانه وتعالى إنما شرع المغفرة والرحمة من أجلكم خاصة ، وإنما هذه صفة أزلية من صفاته سبحانه وتعالى ، فهو غفور رحيم لكم ولغيركم من الأزل إلى الأبد . ونظيره قوله تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ فلم يقل إنه غفار بل كان غفاراً أي أنه من الأزل إلى الأبد موصوف بهذه الصفة فلا ينبغي أن تتعجبوا أن يغفر ذنوبكم .

ثالثاً: النجاة من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة:

قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ

---

(١) سورة الزمر / ٥٤ , ٥٥ . (٢) سورة الأنفال/ ٣٣ .
(٣) سورة التحريم/ ٨ .

(١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١) .

وعن ابن عمر (رضى الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: « **يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» قالت امرأة منهن: مالنا أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير... الحديث**»(٢) .

رابعاً: فرحة الله (عزّ وجلّ) بتوبة عبده:

عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) « **لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة**»(٣) .

وفى رواية لمسلم: « **لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فآيس منها، فأتى شجرة فأضطجع فى ظلّها، وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**» .

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتبه، وأرسل إليه رسله، واعتنى بأمره ولم يهمله ولم يتركه سدى، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة. فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب آبقاً

---

(١) سورة آل عمران/ ١٣٥، ١٣٦ .

(٢) رواه مسلم برقم (٧٩) .

(٣) متفق عليه (البخارى ١١/ ٩١ , ٩٢، ومسلم برقم ٢٧٤٧) .

شارداً، راداً لكرامته، مائلاً إلىٰ عدوه، فبينما هو مع العدو في طاعته وخدمته، ناسياً سيده ومولاه، منهمكاً في موافقة عدوه. . . إذ عرضت له فكره فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لابد له منه، وأن مصيره إليه، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قدُم عليه علىٰ أسوأ الأحوال، ففر إلىٰ سيده من بلد عدوه، وجدّ في الهرب إليه حتىٰ وصل إلىٰ بابه، فوضع خده علىٰ عتبة بابه، وتوسد ثرىٰ أعتابه. متذللاً متضرعاً، خاشعاً باكياً آسفاً. يتملق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه. . قد استسلم له وأعطاه قياده، وألقىٰ إليه زمامه فكيف يكون فرح سيده به؟! وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً. . وفتح طريق البر والإحسان والجود. التي هي أحب إلىٰ سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة لله (١).

خامساً: ومن هذه الثمرات إجابة الدعاء:

قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴾(٢).

وقد روىٰ عبد الله بن الفضل بن الربيع عن أبيه أن أبا جعفر المنصور حجّ سنة سبع وأربعين ومائة فقدم المدينة وقال: ابعث إلىٰ جعفر بن محمد من يأتينا به تعباً، قتلنى الله إن لم أقتله، فتغافل عنه الربيع لينساه، ثم اعاد ذكره للربيع وقال أرسل إليه من يأتى به تعباً، فتشاغل عنه، ثم أرسل إلىٰ الربيع برسالة قبيحة في جعفر وأمره أن يبعث إليه

---

(١) ابن القيم، مرجع سابق، ص٢١٣.

(٢) سورة هود/ ٦٢.

ففعل. فلما أتاه قال له: يا أبا عبد الله اذكر الله فإنه قد أرسل إليك التى لا سوىٰ لها (١).

قال جعفر: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم أعلم أبا جعفر حضوره. فلما دخل أوعده وقال: أىٰ عدو الله اتخذك أهل العراق إماماً يجبون إليك زكاة أموالهم، وتلحد في سلطانى، وتبغيه الغوائل؟ قتلنى الله إن لم أقتلك.

فقال: يا أمير المؤمنين إنّ سليمان (عليه السلام) أُعطىٰ فشكر، وإن أيوب ابتُلىٰ فصبر، وإن يوسف ظُلم فغفر، وأنت من ذلك السِّنح (٢).

فقال له أبو جعفر: إلىّ وعندىٰ، أبا عبد الله. البرئ الساحة، السليم الناحية القليل الغائلة، جزاك الله من ذىٰ رحم أفضل ما جزىٰ ذوىٰ الأرحام عن أرحامهم. ثم تناول يده فأجلسه معه علىٰ فراشه ثم قال: علىّ بالمنجف فأتىٰ بدهن فيه غاليه (٣) فغلفه بيده حتىٰ خلت لحيته قاطرة. ثم قال: في حفظ الله وفىٰ كلاءته. ثم قال: يا ربيع ألحق أبا عبد الله جائزته وكسوته، انصرف أبا عبد الله في حفظ الله وفىٰ كنفه. فانصرف ولحقته فقلت له: إنىٰ قد رأيت قبل ذلك ما لم تره، ورأيت بعد ذلك ما قد رأيت، فما قلت يا أبا عبد الله حين دخلت؟

قال: قلت اللهم احرسنىٰ بعينك التىٰ لا تنام، واكنفنىٰ بركنك الذي لا يُرام، واغفر لي بقدرتك علىّ لا أهلك وأنت رجائىٰ. اللهم إنك أكبر وأجل ممن أخاف وأحذر، اللهم بك أدفع في نحره، واستعيذ بك من شره»(٤).

---

(١) أي القتل.
(٢) الأصل.
(٣) أخلاط من الطيب.
(٤) ابن الجوزىٰ، صفة الصفوة، جـ٢، ص١٨٩.

وحتى ينال العبدُ المغفرة من الغفّار (سبحانه وتعالى): هناك أسباب للمغفرة ينبغي أن تراعى، نذكر منها:

أولاً: الإيمان بالله وعمل الصالحات.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ (٢).

ومن أفضل الأعمال الصالحة الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ، ولذلك يوجب الغفران:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ (٣).

ثانياً: تقوى الله عزّ وجلّ والخوف من عقابه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾ (٥).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال: « **كان رجلُ يسرفُ على نفسه فلما حضره الموتُ قال لبنيه: إذا أنامتُ فأحرقوني ثم**

---

(١) سورة الحج/ ٥٠.
(٢) سورة التغابن/ ٩.
(٣) سورة الصف/ ١٠ ـ ١٢.
(٤) سورة المائدة/ ٦٥.
(٥) سورة الأحزاب / ٧٠ ـ ٧١.

اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذّبه أحداً، فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك ففعلت، فإذا هو قائم فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يارب، أو قال: مخافتك: فغفر له» (١).

وعن ابن عمر (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: لأن هذا عمل ما عملته، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله، فأنا أحرى، اذهبي فلك ما أعطيتك، ووالله ما أعصيه بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إن الله قد غفر للكفل فعجب الناس من ذلك»(٢).

ثالثاً: الاعتراف بالذنب والندم على فعله:

قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣).

فالمذنبُ يعترفُ بأنه فعلَ الذنبَ، وأنه ما فعله استهانة بربه، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لاطلاعه عليه، وإنما من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة الشهوة، وطمعاً في مغفرة ربّه، واتكالاً على عفوه، ورجاء لكرمه.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٩٤)، ومسلم (٢١٠٩).
(٢) رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
(٢) سورة التوبة / ١٠٢.

فاعتراف العبد بالذنب، وندمهُ على فعله، ولومُ نفسه عليه توبةٌ.

عن حميد الطويل قال: قلت لأنس بن مالك(رضي الله عنه): أقال النبي (ﷺ): الندم توبة؟ قال: نعم (١).

رابعاً: البذل والإنفاق والتجاوز عن المعسرين:

قال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣).

وفي الحديث الشريف: «**االصدقةُ تطفىءُ الخطيئةُ كما يُطفىءُ الماءُ النَار**» (٤).

وفي الحديث الشريف أيضاً، قال رسول الله (ﷺ): «حوسب رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخلط الناس أي يعاملهم بالبيوع والمداينة، وكان موسراً، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال الله عزّ وجلّ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه (٥).

خامساً: العفو والصفح:

ومن أسباب المغفرة العفو والصفح عن زلات البشر، وقد أمر اللهُ (عزُ وجلّ) رسولَه أن يلتزم هذا الخلق لأنه سبحانه عفو يحب العفو.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٢) سورة التغابن/ ١٧.   (٣) سورة آل عمران/ ١٣٣ , ١٣٤.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) رواه مسلم (١٥٦١).

فقال تعالى مخاطباً نبيه (ﷺ): ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٢).

وأمر بذلك المؤمنين، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٣).

وأثنى سبحانه على العافين، فقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

وجاءت الآية صريحة في أن من عفا وصفح غفر الله له:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥).

وقيل نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثه بنافعة أبداً - وكان ابن خالته - ولكنه تكلم في عرض أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في قصة الإفك.. فلما أنزل الله (عزّ وجلّ) براءتها، وطابت النفوس واستقرت، وتاب الله على من تاب، وأقيم الحد على من أقيم عليه ومنهم مسطح. حثّ (سبحانه وتعالى) أبا بكر على الإنفاق على مسطح.

---

(١) سورة الأعراف/ ١٩٩.
(٢) سورة الحج / ٨٥.
(٣) سورة الجاثية / ١٤.
(٤) سورة آل عمران / ١٣٤.
(٥) سورة النور / ٢٢.

بقوله تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فالجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب في حقك؛ يغفر الله لك، وكما تصفح يُصفح عنك.

فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا! ثم رجع إلى مسطح بما كان يصله به من النفقه، قائلاً: «والله لا أنزعها منه أبداً»

وفي هذا المعنى أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

وفي الحديث الشريف: « **ارحموا تُرْحَمُوا واغفروا يُغْفَرْ لكم**» (٢).

سادساً: ذكر الله (عزّ وجلّ):

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾(٣).

وفي الحديث الشريف قال رسول الله (ﷺ): « من سبّح الله في دبر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحَمِدَ الله ثلاثاً وثلاثين، وكَبّر الله ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غُفِرَتْ خطاياه وإن كانت مثل زَبَدِ البحر» (٤).

---

(١) سورة التغابن / ١٤.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٨٢.

(٣) سورة الأحزاب/ ٣٥.

(٤) رواه مسلم (٥٩٧).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) « **إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله (عزّ وجلّ) تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم - وهو أعلم - :**

ما يقول عبادى؟

قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك.

فيقول: هل رأونى؟

فيقولون: لا والله ما رأوك.

فيقول: كيف لو رأونى؟

قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدّ لك تمجيداً، وأكثر تسبيحاً.

فيقول: فماذا يسألون؟

قال: يقولون: يسألونك الجنة.

قال: يقول: وهل رأوها؟

قال: يقولون: لا والله يارب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدّ لها طلباً، وأعظمَ فيها رغبةً.

قال: فممَ يتعوذون؟

قال يقولون: يتعوذون من النار.

فيقول: وهل رأوها؟

قال: يقولون: لا والله ما رأوها.

فيقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشد لها مخافةً.

قال : فيقول: فأشهدكم أني قد غفرتُ لهم.

قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة.

قال: هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسهم» (١) .

سابعاً : الرحمة بالبهائم وإماطة الأذىٰ عن الطريق :

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : « **بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيه فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفمه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر اﷲ له فغفر له».**

قالوا: يا رسول الله إن لنا فى البهائم أجراً؟ فقال:« فى كل كبد رطبة أجر»(٢) .

وفىٰ رواية أخرىٰ : « **بينما كلب يطيف بركية»** (٣) **قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغى من بغايا بنى إسرائيل، فنزعت موقها** (٤) **فاستقت له به، فسقته فغفر لها به»** .

---

(١) رواه البخاريُ (١١/ ١٧٧ , ١٧٩) ومسلم (٢٦٨٩)، والترمذي(٣٥٩٥) .

(٢) رواه البخاريُ (٥/ ٣١ , ٣٢) ومسلم (٢٢٤٤) .

(٣) بئر (٤) خفها .

وعنه أيضاً عن النبي (ﷺ) قال: «**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له، فغفر له**» (١).

ثامناً: اجتناب الكبائر:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**» (٤).

وهناك أسباب أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها مثل إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والتعب في تحصيل الرزق، وافتتاح اليوم واختتامه بخير، وحسن الخلق، ومصافحة الإخوان، وإطعام الطعام، وحمد الله تعالى بعد الطعام ولبس الثياب الجديدة، وطلب العلم، والإصلاح بين الناس، وفعل الحسنات بعد السيئات، وعيادة المرضى، واتباع الجنائز. . كلّ هذه الأسباب من موجبات مغفرة الغفار سبحانه وتعالى.

وحتى يقبل الله عزّ وجلّ توبة عبده ويغفر له لابد من تحقق شروط

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١١٦) ومسلم (١٩١٤).

(٢) سورة النجم / ٣٢.

(٣) سورة النساء / ٣١.

(٣) رواه مسلم (٢٣٣).

التوبة، فما هي هذه الشروط؟

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى أي لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط :

أحدهما: أن يقلع عن المعصية .

والثاني: أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كان مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها .

وقد قسم العلماء ذلك إلى ثلاثة أقسام :

(أ) ترك واجبات الله (سبحانه وتعالى) من صلاةٍ أو صومٍ أو زكاةٍ أو حج وغيرها، وهذه الخلاص منها بقضاء ما يمكن قضاؤه منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

فمن ترك الصلاة عمداً من غير عذر، مع علمه بوجوبها وفرضها ثم تاب وندم، هل يقضي الصلاة الفائتة؟

اختلف العلماء في هذه المسألة : فقالت طائفة توبته بالندم والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة، وقضاء الفرائض المتروكة . وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم .

وقالت طائفة توبته بالندم واستئناف العمل في المستقبل، ولا ينفعه تدارك ما مضى بالقضاء .

وخلاصة القول في هذه المسألة : أن الإنسان إذا تاب إلى الله عزّ وجلّ، وكان عليه صلاة واستطاع أن يقضي هذه الصلاة، فليفعل وهذا هو الأفضل وخروجاً من الخلاف. وإن لم يستطع فعليه أن يستغفر الله تعالى ويندم على تفريطه في حق الله سبحانه وتعالى. ويكثر من النوافل ففي الحديث الشريف: « **إن أول ما يحاسب منه العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر. فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرب تبارك وتعالى: انظرو هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما نقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك** »(١).

أما بالنسبة لقضاء الزكاة فيحسب جميع ماله، وعدد السنين من أول ملكه للنصاب ثم يؤديها.

وقضاء الصيام يكون بصيام الأيام التي ترك صيامها لسفر أو لمرض أو أفطرها عمداً. فيتعرف على مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد، ويشغل بقضائه ويستغفر الله من تفريطه وتأخره.

وأما الحج، فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج فعليه الخروج، فإن كان مفلساً فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال، فعليه أن يكثر من الاستغفار والندم، وينوي مع ذلك أنه متى استطاع الحج خرج إليه على الفور.

(ب) ذنوب بين العبد وربّه سبحانه وتعالى كشرب الخمر، وإضاعة الوقت في اللهو العابث واللهو المريب، وأكل الربا، وغيرهما. فالتوبة

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والنسائي وصححه شعيب الأرناؤوط وزميلاه في تخريج رياض الصالحين.

من هذه الذنوب تكون بالندم على فعلها، ويجتهد في أن يأتي بحسنات كثيرة تقابل هذه السيئات وتمحوها أخذاً من قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١).

وقول الرسول (ﷺ): « **اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن** » (٢).

فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن، وبمجالس الذكر، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب الحلال.. وهكذا.. والمقصود من ذلك سلوك الطريق المضاد لأن المرض يعالج بضده (٣).

(جـ) ذنوب بين العباد: وهذه المظالم إما في النفس أو في المال أو في الأعراض.

فإذا كانت الذنوب في النفس فإن شروط التوبة أن يمكن صاحب الحق أو أولياءه في القصاص أو طلب العفو، وإن جرى عليه قتل خطأ، فتوبته بتسليم الدية ووصلها إلى المستحق، ولا يجوز له الإخفاء.

وإذا كانت الذنوب في المال فمن شروط التوبة أن يرده لأصحابه. فمن سرق ثم تاب عن السرقة لابد أن يعيد ما سرقه لأصحابه. فإن عجز عن ذلك لسبب فقد المال فيستحل من صاحبه أو يطلب منه مسامحته.

وهنا مسألة: وهي من غصب مالاً أو سرقه أو اختلسه، ثم تاب

---

(١) سورة هود/ ١١٤.
(٢) رواه الترمذي وصححه وهو كما قال(رياض الصالحين شعيب الأرناؤوط وزميلاه).
(٣) أبو حامد الغزالي/ إحياء علوم الدين، جـ١١، ص٢١٢٦.

وتعذر عليه رده إلى صاحبه، أو إلى ورثتهم لجهله بهم، أو لانقراضهم، أو لغير ذلك فاختلف في توبة هذا، هل له توبة أم لا؟

قالت طائفةٌ: لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها، فإذا كان قد تعذر عليه ذلك فقد تعذرت عليه التوبة، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات.

وقالت طائفة أخرى: بل باب التوبة مفتوح لهذا، ولم يغلقه الله عنه ولا عن مذنب، وتوبته: أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق (يوم القيامة)، كان لهم الخيار بين أن يجيزوا ما فعل، وتكون أجورها لهم، وبين أن لا يجيزوا، ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم، ويكون ثواب تلك الصدقة له.

وهذا مذهب جماعة من الصحابة، كما هو مروى عن ابن مسعود، ومعاوية وحجاج ابن الشاعر. فقد روى أن ابن مسعود اشترى من رجل جارية، ودخل يزن له الثمن. فذهب ربّ الجارية، فانتظره حتى يئس من عوده، فتصدق بالثمن وقال: «اللهم هذا عن ربّ الجارية فإن رضى فالأجر له، وإن أبى فالأجر لى. وله من حسناتى بقدره»

وغلّ رجل من الغنيمة ثم تاب، فجاء بما غلّه إلى أمير الجيش وقد تفرقوا فأتى حجاج بن الشاعر. فقال: يا هذا، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم، فادفع خمسة إلى صاحب الخمس، وتصدق بالباقى عليهم، فإن الله يوصل ذلك إليهم ففعل فلما أخبر معاوية قال: لأن أكون أفتيت بذلك أحب إليّ من نصف ملكى [1].

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، ص٣٨٨.

أما إذا كانت الذنوب في الأعراض بأن يكون قد اغتاب إنساناً، أو بهته، أو شتمه، أو قذفه. فهل يعلمه بذلك ليتحلل منه أم لا؟

قال ابن القيم: « وإن كانت المظلمة بقدح فيه، بغيبة أو قذف، فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه؟ أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه واغتابه؟

قالت طائفةٌ يشترط الإعلام والتحلل لأن الذنب حق آدمي، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه. لحديث رسول الله (ﷺ): « **من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات**».

وقالت طائفة أخرى: أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه بل يكفي توبته بينه وبين الله. وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره من الغيبة فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه وقذفه بذكر عفته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقاً وغماً، وربما كان ذلك سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القبائل فيتولد لذلك شر أكبر من شر الغيبة والقذف. وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحابب.

وهناك فرق بين إعلامه بالحقوق المالية وجنابات الأبدان وهذه، لأن

الأولى تسره وتفرحه، والأخيرة تضره وتهيجه[١].

بقي سؤال وهو ما علامات قبول توبة العبد؟

يجيب ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن هذا السؤال يقول: « فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات: منه: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قولَ الرسل لقبض روحه: ﴿ **لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾ فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها فالخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه حسرة على ما فرّط منه، وخوفاً من سوء عاقبته.

ومنها: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، وهي تكسر القلب بين يدي الربّ كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربّه طريحاً ذليلاً خاشعاً، والخضوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه والاستسلام له. فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: « أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المساكين وابتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته،

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، ص٢٩١.

ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه»[١].

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليراجع إلى تصحيحها، فما أسهل التوبة لساناً ودعوى وما أصعبها حقيقةً وفعلاً والله المستعان.

رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[٢].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٣].

اللهم اغفر لي وارحمني وأهدني وعافني وارزقني[٤].

اللهم اغفر لي ذنبي كلّه، دقه وجلّه، أوله وآخره، وسره وعلانيته[٥].

اللهم اغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ وما أنت أعلمُ به مني، أنت المقدمُ وأنت المؤخرُ لا إله إلا أنت[٦].

ربِّ اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم[٧].

اللهم إنك عفوٌ تحبُ العفوَ فاعف عني[٨].

---

(١) ابن القيم، مرجع سابق، ص١٨٧.

(٢) سورة نوح/ ٢٨.

(٣) سورة إبراهيم/ ٤١.

(٤) رواه مسلم ٤/ ٢٠٧٢.

(٥) رواه مسلم (٤٨٣).

(٦) رواه مسلم (سبق تخريجه).

(٧) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٨٢.

(٨) رواه الترمذي، وانظر صحيح الترمذي ٣/ ٢٧ وقال: حسن صحيح.

الخـــاتمــــة

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١) .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ونختم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مثنين عليه بما هو أهل له، وبما أثنىٰ به علىٰ نفسه. فالحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضىٰ، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله. ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه، وأن يعيننا علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته. وأن يجعل ما قصدنا له ـ في هذا الكتاب وفي غيره ـ خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القاريء له، لك غُنمه وعلىٰ مؤله غُرمه. لك ثمرته وعليه تبعته، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله. ولا تلتفت إلىٰ قائله. بل انظر إلىٰ ما قال لا إلىٰ من قال. وما وجدت فيه من خطأ: فإنّ قائله لم يألُ جهد الإصابة. ويأبىٰ الله إلا أن يتفرد بالكمال كما قيل:

والنقص في أصل الطبيعة كامن   فبنوا الطبيعة نقصهم لا يجحد

---

(١) سورة الأحقاف/ ١٥.

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولاً؟ ولكن من عدت غلطاته كان أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته .

فالحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد .

هذا والله تعالى أجلّ وأعلم .

المؤلف

د / زين محمد شحاته محمد

الرياض ـ ليلة السابع والعشرين من

رمضان من عام ١٤١٧هـ الموافق الخامس من فبراير ١٩٩٧م

المراجع

١ - إبراهيم الحازمي، الفرج بعد الشدة والضيقه، الرياض: دار الشريف، ١٤١٦.

٢ - ابن خليفه علوي، سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية، دمشق: دار الإيمان، ط٢، ١٤٠٤/ ١٩٨٤.

٣ - ابن قدامة المقدسي، ذم التأويل، تحقيق بدر البدر، الكويت: الدار السلفيه، ١٤٠٦هـ.

٤ - أحمد بن الحسين (البيهقي) الأسماء والصفات، تحقيق عماد الدين حيدر، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥.

٥ - أحمد بن حنبل، المسند، بيروت: دار صادر، ١٣٨٩.

٦ - أحمد الشرباصي، موسوعة له الأسماء الحسنى، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٢/ ١٠٨٢.

٧ - أحمد بن عبد الحليم (بن تيمية) مجموع الفتاوي، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الرياض: عالم الكتب: ١٤١٢/ ١٩٩١.

٨ - أحمد الأصبهاني (أبو نعيم)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٥، ١٤٠٧.

٩ - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧.

١٠ - أحمد مخيمر، ديوان أسماء الله الحسنى، القاهرة مطبعة الشعب.

١١ - إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، القاهرة: دار التراث العربي.

١٢ ـ ج . دار ديكيلف، تعـرف إلىٰ أعـضـاء جـسـمك، ترجـمـة يوسف شكري .
١٣ ـ جماعة من العلماء، خلق لا تطور، تعريب إحسان حقي، بيروت : دار النفائس .
١٤ ـ جمال الدين عياد، وحدانية الله دلائلها من العلم الحديث، جدة، عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٢، ١٩٨٢ .
١٥ ـ جون هـ، طرائف من عالم الحيوان، ترجمة عبد الحافظ حلمي .
١٦ ـ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، وبذيله التلخيص للذهبي، بيروت، دار الفكر .
١٧ ـ حامد أحمد حامد، رحلة الإيمان في جسم الإنسان، دمشق : دار القلم، ١٤١٢هـ .
١٨ ـ حسن هويدي، الوجود الحق، المكتب الإسلامي .
١٩ ـ الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت : دار المعرفة .
٢٠ ـ محمد بن محمد الخطابي، شأن الدعاء، تحقيق أحمد الدقاق، دار المأمون للتراث، ١٤٠٤ .
٢١ ـ خالص جلبي، الطب محراب الإيمان، مؤسسه الرسالة، ١٩٨٦ .
٢٢ ـ خلوق نور باقي، الإنسان ومعجزة الحياة، ترجمه أوراخان محمد على، جده : الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٧ .
٢٣ ـ داود على الناعوري، العقيدة الإسلامية من القرآن والسنه، عمان : دار الفكر، ١٩٨٩ .
٢٤ ـ زكريا هاشم إبراهيم، آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام، القاهرة : الهيئه المصريه العامة للكتاب، ١٩٨٨ .

٢٥ ـ زين محمد شحاتة، المرشد في تعليم التربيه الإسلامية، الرياض: مكتبه الشباب، ١٤١٣.
٢٦ ـ سعيد حوى، الله جل جلاله، بيروت: دار الدعوة، ١٩٨٩/ ١٩٦٩.
٢٧ ـ سعيد بن علي بن وهف القحطاني، شرح أسماء الله الحسنى، الرياض: مطبعة سفير: ط٤، ١٤١٥.
٢٨ ـ سعيد بن علي بن وهف القحطاني، شروط الدعاء وموانع الإجابه، الرياض: مطبعة سفير: ط٤، ١٤١٥.
٢٩ ـ سعيد النورسي، النوافذ، ترجمة إحسان الصالحي، الموصل مطبعة الزهراء، ١٤٠٦.
٣٠ ـ سعيد النورسي، الاسم الأعظم، ترجمة إحسان الصالحي، الموصل مطبعة الزهراء، ١٤٠٧.
٣١ ـ سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة، بيروت: دار الشروق الطبعه الثالثة والعشرون، ١٤١٥.
٣٢ ـ صالح الفوزان، شرح العقيدة الواسطيه، الرياض: الرئاسه العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤١١.
٣٣ ـ صلاح الدين حفني، مختصر النهاية في غريب الحديث والأثر، الكويت: دار البحوث العلميه، ١٤٠٧/١٩٨٦.
٣٤ ـ عبد المؤمن شرف الدين الدمياطي، المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، تحقيق عبد الملك الدهيش، بيروت: دار خضر، ١٤١٧.
٣٥ ـ عبد الحميد كشك، أسماء الله الحسنى، القاهرة: المرشد الإسلامي، ١٩٩٠.
٣٦ ـ عبد الرحمن بن أحمد (ابن رجب الحنبلي) جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرناؤوطي، وإبراهيم باجس، بيروت: مؤسسة

الرساله ١٩١٢/ ١٩٩١ .

٣٧ـ عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي، اشتقاق أسماء الله الحسنى، تحقيق عبد الحسين المبارك، بيروت: بيروت مؤسسه الرسالة ١٤٠٦ .

٣٨ـ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، الرياض.

٣٩ـ عبد الرحمن بن علي (أبو الفرج بن الجوزي)، صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، ومحمد رواسي قلعة جي، حلب: دار الوعي ١٣٨٩ .

٤٠ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: القواعد الحسان في تفسير القرآن، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٠ .

٤١ـ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٦ .

٤٢ـ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، الحق الواضح المبين، الدمام: دار ابن القيم، ١٤٠٧ .

٤٣ـ عبدالرحمن بن ناصر السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق محمد النجار، المكتب الإسلامي، ١٣٨٧ .

٤٤ـ عبد الرزاق نوفل، اللهُ والعلم الحديث، القاهرة: الناشرون العرب، ١٩٧١ .

٤٥ـ عبد العزيز بن الباز، مجموع الفتاوي ومقالات متنوعة، جمع محمد الشويعر، الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٠٨ .

٤٦ـ عبد العزيز بن عبد السلام، شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، تحقيق الطباع، دمشق ١٤١٠ .

٤٧ ـ عبد العزيز مصطفى، شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله، الرياض، دار طيبة، ١٤١٧.
٤٨ ـ عبد العزيز بن ناصر الجليل، متى نصر الله، الرياض: دار طيبه، ١٤١٤.
٤٩ ـ عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي، بيروت: دار الكتاب العربي.
٥٠ ـ عبد الكريم القشيري، شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق الحلواني، دار آزال، ١٤٠٦.
٥١ ـ عبدا الغصن، أسماء الله الحسنى، الرياض: دار الوطن، ١٤١٧هـ.
٥٢ ـ عبد المحسن صالح، دورات الحياة، القاهرة: الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٩٨٦م.
٥٣ ـ فتاوي اللجنة العلميه الدائمة، جمع وترتيب أحمد الدويش، الرياض: الرئاسه العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، ١٤١١.
٥٤ ـ كريستي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ترجمة الفلكي، القاهرة: مكتبه النهضة المصرية، ١٩٧١.
٥٥ ـ محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزيه)، بدائع الفوائد بيروت: دار الكتاب العربي.
٥٦ ـ محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣/ ١٩٧٣.
٥٧ ـ محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) زاد المعاد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧/ ١٩٨٧.

٥٨ ـ محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) مفتاح دار السعادة، الرياض: دار نجد ١٤٠٢/ ١٩٨٢، أعلام الموقعين، بيروت: دار الجيل.
٥٩ ـ محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) طريق الهجرتين، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة: الطبعة السلفين، ١٣٧٥.
٦٠ ـ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ.
٦١ ـ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري بحاشية السندي، بيروت، دار المعرفة.
٦٢ ـ محمد بن إسماعيل الصنعاني، سبل السلام، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٩.
٦٣ ـ محمد بن محمد المحمود، النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، الكويت: دار السياسة، ١٤٠٨.
٦٤ ـ محمد بن صالح بن العثيمين، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، الإحساء: دار ابن القيم، ١٤٠٦.
٦٥ ـ محمد بن صالح بن العثيمين، المجموع الثمين، جمع وترتيب فهد السلمان، الرياض: دار الوطن، ١٤١١هـ.
٦٦ ـ محمد بن صالح بن العثيمين، تقريب التدمريه، الرياض: دار الوطن، ١٤١٢هـ.
٦٧ ـ محمد عبد الله (الخطيب التبريزي)، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، ١٣٨٢.
٦٩ ـ محمد بن عبد الله الزركشي، معنى لا إله إلا الله، تحقيق على داغر، دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٦.

٧٠ـ محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، القاهرة، مطبعة المدني، ١٣٨٣.

٧١ـ محمد بن عمر الرزاي، شرح أسماء الله الحسنى، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهريه، ١٣٩٦/ ١٩٧٦.

٧٢ـ محمد الغزالي، خلق المسلم، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٨/ ١٩٨٧.

٧٣ـ محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة: دار الفكر، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

٧٤ـ محمد اللحيدان، المقصد الأسني في بيان ضعف سرد الأسماء الحسنى، الرياض: مكتبة أولى النهي، ١٤١١هـ.

٧٥ـ محمد بن محمد (أبو حامد الغزالي)، المقصد الأسني في شرح معاني أسماء الله الحسنى، القاهرة: مكتبة الجندي.

٧٦ـ محمد ناصر الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحه، عمان: المكتبة الإسلامية، ومكتبه المعارف بالرياض، ١٤٠٦.

٧٧ـ محمد ناصر الألباني، صحيح سند أبي داود، تعليق زهير الشاويش، الرياض: مكتب التربية العربي.

٧٨ـ محمد ناصر الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ١٤٠٦.

٧٩ـ محمد ناصر الألباني، صحيح سند ابن ماجة، الرياض: مكتب التربية العربي، ١٤٠٨.

٨٠ـ محمد ناصر الألباني، خطبة الحاجة: المكتب الإسلامي، ١٣٩٧.

٨١ـ محمد ناصر الطويل، لا إكراه في الدين، الرياض: دار طريق، ١٤١٤هـ.
٨٢ـ محمود الخزندار، هذه أخلاقنا، الرياض: دار طيبه، ١٤١٦/ ١٩٩٦.
٨٣ـ مروان القيسي، معالم التوحيد، بيروت: المكتب الإسلامي.
٨٤ـ مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، بيروت: دار المعرفة.
٨٥ـ ناصر العمر، حقيقة الانتصار، الرياض: دار الوطن، ١٤١٢هـ.
٨٦ـ نخبة من العلماء الأمريكيين، الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة الدمراش سرحان.
٨٧ـ ياسين رشدي، هو الله، القاهرة، نهضة مصر، ١٤٠٩/ ١٩٨٩.
* وهناك مراجع أخرى اقتبست منها أشياء يسيره، وأثبتت في الهامش.

* * *